الحياة
ليست
دائمًا
ورديّة
رواية
رشا عدلي
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الحياة ليست دائمًا وردية

رشـــــا عدلي

إهداء..

إلى.. كل الرائعين الذين مروا من هنا يومًا تاركين بلادهم البعيدة وراءهم وجاءوا لإثراء أرضنا..

وإلى.. الفنانة التي سكنت يومًا بيت جدتي وتركت كل تلك الأعمال الفنيةِ وراءها، لأعيش دومًا على هاجس تخيلها، كيف كان شكلها، سنها؟ فقد أهدتني تخيلَ قَدْرٍ كان لها مثلما أغرتني مُسْبقًا بحب الفن..

وإلى الرائع.. الخديو إسماعيل..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مقدمة..

جميع الأحداث التاريخية في الرواية صحيحة والبطلة وحدها من خيال الكاتبة، استوحت قصة حياتها من واقع الأحداث التاريخية المهمة التي مرت في ذلك الوقت..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

1

إحدى الليالي الخريفيَّة من سبتمبر (1868) على متنِ باخرة في مُنتصف البَحر الأبيض المتوسط:

كيف أصفُ نفسي؟ سأكون حياديَّة وأمينة، ولن أصف نفسي كما رآني من أحبوني من الرجال؛ لأنه في وصفهم لي كنتُ أرى الكثير من المُبالغة، أو رُبما هي عيون الحُبِّ العمياء، تلك التي تجعلنا نرى الأشياء في شكلها الأجمل، شيئًا واحدًا اجتمع عليه كل من عرفتهم من رجال. وكان الشيء الأكثر صدقًا هو ذلك الشعور المُفاجئ الذي يتملكهم مُنذ النظرةِ الأولى التي تتطلع أعينهم فيها إلى وجهي. تلك الراحة، والإحساس بالهدوء، والسكينة, التي تتسرب مني إليهم. رُبما كان ذلك يعود إلى لون بشرتي البيضاء, وعينيَّ الواسعتين بلونِ حبةِ البُندق، اللتين يُظللهُما حاجبان مُقوسان كهلالين، وأنف مُرتفع في شموخٍ يُشبه كثيرًا أنف كليوباترا. أما شفتاي فهما رفيعتانِ إلى حد عدم إغراء أي رجُل بتقبيلهما، ولكن عوضًا عن ذلك كُنتُ أملك ابتسامةً جميلة، تفتح على أسنانٍ مُتراصة كحباتِ اللؤلؤ المرصوصة. يصلُ شَعري بالكاد ليُغطي كتفيَّ، أترك له حُرية أن يتمايل مع نسمات الهواء، فلم أقيده يومًا بشريطٍ، طويلة ونحيفة، بدون تلك الاستدارات بجسد المرأة التي تُدير رءوس الرجال خلفها كُلما مرت. أخطو واثبة كظبي يقفز على الأرض وهو شارد عن قطيعه، بخطواتٍ واسعة، وعيون حذرة.

اسمي (ناتاليا)؛ رُبما كان هذا المعروف الوحيد الذي صنعته لي أمي، باختيارها لي هذا الاسم الذي أحببته لجرسه المُوسيقيّ الناعم، كنت أخبر من أتعرف إليهم منذ اليوم الأول، وأشعر أن هُناك علاقة ما سترتبطني بهم -علاقة قصرت أو طالت-: (اسمي ناتاليا، ويُمكنك مُناداتي تالي).

ولِدت في ليلة شتويَّة باردة، من شهر يناير عام 1840، في حي مونمارتر [1] على بُعد أمتار قليلة من كَاتدرائية القلب المُقدس، في تلك الأزقة الضيقة التي تفوحُ منها روائح الماضي المُختلطة مع أنفاس البشر. وفي شقةٍ صغيرةٍ تتكون من حجرتين وصالة، وجدنا أنفسنا هُناك؛ أنا، وأمي، وثلاثة إخوة لي ذكور، واثنتان من الإناث بأعمارهم المُتدرجة، حتى أننا لو وقفنا طابورًا بترتيبنا التنازُليّ؛ يُمكن لأيّ شخص كان مُلاحظة تلك المسافة ما بين طولٍ وآخر، وتفسيرها سريعًا أنها فرق التسعة أشهر، مُدة حمل البطن لا أكثر. توليت مسئولية الأم باكرًا؛ فبعدما تركنا أبي وفرَّ هَاربًا مع إحدى عشيقاته دون سببٍ يُذكر سوى أنه كان قد سئم من مطالب أمي التي لا تتوقف، وعلى بساطتها شعر أنها عبء عليه؛ تلك المطالب التي تنحصر في توفير غِذاء وكساء لنا. أذكُر جيدًا كيف صفعها في آخر مشادة لهما. تلك الصفعة التي اهتزت لها أرجاء البيت، ووضع ملابسه على عجلٍ في تلك الصُرة السوداء، وغَادر في يوم كانت سماء باريس تهطل مطرًا ممزوجًا بكُراتٍ صغيرةٍ من الثلج. لم تبكِ أمي علَى رحيله، كما أنها لم تنتظر رجوعه؛ وكأنه لم يدخل حياتها يومًا. كانت قويَّة، صَامدة، كُل ما فعلته وقتها أنها طلبت من مسيو (ديلون) صاحب المخبز

الذي تعمل به أن يزيد لها عدد ساعات عملها في ذلك المخبز الباريسيّ الفاخر بشارع (ديجلون)، والذي كان يعد المخبوزات الفرنسيَّة المُختلفة لعائلاتِ باريس الأرُستقراطية؛ لتقل ساعات تواجدها بالبيت، وأتحمل أنا مسئوليته كاملة، فكنتُ بعد رُجوعي من المدرسةِ أعد الطعام لإخوتي، وألبي طلباتهم، هذا بالإضافةِ إلى ترتيب المنزل، وتنظيفه.. مع الوقت اعتدنا -أنا وإخوتي- أن نتقاسم عمل المنزل؛ فأصبح الوضع أخف قسوة، وأكثر تحملًا.

كانت متعتي في تلك الساعات القليلة ما بين رحيل ليل وميلاد نهار. تلك الساعات الهادئة النقية قبل بزوغ الشمس بقليل، وذلك الشعاع المُنبثق من السماء وهو يزيل عتمة الليل رويدًا رويدًا. في ذلك الوقت تحديدًا كنت أخرج بفرشاتي وألواني، وأعبر الأزقة الضيقة، في ذلك الطريق المُختصر، لأصل إلى مُتسع من براح على ضفاف السين؛ حيث لا يمسني الرسم بشهية إلا هُناك.. أنصب أدواتي، وآخذ نفسًا عميقًا، وأشرع في الرسم، أتحد مع فرشاتي، وأذوب مع ألواني، ولا أعرف حتى من منا التي ترسم؛ هل هي يدايَ حقًّا، أم يد القدر تلك التي تجعل الفرشاة تركض فوق الورق؟.. كُنت مولعة بوجوه البشر؛ لأن في الوجوه ذلك السحر الخاص الذي يجعلنا يومًا نُحب أو نكره، نعيش أو نموت.. ورُبما نحيا طوال عُمرنا على قيد وجهٍ ما، أو في اقتفاء أثر وجه ما.

كم من وجوه رسمت؟ وجوه من الذاكرة كانت قد مرت أمامي يومًا؟.. أحيانًا كنت أكتفي فقط برسم الشخص بوجهه المُعَبر، ومرات أخرى كنت أشكل الحياة التي تُلائم ملامحه؛ فهذه الفتاة الجميلة على موعد مع الحب، فليس هُناك من مانع من وجودها في ذلك المقهى في انتظار حبيبها. وتلك المرأة تظهر عليها ملامح الحزن فرُبما فقدت زوجها أو حبيبها؛ فلا مانع من أن ترتدي السواد، وتجلس هُنا في ذلك المكان المُظلم. وهذا الوسيم أعلم تمامًا أن عيون الإناث تُراقبه أينما ذهب؛ فليس هُناك ما يمنعني من أن أجعله يسير بخيلاء، وهؤلاء الفتيات في الشرفة يراقبنه. تمامًا كما الكاتب يصنع أقدارًا لأبطاله؛ كنت أنا أصنع أقدارهم المرسومة على ملامحهم، وكما أراها أنا. فمثلًا مسيو (ديلون) -صاحب المخبز الذي تعمل به أمي- كان يملك قوامًا يُشبه الكُرة؛ قصيرًا، وسمينًا، وله بطن كبير لا يتوقف عن الاهتزاز كلما تحرك؛ فرسمته يومًا وسط ملعب الكرة، تمامًا على بُعد خطوات من المرمى، وكنت أعلم تمامًا أنه لو رأى تلك اللوحة فسيُلقي بأمي في الشارع خارج المخبز، بعدما يرفض أن يمنحها أجرتها. ومدام (صوفيا) مُعلمة الأدب الفرنسي على الرغم من شخصيتها الجادة الرزينة؛ لكنني كنت أشعر أنها (قناع) تُخفي تحته كل ما لم يشعله رجُل؛ فرسمتها وقد خلعت تلك التلال من الملابس، وتقف في ملهى الـ(مولان روج) [2]، وهي تتوسط المسرح، ولا ترتدي سوى عُريها. تقفُ بإغراء تضع تلك السيجارة بالمبسم الطويل، وتصبغ شفاهها باللون الأحمر فاقع اللون، ويركع الرجال تحت قدميها يستعطفونها لتلقي عليهم ولو نظرة من تلك العيون الممتلئة بالإثارة.

هكذا كنت أصنع أقدارًا لأبطالي.. أقدارًا أُخرى رُسمت على وجوههم، ومن الأسرار التي لا تشي بها سوى أعينهم، والتي كُنت أقرؤها أنا بسهولة كغجرية تتنبأ

بالطالع. وهُناك في ذلك القبو الذي تؤدي إليه تلك الدرجات الخمس، في منزلنا برائحته العطنة، بفعل الرطوبة المختلطة مع بول القطط اتخذته مخزنًا لأعمالي، أو بمعنى آخر مخبأ لها. فلم أشارك أحدًا لوقتٍ طويل في مشاهدة تلك الوجوه، كنت أحتفظ بكل لوحة، وكأني أحتفظ بالشخص نفسه. أطلق عليه اسمًا يليق به، يحدث أن ألقي عليه تحية الصباح أو المساء، وربما نتبادل تلك الكلمات السريعة ليخبرني كيف قضى يومه. حتى أمي لم تشغل بالها كثيرًا بتلك الموهبة، فقط كل ما كان في استطاعتها أنها تؤنبني على ساعات غيابي خارج المنزل. في تلك المدرسة أيضًا لم أخبر أحدًا، ولم أصنع صداقات مع أحد. كنت وحيدة أينما وجدت، فقط كل ما أفعله أن أجلس لأراقب الوجوه. البعض فسر ذلك على أنني مُعقدة ومنطوية، والآخر فسره على أنني مغرورة ومُتعالية، وما بين هذا وذاك لم يكن ليهمني شيء. كانت حياتي مشغولة، ومزدحمة بأشخاص آخرين، أقيم معهم صداقات على الورق خارج حدود الزمن؛ فتلك (كرستين) التي تُشاركني المقعد الدراسي.. أحببت ملامحها البسيطة الطيبة، وكأنها جاءت للتو من بلدة ريفية بعيدة، فرسمتها وسط تلك الحظيرة القذرة، وهي تجمع بيض الدجاج، وفي عينيها تلك النظرة المنكسرة. وكنت كلما لمحتها تخيلتها تجمع البيض وفضلات الدجاج عالقة بشعرها، بينما تنبعث منها رائحته، فأبتسم بخبث، وتبادلني هي الابتسامة دون أن تعرف أي قدر كنت أراه يُلائمها أكثر.

كُنت مُولعة بالمعارض الفنية، وحراس متحف اللوفر الأنيق غالبًا ما ألفوا ملامحي من كثرة عدد المرات التي كنت أتردد فيها عليه، لأنني وقتها لم أكن أحظى بفرصة زيارة المعارض الخاصة للفنانين، تلك التي يحضرها علية القوم، والطبقة الأرستقراطية، والتي يلزمك أن تكون في كامل أناقتك للذهاب إليها، وكنت لا أملك سوى ذلك الفستان كالح اللون، وقديم الموديل، وعلى الرغم من ذلك كان أفضل ما يشغل خزانة ثيابي الممتلئة بتلك الملابس المرقعة، والتي كانت أمي تتفنن لتجعلها تظهر بمظهر جديد. وقتها لم يكن يهمني مظهري؛ فكنت أرتدي أول ما تطوله يدي، وغالبًا كانت تلك التنورة السوداء الواسعة والقميص الأبيض، ومع قوامي الفارع بدون استدارات نسائية، وخطواتي الواثبة الواسعة كنت أظهر بهيئة صبي يملك ملامح أنثوية، كل ما كان يعنيني وقتها تلك الوجوه، والتي تبدو كأنني أتحمل مصيرها وحدي.

باريس.. يناير (1866):

أتذكر ذلك اليوم جيدًا، عندما أغلقت الدكاكين في وسط باريس بأمرٍ مَلكيٍّ، وتراص الشعب على الجانبين لإلقاء نظرة على الإمبراطورة (أوجيني) [3] -أو جي ني- ما أجمله اسمًا!.. ينبضُ بالموسيقا. كانت في طريقها لافتتاح غابة بولينا [4]. تجلس في العربة الأنيقة، التي تجرها الخيول الملكية، وتركض بها مُتعالية لمنحها فرصة حمل الأنثى الأكثر جمالًا ودلالًا على وجه الأرض. كانت العربة مكشُوفة -على غير العادة وقتها- مُزينة بالزهور.. بينما هي تجلس بعلياء وشموخ بما يلائم اللقب الذي تحمله كإمبراطورة، وزوجة للإمبراطور نابليون الثالث. تلوحُ بيديها للشعب المسكين الذي عانى الزحام لمُجرد أن يصطدم نظره بتلك المرأة، وحتى يخبر

أحفاده فيما بعد أن الإمبراطورة (أوجيني) قد لوحت له بيدها ذات يوم. وجدت نفسي أعتلي تلك الهضبة عند مفترق الطريق؛ لأراقب مُرور العربة، وأرى هل حقًّا تلك الملامح تشبه التي رسمها لها ذلك الفنان الشهير وتعرض بمتحف اللوفر [5]؟..

كانت الجماهير تهتف: (تعيش الإمبراطورة.. يعيش الإمبراطور)، ووحدي كنتُ لا أهتف، ولا ألوح.. فقط أنتظر طلة ذلك الوجه.

جاءت العربة سريعة بجموح جوادين تدربا على الركض سريعًا، وباتزانٍ كمن يعلم بقيمة الشيء الذي يحمله، وعند ذلك المنحنى الذي وقفت على مقربة منه لأراقبها، عندما أبطأت الخيول من سرعتها بذكاء وصبر، ومنحتني الفرصة لتلتقي عيناي مباشرةً بعينيها، وتسري بجسدي بهجة الانتشاء؛ فها أنا وجهًا لوجه مع إمبراطورة فرنسا، ذلك الوجه الذي تحرش بي كثيرًا حتى أرسمه، كنت قريبة منها للدرجة التي معها انتبهت لتفاصيل وجهها، وتلك النظرة بعينيها، والتي لا تشي بسعادة أبدًا، وتساءلت وقتها: تُرى.. أيّ قدر ينتظرها؟.. هل قدرٌ مُماثل لما سبقته لها من ملكات لذلك البلد الذي وكأنه بتتويجهن ملكات له لم يكن سوى نذير شؤم؟!.. فهو يدخر لهن من التعاسة بنفس ذلك القدر من المُلْك الذي يهبه لهن. كان الشعب الفرنسي ينقسم إلى قسمين: أحدهما يُحب الإمبراطور وزوجته، والآخر يعجبه عقلية نابليون العسكرية، ولكن يبغض زوجته لأنها إسبانية، ولا تجري الدماء الفرنسية في عُروقها.

لقائي بها ذلك اليوم جعلني أعكف على رسم لوحة لها بقدر لمحته في عينيها.. قدر مر مُسرعًا ولكنه وشى بها.. فقد كان مرسومًا على وجهها عندما انتهيت من اللوحة.. وجدت نفسي أقف أمام تلك المرأة التي علقتها على الجدران المتهالكة؛ لأجد نفسي أمام ذلك الوجه الملائكي الحزين، بتلك الملابس البسيطة المتواضعة وتخطو في طريق طويل ضبابيّ لا نهاية له.

باريس.. فبراير (1866):

رُبما كان هذا اليوم هو نقطة التحول في حياتي عندما مرضت أمي، وطلبتْ مني الحلول محلها للعمل بالمخبز، حتى لا يضطر مسيو (ديلون) أن يجلب عاملة أُخرى تسطو بعد ذلك على عملها.. اكتفت أمي فقط بأن نبهتني قبل أن أغلق الباب ورائي مُغادرة:

- احذري من ارتكاب أيٍّ من حماقاتك، كوني حذرة؛ فمسيو (ديلون) لا يُسامح أبدًا.

لم تعلق في أُذني من نصيحة أمي سوى: (مسيو ديلون لا يُسامح أبدًا) ...

فكنتُ أخطو طوال الطريق مُرددة: (مسيو ديلون لا يُسامح أبدًا)، وتارة (لا يُسامح أبدًا مسيو ديلون)، وأخرى (أبدًا لا يُسامح مسيو ديلون).

ومن الباب الخلفي للمخبز دخلت، وأرشدتني مدام (بريجيت) إلى ما يجب عليَّ أن أفعل، أنا التي لم تعتد يدي سوى الإمساك بالفرشاة بخفة وليونة كيف لي أن أستطيع وقتها خلط الدقيق بالماء واللبن!.. وأقوم بعجنه بقوة بتلك اليد التي لم تتقن يومًا سوى

صناعة الأقدار؛ لذا فشلت منذ اليوم الأول، ووقفت بين يدي مسيو ديلون أرتجف كسنجابة مذعورة، وتخبره مدام بريجيت بنبرة لا تخلو من الشماتة (إنها لن تفلح أبدًا)، وكيف لأمي -وهي الخبازة الماهرة- ألَّا تُعلم ابنتها كيف تقوم بالعجن!

تأملني برهة مسيو ديلون، وأخذ يضيق من حدقتي عينيه قائلًا:

- حسنًا، سنجعل كريس يدخل يُساعد في الخبز، وأنتِ تحلين محله في البيع.. كُل ما عليك فعله هو تعبئة وتغليف المخبوزات.. هيا ادخلي لترتدي مريول العمل فوق ملابسك، وضعي تلك القبعة، ولا تنسي ارتداء القُفازات.

لم أرَ مسيو ديلون بمثل هذا السوء الذي صورته أمي، بالعكس استشعرت وميض طيبته منذ النظرة الأولى، وقررت لاحقًا أن أستبدل القدر الذي صنعته له.. رُبما يستحق ما هو أحسن.

كان العمل مُرهقًا حتى كادت قدماي لا تستطيعان عند نهاية اليوم أن تحملاني، ولكن خفف من وقع ذلك تلك الوجوه التي انشغلت بها.. إنه عالم باريس المخمليُّ. كان الباب يُفتح على وجوه مُختلفة عن تلك التي اعتدت رؤيتها في حيِّنا الفقير، وجوه نظيفة رائقة في أجساد مُغلفة بورق من سوليفان، ومعطرة بأحدث العطور الباريسية الفاخرة. حتى الخدم الذين يبعثهم أسيادهم لتلبية طلباتهم يتحلون بذلك المظهر الأنيق، بما يليق بالبيوت الأرستقراطية التي يعملون فيها. كنتُ أتسلى بالتنصت على الأحاديث التي تدور بين سيدتين، أو صديقتين جمعتهما الصدفة، أو جاءتا معًا.. تلك الأحاديث التي لا تخلو من أخبار الحفلات والموضة والمجتمع، وأتساءل:

ماذا أَقِلُّ أنا عنهن حتى أكون أنا من تقف خلف الفاترينة وهن بالواجهة ليأمرنني بالتعبئة؟!.. ولكنها أقدار، أقدار، أقدار.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

2

توطدت علاقتي بكريس؛ ذلك الشاب العشرينيّ الوسيم. لا أعلم هل من الصواب أن ألقبه بوسيم؟.. لا أدري حقًّا، ولكن كانت ملامحه محببة لي، رشيق القوام، شعره أسود ناعم مُنسدل على وجهه بترتيب، وعيناه واسعتان سوداوان. بعد وفاة والده مُنذ كان عمره لا يزال ستة عشر عامًا توسطت له أمه عند جارها البدين «ديلون» ليقبل ابنها في العمل بالمخبز، ومنذ التحاقه بالعمل تدرج من الصبي الذي يساعد في نقل الدقيق من العربة للمخزن، إلى أن أصبح يعبئ المخبوزات والحلوى في ذلك الصندوق. مُرورًا بكل ما يتطلبه الدقيق منـذ أن كان مجرد مسحوق أبيض، إلى أن يصبح قطعة لذيذة من الحلوى؛ بينما جئت أنا، وشغلت تلك الوظيفة بدون التدرج في سلم الرتب. لم يشغل ذلك بال كريس، أو يزيد حنقه تجاهي؛ فقد تعود على تقلبات مسيو ديلون وقراراته المفاجئة، فهو يعلم تمامًا أنه عندما يتلقى أجره فى نهاية الشهر سيضيف إليه مسيو ديلون عددًا لا بأس به من الفرنكات، وكأنها تعويض عما ارتكبه في حقه؛ فهذه دائمًا كانت طريقته في دفع كراهية العاملين له وتبديلها للحب. بعد ساعات العمل كُنا نُغادر أنا وكريس فقط، كان يعيش في الحي المُجاور، وفي أحد أيام العطلات دعاني كريس لنزهة على نهر السين.. سألني وقتها: هل الخامسة مساءً مُناسب لك؟ هززت رأسي بالنفي، وأجبت:

- نتقابل في الرابعة صباحًا.

وقتها اتسعت عين كريس مندهشة!

- الرابعة صباحًا!

غادرت مُؤكدة (الرابعة صباحًا) دون أن أمنحه فرصة للأسئلة.. كنت قد قررت أن أخبره بسري بعدما وجدت أنه الوحيد الذي يستحق أن ينال ذلك الشرف.. شرف!.. ولكنه أي شرف هذا؟!

في الرابعة من ذلك اليوم حملت أدوات الرسم، وفى المكان المُحدد للموعد أحضرت أدواتي، ووقفت لأستكمل بورتريهًا خاصًّا بامرأة كانت تتردد على المخبز باستمرار. مرت أكثر من خمس عشرة دقيقة على موعد كريس ففكرت أنه لن يأتي، وأقنعت نفسي بأنه كان يعتقد أنني أسخر منه، والآن هو متدثر بالأغطية الثقيلة ويغط في سبات عميق، وما الشيء المُلح ليترك كل ذلك ويأتي في الرابعة فجرًا في إحدى الليالي الباردة ليقف على ضفاف نهر؟!.. اندمجت مع اللوحة لدرجة أنني لم أسمع وقع خُطى كريس على البلاطات الصنوان، وأفاجأ به يقف خلفي مُباشرة يُراقبني بعينين تملؤهما الدهشة:

- معقول!

- كريس.. أخفتني!.. متى حضرت؟

تجاهل الإجابة عن سؤالي، وأخذ في تأمل اللوحة قائلًا:

- أليست هذه مدام ماري زبونة المخبز؟.. تلك المرأة المُتكبرة؟

- نعم، إنها هي.

- ولكن.. كيف رسمتها بهذا الشكل؟! كأنها تقف أمامي!.. ومنذ متى وأنت ترسمين؟ ولماذا لم تخبريني؟

- ألن تتوقف عن طرح الأسئلة؟

احمرّ وجه كريس، وارتبك؛ فكان يملك من الحساسية الزائدة تلك التي تجعله لا يفرق بين جد وسخرية، وكان التعامل معه يتطلب من الشخص الآخر أن يتفهم تلك الطبيعة الخاصة به، لذلك وجدني أبتسم في وجهه وكأنني أعتذر عن لهجتي الحادة وأجبته:

- أرسم منذ تعلمت أن أمسك القلم، فكنت أملأ دفاتري وكتبي برسم كل ما تقع عليه عيناي، ولأنني كُنت مولعة بتأمل الوجوه، وقراءتها، أفردت أوراقي لرسمها، كان منها من يجب ألا أتركه يمر هكذا مرور الكرام؛ فكان عليَّ أن أقبض عليهم بين أربعة أضلاع اللوحة.. إنها تلك الوجوه التي تمتلئ عيناها بالحكي؛ فمن النظرة الأولى بإمكانها أن تشي لك بأسرارها.. بمن صنع يومًا حزنها، ومن صنع يومًا سعادتها.

كان ينتقل بنظره ما بين اللوحة وبيني، وهو ينصت في صمت بإمعان، قطعه وهو يشير بأصبعه إلى تلك الملابس التي كانت ترتديها تلك المرأة قائلًا:

- ولكن ما هذه الثياب المُهلهلة التي ترتديها هذه السيدة التي يتحدث عن أناقتها المجتمع الباريسي؟! فهي لا ترتدي إلا من أشهر بيوت الأزياء الباريسية، ثُم لا أذكر أنني قد رأيتها يومًا في مثل ذلك الاحتشام! فملابسها دائمًا تكشف أكثر مما تستر.

لم أخبره وقتها عن تلك الملابس، أو عن تلك الأقدار المُختلفة التي أمنحها لأبطال لوحاتي، لم أخبره عن فلسفتي الخاصة.. اكتفيت فقط بهذا القدر من الدهشة الذي منحته له.

- انتظر لتزور مرسمي، ووقتها سأخبرك.

- وهل تملكين مرسمًا؟

- نعم أملك مرسمًا، وكفانا من الحديث.. انظر.. لقد أحضرت معي إبريقًا من الشاي، وتلك المخبوزات.. دعنا نجلس هُناك على هذا المقعد الخشبيّ، ونستمتع بشروق الشمس.

كانت آخر رشفة بفنجان الشاي بيده، وآخر قضمة من فطير الكرواساه في يدي، عندما نظر لي مطولًا ثُم أخبرني باكتشافه:

- أتعلمين أنكِ غريبة الأطوار!

تسمر نظري فوق النهر، لم أجبه، ولم أمنحه فرصة تحليل شخصيتي سواء بالإثناء عليها، أو ذمها.. لم أكن لأستمع رأي الآخرين بي، ولم يكن ليعنيني.. أجبته قائلة:

- أتعلم ماذا أريد أن أفعل الآن؟

- ماذا؟

- أركض.

أطلقت لساقيّ العنان، وبمحاذاة السور الموازي للنهر كنتُ أهرع مع الريح، وعندما رجعت لم أجده.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

3

كان أول الشهر عندما بعثتني أمي للأب (جون) لأحصل منه على المنحة التي خصصتها الكنيسة للمحتاجين، والتي كانت -بالإضافة إلى مرتب أمي- تمنحنا قوت يومنا.

عندما فاجأني قائلًا:

- لم أعلم أن مادلين لها ابنة جميلة هكذا!

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها الأب جون، على الرغم من أن أمي كانت تردد ذلك الاسم في الكثير من المرات.. أحيانًا بالدعوة له، وأحيانًا بالدعوة عليه عندما كان يؤجل المنحة المالية، أو يمارس تلك الألاعيب الحقيرة التي يجيدها؛ فبدون شفقة يخبر الشخص المُحتاج أن الصدقة المُخصصة له قد ذهبت لمن يستحقها أكثر منه، وأنه سوف يُمارس دوره المُهم في رجوعها له مرة أخرى.. عليه فقط الانتظار أسبوعًا أو أكثر، وكانت الشائعات تتردد بأن الأب (جون) يستغل أموال المنح الخيرية التي تُوزع على المحتاجين والأيتام في تجارة خاصة به، وعندما يحصل على الأرباح يقوم بتوزيعها عليهم، وهو يخبرهم بأنه قد استنفد قُصارى جُهده حتى يقنع لجنة التبرعات بأن تلك العائلة الفقيرة تستحق المعونة الشهرية؛ فينال من الدعوات عددًا لا بأس به من بعض السُذج الذين تنطلي عليهم تلك الحيلة، حتى البعض الآخر الذي يفهم تمامًا حيله الماكرة كان عليه أيضًا أن يرميه بوابل من الدعوات -ولو من وراء القلب- ليتقي شر ذلك الرجل ويأمن غدره.. لذلك وجدتني في ذلك اليوم أنتهي من رسمه بتلك العينين الصغيرتين اللتين يغرقهما الشر، وبملابس التقوى.. ولكنني في النهاية وضعت له ذيلًا طويلًا، وتوجت رأسه بقرنين للشيطان.

في نهاية ذلك اليوم من العمل لم يفارقني كريس كالعادة عند مُفترق الطريق. كان يخطو معي للذهاب إلى المنزل في الشارع الضيق الذي أعيش فيه، والذي كان على حد تعبير كريس بعد أن فرد ذراعه قائلًا:

- إن عرض الشارع بعرض ذراعي.

كان تعبير الازدراء يظهر على ملامحه مما زاد من حنقي له، ولكنني سريعًا منحته عُذره؛ فكريس كان يسكن في حي (سان جيرمان).. حي الأثرياء لانحداره من إحدى العائلات الثرية، كان والده يشغل منصبًا مرموقًا في جيش نابليون الذي أبحر معه ذات يوم بأسطوله البحري، ولم يرجع أبدًا.. وبدلًا من أن أقود خطاه لأعلى وجدني أمسك يده، ونعبر تلك الدرجات المهشمة لأسفل.. كانت العتمة تملأ المكان، وتفوح رائحة كريهة للعطوبة ممتزجة برائحة القطط التي كانت تتخذ من القبو مأوى لها، بعد تلك الدرجات البسيطة أخرجت المفتاح الذي كنت أخبئه في مشد الصدر بأسفل ملابسي. كان الظلام دامسًا؛ فلم يلمحني كريس وأنا أفعل ذلك.. فُتِح القبو وهبت ريح باردة برائحة عطنة تستقبلنا.

سريعًا أشعلت اللمبة التي تعمل بالجاز. أنِير المكان على تلك المساحة الصغيرة من الحجرة، والتي كانت العناكب تسكن سقفها، وتراصت الوجوه والأشخاص على حوائطها، لمحت نظرة الدهشة في عيني كريس، ورُبما كانت عقّدت لسانه أيضًا، وجدته قد صمت عن الكلام. كان فقط يتجول، ويقف أمام كل لوحة يتأملها كثيرًا.. في حالة استوقفه وجه صاحبها، وأخرى يعدو سريعًا من أمامها. للحظة تخيلت إقامة معرضي الأول، وأن كريس من الجمهور يقفُ يتأملُ لوحاتي بكثير من الذهول، وأخيرًا خرج عن صمته قائلًا:

- لم أعلم أنك بمثل هذه المهارة! ما كل هذه الوجوه التي تكاد تنطق!.. كيف رسمتها هكذا؟!

- إنها موهبة (كريس)، وعلى الرغم من ذلك سوف أفضي لك بسري.. لم أرسم يومًا وجهًا ما لم يستوقفني، ما لم أُطالع قدره في عينيه، ويتملكني الشعور بأنه كان يستحق أكثر من ذلك أو أقل، لذلك أرسمه، وأدبر له قدرًا مُلائمًا له.

لا أعرف هل فهم كريس فلسفتي الخاصة؛ فقد اكتفى بلمعة وميض استغراب في عينيه، ولكنه لم يستفسر عن شيء، فقط أخذ يضحك طويلًا عندما شاهد صورة مسيو ديلون.

- انظري كيف رسمت مسيو ديلون؟

- نعم، سوف أرسم له لوحة أخرى؛ فهو يستحق أفضل من ذلك، هذه رسمتها بِناءً على كلام أمي عنه.

- وهذه الإمبراطورة (أوجيني) حقًّا! يا ألله، تمامًا كما تظهر بالجرائد والمجلات، ولكن لماذا هي حزينة؟!.. تكاد عيناها تنطقان حزنًا وألمًا!

أخبرته وقتها أنني رأيتها وجهًا لوجه، ورأيت الحزن يكسو روحها وملامحها؛ فلم أستطع أن أرسمها بشكل مُختلف، فجأة وكمن تذكر شيئًا مهمًّا:

- تالي أتعرفين، هُناك فنان مشهور يأتي في أيام الآحاد ليشتري المخبوزات، ماذا لو تحدثينه عن موهبتك، و«تفرجيه» تلك اللوحات، فقطعًا هو سيدلك على أي طريق صواب للنجاح لتسلكيه.

- طريق صواب لأسلكه! لا أعرف كريس حقًّا.. لم أُفكر في ذلك؛ فأنا أرسم لأنني أحب أن أرسم، لم أسع لأكون فنانة مشهورة تُقام لها المعارض، ويصبح لها الكثير من المعجبين.. لو كنت أفكر في ذلك لكنت خرجت بلوحاتي من هُنا في مونمارتر لعرضها في الشارع على السائرين كما يفعل الكثير من الفنانين المغمورين.

- ولماذا لا تصبحين فنانة مشهورة؟! فأنتِ رسامة مُبدعة، وأرى تلك الأشخاص كما لو أنهم من لحم ودم يقفون أمامي، لا تجعلي الفُرصة تهرب من بين يدك، بعد غد الأحد سيأتي إلى المخبز ليشتري المخبوزات، سأكون أنا بالمطبخ، ولكنك سوف تعرفينه من ملامحه؛ فهو يشبه الفنانين بشعر فوضوي، وذقن غير مهذب، ويرتدي

عادةَ معطفًا يصل إلى الركبتين بياقة من الفراء، وحذاء عالي الرقبة؛ فهو حقًا جنتلمان.

- أعتقد أنني غلفت له الحلوى الأسبوع الماضي، نعم.. أتذكر أن أحدهم لديه تلك الأوصاف قد شغل تفكيري. تصور حتى أنني كنت قد قررت رسمه لاحقًا!

- حسنًا، عندما يأتي ليس عليكِ سوى أن تدخلي للمطبخ، وتخبريني واتركي لي التصرف...

ربتت على يدي في حنان...

- شُكرًا كريس لاهتمامك.

فجأة اقترب مني، وأزال أي مساحة للفراغ فيما بيننا، ولف ذراعه حولي لأجد نفسي أصطدم بأنفاسه الساخنة، وأسمع نبضات قلبه، ولا أعرف كيف كانت شفتاه تتسللان مسرعة لتقطعا المسافة بين جبهتي، ووجنتي، وأنفي، وذقني ثُم تواصلا طريقهما مُجددًا لأعلى بنفس تلك السرعة. وفجأة.. وبأنفاس محمومة توقفتا عند شفتيّ، بينما كنت أنا مستسلمة تمامًا كأنني أمام أحد المشاهد في صالة عرض مسرحي.. كل ما كان عليَّ فعله وقتها الانتظار لمشاهدة المشهد التالي. لم أتجاوب مع كريس، لم أندمج، ولم أشاركه تلك القبلة الساخنة؛ وكأنه تنبه لذلك فقطع القُبلة في منتصفها مرتجلًا خطوتين للخلف، ومُعتذرًا بصوت متهدج...

- لا بأس كريس، لا تهتم.. لم يحدث شيء.

ولكن هل لم يحدث شيء فعلاً؟.. مُنذ ذلك الحين وشيء ما تغير بيني وبين كريس، أصبحت الرغبة مرابطة له.. تلك الذبذبات غير المرئية التي لا تعرف من أين تتسلل إليك، تسري في بدنه كلما رآني، وبمجرد أن تلتقي عينانا، وكأن ما حدث يومها في القبو كان مُفتاحًا لسرداب طويل بممر من الرغبة السرية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

4

بـــاريـــس.. مـــــارس (1866):

جاء يوم الأحد، وجاءت معه خطوات كانت تدخر لي بعضًا من قدري. أزاحت يد قوية الباب الزجاجي، واقترب رجلٌ في مُنتصفِ العمر باتجاه سلال المخبوزات. إنه هو! بمعطفه الذي يصل للركبتين، وبحذاء ذي رقبة عالية من الجلد اللامع، وتلك القبعة التي يتسلل من تحتها خصلات فوضوية من الشعر.. وجدتني أحضر ذلك الكيس الورقي، وأتبع خطواته لأضع كل ما يختاره بداخل الكيس، ثُم تذكرت ما قاله لي كريس: (فقط عندما يأتي أخبريني). وقتها كان يسأل عن الخبز المعجون بالحليب، وكانت فرصة لأبقيه دقيقتين لأخبره أن الخبز سيخرج حالًا من الفرن، استأذنت منه بحجة أنني سأرى كم تبقى من الوقت على خروج الخبز من الفرن، وتوجهت للمطبخ، وأخبرت كريس بأن الفنان هُنا.. تبعني لصالة البيع.

- بونجور مسيو ليون.

- بونجور كريس، كيف حالك؟

- بخير مسيو، ولكن كان هُناك شيء أريد أن أخبرك به.

- هاأنت كريس كعادتك، دائمًا تُفاجئني بأسعارك الجديدة.. لا بأس، لا تشغل بالك.

- لا مسيو.. الأسعار كما هي، ولكن كنت أريد أن أخبرك بأمر زميلتي (نتاليا).. إنها ترسم، وتملك موهبة كبيرة.. إذا لم تُمانع يُمكنك أن تشاهد أعمالها، وتوجهها للطريق السليم.

كنت أقف على مقربة منهما أُراقبهما بحذر، ولكنني لمحت كريس وهو يتلعثم كعادته.. كم كنت أتمنى أن يكون أشد جرأة على ما هو فيه. فجأة نظر لي كريس بجانب عينيه، وأشار لي أن أذهب إليه، وعرفنا قائلًا:

- مدموازيل نتاليا جونسن.. مسيو ليون جوزيف.

- أنشانتيه مدموازيل.

- أنشانتيه مسيو.

قالها بصوت هامس بنصف انحناءة، كانت المرة الأولى التي ينحني لي فيها أحد، وهو يلفظ كلمة (أنشانتيه) بكل تلك الجاذبية الرجولية الباذخة.. غريب حقًّا فنان مشهور ينحني لبائعة في مخبز، وهو يُخبرها أنه قد تشرف بمعرفتها! أتراه عندما أخبره كريس بأنني فنانة كان هذا وحده كافيًا لإزالة كل الحواجز فيما بيننا؟!.. فهكذا هم الفنانون الأقرب لفهم تلك الطبيعة الخاصة التي خُلِقوا عليها، وكأن الله اصطفاهم بها عن الآخرين؛ فيكفي ذكر لقب (فنان) قبل الاسم لتصنع كل تلك الهالة، وإلا فما الذي حدث في تلك الدقائق القليلة على دخوله للمخبز لتتحول تلك اللامبالاة التي

عاملني بها كبائعة -حتى إنه لم يكلف نفسه عناء النظر إلى وجهي- لكل ذلك التبجيل والانحناء!

كنت مشغولة عنه به، أنظر في وجهه لأرى هل بإمكاني رسمه؟.. وهل هو من تلك الوجوه التي تشي عيناها بما بداخلها؟ عندما وجدتني تائهة داخل تلك العيون التي امتزج بها كل ألوان الأرض، فما إن أعثر على لون حتى أراه يذوب في الآخر، وكمن استيقظ من سبات عميق عندما قال:

- حسنًا بإمكانك المرور عليَّ عند السابعة مساءً لتريني بعضًا من أعمالك.

ثم ذهب لطاولة الحساب.. كان قد وضع عليها ريشة ومحبرة، انتزع ورقة صغيرة وكتب عليها العنوان وسلمه لي، وختم كلامه مؤكدًا:

- عند السابعة مساءً.

- حسنًا في السابعة.

- هل بإمكاني أن أحصل على الخبز الآن؟

وقفت على عتبة الباب أراقبه وسط الزحام، ظلت عيناي متعلقتين باستقامة ظهره، وبتلك الخطوة الواثقة الرشيقة إلى الطرف الأخير منه.

في نهاية اليوم، وكعادتنا -أنا وكريس- نقوم بالتمشية معًا إلى أن تتقاطع طرقنا، فيسير كل منا باتجاه منزله عندما وجدته يلوي ذراعي بعنف ناحيته قائلًا:

- نتاليا أنا أحبك.

قالها هكذا فجأة، وكأن الكلمات كانت تتقاذف من فمه، حتى إنه لم ينتظر جوابي، أزاح كرات الثلج المتساقطة من فوق شعري، ثُم ودعني وهو يخبرني أنه سينتظرني في ذات المكان عند السابعة مساءً.

كنت مشوشة لدرجة أنني لم أعر أمي أي انتباه عندما كانت تخبرني بصوت متقطع إثر انسياب الدموع من عينيها؛ فقد كانت تقوم بتقطيع البصل لحلقات لإعداد حساء رأس العجل.

- من الغد بإمكانك عدم الذهاب للمخبز؛ فقد شُفيت تمامًا.. يجدر بك متابعة دراستك مُجددًا والاعتناء بالمنزل.

لبرهة ظللت واجمة وأنا أفكر لماذا اليوم؟.. ولماذا الآن ليس عليَّ الذهاب للمخبز! هل كانت خطة محبكة للقدر -لذهابي إلى هُناك، ولقائي بذلك الفنان- خططها بذلك التسلسل الدوري المحبك بدءًا من مرض أمي لحلولي مكانها في المخبز، وتعرفي على كريس، وشعوري بالراحة معه لأطلعه على سري؛ فتعجبه لوحاتي ويعرفني بالفنان الذي كان لقائي به هو ختام كل ذلك!.. من يومها أيقنت أن اللحظات الحاسمة بحياتي لم تكن سوى خطط قدرية مُتقنة؛ ليفاجئني في النهاية بما يدخره لي من هدايا أو محن.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

5

وجدت يدي امتدت لذلك الفستان من القطيفة السوداء بثنايات واسعة وكثيرة من الدانتيل الأبيض؛ فهو كان أجمل ما أملك، أو رُبما هو كان كل ما أملك. عدا هذا لم يكن بخزانة ثيابي سوى تلك الثياب المهلهلة.. وضعت قبعة من الخوص بفيونكة سوداء فوق رأسي، كنت أريد لي مظهرًا مختلفًا عن ذلك الذي كنت أظهر به دومًا. في الواقع.. كنتُ أخيرًا أريد أن أظهر كأنثى، ورُبما هذه المرة كانت من المرات القلائل في حياتي التي حرصت فيها أن أظهر كذلك. تُرى هل باعتراف كريس لي بأنه يحبني نبهني إلى أنني أنثى؟

لا.. لم يكن لكريس دخل في ذلك، حتى عند اعترافه لي.. لم أفرح، لم أحزن مثلما لا أحتاج الآن لمزيد من التفكير. فلم يكن سواه رجلٌ.. هذا الذي دخل للمخبز في ذلك الصباح، وقد دخل الحب معه في طلته، وفي مشيته، وفي عينيه.

نزلت للقبو لأفاضل بين اللوحات، وأختار الأقرب إلى قلبي، كانت الوجوه تتراص جنبًا إلى جنب، وصخب توسلاتهم لي ترجوني بانتقائهم هم. وحدها (أوجيني)، وكبرياء الإمبراطورة منعها أن تتوسل، وتلك الفتاة بائعة الورود التي تقف أيام الآحاد بجوار السور الحديدي لكنيسة القلب المقدس تحمل بيديها تلك السلة الخوصية، التي تتراص فيها الزهور بألوانها وأنواعها المختلفة بشكلٍ جذاب، لافت للانتباه، وتلك الابتسامة الحزينة التي لا تُغادرها أبدًا؛ لذلك وجدتني أخلعهما من على الجدار، وأحملهما وأغادر المكان؛ فكنتُ أخطو على الطريق بكبرياء (أوجيني)، ويفوح مني شذى عطور الليلك والزنبق البريّ.

لمحت كريس يقفُ هُناك، في نفس المكان الذي تركني فيه قبل الساعتين. كان وسيمًا حقًّا في تلك السترة البنية والسروال الأسود الذي يشبه زي ركوب الخيل.. كان أحدث صيحة في عالم أزياء ذلك الوقت. هيئته وقتها لم تكن تُوحي بأنه هذا الشاب البسيط الذي يعمل صباحًا بمحل للمخبوزات. أذكر تمامًا تلك النظرة التي ملأتها الدهشة، والتساؤل الذي تفحصني به، وهو يطلق ذلك الصفير إعجابًا بي: أين كنت تخبئين كل هذا الجمال من قبل؟!

ثم ابتسم قائلًا:

- كل ذلك لأنني أخبرتك أنني أحبك؟! هل وحدها أحبك قادرة على فعل كل ذلك! تبدلك من تلك الفتاة التي تشبه الصبي لامرأة تزدحم بالأنوثة والجمال كنساء رانوار وبوشيه؟!

- ومن هما؟

- صاح قائلًا:

- ألا تخجلين من نفسك؟ فنانة ولا تعلمين من هما رينوار وبوشيه؟!

- إذن دعني أخمن أنهما فنانان تشكيليان، ولكن لماذا أشغل نفسي بمعرفتهما حتى؟! كل ما يهمني تلك الوجوه التي أبحث عنها وتلهمني لرسمها.. عدا ذلك لا أهتم بشيء، ولولاك لم أكن أبرح منزلي اليوم، حتى أنني لا أعرف تحديدًا السبب وراء ذهابي لهذا العنوان، وزيارة هذا الرجل.

- إذن سوف تشكرينني على ذلك لاحقًا، والآن أين هو العنوان؟

أخرجت له العنوان من الحافظة الجلدية.. قرأه قائلًا:

- إنه يسكن في شارع بتيت أوغسطنطين الموازي لشارع السين.. إنه قريب من الدولاسيتي، يجب أن نستوقف عربة لهُناك؛ فالوصول للعنوان يلزمه الساعة سيرًا على الأقدام، وكما ترين الجو شديد البرودة، لا يشجع حتى على السير.

ليس الجو وحده الذي لا يشجع على السير؛ بل الكعب العالي لحذائي أيضًا.

ابتسم وهو يمد لي يده ليساعدني على صعود تلك الدرجة للعربة التي تجرها الخيول.. جلسنا في صالون العربة على مقعد من الجلد الأسود.. كنا مُتقاربين للدرجة التي سمعته يقوم باستنشاق الهواء بملء أنفه، ويسألني بعدها:

-يا ألله، ما نوع العطر الذي تستخدمين؟

- أي عطر!.. لم أستخدم أي عطور؟

- كيف هذا؟!.. إنه يتسلل منك!

بعد فترة من التفكير فهمت أنه يقصد تلك الزهور التي في اللوحات، كان عبيرها قد بدأ يهفو عليَّ أنا أيضًا، ورُبما عبق بها المكان؛ فوجدتني أجيبه بكل الثقة:

- نعم.. نعم.. أنت تقصد عطر زهرة الليلك، إنها قارورة عطر كنت قد ابتعتها مزجت بزيوت تلك الزهور.

- من الواضح أنها من بلاديني؛ فعبير الزهور طازج كما لو أنني أتجول داخل حديقة للزهور.

ابتسمت بخبث وصمت، وأنا أفكر هل كان سيصدقني لو كنت أخبرته أني لم أضع أي عطور!.. وأنه يملك حاسة شم متوهجة لم تخطئ أبدًا، فتلك الزهور رسمتها تمامًا كما لو أنها حقيقة تكاد تلمسها بيدك، إنما أمر ذلك العطر لا علاقة لي به.. إنه تمامًا كتلك الابتسامة التي يفاجئني بها أبطال لوحاتي، أو تلك الدمعة التي تنساب رغمًا عن أحدهم، وتلك الـ(آه) التي أحيانًا أسمعها، والقهقهة والابتسامات.. تراني إن أخبرته بكل ذلك؛ أي نوع من البشر كان سيصنفني وقتها؟!.. رُبما من هؤلاء الذين يعانون درجات متأخرة من الجنون!

كانت حوافر الخيل على البلاطات الصنوان المفروشة بقطع الجليد تصنع ذلك الجرس الموسيقي، والاهتزازات القوية. حتى أنني وجدت نفسي -دون أن أدري- بين أحضان كريس الذي ضمني إليه بقوة وحنان كنت أحتاجهما وقتها كثيرًا، وأستغرب كيف لا أحبه وأشعر بذلك الدفء والحنان الذي وهبهما لي حضنه، وإن

كان حضنًا دافئًا وسريعًا لم يخطط له مُسبقًا جاء على غفلة منا؛ لذلك تبادلنا الابتسام بعدها عن ذلك الحضن غير المقصود.

أخذني التفكير بعدها: هل تلك اللوحات ستعجب مسيو ليون، أم سيتطلع إليها بلا مبالاة ويرحب بي بشكل مُفتعل، ثُم يودعنا على أمل لقاء قريب لن يجيء أبدًا! فكرت أن أمارس تلك اللعبة التي بدأت في ممارستها وأنا مازلت طفلة السادسة، والتي أختبر حدسي فيها.. فدومًا كنتُ أقول:

-إذا حدث ذلك الآن فسوف ينجح هذا، فمثلًا إذا توقفت الثلوج عن الهطول الآن فسوف تحوز لوحاتي إعجاب مسيو ليون.

كنت أتطلع من حين لآخر من نافذة العربة لأعالي السماء لأرى هل توقف الثلج عن الهطول أم لا.. وإذا به وهو يتساقط بغزارة -وفي مزاج لا ينبئ بتوقفه- يتوقف تمامًا عن التساقط؛ فأبتسم بتفاؤل...

أخيرًا توقفت بنا العربة في ذلك الحي الراقي وأمام تلك البنايات المتجاورة من طابقين تتراص الواحدة بعد الأخرى، ولا يفصلها عن بعضها البعض سوى ذلك السور الحديدي القصير. خمس درجات رخامية كنت سأنزلق بسبب الثلج الذي يفترشها، ولكن يد كريس القوية أنقذتني في آخر لحظة، ووجدنا أنفسنا بعدها أمام بوابة خشبية تعلوها لوحة نحاسية برقم المنزل. كان كريس يحمل اللوحات، وكنت أنا أرتب ثنايا الفستان، وكان المطر يتساقط بغزارة فوق رؤوسنا بالكاد تحمينا منه المظلة.

رنة للجرس.. ثُم رنتان، ووجدنا النور يضيء بالداخل، وينعكس على الشراعة الزجاجية التي تتوسط الباب، ثُم سمعنا ذلك الدبيب لخطوات عسكرية قادمة على خشب الأرضية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

6

فُتح البابُ عن قامة طويلة لرجل أربعينيّ وقف مُواربًا الباب يتأملني، وهو يضيق من حدقتي عينيه، وفجأة فتح الباب على مصراعيه وابتسم قائلًا:

- بنسوار.

وأشار إلينا بالدخول...

دخل كريس، ثُم تبعته... يتوسط الصالة طقم للجلوس بمقاعد وثيرة من القطيفة الحمراء، وزعت المناضد بأرجلها الطويلة في الأركان، بينما شغل المنتصف منضدة كبيرة وضِع عليها مطفأة للرماد من الليموج، وعلقت على الحوائط لوحات من عمل الفنان. لاحظ هو أننا نعاني برودة الجو بالخارج، كما أن آثار الثلج كانت لا تزال عالقة بملابسنا. تناول عصا الحطب وانحنى أمام المدفأة ليضع المزيد منه، ويقوم بتقليبه في النار، بينما جاء صوت خشب العرعر وهو يحترق وكأنه يحترق على وقع نبض قلبي، سرعان ما انتشر الدفء في أرجاء المكان الذي كانت تفوح منه رائحة تبغ غليونه؛ فشعرت بالراحة وسعادة لا أفهم مصدرها. جلس في مقابلتي تمامًا، كنت أنظر إليه بدءًا من شعره الكثيف غير المرتب لحاجبيه المعقودين على وسامته، وعينيه اللتين هما مزيج من الألوان، ثُم أنفه المستقيم الذي ينتهي بشارب خفيف يخبئ شفتيه الرفيعتين الممدودتين للخارج بإغراء. كان يمد يده للطاولة لينتشل غليونه عندما لاحظت أنامله طويلة رشيقة كما ينبغي لأنامل فنان أن تكون.. أنامل خبرت كيف تجول وتصول على الورق لتضع بسمة هُنا أو نظرة حزن هُناك.

- منذ متى وأنت ترسمين؟

سألني بصوتٍ عميق:

- منذ أن اصطحبتني أمي للمدرسة، وهُناك منحونا أقلامًا من الرصاص، وكراسات للواجبات المنزلية فاستهلكتها في الرسم.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة، ثُم قام وطلب منى المجيء باللوحات في نهاية الصالة. كانت هُناك زاوية تنتهي بدرجات تقود لأسفل، وتفتح على حجرة كبيرة هي مرسم الفنان.

- يا ألله!

دون إرادتي وجدت نفسي أشهق وأنا أدور حول نفسي في هذا المكان المُزدحم بالكثير من اللوحات وأدوات الرسم، وبكل هذا الزخم من وجوه وملابس ومشاهد طبيعية، كان المكان صاخبًا ممتلئًا. أقف أمام كل لوحة أتأملها، أغوص بها وأتساءل: كيف تطابق هذا الفنان مع مزاجي إلى حد أنني كنت تائهة في أعماله؟ إنه مُولعٌ بالوجوه مثلي، فهل تراه مأخوذًا بها يصنع لها أقدارها، ويحدد لها المصير الملائم بها؟ من الواضح أيضًا أنه مُنجذب لصحو وصخب الحياة؛ فلقد رسم الكثير من اللوحات للشوارع الباريسية.. مارة يسيرون باتجاه أقدارهم، عربات تجرها

الخيول تقطع الطريق ذهابًا وإيابًا، مقاهٍ مزدحمة بزبائنها.. تنقلك لوحاته للحدث رأسًا؛ فتذهب بك إلى هُناك لتجد نفسك في ذلك المكان بذات الزمان. بينما كنتُ مشغولة بمشاهدة لوحاته، كان هو مشغولًا مع كريس بتعليق لوحة (أوجيني) على حامل اللوحات، ثُم سمعتُ صفيرًا للإعجاب، فأدرت رأسي باتجاهه لأجده واقفًا متأملًا اللوحة، وهو يضيق من حدقتي عينيه قائلًا:

- كيف أخرجتها هكذا؟! إنها تمامًا كأوجيني! فأنا أكاد أشعر أنني أقف أمامها!

لم ينتظر ردًّا على سؤالي، رفع لوحة (أوجيني)، ووضع لوحة بائعة الزهور، وأخذ في تأملها وقتًا أطول من اللوحة الأخرى، ثم اختتم تأمله بنفس عميق وهو يهز رأسه غير مصدق قائلًا:

- مُذهل.. ولكن كيف رسمتِ تلك اللوحات من الذاكرة؟! وأي فنان مُحترف يلزمه أن تقف أمامه الموديل لأكثر من ساعات طويلة حتى تخرج اللوحة بمثل هذا الإتقان؟!

لم أعثر على رد.. اكتفيت بهز كتفيَّ، وبابتسامة خجول سألته:

- هل تسمح أن أرى هذا الركن من أعمالك؟

كانت زاوية جانبية وضع بها الكثير من اللوحات الواحدة تلو الأخرى ليس بنية العرض وكأنه يدخرها لغرض ما.

- طبعًا.

كانت مجموعة من اللوحات للشرق لبلدان، مثل: مصر وإسطنبول والمغرب، وقفت أمامها مسحورة وكأنها نقلتني لعالم آخر لم أره، ولم أسمع عنه قبلًا.. عددها يزيد على خمس عشرة لوحة للحياة في تلك البلدان البعيدة الدافئة، وجدت نفسي أمام نساء جميلات، وملابس غريبة، ورجال سُمر البشرة أقوياء، أسواق مزدحمة ببضائع كثيرة, مساجد بقباب عالية، منازل بزخارف وأشكال مختلفة.. سألته:

- هل زرت تلك البلاد حقًّا؟ وهل هي كذلك كما تظهر بلوحاتك؟

لم يجبني، نابت ابتسامة عن إجابته وكأنه يتلذذ بوقع ذلك السحر عليَّ، ثُم أشار لنا للأعلى. كانت الخادمة بمنتصف العمر تظهر على وجهها ملامح الطيبة ترتدي زي الخدم، تقوم بتنظيف المطفأة من تبغ الغليون. عندما رأتنا ترجلت خطوتين للخلف، ووقفت مطأطئة رأسها للأسفل وهي تهمس:

- مسيو.

طلب منها صنع مشروب ساخن لنا، بينما طلب له شراب الشعير. جلس بعلياء واضعًا ساقًا على الأخرى بعدما أشعل غليونه مُجددًا.. أربكني صمته، ونظراته العميقة التي كان يتأملني بها.. وأخيرًا كسر الصمت قائلًا:

- حسنًا أخبريني، ما الذي تخططين له لمستقبلك الفني؟

- أنا لم أخطط لشيء.. أنا فقط أرسم.

- ولكن الله أنعم عليك بموهبة عظيمة، ليست حكرًا عليك؛ فيجب أن تمتعي بها الآخرين بنفس القدر الذي تشعرين به بالمتعة أثناء الرسم.. هكذا هو الفن، فمن الأنانية الاحتفاظ بتلك الموهبة لكِ وحدك، تأكدي أن النعم التي أنعم الله بها علينا يجب أن نشارك بها الآخرين وإلا فستزول رويدًا رويدًا، ستفقدين القدرة على الرسم؛ لأنه ليس هُناك من حافز لاستمرارك، والحافز هم الآخرون، هم الجمهور.

رد كريس:

- ولذلك نحن هُنا الآن لكي تدلنا على أي طريق نسلكه.

جاءت الخادمة بكوبين من الشيكولا الساخنة لنا، وشراب الشعير له. وضعتهما على المنضدة، ثُم ذهبت بعدما ترجلت للخلف بكل ما تملكه من أدب. هكذا الحال في بيوت الطبقة الأرستقراطية. كنتُ أتابعها بنظري عندما لاحظ ذلك فابتسم:

- حسنًا، يُمكنك الالتحاق بالدراسة في مدرسة الفنون الجميلة [6].

- وهل الرسم بحاجة لدراسة؟

- الرسم كموهبة لا يحتاج لدراسة.. هُناك الكثير من المدارس الفنية المختلفة كالانطباعية والواقعية والكلاسيكية والرومانسية والتأثيرية، كل مدرسة لها خصائصها وجذورها، ومن الواضح أنكِ تميلين للمدرسة التأثيرية، فأنتِ ترسمين الوجوه بتأثرك بها، ورؤيتك الخاصة لها.. أليس كذلك؟

فهمت ما الذي كان يشير إليه بتلك اللكنة في (أليس كذلك)؛ مؤكدًا هيئة (أوجينى)، وملابسها التي أثارت انتباهه.

- نعم كذلك.

- من الأفضل الالتحاق بالمدرسة، هُناك ستلتقين بالكثير من الفنانين والطلبة، وهذا الاختلاط سيُنمي موهبتك، ويزيدك خبرة، ورُبما تتخلين عن خجلك أيضًا.

تبادلنا النظر (أنا وكريس) الذي كان يعلم تمامًا ما الذي أفكر فيه، فقال:

- عذرًا مسيو ليون، فنتاليا لا تملك المال الكافي للالتحاق بالمدرسة.

بنصف ابتسامة أجاب:

- كل ما عليها أن تحضر بعد غد في التاسعة صباحًا، وتسأل عني هُناك.

ثم وقف ليختتم اللقاء؛ فقمت على الفور أنا وكريس.. ودَّعناه ومضينا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

7

بالخارج كان الجو أشد قسوة، كان علينا أن نعبر الشارع لنصل إلى موقف العربات. تملؤني تلك النشوة التي تُسري الدفء في الأوصال؛ فلم أكن أعبأ ببرودة الجو.

- هُناك بآخر الشارع يُوجد مقهى وحانة، ومازال الوقت مُبكرًا.. هيا نذهب لنحتسي شيئًا ما.

- كريس.. ولكن الحانات هُنا والمقاهي باهظة الثمن، هل تعلم كم تكلفة مشروبين؟!

ابتسم كريس:

- لا تحملي همًّا!

تأبط ذراعي، وكنا نسير مُتقاربين. كنتُ أشعر بالأمانِ مع كريس، ووحده كان كافيًا ليمنحني الدفء، أخطو فوق الأرضية المُبللة بالمياه، وكرات الثلج التي في طريقها للذوبان؛ فكأنني كنت أخطو فوق قدري تمامًا بلقائي مسيو (ليون). كانت تلك الطبقة الثقيلة من التقشف، والبرودة في طريقها للزوال...

عند حانة (فولي بيرجير) [7] توقف كريس، وعندما همَّ بالدخول نبهته قائلة:

- كريس إنها الـ(فولي بيرجير).. هل أنت متأكد بأننا نستطيع الدخول هُنا؟

ابتسم بثقة، ودون أن يجاوبني دفع بابها الخشبيَّ الثقيل، استقبلتنا سيدة بابتسامة حانية وقامت بمساعدة (كريس) في خلع معطفه.. لم أنتظرها أنا فقد كنت قمت بذلك بمفردي، ثُم أعطت لنا بروازًا خشبيًّا يحمل رقمًا، وغادرت بعد أن تمنت لنا وقتًا سعيدًا. المكان مُزدحم بالداخل، وصاخب بالرغم من برودة الجو التي تخيلت معها أن الجميع يقبع بالبيت وبجوار المدفأة. الإضاءة كانت خافتة في ذلك المكان الذي تراصت مقاعده بشكل أنيق، بينما في المقدمة كان البار تتراص عليه زجاجات الخمور، وهناك فتاة شقراء تقوم بملء الكئوس وصنع الكوكتيلات، وفتاة أخرى تقف عند براميل الشعير بصنبورها الذي لم يتوقف عن الضخ في الأكواب الزجاجية الضخمة لتُهرع بها الفتاة لطالبيها. وجدني كريس مشغولة عنه بصخب المكان فنبهني بقوله:

- نحن هُنا مدموزايل، رُبما أنك تخططين لرسم تلك الحانة.

- عذرًا كريس، فتلك هي المرة الأولى التي يصطحبني فيها أحدهم لمثل ذلك المكان الراقي، أتساءل: لماذا النساء هُنا مُختلفات عن اللاتي أراهن في الأسواق وشوارع باريس الفقيرة خاصة شارع شارون؟! انظر إلى وجوههن؛ وكأنها رُسِمت بريشة فنان، ملابسهن خرجت من تحت يد أشهر المصممين، يشيع في الهواء روائح عطور فاخرة.

- هكذا هي الحياة، تاليا.. نحن غير متساويين، انظري إلى الموهبة التي تتمتعين بها.. هؤلاء النسوة من علية القوم لا يملكنها، حتى تلك المركيزة التي تحمل مروحة

من ريش الطاووس، وتضع على رأسها قبعة من الفراء ليس لديها مثل تلك النعمة.

- كريس.. أعلم ذلك تمامًا، أنا لست نَاقمة؛ بل يملؤني يقين بأن دوام الحال من المُحال. كانت جدتي لأبي من طبقة أرستقراطية، كان زوجها أقرب رجال البلاط للملك لويس السادس عشر، وعندما قامت الثورة كان رأسه من ضمن القائمة المطلوبة للقطع، سلبتهم الثورة جميع ممتلكاتهم، حتى جدتي التي لم تسكن سوى القصور يومًا، اضطرت للسكن في شقة مفروشة مكونة من حجرة وصالة بشارع كوكي، ثُم أصابها الاكتئاب والحزن على الوضع الجديد حتى داهمها المرض الخبيث الذي سكن جسدها، وقاموا بنقلها إلى مستشفى الراعي الصالح، حيث تكدست الأجساد المشرفة على الموت الواحد تلو الآخر، وهناك احتضرت بكل قسوة ثُم خيطوا الكيس فوق رأسها، ونقلتها عربة نقل الموتى التي كانت تصدر رنينًا جرسيًّا خافتًا لتحملها لمثواها الأخير في (كلارما)، وقتها كان أبي في الثامنة عشرة. مسكين أبي! فقد ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، يقوم برعايته الكثير من المربيات. حتى إن المرضعة الخاصة به كانت تتقاضى خمسة من الفرنكات عن اليوم! وقد اختارتها جدتي من أجمل وأنظف النساء، وفي السابعة من عمره تحولت تلك الملعقة إلى صفيح!

بعد نفس عميق أضفت:

- أتعلم كريس.. فأنا لا ألوم أبي على قسوة طباعه، بل ألتمس له العذر؛ فكان في هذا التغير في الحياة من حال لنقيضه أكبر الأثر في شخصيته، تخيل أبي الذي لم يشاهد ويصادق في طفولته سوى تلك الطبقات الأرستقراطية من المجتمع الباريسي، يذهب به الحال ليتزوج بنتًا مسكينة لتاجر فاكهة، فأي نسب هذا؟! مع الوقت لم يطق شدة طباعها، بل كان كلما حاول أن يقلل الفارق الطبقي بين عالميهما باء بالفشل؛ فوجد نفسه يائسًا من الاستمرار فحمل متاعه ورحل.

حضرت النادلة بالشعر الأحمر، وبشرة بيضاء، وفستان بفتحة صدر واسعة لنهدين بارزين، انحنت ليبرزا أكثر وهي تضع كوبي النبيذ على الطاولة، فاح شذاها المتصاعد من عنقها وشعرها وفتحة ثوبها، بينما كانت تحدق إلى كريس بنظرة كلها إغراء، انتابني شعور بالغيرة، وقتها لم أدرِ سببه؛ فأنا لم أكن أحب كريس.. إذن لماذا الغيرة؟! فلتحدق به كما تشاء!

- دعينا من هذه الذكريات المُؤلمة.. ما رأيك في اقتراح مسيو ليون؟

- لا أدري كريس حقًّا، ولكنها فرصة قد منحها لي القدر، فليس لي سوى أن أشكره عليها.

- إذن لا تنسي موعدك معه بعد غدٍ في التاسعة صباحًا.

كانت فرقة استعراضية تُقدم أحد عروضها الجميلة، وبعدها امتلأت حلبة الرقص بالراقصين.. قمنا أنا وكريس ورقصنا؛ رقصنا بملء عنفواننا وإرادتنا، وكل ما نحمله بداخلنا من تناقض في المشاعر، والأحلام، والأقدار التي نحن مُقبلون عليها.. وأخيرًا غادرنا بعدما أعيانا الرقص. بالخارج اجتاحنا زمهرير غريب، فالليل كان

قد اقترب من الانتصاف، ووصلت درجة الحرارة لأقلها. كانت العربات الفخمة الخاصة برواد المكان المبطنة بالجلود، والخشب العاجي، والأبنوسي تتراص بجانب بعضها، حتى الخيول كانت أنيقة مثل أصحابها.. فقط عربتان بخيول متعبة، وبجلود متخدشة وقفتا إلى جوار العربات الأنيقة، وقد خصصها أصحابها لمن لا يمتلك ترف اقتناء عربة خاصة. رست العربة بنا على ناصية الشارع، فلم يكن يملك العرض الكافي لمرورها. ودعني كريس، وواصلت طريقي في ذلك الشارع الضيق الذي تنبعث منه أنفاس سكانه. كانت أمي تنتظرني قلقة، أمي المرأة الأمية، بماذا كان لها أن تجيبني بعد إخبارها بتفاصيل زيارتي للفنان؟! لم تعلق في ذهنها سوى كلمة أخذت ترددها بدهشة:

- مدرسة للرسم؟ وهل الرسم يحتاج إلى مدرسة لتعلمه؟!

- نعم أمي.. هُناك أنواع مُختلفة من الرسم، وعليَّ أن أحدد أي المدارس سأتبع، وأتعلم خصائصها.

كنت أجاوبها وأنا أبدل ثيابي، وأبدل معها تلك الفتاة أنيقة المظهر التي كانت تجلس جنبًا إلى جنب دوق (ونسري) مدير أعمال الإمبراطور شخصيًّا. الآن أصبحت (تالي)، الفتاة الفقيرة المعدمة، التي تعيش في تلك الغرفة الحقيرة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

8

في الصباح كان عليَّ تنظيف البيت، وتحضير الطعام.. كنت أصحو بمزاج سيئ لا أعرف له سببًا، تبدل تمامًا عندما سمعت دقات منتظمة على الباب.. فتحته لأفاجأ بعدة علب كرتونية تراصت الواحدة فوق الأخرى، وعامل يسأل عن مدموزايل (نتاليا)...

- أنا نتاليا.

استلمت منه الأغراض، ثُم طَلب مني التوقيع.

- ولكن من الذي أرسل تلك الأشياء؟!.. فالاسم ليس مُدرجًا هُنا!

- لا أعلم سيدتي، أنا فقط عليَّ توصيل البضائع إلى أصحابها، ولا يعنيني أن أعرف شيئًا عن المرسل، هل لكِ أن توقعي هنا؟.. معي الكثير من البضائع، وعليّ توصيلها، وأشكر الله أنها ليست في مثل تلك المناطق.

صدمتني كلماته؛ فوقعت له بدون النظر إلى عينيه...

بالداخل أخذت في فتح العلب الكرتونية بكل توجس وريبة.. كان اسم المتجر كافيًا لوجود تلك الحالة من الربكة بداخلي؛ فقد كان من أكبر متاجر باريس، تلك التي لا يتخطى عتبتها سوى أصحاب المحافظ الجلدية المنتفخة بالفرنكات، ولكن مَنْ عساني أعرفه بمثل هذا الثراء؟!

في الصندوق الأول فستان من القطيفة الزرقاء مشغول بياقة من الدانتيل. تركته جانبًا لأفتح الصندوق التالي، وأجد به حذاء متوسط الكعب من نفس قماش الفستان.. يا ألله، ما أجمله!.. في الصندوق الأخير كانت حقيبة يد -كتلك التي تحملها نساء الطبقة الراقية- مشغولة، قمت بقياس الملابس عندما شممت رائحة حريق، وانبعاث دخان أسود كثيف، ركضت للمطبخ فوجدت الحساء الذي كنت أقوم بإعداده قد احترق تمامًا، لم أحزن وقتها؛

فلقد كنت سعيدة ومندهشة بتلك المفاجأة.

باريس.. إبريل (1866):

كانت الثامنة عندما كنت أخطو برشاقة في تلك الثياب الغريبة عليَّ، والتي كنت أشعر بنفسي غريبة بها، هل كان عليَّ أن أتخلى وقتها عن نتاليا تلك الأنثى المرحة الشقية بخطواتها السريعة الواثبة، وأسير على الأرضية بكل دلال وغنج بما تحتمه عليَّ تلك الملابس؟!.. ولكن على أي حال كنت أشعر بالراحة أكثر في ملابسي القديمة البسيطة.

كانت مدرسة الفنون الجميلة تقع في الحي اللاتيني، تبعد عني بمقدار نصف الساعة سيرًا على الأقدام؛ فنزلت قبلها بساعة حتى أجد لنفسي مساحة من التفكير؛ فكان عليَّ أن أرتب حياتي لما أنا مقبلة عليه. عندما اقتربت من المكان ازداد نبضي في

العلو، وتسارعت دقات قلبي تَسابق خطواتي؛ فتوقفت عن السير، وأخذت في التنفس بعمق وهدوء.

كانت بوابة المدرسة حديدية مُغلقة، وضع عليها جرس من النوع العتيق الذي تجلب رناته الإزعاج، قمت بشد الحبل المُتدلي ليهتز الناقوس، فلمحت حارسًا يأتي من بعيد ويسألني:

- من تريدين؟

- مسيو ليون.

فتح البوابة بمقدار يسمح لي بالمرور منه، ثُم أشار إلي بالدخول.

- الطابق الثاني في الغرفة الأمامية.

كان المبنى من طراز عصر النهضة، مكونًا من طابقين، بفناء كبير تتوسطه حديقة بنافورة رخامية، وساحة خلفية لمحت فيها بعضًا من الرجال والفتيات يقومون بالرسم والنحت في الغرفة الأمامية. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه، وصوت ذكوريّ عميق يصلني منذ دخولي للمبنى آخذ في الاقتراب شيئًا فشيئًا.. حتى وجدت نفسي أمام صاحب الصوت؛ إنه مسيو ليون، الذي استقبلني بابتسامة واسعة.

- نتاليا، مرحبًا.

ثم أشار إلـيَّ بالدخول، كان فصلًا دراسيًّا؛ عبارة عن قاعة واسعة، بمقاعد خشبية، وحامل كبير للوحات عليه لوحة زيتية، يقوم الفنان بالشرح عليها. وهُناك عدد من الفنانين الذين يتدربون تحت يد الفنان، ويتتلمذون على نهجه الخاص في الإبداع لا يزيدون على عدد أصابع اليد الواحدة، جميعهم من الرجال بأعمار مُختلفة. عرفني بهم مسيو (ليون) قائلًا:

- نتاليا، زميلة لنا جديدة، وفنانة مُمتازة ومتميزة.

تعالت الهمهمات...

- انشانتيه، انشانتيه مدموزايل.

اخترت مقعدي، وجلست أُراقب وأسمع، مرت أكثر من ساعة كان مسيو (ليون) يتحدث فيها عن مدارس الفن التشكيلي وتاريخه، كان حديثه مُمتعًا ينتقل بنا من فترة زمنية لأخرى مُوضحًا أشهر فنانيها، والمدارس التي ينتمون إليها بدون أن يتوقف عند فترة معينة، أو مدرسة معينة؛ هكذا كان يصعد بنا الدرج صعودًا وهبوطًا ليجعلنا على شوق أن نعلم أكثر، ويولد فينا تلك الرغبة المُلحة في التعلم والانبهار، مع الوقت تيقنت أن طريقته في الشرح لا تختلف كثيرًا عن مذهبه الشخصيِّ؛ فهو دومًا يجعل الطرف الآخر في حالة انتظار، ترقب، اندهاش، هذه كانت من أبرز ملامح شخصيته وأقساها أيضًا... بعد انتهاء الدرس وجدت نفسي وسط دائرة من الرجال، يعرفونني بأنفسهم ويتعرفون إليَّ؛ فتلعثمت من بين الرد على سؤال وآخر، فأنقذني (ليون):

- لا ترهقوها بالأسئلة، (نتاليا) فتاة خجول بقدر ما هي موهوبة.

ثُم قام باصطحابي معه إلى قاعة أُخرى، كانت مرسمًا كَبيرًا عُلقت اللوحات على حوائطه.. لوحات لم تنته بعد ولوحات لم تبدأ بعد.

- أعتقد أنكِ لو كنت تعلمين من هم زملاؤك في الفصل الدراسي لكنت سعيدة الآن.

- للأسف، أنا لم أعرف أحدًا منهم.

- لا عليك، سوف تعرفينهم، وستكونين من أشهر فنانات فرنسا، ورُبما العالم.

ابتسمت، بينما أضاف:

- يعجبني ذوقك في الملابس.

كنت أخشى النظر مباشرة في عينيه، لا أعرف السبب هل لأنني لم أرَ في جمالهما مُسبقًا، أم لتلك النظرة العميقة التي تتشابك فيها عينانا معًا، ويصبح فكهما أصعب ما يكون.

- هل أفادك الدرس اليوم؟

- نعم كثيرًا.

- عندما تصقلين تلك الموهبة بالدراسة، الأمر سيكون أكثر إتقانًا وروعة، عباقرة الفن التشكيلي لم يتوقفوا يومًا عن الدراسة [أنجلو، دافنشي، رامبرانت، فيرمير، داغارا ديجا، مونيه.. والكثيرون]، والآن بإمكانك الجلوس هُنا للرسم، أو في الساحة الخلفية إذا كنت تُفضلين الرسم في مكان مفتوح.

- سيدي، أنا لي طُقوس خاصة في مُمارسة الرسم، كما أن لي رؤية مُختلفة رُبما يتهمني البعض فيها بالجنون.

- ألم تسمعي هذه المقولة؟.. ما من فنان جيد إلا وقد مسته تلك الشعرة من الجنون.. الفن هو الخروج عن كل ما هو مألوف وطبيعي، يلزمك لإبهار الآخرين بك أن توفري لهم دائمًا حالة خلق جديدة تدهشينهم بها، وطبيعي لن تدهشهم تلك الحالات الروتينية المُعتادة، ولكن أخبريني، ما رؤيتك الخاصة؟ رُبما تلك الرؤية نصنع بها مدرسة جديدة للرسم تكونين أنتِ رائدتها.

فتح فمه بابتسامة واسعة أظهرت أسنانًا بيضاء، ورائحة دخان غليونه المُغرية.

ارتبكت.. بماذا أجيبه؟! هل تراه سيقتنع بتلك الأفكار؟ أم سينعتني بالبلهاء؟

- أنا لا أرسم سوى تلك الوجوه التي تشي بما تخبئه النفس، تلك الوجوه التي وأنت تنظر إليها تشعر وكأنك تتصفح كتابًا مفتوحًا، تُقَلب أوراقه، فتندهش من تلك الحروف المخبأة بين الأسطر؛ فأصنع لها تلك الأقدار التي وشت لي بها، والتي أراها مُناسبة لها.. لذلك تجدني - من بين ألف وجه- رُبما لا يثيرني سوى وجه.. والآن بماذا سوف تتهمني؟ هل أنا في طريقي للجنون؟ أم جُننت بالفعل؟!

ضحكة ساخرة خرجت مني؛ فأخفيتها بوضع يدي على فمي، ونظرت للأسفل كطفلة صغيرة تخجل من فعل ما ارتكبته، وتحاول أن تخبئ خجلها بتلك الابتسامة.

- مبدئيًّا نتاليا، لا أحب عدم ثقتك بوجهة نظرك، وبقناعاتك الخاصة تجاه ما تحبينه وما يجذبك لرسمه، الرسم مثل الكتابة والرياضة.. كلٌّ يتجهُ للطريق الأكثر راحة ومتعة له؛ فلولا تلك الأسرار والخبايا التي تقرئينها في الوجوه لما كنت اتجهت للرسم يومًا، وأصبحتِ بتلك المهارة. إن أسلوبك في الرسم يتخذ اتجاهًا جديدًا، فإذا قيمنا أعمالك نجد أنك تميلين للمدرسة التأثيرية وما بعدها، وفي نفس الوقت تضيفين لها نوعًا آخر من خلال التركيز على التعبير في إظهار تعبيرات الوجه، والأحاسيس النفسية الدفينة داخل النفس البشرية؛ من تلك الخطوط التفصيلية، والنظرة التي تقومين برسمها وتكشف عما يدور بداخل الإنسان، وفي الوقت نفسه تثير مشاعر المشاهد تجاه ذلك الشخص، هذا طبعًا بالإضافة لطريقتك الخاصة في مزج الألوان بذلك السحر الخاص الذي يبرز انفعالات الأشخاص. إن ذلك النوع من الرسم يعمل على إعادة التنظيم والبناء في شكل جديد للمدرسة الرومانسية، رُبما هي إذن المدرسة التعبيرية الجديدة.

- مسيو ليون، أنا لم أقيِّم أعمالي بتلك الطريقة التي أجهلها تمامًا، ولم أشغل نفسي بالتفكير إلى أي مدرسة تندرج تلك اللوحات.. فقط أنا أرسم لأنني أحب أن أرسم.

- جميعنا نرسم لأننا نحب الرسم، ولكن هذا لا يمنعنا من التعمق أكثر في أنواع الفنون.. وأعلم ما تقصدين، فكثيرًا ما خيب النقاد والمؤرخون أحلام الفنانين في تحليل لوحاتهم بشكل مُغاير ومُختلف تمامًا عما كان يدور في مُخيلة الفنان وقتها، ودعينا لا ننسى تلك المقولة (ليس هُناك من حماقات أكثر من تلك التي تسمعها لوحة مُعلقة على جدار في معرض).

اقترب مني، وأمسك بذقني، ورفعه لأعلى قائلًا:

- نصيحة.. لا تشغلي بالك بأحد، والآن هل تعلمين أن عينك أيضًا من ذلك النوع الذي تفضح عما بداخلك!

لم أنطق وقتها.. كان في اقترابه مني بهذا القدر، وعطره الذي كان يمتزج برائحة تبغه، وشعره الفوضوي بخصلات بيضاء متسللة في اتجاهات مُختلفة، ونظرة عينيه اللازوردية، وتلك النبرة التي كان يتحدث بها بصوته كما لو أنه كمين لي ليفقدني صوابي، ويجعل قدميَّ لا تقويان حتى على حملي.

- أراك غدًا صباحًا، وأتمنى أن يكون قد أفادك درس اليوم.. إلى اللقاء.

ثم تركني، واختفى داخل تلك الغرفة بأبوابها الجرارة التي أزاحها بكل تلك القوة لتصدر أزيزًا، ثُم كان عليه أن يستدير ليغلق الباب الثقيل من الخشب الأبنوسي اللامع بمقابضه الذهبية المنحوتة على شكل رأس حصان، بينما أنا مازلت مكاني، مُتشبثة بتلك المساحة الصغيرة.. الصغيرة جدًّا من الحياة التي جمعتني به يومًا، عندما نظر لي مطولًا وهز لي رأسه مودعًا.. تساءلت وقتها أتراه شعر بتلك

الأحاسيس التي انتابتني وقتها؟ أم تراه كان يتلذذ بسطوته عليَّ وانبهاري به فتركني مذهولة من أمري ومضى!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

9

الثانية عشرة ظهرًا، والجو أكثر دفئًا في حديقة المبنى.. قررت أن أذهب للساحة الخلفية. كانت مُزدحمة برجال وشباب بأعمار مُختلفة؛ فكان من الصعب أن أحدد من منهم التلميذ ومن الأستاذ، فرُبما هذا الكهل في الخمسين تلميذ ذلك الشاب في العشرين.. هكذا كان منطق عالم الفن التشكيلي، فليس به قانون يحكمه.

كانت هُناك فتاة أو فتاتان على الأكثر، الجميع مشغول بالورقة والفرشاة، فلم يلاحظني أحدٌ سوى ذلك الشاب في أقصى اليمين الذي ترك فرشاته، والموديل التي كان يقوم برسمها، وأخذ في تأملي أنا!

جلست على تلك المقاعد الخشبية.. كان المكان هادئًا لا تسمع فيه سوى بعض ضربات الفرشاة العصبية لأحد الفنانين، عدا ذلك كان صوت زقزقة العصافير فوق أغصان الأشجار الكثيفة، التي تحاول أن تسرب شعاعًا من الشمس من بين فراغات أغصانها المُتشابكة. الجو يُثير في النفس تلك الأحاسيس بالراحة والهدوء.. جلست خلفهم أراقبهم، كل منهم وضع أدواته وأخذ في الرسم، الألوان بيد والفرشاة باليد الأخرى، أعِلم تمامًا أي حالة تلك التي تملكتهم وقتها، وتحت أي سحر كانوا واقعين.. كلٌّ منهم في عالم خاص به؛ كأوركسترا كلٌّ من أعضائها يعزف لحنًا مُنفردًا به وحده. تسللت تلك الروح إليّ، وشعرت أنني أريد أن أرسم، أن أذرع الورق يمنة ويسرة، صُعودًا وهبوطًا، أن أنضم إليهم، أتوحد معهم، ولكن لم أكن مُعتادة الرسم بتلك الملابس؛ فلكي أرسم تعودت أن أكون أكثر تحررًا، أكثر انطلاقًا، وهذا الثوب من القطعتين بأربطته الكثيرة، والقبعة التي أضعها على رأسي كانا بمثابة قيد لي.. فجأة امتدت يدي لتنتشل القبعة، وقمت بفك ربطة شعري، وجعلته يتحرر، ويميل مع نسمات الهواء ثُم غادرت.

فوجئ كريس بي وأنا أقف أمامه تمامًا بالمخبز. كان مشغولًا برص المخبوزات عندما بدلت نبرة صوتي لنبرة أكثر دلالًا كما ينبغي بسيدة أنيقة أن تكون:

- هل لي بنصف دستة من هذا؟

بدون أن يرفع نظره سألني:

- مُحلى بعصير الفاكهة أم بالسكر؟

وقتها رفع نظره، وشهق في دهشة:

- أنت!

- نعم جئت لأريك الملابس الجديدة التي اشتريتها لي، وأشكرك عليها.

- تلك التي ترتدينها!

- نعم!

- عن أي شيء تتحدثين نتاليا؟

من غير عادته أن يناديني نتاليا، وبهذه اللهجة المشوبة بالاستغراب والدهشة؛ مما جعلني أشك في أمري عندها قال:

- حسنًا، دعينا نخرج لنتحدث بالخارج.

ثم طلب من زميل له أن يحل محله، بينما خرجنا نحن.. لم يخلع حتى مريول العمل الأبيض.

سرنا معًا لنهاية الطريق المُؤدي لنهر السين، ونزلنا ذلك الدرج لنجلس وجهًا لوجه مع ضفة النهر على مقعد خشبي، شرحت له أمر تلك الملابس.

- ولكن نتاليا من أين لي ثمن تلك الملابس؟! حتى تلك القبعة المزينة بالريش لا أملك ثمن ريشة بها!

- من عساه أن يفعل ذلك؟! فأنا لا أملك حتى ترف معرفة شخص بمثل هذا الثراء!

- غريبة حقًّا!

- الشخص الذي اشترى هذه الملابس يعلم تمامًا بأمر ذهابي لمدرسة الفنون الجميلة، وليس هُناك سوى أنا وأنت والفنان (إيكون هو)، ولكن من أين جاء بعنواني؟

- رُبما سأل مسيو ديلون؛ فعناوين العاملين تكون مُدرجة في دفاتر خاصة بذلك.

- أتعتقد ذلك؟

- إن لم يكن هو فمن سيكون؟!

تذكرت عندما نظر لي طويلًا ليقول: (يعجبني ذوقك في الثياب).. أكان يسخر مني وقتها؟!

ولماذا فعل ذلك؟! فهل كان يعلم بأمر فقري المُدقِع، وبأني لا أملك الملابس اللائقة لارتيادي مثل تلك المدرسة؟ أم أنه خشي من مظهري ليشوه سمعته كطالبة تتتلمذ على يده!.. أخذت الأسئلة تذهب وتجيء بي، لا أعرف هل ألتمس له العذر، وأكون شاكرة وممتنة، أم ناقمة عليه؟!

لاحظ كريس قلقي فحاول أن يُخرجني من تلك الحالة...

- ولكن أخبريني كيف كان يومك؟

لم تكن لي رغبة في الحديث؛ فأجبت ببعض كلمات مُقتضبة:

- بخير.. كل شيء بخير.. هيا حتى لا تتأخر عن العمل.. نلتقي غدًا في مثل هذا الموعد، إلى اللقاء.

تركته وذهبت.. كان كريس الشخص الأكثر تحملًا لتقلباتي، وكان يتعامل معي بحنان أبوي بالرغم من صغر سنه؛ لذلك لم أنس يومًا تاريخي معه، ولقاءاتي به في صفحات حياتي التي ازدحمت بالكثير من الوجوه والشخصيات.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

10

القاهرة.. مارس (1901):

أنهت نوال قراءة هذا الجزء من هذه الصفحات الورقية، المهترئة والمصفرة بفعل الزمن، والتي كانت قد عثرت عليها في أحد الجيوب الداخلية لصندوق أسود تشقق جلده، وصدئت أبازيمه المعدنية من السنوات التي توالت عليه، صندوق لم تنس صاحبته أن تحكم غلقه على أسرارها وتذهب. وضِع الصندوق في إحدى الغرف المُغلقة في ذلك البيت الكبير، الذي انتقلت نوال للعيش فيه هي وزوجها المُهندس المعماري، عندما جاء ليخبرها في أحد الأيام أن الشركة التي يعمل بها تقوم بمشروع كبير في القاهرة، وعليهم الانتقال للسكن هُناك.. وقتها أصابها الحزن وخيبة الأمل؛ فكان عليها أن تترك بيتها الجميل بشرفاته التي تفتح على البحر بشارع الكورنيش بالإسكندرية، لتذهب للعيش في تلك المنطقة في وسط المدينة، في شقة كانت قد استأجرتها لهم الشركة بالقرب من موقع عمل زوجها. كان قدرًا ليس عليها سوى الخضوع له؛ فهي عروس جديدة، مرت عدة أشهر على زواجها الذي دعت إليه الأهل والأصدقاء ليشاركوها الاحتفال في الروف الفسيح للمبنى الذي قامت بتأسيس بيتها الجديد فيه.. بعد العشاء والانتهاء من مراسم الزواج قام المقربون فقط من العائلة بتوصيل العروسين إلى عش الزوجية السعيد، وأثنوا على ذوقها الراقي في انتقاء الأثاث والمفروشات والتحف.. والآن أصبح عليها أن تترك كل ذلك وراءها، وتمضي للعيش في بيت آخر، فُرِش بذوق آخر.. طلبت من زوجها رؤية ذلك المكان الذي ستذهب للعيش فيه، وأصرت قائلة:

- وإن لم يعجبني فستكون مُكلفًا باستئجار آخر على نفقتك الخاصة.

استقلوا القطار في نهار شتوي سكندري جميل، ومن محطة مصر أخذوا عربة لمنطقة وسط المدينة بميدان (سليمان باشا)، الذي وضِع فيه تمثال الكولونيل الفرنسي [إحدى الشخصيات المهمة في تكوين جيش مصري قوي في عهد محمد علي باشا؛ وأخيرًا نعمت مصر برفاهية وجود جيش وطني يحمي أراضيها، لذلك ارتبط اسم ذلك الرجل ولسنوات طويلة بالنجاح والكفاح، وقد أعلن إسلامه وبدل اسمه لسليمان باشا]، وها هو تمثاله شامخ بقوة، وكأنه يواصل دوره في مراقبة العصور من بعده.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تزور فيها نوال منطقة وسط المدينة من المرات القليلة التي زارت فيها القاهرة؛ لذلك أدهشتها تلك الأبنية على الطراز الأوروبي، والشوارع والمحلات، وذلك العبق الزمني.. توقفت بهم العربة أمام البناية الكبيرة التي تبدو وكأنها قلعة حصينة، بُنيت على طراز الباروك والركوكو بزخارفها المُختلفة على الواجهة والشرفات والنوافذ، وبابها الخشبيّ المشغول من المنتصف بشراعات حديدية والتي تُفتح على ساحة كبيرة من الرُّخام.

كان مندوب الشركة المُكلف بتسليم الشقة ينتظرهما بمدخل العمارة، أصطحبهما معه للدور الثالث في ممر طويل ومظلم إلا من إضاءة خافتة تنبعث من شرفة

المنور الذي به سلم حلزوني للخدم. كان الدور -على اتساعه- لا تشغله سوى شقتين. أخرج المندوب دلايةٍ المفاتيح، وقام بفتح الشقة التي من الواضح أن أحدهم قام بتغيير كالونها حديثًا فترك تلك الخدوش بالباب. فُتِحت الشقة على تلك الرائحة للهواء المختزن بالداخل منذ فترة، والممزوجة بالأتربة التي كانت تُغطي كل شيء، في المدخل كان ردهة متوسطة وضعت بها كنبة استوديو شغلت الحائط من أولِه إلى نهايته، وفي الركن كرسيان على الطراز الفرنسيّ، بينما لوحة زيتية كبيرة بُطِّن بها الجدار، كانت اللوحة مشهدًا لحديقة جميلة.

تفتح الصالة على حجرة للصالون كبيرة بطقم ذهبيّ مشغول بخيوط الأبسيون، وأرضية من الخشب اللامع الذي فرشت فوقه طَبَقة من التراب الكثيف. كانت غرفة الصالون بشرفة تطل على ميدان فسيح.. اجتازوا الردهة الطويلة، والتي على طولها شعروا أنها لن تنتهي.. تتراص الغُرف على الجانبين، ومطبخ وحمام.. على الجانب الأيسر كانت هُناك في نهاية الممر غرفة مُغلقة، بينما في آخر الممر غرفة كبيرة مفروشة بغرفة نوم ملكية من خشب الأكاجا، بدولاب كبير يلامس السطح في ارتفاعه، بينما الأضلف يحدها عمودان من الخشب المنقوش عليه مشاهد فرعونية.. كم كان يلزمها من وقت لتقف مذهولة أمام تلك القطعة الفنية؟!

بعدها انتقلت بنظرها للسرير الخشبيّ الكبير، المُلحق به «كمودينان» تراصا على الجانبين بشكلٍ دائريّ جميل، كذلك منضدة الزينة، والشفونير وشماعة تونيت خشبية بمرايا كبيرة، وفي الأعلى نُحتت بشكل دائري لتعلق عليها القبعات، أو الطرابيش.. وجدت نفسها تصيح قائلة:

- يا ألله، إنها حجرة نوم ملكية!.. من المؤسف النوم عليها؛ فهي بالتأكيد لم تُصنع إلا للعرض فقط، ولكن أي ذوق راقٍ كان ذوق صاحبها؟!

حسن كان كعادته يفتح الشرفات والنوافذ، ويطل منها، لم يكن يملك هذا القدر من الفضول مثلها فترك لها مهمة تفقد الغرف بدقة بينما اهتم هو كمهندس معماري بالزوايا، والمساحات، والأبعاد. ثم وجدت نفسها تسأل المندوب:

- ولكن أخبرني، من الذي كان يسكن هُنا؟ وأي ذوق جميل كان يتحلى به؟

رد المندوب؛ الذي كان قصيرًا وسمينًا، يرتدى طربوشه الذي يزحزحه لمنتصف رأسه الأصلع:

- لا أستطيع أن أدلك لأنني في الحقيقة لا أعرف، كل ما أعرفه أن صاحب البناية طلب من سمسار العقارات أن يقوم بتأجير أكثر من شقة في تلك البناية للسكن، وغالبًا كان هُناك بينه وبين جهة دبلوماسية خلاف على تلك الشقة التي كانت تؤجرها القنصلية الفرنسية لجاليتها في نهاية القرن الماضي، ومنذ رحيل ساكنيها، وأعتقد أنها كانت مُغلقة كما ترين، حتى الأثاث كما هو. إذا لم تعجبك تلك الشقة فهُناك شقة أخرى بالدور الأول.

- لا.. لا.. إنها تعجبني.

أجابت بدون تفكير...

- حسنًا، ها هو المفتاح، يمكنكما الانتقال لها من الآن.

ثم أخرج المفتاح من الدلاية، وأعطاه له، بينما كان حسن مستغربًا لذلك.. غادر المندوب وبقيا، فوجدته يسألها:

- كنت أعتقد أن هذا المكان لن يعجبك، وأنك ستقومين بالشجار معي بعد العيش في بيتنا الجديد النظيف بأثاثه الحديث الذي قمت باختياره على ذوقك.

- ذوقي؟! أي ذوق بعد تلك الغرفة الملكية، وتلك اللوحات الجدارية والصالونات المُذهبة؛ فأنا أشعر بأني في متحف للفنون، وليس بشقة مُغلقة على أسرارها.

- هيا إذن الآن.. فرائحة الأتربة قد زكمت أنفي، لقد اتفقت مع المندوب على أن يجلب لنا خادمة تقوم بتنظيف المكان فور خروجنا منه.

- متى ننتقل للعيش هُنا؟

- الحماس الذي تحلت به ملأ حسن بالدهشة، حتى إنه قال مازحًا:

- سبحان الله! انظروا من التي تتحدث؟!

وهي تقوم بغلق النوافذ لاحظت أن غرفة النوم الوحيدة تطل على شارع جانبي به كنيسة للأقباط الكاثوليك.. كانت تدق أجراسها ببطء فتعيد الحياة للمنزل مرة أخرى؛ وكأنها توقظه من سباته العميق.. وكأي امرأة كان المطبخ يشغل حيزًا كبيرًا من يومها وتفكيرها فذهبت لتراه. لم يكن تشغله سوى خزانة بأضلف من أسفل، وُضع فيها أوانٍ نحاسية مُختلفة الأحجام وأطباق فخارية، بينما كانت الأدراج خالية إلا من بعض أدوات المائدة نحاسية وخشبية، وفي المُنتصف وضعت منضدة خشبية قديمة، تراص حولها مقعدان من الخيرزان، وفي أحد الأركان موقد يشعل بالحطب، ابتسمت عند رؤيته، فقد ذكرها بذلك الذي كانت جدتها تعد عليه الطعام.

- إنها قدور وأوانٍ أثرية.

تبادلا الضحكات، وجذبها إليه وقام بعناقها، وقع نظرها وقتها على الأرض لتجد الكثير من آثار لأحذية:

- حسن.. انظر آثارًا لأقدام.. تُرى من زار هذا المكان؟

- عزيزتي، هذه شقة معروضة للإيجار.. رُبما صاحبها.. رُبما المندوب.. رُبما أقارب الورثة، لا تشغلي بالك وهيا بنا لأنني لا أكاد أراكِ من الأتربة التي لصقت بثيابك وشعرك، ولكن أتعلمين حتى عندما يتحول شعرك إلى البياض ستكونين جميلة أيضًا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

11

بهذه الكلمات تركا المكان بكل ما يحمله من روائح من الماضي، وذكريات وأتربة، وغادرا ليأتيا بعدها بعدة أيام، ويجدا الخادمة قد أزالت كل الغبار، وأصبحت الشقة نظيفة وجميلة.

جاءا ومعهما آمالهما، وأحلامهما لم يصطحبا سواها هي، وتلك الحقيبة الكبيرة التي وضعا بها أمتعتهما الشخصية. كان الانتقال لعتبة جديدة يضخ معه أملًا في حياة مُختلفة؛ لذلك كانت نوال تشعر بالسعادة بالرغم من فِراق أهلها وأصدقائها، ومدينتها التي تُحبها كثيرًا.

أول شيء فكرا في شرائه كان موقدًا جديدًا.. نزل حسن لمتجر شكوريل، وقام بشرائه مع بعض الأطباق، والملاعق، والأكواب، وأشياء بسيطة كانت تنقصهما، بينما جلست هي تفرغ الحقيبة، تصفف الملابس داخل الدولاب والأدراج.. كانت تتجول في المنزل لترى ما الذي سوف تحتاج شراءه.

مر أول أسبوع لها بالمنزل وهي تقوم بترتيبه؛ فمُدة انتقال حسن لذلك العمل كانت لا تقل عن عام ورُبما تزيد.

بعد نزول حسن للعمل في السابعة صباحًا تنتظر إلى أن تفتح المتاجر أبوابها في التاسعة ثُم تنزل للتسوق والمشتريات. في اليوم الأول قامت بشراء الكثير من المفروشات لغرف النوم والمناشف للحمامات، واليوم الثاني خصصته لكل ما ينقص المطبخ من أوانٍ وتموين، وفي اليوم الثالث ذهبت لبائع الأنتيكات بشارع البورصة، وابتاعت منه بعض الطقاطيق؛ فحسن كان مدخنًا شرهًا، وإذا لم يجد مطفأة أمامه لا يبالي حتى إن أطفأ الرماد على الأرض؛ لذلك لم تترك مساحة على منضدة إلا وقد وضعت فوقها مطفأة، في اليوم الرابع كان عليها أن ترتاح، وفي الخامس واصلت التسوق، وفي السادس انتابها الملل فكانت مُفكرة يومها ممتلئة في الأوقات الصباحية إلى الساعة الثالثة عصرًا؛ لتجد نفسها حتى الثامنة -موعد عودة حسن- لا شغل لها سوى التسكع من حجرة لأخرى، أو من نافذة لأخرى تراقب المارة والمتاجر.

تمنت أن تكون لها جارة مثل أحلام جارتها السكندرية التي تسكن في الشقة المجاورة لها، والتي كانت تشغل أوقات فراغها دومًا بقصصها التي لم تكن تنتهي أبدًا، وبفنجان قهوتها الصباحية الذي كانت تتناوله معها في شُرفتها المُطلة على البحر.. هُنا بالصدفة تلتقي من يمكن أن تتحدث معه أثناء هبوطها وصعودها على الدرج، تتبادل معه التحية ثُم يمضي كُل منهما في حاله.. حتى تلك الجارة النحيفة بشعرها الأشقر، لم تحاول أن تُلقي نظرة عليها وهي تقوم بتحيتها تحية الصباح أو المساء. لاحظ حسن أن حماسها قد فتر، وفي إحدى المرات وهما يتناولان العشاء في غرفة الطعام والتي كانت تشبه كثيرًا حجرة النوم؛ التي نحتت من خشب أبنوسي، وبطنت حوائطها بالخشب الذي رسمت عليه فينوس، والملائكة مُحاطة بها، كان تابلوهًا رائعًا بألوانه الزيتية التي وكأنها جفت للتو، وفي دولاب الفضية

رص طقم الصينى الذي نحت عليه روميو وجولييت، وقصة حبهما الشهيرة- نصحها قائلًا:

- نوال، يُمكنك شغل أوقاتك بشيء؛ فأنت تُفضلين القراءة.. لماذا لا تشترين كتبًا؟

كان حسن يشعر بالبؤس لحالها، ورُبما كان يلوم نفسه في ذلك؛ فهو كان يعرف أن مُفكرة يومها بالإسكندرية كانت مُمتلئة بالمواعيد والخطط التي لا تنتهي.

- لا تشغل بالك بي فأنا سعيدة هكذا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

11

بهذه الكلمات تركا المكان بكل ما يحمله من روائح من الماضي، وذكريات وأتربة، وغادرا ليأتيا بعدها بعدة أيام، ويجدا الخادمة قد أزالت كل الغبار، وأصبحت الشقة نظيفة وجميلة.

جاءا ومعهما آمالهما، وأحلامهما لم يصطحبا سواها هي، وتلك الحقيبة الكبيرة التي وضعا بها أمتعتهما الشخصية. كان الانتقال لعتبة جديدة يضخ معه أملًا في حياة مُختلفة؛ لذلك كانت نوال تشعر بالسعادة بالرغم من فِراق أهلها وأصدقائها، ومدينتها التي تُحبها كثيرًا.

أول شيء فكرا في شرائه كان موقدًا جديدًا.. نزل حسن لمتجر شكوريل، وقام بشرائه مع بعض الأطباق، والملاعق، والأكواب، وأشياء بسيطة كانت تنقصهما، بينما جلست هي تفرغ الحقيبة، تصفف الملابس داخل الدولاب والأدراج.. كانت تتجول في المنزل لترى ما الذي سوف تحتاج شراءه.

مر أول أسبوع لها بالمنزل وهي تقوم بترتيبه؛ فمُدة انتقال حسن لذلك العمل كانت لا تقل عن عام ورُبما تزيد.

بعد نزولِ حسن للعمل في السابعة صباحًا تنتظر إلى أن تفتح المتاجر أبوابها في التاسعة ثُم تنزل للتسوق والمشتريات. في اليوم الأول قامت بشراء الكثير من المفروشات لغرف النوم والمناشف للحمامات، واليوم الثاني خصصته لكل ما ينقص المطبخ من أوانٍ وتموين، وفي اليوم الثالث ذهبت لبائع الأنتيكات بشارع البورصة، وابتاعت منه بعض الطقاطيق؛ فحسن كان مدخنًا شرهًا، وإذا لم يجد مطفأة أمامه لا يبالي حتى إن أطفأ الرماد على الأرض؛ لذلك لم تترك مساحة على منضدة إلا وقد وضعت فوقها مطفأة، في اليوم الرابع كان عليها أن ترتاح، وفي الخامس واصلت التسوق، وفي السادس انتابها الملل فكانت مُفكرة يومها ممتلئة في الأوقات الصباحية إلى الساعة الثالثة عصرًا؛ لتجد نفسها حتى الثامنة -موعد عودة حسن- لا شغل لها سوى التسكع من حجرة لأخرى، أو من نافذة لأخرى تراقب المارة والمتاجر.

تمنت أن تكون لها جارة مثل أحلام جارتها السكندرية التي تسكن في الشقة المجاورة لها، والتي كانت تشغل أوقات فراغها دومًا بقصصها التي لم تكن تنتهي أبدًا، وبفنجان قهوتها الصباحية الذي كانت تتناوله معها في شُرفتها المُطلة على البحر.. هُنا بالصدفة تلتقي من يمكن أن تتحدث معه أثناء هبوطها وصعودها على الدرج، تتبادل معه التحية ثُم يمضي كُل منهما في حاله.. حتى تلك الجارة النحيفة بشعرها الأشقر، لم تحاول أن تُلقي نظرة عليها وهي تقوم بتحيتها تحية الصباح أو المساء. لاحظ حسن أن حماسها قد فتر، وفي إحدى المرات وهما يتناولان العشاء في غرفة الطعام والتي كانت تشبه كثيرًا حجرة النوم؛ التي نحتت من خشب أبنوسي، وبطنت حوائطها بالخشب الذي رسمت عليه فينوس، والملائكة مُحاطة بها، كان تابلوهًا رائعًا بألوانه الزيتية التي وكأنها جفت للتو، وفي دولاب الفضية

رص طقم الصينى الذي نحت عليه روميو وجولييت، وقصة حبهما الشهيرة- نصحها قائلًا:

- نوال، يُمكنك شغل أوقاتك بشيء؛ فأنت تُفضلين القراءة.. لماذا لا تشترين كتبًا؟

كان حسن يشعر بالبؤس لحالها، ورُبما كان يلوم نفسه في ذلك؛ فهو كان يعرف أن مُفكرة يومها بالإسكندرية كانت مُمتلئة بالمواعيد والخطط التي لا تنتهي.

- لا تشغل بالك بي فأنا سعيدة هكذا.

- يوم الجمعة إن شاء الله سنتناول الغداء بالخارج في مطعم على ضفاف النيل.

ابتسمت له، كان ذلك الأسبوع الأول، وليس من اللائق أن تُشعره بالمسئولية مُنذ ذلك الحين؛ فلا تزال المدة طويلة، وكان يكفيه ما يعانيه من إرهاق في العمل، كان واضحًا جدًّا في خلوده للنوم بعد العشاء على الفور، وفي ذلك الصوت الذي يصدر عنه نتاج تعبه الشديد.

عملت نوال بنصيحة حسن؛ فارتادت المكتبة التي تقع على ناصية الشارع، كانت مكتبة كبيرة تتراص بها الكتب في أناقة ونظام على الأرفف الخشبية، التي تُحاذي السقف في الارتفاع. كل قسم خاص بنفسه؛ أدب، تاريخ، فن، علوم.. وضِعت يافطة نحاسية تُرشد القارئ للقسم الذي يريده، بينما وضعت في المنتصف طاولة خشبية مستطيلة بمقاعد مريحة لمن يريد القراءة خارج أسوار المنزل. كانت مسز أنجيل وزوجها هما صاحبي المكتبة، تستقبل مسز أنجيل الزبائن بابتسامة جميلة مُرحبة، وتعرض مساعدتها في البدء بتلك الكلمات الرقيقة:

- هل أستطيع مساعدتك في شيء؟

تلعثمت نوال عند زيارتها الأولى للمكتبة أمام سؤال مسز أنجيل؛ فهي لم تكن تعرف ما الذي تريده تحديدًا، لذلك ابتسمت قائلة:

- أشكرك سأبحث بنفسي.

بعد جولة في المكتبة اختارت رواية (مدام بوفاري) [8]، ونظرت إلى ساعتها، كان الوقت مُبكرًا؛ ففكرت أن تجلس لتقرأ هُنا، حتى تقضي على عقارب الساعة التي تدور ببطء مُميت.. مرت ساعة ونصف الساعة وهي تقرأ وتراقب زُوار المكتبة، كان البعض منهم يدخل ليشتري الجرائد الأجنبية أو المصرية، رجل في منتصف العمر تقريبًا كان قد دخل وسحب كتابًا من قسم الفلسفة لنيتشه. جلس يقرأ أمامها في هدوء، وفي الواحدة ظهرًا كانت قد غادرت بعدما ملأت لها مسز أنجيل بطاقة للعضوية تُتيح لها استعارة ما تشاء من الكتب التي لا يسمح ببيعها.

تجولت إلى أن وصلت للسوق بشوارعه وممراته الضيقة، والتي تصطف بها محلات الخضار والفاكهة، وأخرى للحوم، والكثير من البقالة والألبان.. كان تجار الخضار والفاكهة واللحوم من المصريين، بينما تقاسم البقالة والمخبوزات ما بين يونانيّ وفرنسيّ، بعدما قامت بشراء ما تريده، وصلت لها من ممر ضيق روائح ورد بلدي جميل وزهرة الزنبق العطرة، فتراجعت خطوتين للخلف لتفاجأ بمحل

جميل للزهور؛ فكانت الروائح تتحرش بها، تدفعها للدخول. تعرفت إلى صاحبته، سيدة إيطالية، ابتاعت منها باقة جميلة من زهور الزنبق، أصبحت المشتريات ثقيلة الحمل؛ فعرض عليها ولد نوبي صغير -ابن لأحد حراس المباني المُجاورة- المُساعدة على حملها، كان نهارًا مُشمسًا جميلًا، زاده جمالًا تلك الوجوه المبتسمة في وجهها للكثير من البشر من كافة الجنسيات؛ بدءًا من مسز أنجيل ببشرتها البيضاء الناصعة، ختامًا بذلك الفتى ببشرته السمراء الجميلة. أعدت العشاء بمزاج خاص، وفي الثامنة كانا يتناولانه بشهية مفتوحة، عندما لاحظ حسن التغيير في حالتها النفسية؛ فجلست تحكي له عن يومها...

في أحد الأيام طلبت منها فتحية الخادمة أن تقوم بفتح تلك الغرفة المُغلقة لتنظيفها:

- لا داعي لذلك، أنا أجهل أين هو مفتاحها.

- ولكن ليس من الجيد أن تتركي غُرفة مغلقة في المنزل حتى لا تسكنها الأشباح.

فتحية خادمة أمية، جاءت للمدينة بكل ما تحمله معها من عادات ومُعتقدات ريفية؛ لذلك كانت تتحدث بمنتهى الجدية بينما ابتسمت نوال قائلة:

- ما عفريت إلا بني آدم!

- ولكن يا هانم هذه حقيقة، وأخشى عليك من إيذائهم، فأنتِ تجلسين طيلة اليوم وحيدة بين أربعة جدران.

أثارت كلمات فتحية خوفها، خاصة عندما نبهتها أنها تجلس طَوال اليوم بمفردها.. كان صوت ارتطام إحدى القطط -وما أكثرها- بدرج الخدم بإحدى سلال القمامة الحديدية وحده كافيًا بجعلها تنتفض رُعبًا.

- إذن حاولي أن تقومي بفتحها، وإن كلفك ذلك كسر الباب.

تركت فتحية المكان مكتسيًا بالفوضى؛ فالدلو المعدني الذي تقوم بالمسح فيه بمنتصف الصالة، والمياه كانت تبلل المكان.. وذهبت لتفتح الغرفة، بينما كانت تفكر هل هي حقًّا كانت تخشى من تلك التفاهات التي تتحـدث عنها، أم كان ذلك ذريعة مُناسبة لجأت لها لتقوم بفتح تلك الغرفة التي كثيرًا ما تحرشت بها أثناء المرور أمامها لتعرف على أي سر أغلقت؟ ولماذا هي من دون غرف المنزل جميعها أُحكم إغلاقها بهذا الشكل؟ كما أنها كانت تكره مشهد الأبواب المغلقة؛ فهذا وحده كافٍ لأن يجلب الشعور باليأس والإحباط.

استعملت فتحية أدوات المطبخ من سكين ويد الهون النحاسية لفتح الباب.. وأخيرًا فُتِحَ عن رائحة تراب مُخزن منذ زمن، وكمٍّ هائل من الأشياء التي لا حصر لها تشغل مساحة الغرفة، وبصعوبة كان بإمكانهما الحركة، أكثر شيء لفت نظر نوال، ذلك الصندوق من الجلد الأسود الكبير بأبزيم معدني صدئ بفعل الزمن، كان من ذلك النوع الذي يشحن مع المسافرين عبر النهر، وهناك أيضًا الكثير من اللوحات الفنية اصطفت بجانب الصندوق الواحدة فوق الأخرى، وغُطِّيت بوشاح من

الكشمير الأزرق لحمايتها من الأتربة، بينما تناثرت فرشات وألوان جافة وحامل كبير للوحات.

- يا ألله، ما كل هذا!

نظرت لفتحية لتجدها وقد تجمدت كتمثال من المفاجأة التي وجدت نفسها أمامها؛ فكم سيكلفها ذلك الاقتراح بفتح الغرفة المغلقة؟ رُبما عمل شاق لأكثر من ثلاث أو أربع ساعات.

- جنت على نفسها براقش.

- من براقش هذه يا هانم؟

- لا تشغلي بالك، اهتمي باقتراحك في تنظيف الغرفة.

- سوف أقوم بنقل تلك الأشياء للخارج بعدما أنتهي من مسحها من الأتربة، ثُم أعيد الأشياء مرة أخرى للداخل.

- نعم هذا جيد ولكن حاولي أن تفتحي النافذة حتى يتجدد الهواء.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

12

كان كُل ما يشغل تفكير نوال ذلك الصندوق الأسود الكبير، وما يمكن أن يحتويه من أسرار، وهل من حقها فتحه؟ هي التي لم تكن تملك حق فتح الغرفة، عندما سلم لهما المندوب الشقة لم يحذرهما من فتحها؛ فقط أخبرهما أنه لم يعثر على مفتاحها. وما كل هذا الكم من اللوحات الفنية؟ ومن الذي قام برسمها؟ وهل لها علاقة بتلك اللوحات الجدارية التي في مدخل الشقة؟ علامات شاهقة للاستفهام وجدت نفسها أسيرة لها، لا تملك إجابة لأي منها، ولكن كان لوقع الدهشة والفضول اللذين امتلأت بهما ذلك الخدر اللذيذ الذي كان يسري في سائر أنحاء جسدها. تركت فتحية تقوم بعملها، وصنعت لها كوبًا من الشاي وجلست تراقبها وتُفكر.

تلك الشقة كانت مُغلقة منذ سنوات بعدما غادرها صاحبها، الذي كان يتبع الجالية الفرنسية لأنه -كما ذكر المندوب- كانت هُناك مشاكل وقضايا بين صاحب العقار ومالكي الشقة، وأخيرًا كسب صاحب العقار القضية، ورجعت له الشقة؛ فلم يُكلف نفسه عناء بيع محتوياتها، كل ما فعله أنه قام بتخزين تلك الأشياء في الغرفة، وقام بعرض الشقة للإيجار المفروش كما تركها أصحابها.

- لقد انتهيت يا هانم، يمكنك رؤية الغرفة الآن.. إنها تلمع من النظافة.

أغلقت الباب وراء فتحية، بعدما زودتها بعدة قروش في اليومية نظير جهدها على العمل الشاق الذي قامت به، ودخلت للغرفة لتراها وكانت حقًّا مُختلفة تمامًا، أخذت تتأمل في اللوحات المُتراكمة الواحدة فوق الأخرى، وعندها صاحت قائلة:

- يا ألله، يا له من فنان!

أمعنت النظر في الإمضاء، والتاريخ المدونين بخط خفيف ورفيع في زاوية بذيل كل لوحة.. كانت اختصارًا لحرفين فقط من اسم الفنان بالحروف الإنجليزية الكبيرة (N G) ...

وكانت التواريخ مُختلفة على كل لوحة، كان أقدم تاريخ هو 1868، وأحدث تاريخ هو 1873.. إذن رُسِمت تلك اللوحات على مدى السنوات الخمس، والآن نحن في 1901/10/28، ومر على تاريخ آخر لوحة ما يقرب من 28 عامًا. شيئًا فشيئًا بدأت الرؤية تتضح لها؛ فمن كان يسكن هُنا فنان، رُبما جاء إلى مصر في نهاية القرن التاسع عشر، وهل غادر أم لا؟ ومتى؟ وما اسمه بالكامل؟

لم تكن مُولعة بالفن التشكيلي، ومعرفتها به لا تتعدى دروس الرسم التي كانت تتلقاها في المدرسة عندما يطلب مدرس التربية الفنية كراسة للرسم وعلبة من الألوان الخشبية، ويطلب من التلاميذ رسم موضوع ما، ويتركهم وينشغل بعمل آخر، بينما البعض كان لديه الموهبة؛ فيرسم بكل ما يملك من حماس، والبعض كان يجلس يثرثر أو يضحك ويمرح.. هكذا كانت حصة التربية الفنية طوال السنوات الدراسية، ولكنها أمام تلك اللوحات وجدت نفسها تقف متأملة، ومندهشة أمام هذا العالم الجميل للفن.

كانت اللوحات مُعظمها لوجوه، والغريب أنها لم تجد بينها وجهًا مبتسمًا، كلها وجوه حزينة، مستجدية، شاكية، لأناس مختلفة الأشكال والأعمار، يسيرون بخطى مثقلة في اتجاه أقدارهم.. سيدة عجوز تقوم بحياكة قطعة من القماش، وأخرى تقف أمام باب كانت قد واربته، وتنظر بدهشة في اتجاه الزائر الذي لم يظهر منه سوى استقامة ظهره وبدلته الرمادية، كما كانت هُناك أيضًا مجموعة كبيرة للوحات الشرقية، الأسواق، المساجد والحمامات الشعبية، لوحة للخديو إسماعيل، وبجواره سيدة جميلة رُبما إحدى ملكات أوروبا، ومن هذا الرجل الوسيم الذي تكررت صورته في أكثر من لوحة صاحت عند رؤيته؟

- يا ألله، إن لديه عينين ساحرتين وقوامًا ممشوقًا، هذا الأسمر الطويل قطعًا هو مصريّ يرتدي عباءته، ويجلس بشموخ على جواد أسود.

وهُناك لوحتان لنفس الشخص إحداهما في حديقة كبيرة يسحب لجام جواده الذي تمتطيه سيدة أوروبية أنيقة ترتدي فستانًا للسهرة، ولوحة أخرى لهما في الحديقة نفسها، والوقت ليلًا والسماء ينيرها شعاع فضي من ضوء القمر، كانت تجلس على مقعد خشبي، بينما ينحني هو مرتديًا زيه العسكري، يضع حذاءً في قدمها.. جميلة هي، ورقيقة، يظهر على ملامحها الارتباك والخجل. لفتت نظرها تلك اللوحة بالذات، ووقفت كثيرًا لتتأملها.

ارتجف جسدها بشدة عندما جاء صوت حسن من خلفها ليخرجها من ذلك العالم الذي وجدت نفسها وجهًا لوجه معه بدون أن تغادر حتى منزلها:

- معقول! هل قمتِ بكسر الباب وفتح الغرفة؟.. ولكن لم يأذن لنا بفعل ذلك، إنها أمانة.

- لم ينبهنا أحد إلى عدم فتح الغرفة، ومادمت موجودة بالمنزل فهي تحق لنا.

- الغرفة كانت مُغلقة، ومخزنًا بها أشياء، وليس من حقنا فتحها أو حتى استعمالها، ثُم ما حاجتنا إليها، ونحن لا نستعمل سوى غرفتين فقط من سبع غرف.

- حسن، يمكنك أن تستبدل ثيابك وسأحكي لك كل شيء أثناء العشاء.

سخر منها حسن عندما حكت له ما قالته فتحية، وكيف أن الأبواب المُغلقة تثير أعصابها، وعندها ابتسم قائلًا:

- ولكنك لم تخبريني عن الفضول الذي يملؤك تجاه هذا المنزل ومحتوياته لدرجة أنه شجعك لتحطمي باب الغرفة، وتعبثي بأشياء ليست لكِ، وتعرضي نفسك للمحاكمة ورُبما للسجن.

- محاكمة وسجن؟ ما هذا الكلام؟ لماذا كبرت الموضوع إلى ذلك الحد؟!

- ما الحل إذن إذا حضر أصحاب هذه الأشياء ليأخذوها، وإن اتهمونا وقتها بسرقة شيء ثمين منها؟

- ولكننا لم نسرق شيئًا منها!

- عندما تعبثين بأغراض ليست لكِ فأنتِ سارقة.

ثارت بسبب كلمات حسن؛ فتركت المائدة بعصبية كاد على أثرها أن يتحطم الطبق وهي تزيحه جانبًا، وذهبت لغرفة الجلوس، واصطنعت القراءة لتهرب من نقاش قد ينتهي بمشاجرة كبيرة. جاء حسن بكوب من الشاي، وأشعل دخانه وجلس بجوارها يطالع الجرائد، بينما كانت تفكر، ورتبت ما الذي عليها فعله، وعندها أغلقت الكتاب -الذي لم تقلب صفحة منه طوال الساعة- ألقت عليه تحية المساء، وخلدت للنوم.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

13

استيقظت على رنين الجرس، كان ساعي البريد يُسلمها رسالة وصلتها من أمها، قرأت الرسالة بلهفة؛ فقد كانت مُشتاقة لها كثيرًا، تخيلت أمها وهي تقص عليها الأحداث التي في الرسالة بنبرة صوتها الصباحية الدافئة.. أمها تلك التي لم تغادرها يومًا، حتى بعد زواجها كانت تقوم بزيارتها على أيام متقاربة؛ لذلك أخذت في سرد كل قصصها المؤجلة، صنعت بها كلمات أمها، ودعاؤها لها حالة من الاسترخاء والصفاء كانت كثيرًا ما تحتاج إليهما، حقًّا كانت في شوق إلى حديث دافئ وحار.

ارتدت ملابس المخبر السري الذي كانت قد قررت أن تكونه لتبحث في تاريخ تلك الشقة، نزلت من المصعد وألقت تحية الصباح على عم عبده حارس العقار، ذلك الرجل النوبي الطيب؛ فهو كان خير من يدلها، استقبلها بابتسامة واسعة، وأسنان تضاهي في بياضها جلبابه الأبيض.

- عم عبده، كنت أريد أن أعرف منك من الذي كان يقطن بالشقة التي أسكن بها الآن؟

وضع يديه على رأسه، وكان يحك بشعره الذي وضع عليه طاقية بيضاء، ودخل في تفكير عميق مرددًا:

- من كان يسكن الشقة رقم 15 الدور الثالث يا عبده يا عبده؟!

ثُم وكأنه تذكر شيئًا:

- لا أعرف سيدتي؛ فمنذ انتقالي للعمل هُنا منذ السنوات الخمس كانت خالية، وكنت أعلم أن هُناك قضايا بين صاحب العقار الجديد ومستأجري الشقة.

أصابها عبده بخيبة أمل؛ فهو كان أول خطط بحثها، بل رُبما كان بإمكانه أن يوفر عليها الكثير.

- ومن كان يقوم بحراسة العقار من قبلك؟

- ابن عمي عبده.

- وأين هو ابن عمك عبده الآن يا عبده؟

- ابن عمي عبده عند الله الآن قد توفاه الله منذ ست سنوات، وقد جئت بدلًا منه لحراسة العقار.

- ولكن ألا يوجد أحد من الجيران بإمكاني سؤاله عن سكان تلك الشقة؟

- هُناك زكي يواقيم بيه، فهو يسكن في الشقة التي تعلوك تمامًا، ومؤكد أنه يعلم الكثير.

- ولكن هل زكي يواقيم موجود الآن؟ هل باستطاعتي مقابلته؟

- لا، هو يذهب لمتجره في تمام العاشرة صباحًا، ولا يحضر إلا في التاسعة مساءً، رُبما زوجته موجودة الآن يمكنك مُقابلتها.

- عبده سأطلب منك صنيعًا.. هل لك أن تطرق بابها، وتخبرها أنني أريد مُقابلتها الآن أو في أي ساعة تريدها؟

تركها الرجل، وصعد لينزل إليها بعد خمس دقائق، ويُخبرها أن الخادمة أخبرته أن سيدتها ذهبت إلى المعبد اليهودي؛ فاليوم السبت موعد الصلاة.

خرجت من البناية بعدما أحبطها عبده بذكائه المتقد، وأخذت في التساؤل أي نوع من البشر يصنف؟ قادتها قدماها إلى المكتبة، فلم تكن تملك أي خطط أخرى.. استقبلتها مسز أنجيل بذات الابتسامة، بينما كان مستر بيتر زوجها الإنجليزي العجوز مُعلقًا فوق السلم الخشبي الطويل يجلب أحد الكتب لزبون. كانت تُراقب مسز أنجيل وهي تخطو على خشب الأرضية بوقع حذائها العسكري، وبجونلة من البليسيه الأزرق يقف طولها عند الركبة، وتحتها جورب من النايلون الأسود؛ فتظهر ساقاها الطويلتان النحيلتان البيضاوان، تجلس على المكتب بجوار المدخل وتدخن بشراهة وهي تطالع كتابًا أو جريدة. تذكرت وقتها أنه عند تدوين بياناتها عند سؤال أنجيل على عنوانها لتملأ به خانة بطاقة الاستعارة أجابتها:

- 15 شارع سليمان باشا.

فتوقفت عن الكتابة ثُم ضيقت حدقة عينيها وهي تُخبرها بأن هذا العنوان كانت قد كتبته مرارًا في زمن سابق عندما كانت لا تزال تلك الفتاة الصغيرة التي تقدمت لشغل وظيفة أمينة المكتبة.

- متى انتقلت إليها؟

- منذ حوالي أسبوع.

لذلك وجدت نفسها تُغادر مقعدها، وتذهب إليها لتسألها:

- مسز أنجيل، عندما أخبرتك بعنواني في المرة الماضية، كنتِ قد سألتني هل انتقلت إليه قريبًا؛ لأن أحدهم كان يسكن نفس الشقة، وهو من زبائن المكتبة، ويتردد عليها باستمرار؛ فهل لكِ أن تخبريني من هو؟

هل حماسها في السؤال أم غرابته أثارت شكوك السيدة الإنجليزية التي أخذت في ملاحقتها بالأسئلة بمن وماذا وكيف؟

أجابت أنه فضول ليس أكثر؛ لأن الشقة تركت كما كانت عليه، وقد أعجبها ذوق صاحبها، وتريد أن تعرف من كان لديه الأناقة والذوق.

- رُبما علينا أن نسأل بيتر؛ فهو يملك ذاكرة قوية، كما أنه كان يعمل بوظيفة أمين للمكتبة قبل أن يتوفى مالكها الأصلي ويمنحها له.

سألت أنجيل زوجها الذي يتحدث بلكنة إنجليزية صميمة، ولا يتحدث عربية مكسرة كما تفعل زوجته.. كان رأس مستر بيتر أصلع إلا من ثلاث أو أربع شعيرات تقف

على أعقابها بالمنتصف، فمزجت هيئته الحازمة بشكل مُضحك؛ خاصة تلك البذلة من الصوف الإنجليزي، بجاكت ضيق وقصير يحرص على أن يقفل أزرارها جميعًا، بحذاء كارو من الأبيض والأسود، وبربطة عنق رفيعة من نفس لون الحذاء.. وبدون أي تفكير، وكما قالت مسز أنجيل إن لديه ذاكرة فولاذية أجابها:

- إنها مودموازيل نتاليا جونسن.

فجأة وجدت نفسها تتذكر الإمضاء بالحروف الأولى من اسمها، وقامت بسؤاله:

- ولكن أين هي الآن؟

- كانت زبونة للمكتبة منذ افتتاحها، كانت تأتي لتسأل عن الجرائد الفرنسية: لوفيجارو وبونجور باريس، وأحيانًا كانت تشترى أوراقًا وألوانًا للرسم، ومرات كانت تستعير كتبًا عن الأدب والفن.. أتذكر جيدًا كيف كانت تأتي إلى هنا في الساعات الأولى من الصباح لتتابع بلهفة أحداث الحرب السبعينية [9] التي دارت بين فرنسا وألمانيا في الصحف والمجلات، ولكن هذا كان منذ وقت طويل.

- مستر بيتر هل هُناك أي من أصدقاء لها أو معارف يمكنه أن يمدني بمعلومات عنها؟

- لا أعتقد سيدتي؛ فهي كانت قليلة الكلام، ولا أذكر أنه على مر كل تلك السنوات التي كانت تأتي فيها هُنا أننا تبادلنا كلمات أكثر من تحية الصباح، ولكن أتذكر جيدًا أنها كانت تشتري باستمرار طوابع بريد، وأظرفًا للرسائل؛ فهناك إذن من يراسلها، ومن الجائز أن تكون قد غادرت إلى بلادها بعد انتهاء الحرب، وخاصة أنه منذ ذلك التاريخ تقريبًا لم أرها مجددًا.

- ومنذ متى كان ذلك التاريخ؟

- لقد مر عليه أكثر من ربع القرن تقريبًا.

- كيف كان عمرها، شكلها، طريقتها في الكلام، في السلام؟

أخيرًا تخلى بيتر عن التكشيرة التي ترتسم على وجهه، وابتسم قائلًا:

- أراك كثيرة الاهتمام بها.

- حقًّا أنا معجبة بها، وبفنها بشكل كبير.

- هي جميلة ورقيقة.. إنه ذلك الجمال الفرنسي.. كانت في بداية الثلاثينيات من عمرها تقريبًا، تهتم بأناقتها كثيرًا، لها ابتسامة جميلة وتتحدث الفرنسية بصوت محبب وجذاب له رنين موسيقيّ.

كانت مسز أنجيل تتابعه بنظرات مفترسة قائلة:

- ألذلك لم تكن تدير نظراتك عنها منذ أن تدخل إلى أن تُغادر؟!

ارتبك مستر بيتر، وتحولت بشرته البيضاء لحمراء قاتمة...

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

14

غادرت بعدما وضحت الرؤية أكثر، ولكن كان هُناك الكثير من الضباب يُغلفها. إذن تلك السيدة اختفت منذ ما يقرب من سبعة وعشرين عامًا، ولا أحد يعلم هل توفيت أم غادرت البلاد.

استقبلها عبده الذي كان يجلس على دكة خشبية بجوار باب العمارة. انتصب واقفًا أول ما شاهدها مقبلة عليه، وجاء إليها ليخبرها بأن زوجة زكي يواقيم بك بانتظارها في الخامسة تمامًا. كانت الثالثة إلا ربعًا بساعتها..

أمامها مُتسع من الوقت لتأخذ حمامًا ساخنًا، وتستعد للقائها وهي بمظهر لائق. ملأت المغطس بالماء الساخن، وأخذت تُفكر ما هذا الذي تفعله؟! ولماذا هي مأخوذة بتلك الحكايات؟ ولم لا تفعل مثل حسن ولا تهتم بالأمر؟!

هل الفراغ والوحدة اللذان تحيا معهما جعلا الفضول يتملكها أكثر؟.. أخيرًا أقنعت نفسها أن في هذه الأحداث الكثير من الألغاز، وأنه لا دخل للفضول في شيء.

ارتدت «تايور» من التويد الأزرق، وحذاء عالي الكعب بنفس اللون، وضعت مسحة خفيفة من أدوات التجميل وتعطرت وغادرت. فتحت لها الخادمة الباب وهي ترتدي ملابس الخدم كاملة، وقادتها لغرفة الصالون، كان المنزل متكدسًا بقطع الأثاث غير المتناسقة بالمرة، والذي يدل على مدى رداءة الذوق التي يتمتع بها صاحبها.. علقت على الحائط صورة فوتوغرافية كبيرة لرجل طاعن في السن بملامح جامدة، وطربوش فوق رأسه.

أجلستها الخادمة في المقعد المقابل له؛ فشعرت وكأنه يُراقبها.. فكانت تُريد أن تترك كل شيء وراءها وتمضي.

مرت دقائق قبل أن تأتي بثقل الخطى السيدة صاحبة المنزل، والتي لم تعرف اسمها حتى الآن.. سمينة تلك السمنة المفرطة بشعر أسود قصير، وبملامح محببة، ترتدي كنزة سوداء اللون يكاد كمها يغطي جزءًا من ذراعها السمينة بقطع لحم تتدلى منه. ضغطت على يدها بحرارة، وعرفتها بنفسها قائلة:

- يمكنك مناداتي كوكي.

ولكن ما هو اسمها الحقيقي المختصر منه تلك الحروف (كوكي)؟!.. لم تفصح عنه بينما كان يمكننا محاولة تخمينه: (كلويت، كارول، كريمة).

- أنا جارتك، أسكن في الطابق الأسفل.. انتقلنا للشقة منذ قرابة الأسبوع.

- أهلًا وسهلًا.. أنرتِ، أين كنت تسكنين قبل ذلك؟

- في الحقيقة أنا لست من القاهرة، أنا من الإسكندرية، ولظروف عمل زوجي كان علينا القدوم للقاهرة.

جاءت الخادمة بصينية وضع عليها فنجانان من القهوة، وطبق كبير من الكيك.

التهمت كوكي الكيك على عجل، ولم تعبأ حتى بالفتات الذي تناثر على ملابسها، وعندما لاحظت أنها لم تمد يدها للطبق بعد قالت:

- إنها لذيذة تفضلي.

اعتذرت بأنها لم تتناول غداءها بعد، أثار هذا استغراب كوكي عندما نظرت في الساعة الجدارية وقالت مستغربة:

- إنها الخامسة والنصف!

- أنا عادة لا أتناول غدائي قبل الثامنة مساءً، عندما يرجع حسن زوجي من العمل.

ابتسمت قائلة:

- كنت أفعل ذلك عندما كنت زوجة حديثة، كان زكي يحضر قبل منتصف الليل بقليل، وكنت أنتظره لنأكل معًا، أما الآن فليس هُناك داعٍ لذلك.. كُل منا يأكل بمفرده.

واصلت كوكي أسئلتها:

- هل عندك أطفال؟

- لا.. ليس بعد؛ فلم يمر على زواجي سوى ثلاثة أشهر.

- إذن فأنت زوجة حديثة!

ابتسمت قائلة:

- أنا لي ثلاثة أولاد وابنتان، أكبرهم عزرا في الثلاثين من عمره، استكمل تعليمه العالي بسويسرا وفَضَّل الإقامة هُناك.

سألتني قائلة:

- وكيف وجدتِ القاهرة؟

- تقصدين كيف وجدت وسط المدينة؛ لأنني لم أغادرها بعد، إنها جميلة.. أحببت مبانيها، وشوارعها النظيفة، وسكانها من الطبقة الراقية.

- نعم هي أرقى منطقة بالقاهرة، انتقلت لهذا المبنى بعد بنائه بعدة سنوات، كنا نسكن بإحدى الفيلات بشبرا، وفي أحد الأيام أخبرني زوجي أن والده الخواجة يواقيم -تاجر الأقمشة المعروف- سيشتري شقتين في بناية جديدة بمنطقة الإسماعيلية -كما كان يطلق عليها نسبة إلى الخديو إسماعيل باشا مؤسسها- وهي أحد أحياء القاهرة الخديوية التي أشرف على بنائها وهندستها مهندسون أجانب.

كانت للمرة الأولى تسمع ذلك الاسم فكررته:

- القاهرة الخديوية! وأين تقع؟

قهقهت قائلة:

- إنها كل المباني التي أمر بإنشائها الخديو إسماعيل على الطراز الأوروبي، وخاصة على نهج مدينة باريس.. كان يريد أن يصنع من القاهرة باريس الشرق، وقد نجح في ذلك.. ألم تذهبي إلى باريس مسبقًا؟

- نعم.. في الحقيقة، لم تتسن لي فرصة زيارتها.

- الأغرب من كل ذلك أننا عند زيارتنا لحديقة لوكسمبورج [10] لم نجد فارقًا بينها وبين حديقة الأزبكية؛ وكأنها نُقلت هُنا بممراتها وحدائقها، مقاعدها وزهورها، رُبما الفارق الوحيد في اختلاف المناخ.

ثُم أضافت:

- قبله كانت مصر خربة؛ شوارع غير ممهدة، لا وجود لكهرباء أو مياه، أو تخطيط عمراني جيد. كان أبي قطاوي باشا صديقًا مقربًا له، وكان دومًا مذهولًا بعقلية الخديو إسماعيل، وحماسه في إقامة المشروعات؛ إنه مُختلف تمامًا عن جده عباس باشا وعمه سعيد باشا، لم يكن هُناك هم لهما سوى تنفيذ طموحاتهما الشخصية، لو نظرنا لقائمة أعمال كل منهما لوجدنا الفرق الكبير، ومع ذلك كان الخديو الوحيد الذي استبعد من الحكم، ولام عليه الكثير، واتهم بإغراق خزينة الدولة بالديون.

كانت تملك ثقافة عالية بما يلائم بنت باشوات.. صمتت أخيرًا، وكانت فرصة لتسألها عن سبب زيارتها.

- كوكي هانم، هل تعرفين من الذي كان يقطن بالشقة التي نقيم بها الآن؟

وكانت متأكدة لأنها ستجيب عن سؤالها بسؤال:

- لماذا؟

- الشقة التي أقيم فيها استأجرتها الشركة التي يعمل بها زوجي، وعلمت أنه كان هُناك الكثير من المشاكل بين مالك البناية وصاحب الشقة، لذلك ترك الحال كما هي عليه بالأثاث والديكور وغرفة ممتلئة بالأمتعة الشخصية تلك الأشياء الخاصة جدًّا التي يجب أن تسلم لأصحابها.

كان مظهرها غير مقتنع بالكلام، ولكنها صمتت برهة وأضافت:

- إنها سيدة وحيدة كانت تسكن بمفردها، أعتقد أنها كانت رسامة.. لم ألتقِ بها سوى مرة أو مرتين على الأكثر، كنت أصادفها تغلق باب شقتها، أو نتبادل التحية على السلم أثناء صعود أو هبوط أحد منا، كانت سيدة جميلة وأنيقة دومًا تخلف وراءها رائحة عطر جميل يعبق المكان كله.

توقفت برهة كمن تتذكر شيئًا ثُم قالت:

- أخبرني يواقيم أنه في إحدى المرات كان عائدًا في وقت متأخر من الليل، شاهدها وهي تُغادر البناية وهي في حالة سيئة، حتى لم تهتم لتلقي عليه تحية المساء أو تردها.

ثم أضافت:

- ولكن بإمكانك أن تسألي صاحب المبنى؛ فهو الوحيد الذي بمقدرته أن يدلك عليها.

لا تعرف في أي شيء ثرثرت أيضًا كوكي؛ فقد كانت مشغولة عنها بأفكارها، ودعتها عند الباب على وعد بزيارة قريبة بعدما كتبت لها عنوان صاحب المبنى.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

15

كان اليوم يوم الجمعة، وكانت قد قررت -هي وحسن- أن يقضياه بالخارج، شجعهما في ذلك الجو الخريفي المُمتع.. انشغال حسن عنها في الفترة الماضية جعلها تزداد في حنينها وشوقها إليه، لذلك كانت تسير بجواره محتضنة ذراعه، وقريبة منه إلى حد كبير.

- إلى أين تريدين أن تذهبي؟

- دعنا نتريض على كوبري قصر النيل، ثُم نذهب للغداء، وبعدها نشرب الشاي بحديقة الأزبكية.

- ما كل هذا!.. إنها خطة مُحكمة، ولكن لماذا كوبري قصر النيل وحديقة الأزبكية؟

- كوكي قد أخبرتني بأن حديقة الأزبكية تُشبه تمامًا حديقة لوكسمبورج [11] الفرنسية، وأن كوبري قصر النيل صممته شركة فيف ليل [12] الفرنسية

- انتظري.. انتظري مَنْ كوكي هذه؟

أخبرته أنها إحدى جاراتها، وقد التقت بها في المصعد وتعرفت عليها، لم تكن تشأ أن تفسد نزهة اليوم، خاصة أنه كان سريع العصبية.

جلسا على مقعد خشبيّ على الجسر لا يفصلهما عن عمق المياه سوى تلك الخرسانة الحديدية، كان الجو هادئًا وجميلًا تداعبهما نسمات للهواء.. وجدت حسن يزفر بحرارة قائلًا:

- عبقري!

- مَنْ؟

- مُصمم ذلك الجسر الذي قطع به الطرق ليصل بين الضفة الشرقية والضفة الغربية، ويخرجه بمثل هذا العمل الفني البديع.

- إنه أحد تصميمات شركة (ليل) الفرنسية، وهي من كُبرى شركات هندسة المباني.

- إسماعيل كان يعشق كل ما هو أوروبي، ولو أنه استعان بمهندسين وعمال مصريين لكانوا أنجزوا مثل تلك الأعمال وأحسن منها.

وقتها ابتسمت بسخرية مما زاد من غضب حسن وحماسه، ثُم أخذ يلومها قائلًا:

- لماذا؟! وهل نسيت أننا بناة الأهرام؟!.. أجمل وأروع بناء في التاريخ، ولكن هؤلاء الحكام، أو المستعمرين بمعنى أوضح، رفضوا أن يمنحوا تلك الفرصة للمصري؛ فهو في نظرهم الفلاح أو العامل فقط! أليس هذا الذي ورطه دليسبس [13] في أموال لا طائل لها، ولم يكن يبغي من كل هذا سوى شرف الوجاهة، بينما كان شعبه لا يجد ما يلزمه ليأكله!

- أراك متحاملًا عليه!

- نعم عليه وعلى أجداده أيضًا، انظري إليهم منذ تولى محمد على حكم مصر، ورغبته في بناء إمبراطورية خاصة؛ فبدأ في تشييد مصر الحديثة، وأخذ يحكم ويتحكم في تلك البلاد، وهؤلاء المساكين، وكأن مصر وأرضها وناسها وثرواتها قد آلت له بالوراثة، ولأن العرق يمد لسابع جد كان إسماعيل مثله تمامًا يملك كل تلك الآمال والتطلعات التي يعمل على تحقيقها بدون أدنى اعتبار لأي شيء آخر.. لو نظرت لنهاية كل منهم لاستغربت حال الدنيا؛ محمد على مات بعد إصابته بالخرف العقلي، سعيد قتل من خدم عنده بالسرايا، ولم يذيعوا الخبر حينها؛ بل أشاعوا أنه مات ميتة طبيعية، وسريعًا ما قاموا بتكفينه ودفنه في الإسكندرية بمقبرة النبي دانيال بدون أي مراسم وداع رسمية تليق بوالي وخديو مصر، عباس الذي طاف أنحاء العالم وأوروبا ومن بلد لآخر يقتني كل ما يراه ثمينًا وغاليًا حتى إنه يومًا طلب صنع يخت مطابق ليخت ملك إنجلترا بينما كان يتعامل مع الشعب بالكرباج!.. هل تعلمين أنه قام بخياطة فم وصيفة في القصر لقيامها بالتدخين في جناح الحريم؟!.. بعد موته يهلل الشعب وتضيء الشوارع بمصابيح الزيت ابتهاجًا برحيل أيام عاشتها مصر في الظلام، وإسماعيل الذي أدت به طموحاته اللامتناهية سعيًا لتوسيع سلطاته، والانفراد بإدلاء الأوامر والفرمانات بعيدًا عن أسوار الباب العالي وافق على زيادة الضرائب على مصر لصالح الباب العالي، والتي كان يقتطعها من دماء الشعب المسكين، وأخيرًا

أمر السلطان بنفيه خارج البلاد.

- حسن.. ليس علينا أن نبخس حق أحد، كل منهم كانت له حسنات، مثلما كان عليه من سيئات، فلولا إسماعيل لم نكن لنجلس هُنا الآن مستمتعين بمشهد النيل وبهذين الأسدين اللذين نُحتا من البرونز.

- وتُرى من الذي سيدفن تحتهما؟

- يدفن تحتهما! ما هذا الذي تقوله؟

- في حادثة حريق الإسكندرية عندما جلس «سليمان دواد» حكمدار البوليس وقتها في ميدان القناصل تحت تمثال محمد على باشا، وكان الإنجليز على الضفة الأخرى في طريقهم لاحتلال البلاد، أمر الأهالي والعسكر بإشعال فتيل الحرائق، وأشار عليهم قبلها بسلب ونهب المتاجر حتى لا يهنأ بها الإنجليز، وعندما تراكمت الجثث في ذلك المكان قاموا بالحفر، ورميها وردم التراب فوق المئات منها، وبعدها بعدة أشهر يعدم هذا الرجل في ذات المكان الذي تجلت تلك الفكرة المجنونة برأسه.

- يا لها من فكرة مجنونة! فأي عقل طائش كان يملكه وقتها، هل ليحمي مدينة يقوم بحرقها؟!

- إنه عقل غريب، وهذا التفكير الطائش استخدمه قبله بمئات السنوات الوزير (شاور) أثناء خلافة العاضد الفاطمي عام 565 هـ- عندما غزا عموري ملك بيت المقدس القاهرة وعجز (شاور) في الدفاع عنها، وقتها أمر بإخلاء مدينة الفسطاط

من السكان، وحرقها حتى آخرها.. في مشهد كان له فظاعته وصفه المقريزي قائلًا: (بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة، وعشرة آلاف مشعل، وارتفع لهب النار ودخان الحريق، واستمرت الحرائق موقدة تأتي على مساكن الشارع لمدة أربعة وخمسين يومًا).

- يا ألله، أي خراب ذلك!.. إنهم تمامًا كالأطفال التي تقوم بتحطيم ألعابها حتى لا يشاركهم اللعب فيها، أو يستمتع بها أطفال آخرون.

أخذت تفكر فيما بدَّل حسن ليصبح ذلك الرجل؛ فأين هي كلمات الحب والهيام التي كان يشحن بها طاقتها للحياة مُجددًا؟ ولماذا تبدل حديثه الآن عن جثث وحرائق؟.. لاحظ حسن إصابتها بالحزن، ورُبما فهم أن عليه تغيير الموضوع.

- ما لنا نحن بمن قتل ومن نهب ومن حرق!

طوقها أكثر بذراعه.. كانت الشمس قاربت على المغيب عندما غادرا ليتناولا غداءهما في المطعم على الضفة الأخرى من النهر.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

16

بعد مغادرة حسن العمل في صباح السبت، امتدت يدها بنصف عين مستيقظة ونصف ناعسة في خزانة ملابسها لترتدي مُسرعة ثيابها، وتذهب في ذلك الاتجاه لذلك العنوان الذي تركته لها كوكي في الورقة، كان على مقربة منها، رُبما يبعد عنها ببناية أو بنايتين، دقت الباب ليفتح لها خادم نوبي، ويدعوها للدخول، والانتظار بحجرة المكتب.. فكرت: أي عقل طائش هو الذي يحكمها، ويدعوها تذهب لذلك العنوان رجل لا تعرف عنه شيئًا؟!

دلف إلى الغرفة.. رجل في الستين من عمره، نحيف وطويل، يرتدى ملابسه كاملة.. حياها بابتسامة مهذبة.

- أنا مدام نوال بخيت، المستأجرة للشقة رقم (15)، بالدور الخامس، بمبنى سليمان باشا.

- أهلًا وسهلًا، خير؟.. هل حدث شيء؟

- في الحقيقة كنت أريد معرفة ما إذا كانت مالكة الشقة السابقة مازالت موجودة بمصر أم غادرت إلى بلادها؟

أوقعها في مصيدة لماذا، والتي لا تجد لها مبررًا مُقنعًا حتى الآن؛ فبماذا كان عليها أن تجيبه؟ هل تفشي سرها؟.. هي مأخوذة بها وبفنها، كما أنها خشيت أن تخبره بأمر تلك الأمتعة الشخصية حتى لا يبعث في أخذها..

ارتبكت كاذبة تقول:

- لأنها كانت فنانة متميزة، ولها لوحة جدارية تشغل الحائط أعجبتني كثيرًا، ففكرت إن كانت لا تزال هُنا يمكنها أن تقوم برسمي.

قهقه بسخرية ثُم قال:

- تلك الشقة كانت إحدى أربع شقق في تلك البناية، وكانت مؤجرة للقنصلية الفرنسية ليقيم فيها أبناء بلدها، الذين يفدون للبلاد بأمر رسمي.. أنا أتعامل مع القنصلية في مثل تلك الأمور، وليس مع أفراد؛ لأن العقد موقع باسم القنصلية.. يُمكنك السؤال هُناك.

وأضاف:

- ولكن تلك الشقة كانت مُغلقة لسنوات طويلة، حتى إن القنصلية نفسها لا تعرف إن كان صاحبها غادر البلاد أم انتقل لمكان آخر بدون سابق إنذار.

غادرت بعدما شكرته، وكانت تمشي في طريقها، وبمحاذاتها علامات الاستفهام. حاولت أن ترتب المعلومات التي عثرت عليها بدءًا من مستر بيتر ومدام كوكي وصاحب الشقة.. ظهر الكثير من الحقائق، ويمكنها أن تخمن أن تلك السيدة جاءت إلى مصر في مهمة رسمية في أواخر القرن التاسع عشر، وبالتحديد رُبما كان في

عام 1868؛ لأن ذلك تاريخ أول لوحة قامت برسمها، كانت في وداع سيدة عجوز لأحد أحفادها، تقف على رصيف الميناء مُلوِّحة له بمنديلها الأبيض.. بينما هو يقف على سطح الباخرة يلوح لها بقبعته، وبعيون كلها خوف من عدم اللقاء مُجددًا، وغالبًا كانت تلك اللوحة قد رسمتها لمشهد حقيقي عند استقلالها الباخرة لمجيئها لمصر، ولكن أي مُهمة رسمية هي التي تستمر كل تلك السنوات؟! مُؤكد أنها لم تغادر بعد انتهاء العمل الذي جاءت من أجله، وببساطة خمنت أن تلك السيدة لم تتزوج، ولم يكن لها الكثير من الأصدقاء.

كانت تعصف بها الأسئلة والأفكار، وكان حدسها يخبرها أن في ذلك الصندوق الأسود ما يقودها للإجابة عن تلك الأسئلة. ولكن هل كان مُباحًا لها فض أسراره بدون أن يتهمها أحد بالعبث فيه دون وجه حق!

ذهبت لارتداء ثيابها، ونزلت للتسوق بعدما كانت قد قررت أن تبحث عن عنوان القُنصلية الفرنسية، وتقوم بزيارتها لاحقًا. وكان ذلك نهاية لطرف الخيط من تلك البكرة الصُّوفية مُعقدة الخيوط... وهي تهم بفتح الباب كانت خادمة كوكي أمامها، جاءت لتخبرها أن كوكي هانم ستأتي لتحتسي معها شاي الخامسة عصرًا، تيقنت أن كوكي وجدت فيها الأذن التي تنصت باهتمام، كانت فرصة لها أيضًا لتضع حدًّا لأوهامها المُفرطة، وتجاذب أحد أطراف الحديث.. فابتسمت لها قائلة:

- تشرف في أي وقت.

في الخامسة تمامًا كانت كوكي تقف مُتسمرة أمام التابلوه على الحائط، وبعد جولة بأنحاء الشقة قالت:

- أشعر أنني أتجول داخل أحد المعارض الباريسية المختصة بالفن والموبيليات، هذه القطع من الأثاث قد شاهدت مثيلها في المتاجر الفرنسية، وتلك التحف المتناثرة أيضًا.

وأضافت: ولكن هل تلك الفنانة كانت تقوم باستيراد ذلك الأثاث من فرنسا؟ أم أنها قد صممته عند أحد صناع الأثاث هُنا؟

ابتسمت عندما فكرت في أنها رُبما تكون قد سربت بعضًا من ولعها بتلك السيدة لكوكي؛ فهي الآن تقف مذهولة، وتدور بها في حلبة الأسئلة، لم تخبرها عن أمر تلك الغرفة، ولا عن الكنز الذي عثرت عليه بها؛ فهي من الواضح أنها تملك من التطفل والفضول أكثر منها، فربما دخلت فورًا لتقوم بفك الأربطة والأبازيم عن الصندوق.

وضعت أمامها صينية الشاي، وأطباق الجاتوه؛ فالتهمته بشهية مفتوحة.. كانت تحمل قدرة خارقة على الحكي، والتطرق للمواضيع.. حكت لها عن حماتها تلك اليهودية المتدينة، وعن تدخلها السافر في حياتها الزوجية بكل ما تحمله معها من طقوس يهودية قد عفا عليها الزمن. وأخيرًا كانت ساعة الحائط تدق لتعلن السابعة عندما شهقت قائلة:

- السابعة بهذه السرعة! الحديث معك ممتع لا آخر له، عليَّ بالاستئذان الآن فزوجك على وصول.

- وماذا يهم! اجلسي لنتناول العشاء معًا.

- شكرًا عزيزتي، أعدك لاحقًا أن نتناول العشاء جميعنا، ويكون عشاءً عائليًّا حميمًا.

أخبرت حسن بأمر ضيفتها؛ فابتسم عندما علم أنها أخيرًا عثرت على صديقة لها، ولكن تبدلت تلك الابتسامة سريعًا عندما علم أنها يهودية، وأخذ يلومها.

- ولكنى لا أشعر معها بأنها يهودية، فهي لا تعير اختلاف الديانة أي اهتمام، بل تنتقد حماتها اليهودية المتدينة، وطقوس ديانتها الغريبة.

- لا أعرف نوال بماذا أجيبك، ولكن احذري منها فهم كثيرو الدهاء!

- علاقتي بها لا تتعدى تلك الثرثرة النسائية عن شئون البيت والمطبخ والأولاد، هذا لا شيء.

كان رد فعل أمها عندما علمت بأمر جارتها اليهودية مناقضًا لحسن، فقد شجعتها على تلك الجيرة والصداقة، وحكت لها عن نوادرها مع صديقتها (إستر)، تلك اليهودية التي وفدت عائلتها من حلب لمصر منذ الكثير من السنوات، وكيف أنها كانت تذهب معها للمعبد اليهودي، وتساعدها في الإعداد لمأدبة العيد بالتنقية الدقيقة للأرز من الشوائب العالقة به المرة بعد الأخرى، وتطهير المنزل من أي كسرة خبز وفقًا لمعتقدات دينية راسخة.

أغلقت وراء حسن الباب بعد وداعه في طريقه للعمل، واستعدت للذهاب إلى القُنصلية الفرنسية التي كانت على بعد عدة أمتار من مسكنها.

استقبلتها السكرتيرة، وسألتها بالفرنسية عن طلبها.. حمدت الله أنها كانت تتقن الفرنسية؛ فهي كانت لغتها الأولى في جميع مراحل الدراسة.

- كنت أريد الاستعلام عن إحدى السيدات التي وفدت إلى مصر في العمل بمهمة رسمية منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وقد اختفت منذ فترة طويلة ولا نعلم لها مصيرًا.

- هل تريدين أن تقدمي بلاغًا بخطفها؟

وقتها تملكها الذعر.. أي خطف هذا الذي تتحدث عنه؟!

- لا، أنا.. أريد فقط أن أعرف هل غادرت البلاد، أم رحلت عن الحياة؟

- وما صلة قرابتك بها؟

- صديقة لأمي.

- يمكنك الاستفسار عن طلبك في شئون الوافدين بالدور الثالث.. المكتب على اليسار.

وفي الدور الثالث، المكتب على اليسار أخبرها الموظف أنها يجب أن تحصل على بيانات كافية كتاريخ الميلاد، والاسم الثلاثي، وتاريخ وفودها للبلاد؛ فقد كان هُناك الآلاف من الفرنسيين، والبحث بدون تلك البيانات صعب إن لم يكن مستحيلًا.

هي التي ذهبت يملؤها الأمل، كانت قد غادرت بعدما أصابها اليأس.. ولأنها لا تحب أن تقع تحت سطوة الشعور باليأس؛ كانت قد عزمت على فتح ذلك الصندوق الأسود المتربص بها، وقد وجدت ذريعة مُناسبة؛ فهي تبحث عن عنوان تلك السيدة لتثني لها على أعمالها، ورُبما تقوم بإرسال تلك الأشياء لها، فرُبما لم تسنح لها الظروف، أو يتسن لها الوقت أن تحملها معها، أو رُبما غادرت على أمل العودة مُجددًا، تراءت لها فكرة فك تلك الأحزمة

والأبازيم، وسيطرت عليها.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

17

وبيد مرتعشة متلهفة ومرتبكة كانت تفكها، فتح الصندوق عن رائحة هواء مختزن منذ فترة طويلة، كان داخل الصندوق مختلفًا تمامًا عن مظهره الخارجي، فها هو مبطن بقماش من الساتان الورديّ اللامع وكأنه صنع للتوِّ، جلست أرضًا بجوار الصندوق وهى مذهولة، فكل شيء كان مرتبًا ومهندمًا بعناية فائقة، باقة من الرسائل حزمت بشريط من الساتان، وباقة أخرى من الصور الفوتوغرافية وضعت داخل كيس من القطيفة، منديل أبيض مزين من الدانتيل من الحواف، ونقش عليه أول حروف اسمها، حزمة من الأوراق البيضاء، وريشة صنعت من خشب الصندل، محبرة من حبر الأكوامارين، تذاكر للأوبرا وعملات نقدية فرنسية ومصرية، فواتير للشراء جمعت كلها في أحد الأكياس الورقية، علبة موسيقية صغيرة من الخشب الأبنوسيّ بمجرد فتح غطائها تدور الموسيقى، وتدور على أنغامها دمية على شكل راقصة للباليه، ملابس داخلية من الحرير والدانتيل من الواضح أنها لم تلبس أبدًا، علبة صغيرة من الفضة بها سلسلة بحلية ذهبية نقشت على شكل قلب، ما إن تضغط على مشبكها حتى تفتح على صورة امرأة جميلة، دبلة ذهبية، دققت النظر، وبصعوبة استطاعت أن تقرأ التاريخ المنقوش عليها كان 1870، قصاصات من ورق جرائد الأهرام، تايمز، إيجبسيان، فيجارو، لوموند، دعوات ملكية لحضور حفل افتتاح قناة السويس، والأوبرا وحديقة الأزبكية.

بعدما أفرغت محتويات الصندوق لاحظت انتفاخ جيب داخليّ في أحد أركانه، فقامت بفتحه لتجد حزمة كبيرة من الأوراق وضعت في ملف كرتونيّ يكبس بزر معدني، وكتب على غلافه بخط رشيق بالفرنسية «الحياة ليست دائمًا وردية»، تذكرت نوال تلك المقولة الفرنسية الشهيرة، وكيف كانت مدرسة اللغة الفرنسية ترددها عليهم باستمرار، أخذت الأوراق التي كتبت بخط نسائي جميل وعلى ورق معطر الرائحة، ألقت نظرة سريعة عليها، تأكدت أنها مذكرات فانتابتها تلك الحالة من النشوة والتشويق، فتلك الأوراق ستدعها تصول وتجول في حياة تلك المرأة ويمكنها معرفة أي سر كبير هي. ولكن هل من حقها أن تقرأها هي التي تركت ربطة الرسائل جانبًا وشعرت بخصوصيتها، ولكن مع تلك الأوراق، الأمر مُختلف؛ فهي لم تربط أو تحزم، بل وجدت طليقة في ملف يحكم غلقه مكبس صغير سهل الفتح، امتدت يدها سريعًا للورق، جلست على الفوتيه الوثير، وبدأت في القراءة، كان أول تاريخ هو عام 1868ٍ الساعة الخامسة مساء في مياه البحر المتوسط، كتبت الكلمات بلغة فرنسية وبخطٍّ أنثوي انسيابي رشيق بدأت الكلمات ب- «كيف أصف نفسي سأكون...».

بعدما انتهت من قراءة هذا الجزء من الأوراق، وجدت نفسها ساهمة منتشية ومتشوقة؛ فها هي أخذت تبحث عن تلك السيدة في كُل حدبٍ وصوب. وإذا بها على بعد أمتار قليلة منها مختبئة في أحد جيوب صندوق جلديٍ قديم. التهمت قراءة تلك الأوراق نصف اليوم تقريبًا. كانت الساعة قاربت الخامسة عصرًا؛ واقترب موعد وصول حسن، ولم تكن قد أعدت الطعام بعد، فذهبت للمطبخ على مضض، كانت لا

تريد ترك تلك الأوراق إلا بعد الانتهاء منها، وضعت الإناء على النار بينما كانت تقطع الخضراوات وتفكيرها مشغول يحسب عمر تلك المرأة، هي ولدت عام1840 إذن هي في الستين من عمرها الآن! تخيلت مشهدها وهي ذاهبة لمقابلة الفنان وكرات الثلج تهطل فوق رأسها، وأصابها الحزن عندما فكرت في أن الفنان كان يسخر منها، كما شعرت بالشفقة والتعاطف مع كريس ذلك الذي أحب نتاليا ولم تستطع مبادلته مشاعره، وهل حقًّا كان القدر يرتب لها الكثير من المفاجآت كما تدعي؟

أثناء جلوسها مع حسن يتناولان العشاء لاحظ انشغالها بشيء ما فسألها:

- هل هُناك شيء ما حدث؟ هل ماما بخير وأخواتك؟

- نعم الحمد لله كل شيء بخير.

أجابته عن سؤاله الذي لم يسأله:

- كل ما هنالك أني أشعر بالإرهاق.

لم تشأ أن تخبره بأمر الصندوق فلم تكن مستعدة لاتهاماته لها خاصة أنه لا يفهم حقيقة انجذابها المفرط لتلك السيدة وهو شعور بعيد كل البعد عن الفضول أو التلصص كما يظن هو، بعد خروج حسن للعمل، فتحت درج الكمود [14] المجاور لها الذي كانت تخبئ فيه الأوراق كما لو أنها تهمة ثقيلة، وبدأت في مواصلة القراءة تتسحب بهدوء من صخب عالمها لتركب آلة الزمن لتنقلها إلى هُناك لأزمنة أخرى ومدن أخرى.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

18

باريس.. ديسمبر (1866):

ما إن يأتي ديسمبر حتى تكتسي البلاد بزي الأعياد، وبنتف الثلوج.. ظللت طوال عمري أتساءل: ترى لماذا هو شهري من دون الشهور؟! فمنذ أن يهل اسمه بإمكاني أن أقع تحت قشعريرة البرد تلك، حتى وأنا في لهيب أغسطس أحب ثلوجه وأمطاره، أحب نهاره القصير، وليله الطويل، والمقبل على عجل ليجمعنا بجوار المدفأة. أحب شمسه التي تُشرق على استحياء، وتغرب على وعد.. أحب واجهات المحلات المزينة بأوراق الهدايا المُزركشة، أقف بجوار عربة بائع الكستناء المشوية لأستمد بعضًا من دفء الحطب المُشتعل، ثُم نأكلها بلذة وافرة.. نحضر شجرة عيد الميلاد، ونزينها أنا وإخوتي، وأصنع مع كريس رجل ثلج بدينًا، وألف حول عنقه شالًا عله يفلح في بعث الدفء بأوصاله.. ومازلت أبيت ليلتي في انتظار (سانت كلوز) ليحضر أثناء نعاسي، ويترك لي هديتي تحت الوسادة، ولكن سانت ذلك العام لم يترك لي الهدية تحت الوسادة؛ فقد تركها لي هُناك.. على بُعد أمتار من بيتي في مدرسة الفنون الجميلة.. رُبما ليختبر قدرتي على الصبر.

بعد انتهاء إجازة أعياد الميلاد، وأنا أستعد لذهابي لمدرسة الفنون، وجدت نفسي أختار ملابسي القديمة فأمد يدي لأسحب بلوزة بيضاء، وتنورة سوداء طويلة واسعة، لففت الشال الذي أهداه لي كريس بمناسبة عيد الميلاد حول عنقي، وارتديت حذاء بدون كعب.. والحقيقة كنت أشعر بالراحة في تلك الملابس القديمة أكثر. اجتزت البوابة الحديديَّة، وواصلت صعودي للدَّورِ الثاني، لم يكن الدرس بدأ بعد، كان الطلبة يتوافدون الواحد بعد الآخر يلقون التحيةَ، ويثرثرون عن مواضيع شتى لا دخل لي بها، وأخيرًا ظهر مسيو ليون، وكان بصحبته رجل وسيم. صاح الجميع عند دخوله الغرفة سواي، لم أفعل ذلك لأنني لم أكن أعرفه، تقدم ليون خطوة للأمام، وكان بمحاذاتي تمامًا عندما أشار لي قائلًا:

- مدموازيل نتاليا، أقدم لك الفنان رنوار [15].

تقدمت نحوه، وصافحته.. كان ضئيل الحجم، صغير السن -رُبما كان أصغر من ليون بعشر سنوات على الأقل- مظهره مهندم، ورزين.

- أنشانتيه مدموزايل.

وجه له ليون الكلام قائلًا:

- أليست تُشبه نساءك؟

نابت ابتسامة واسعة عن إجابة رنوار، بينما لم أفهم ما الذي يعنيه ليون بهذا الكلام؛ أي نساء هن؟! جلس رنوار على مقعد بينما أدرنا المقاعد لنجلس في شكل دائري ليشرح ليون، ويناقش رنوار، ونستفيد نحن. كان موضوع النقاش لوحة كانت الأوساط الفنية، والمجتمع الباريسي يتحدث عنها؛ وهي للمرأة الأكثر جمالًا ودلالًا

في المجتمع الباريسي الراقي، والتي رسمها الفنان وهي ترتدي فستانًا أسود، وتقف بجوار منضدة تدير رأسها جانبًا، لا يظهر منها سوى جانب من وجهها وأنفها المرفوع بشموخ. كشف فستان السيدة عن كتفيها، وجزء من صدرها الأبيض المثير، وقد أثارت تلك اللوحة انتقاد الكثيرين من الفنانين والجمهور، ولام الكثيرون جرأة الفنان في أن يظهر سيدة أرستقراطية بهذا الشكل المنفلت، وأخيرًا اختفت اللوحة من المعرض، وترك الفنان باريس وسافر إلى لندن. بعد انتهاء النقاش، اعتذر رنوار بأن عليه الذهاب، بينما واصل الفنان شرحه ما بين العري الذي يخدم القطعة الفنية، ولا يثير الغرائز، والعري الآخر الذي لا يبتغي منه الفنان سوى الانتشار والثراء السريع. انتهى الدرس وانفض الجميع.. بينما كنت ألملم أشيائي وجدته أمامي تمامًا.

- يهيأ لي أنكِ لم تتعرفي على رنوار من قبل!

استفزني سؤاله، ولا أعرف هل كان يقصد من هذا أنني مجرد فتاة جاهلة؛ لأنني أخبرته مرارًا أن علاقتي بهذا العالم لا تتعدى ريشتي وألواني، وتلك الوجوه التي أقوم برسمها.. لذلك تخليت عن هدوئي وأجبته:

- مسيو ليون، لقد أخبرتك مُسبقًا أنني لا أنتمي إلى ذلك العالم الراقي، بفنانيه ومعارضه وجمهوره، كل ما هُناك أنني أرسم تلك الوجوه التي أشعر بأنني أريد أن أرسمها.

كان رد فعله غير مُتَوَقَّع؛ فقد ابتسم وطوق ذراعي بذراعه، وسحبني معه لنسير لخارج الغرف.. كان أطول مني بكثير، وكانت هُناك حرارة ما تتسلل من جسده لمعطفه الأسود لجسدي.

- نتاليا، أنا لم أقصد الإقلال من شأنك، أعلم تمامًا أنك لا تعرفين رنوار، ولم تلتقيه أو تسمعي به مُسبقًا، لكن رُبما عليك أن تسألي ماذا كنت أعني بأنك تشبهين نساء رنوار.

على حافة الدرج، وجدته وقد سحب ذراعه من ذراعي، وتركني بدون أن أضيف كلمة، وسبقني ينزل الدرج قائلًا:

- إلى اللقاء.

ذهبت للفناء الخلفي، وقمت برص أدواتي؛ فكنت قد قررت البقاء للرسم في ذلك الطقس الجميل، وبمصاحبة تلك المجموعة من الطلبة.

وجدت نفسي أرسم وجهًا حبب إليّ بعيون تملكتني، ولم أعد أرى سواها.. عندما انتبهت لصوت خلفي تمامًا:

- بنسوار مدموازيل.

كان ذلك الشاب الذي كان يمعن فيّ النظر بالأمس، طويلًا، كان مظهره أنيقًا.. عرفني بنفسه قائلًا:

- مارتين لومير.

- وأنا نتاليا، ويمكنك مناداتي تاليا.

- يا له من اسم جميل!

- ميرسي بكوو.

- لاحظت أنك طالبة جديدة هُنا.

- نعم منذ الأمس فقط، أحضر دروس الفنان ليون، وأتدرب تحت يده.

- إنه فنان قدير، يكفي أنه فنان القصر الإمبراطوري.

رددت العبارة مستغربة فسألني:

- نعم.. ألم تعرفي ذلك؟!.. فهو الفنان المُفضل للإمبراطورة أوجيني وزوجها.

- لا، لم أسمع بذلك مُسبقًا، ولكن هل للإمبراطورة فنان بعينه؟

- تزور الإمبراطورة معارضه باستمرار، وتشجعه.. وغالبًا أكثر اللوحات الفنية بقصر التويلري [16] من إمضائه، وليس ذلك فقط؛ فقد اصطحبه الإمبراطور في كثير من فتوحاته للبلاد البعيدة حتى يرسم تلك الغزوات والانتصارات التي يقوم بها.

تذكرت وقتها عندما وقف أمام صورة الإمبراطورة ذاهلًا، وسألني (ولكن كيف أخرجتها كذلك ولم ترها مُسبقًا؟)

كنت أحدثه وكأني أحدث نفسي:

- يا له من شرف!

- وأنتِ؟ إلى أي مدرسة تنتمين؟ وهل أقمت معارض مُسبقًا؟

تذكرت وقتها كلام مسيو ليون عندما أخبرني أنني في طريقي لابتكار مدرسة جديدة تُسمى (التعبيرية).

- لا أتبع مدرسة مُعينة في الوقت الحالي، لم أقرر بعد؛ ولكني أفضل ما بعد التأثيرية، والرومانسية التي تعتبر العمل الفني إحساسًا ذاتيًّا للفنان، وتمنحه الحق في طريقته الخاصة لنقل مشاعره للآخرين، ولم أقم أي معارض حتى الآن.. رُبما يحدث ذلك يومًا ما إن شاء الله.

- ولكن لم أسمع بمدرسة (ما بعد التأثيرية)! هل هي نوع جديد من المدارس الفنيَّة؟

- نعم، هي تعتمد على مزج الحقيقة كما يشاهدها الفنان بخياله الخاص.

- أنا أيضًا لم أقم أي معارض؛ بل أمارس اليوم كهواية وليس كمحترف، لدى عمل خاصٌ بي يأخذ كل وقتي، فلا أجد وقتًا كافيًا لممارسة الرسم إلا في أيام الإجازات، وفي الواقع أجد في الرسم فرصة لأعيش عالمًا آخر؛ لأن عالمًا واحدًا لا يكفيني.

نظر إلى الورق المُعلق على الحامل، كانت الصورة لم تكتمل بعد، مجرد رتوش لشعر فوضوي، وحاجبين معقودين عندما سألني:

- يمكنني أن أخمن من الذي ترسمين؟

تملكني شعور بالاستغراب والخجل معًا، سرعان ما تبدد عندما أيقنت أنه مؤكد لا يملك هذا الحدس حتى يعرف من أرسم، حك شعره كمن دخل في نوبة من التفكير العميق ثُم فاجأني قائلًا:

- رُبما إنه مسيو ليون.

اكتسى وجهي بحمرة وتلعثمت قائلة:

- ولكن كيف عرفت! فاللوحة لم تكتمل بعد؟

- يكفي تلك الخصلات المتناثرة على الجبهة، والحاجبان المعقودان لأعرف أنه هو.

- لم أجد هُنا ما يجذبني للرسم سوى وجه مسيو ليون.

- ولماذا وجه؟! فالطبيعة الغَنَّاء مُحيطة بكِ من كل جانب، انظري إلى السماء والغيمات كما لو أن القطن يتناثر بها، والأزهار المُتفتحة على غصون الشجر، والأغصان المتكاثفة التي تكاد تناطح السحاب، أليس هذا وحده كافيًا ليجذبك لرسمه؟!

- لم أتعود رسم الطبيعة، بل إنها لا تجذبني بالمرة لرسمها؛ فأنا مُولعة بالوجوه.. تلك التي تشي بأسرار أصحابها، رُبما يمكنني أن أضيف تلك الطبيعة للوحة كموتيف، ولكن البطل الأساسي هو الوجه.

- إذن فأنتِ قررت التقيد برسم البورتريه؟

- في الرسم ليس هُناك قيد، أمام الورق تتحرر من كل شيء لتستطيع الرسم، ولكن رُبما هذا النوع يجذبني أكثر من أي نوع آخر.

- نعم كرنوار مثلًا، الذي لم يرسم يومًا سوى امرأة جميلة بنظرة بها مسحة من الحزن.

فهمت وقتها ماذا كان يعني مسيو ليون بتلك الكلمات، وتملكتني سعادة.

حضر سائق يرتدي ملابس رسمية، وانحنى لمارتين قائلًا:

- دوق [17]، العربة جاهزة.

رددت وبداخلي دهشة: دوق! كنت ما زلت تحت وقع المفاجأة عندما انسحب بعدما صافحني قائلًا:

- سعدت بمعرفتك، نلتقي لاحقًا.

هل كنت أقف وأثرثر مع دوق! مؤكد كان مظهره يدل على أنه جنتلمان واسع الثراء، ولكن كان من الصعب التخيل أنه دوق!.. تبدلت السماء سريعًا، وفتحت

غيمة مائها الذي كان يهطل بحبات من الثلج كاللؤلؤ منثورًا على الأرض.

وضعت أدواتي في دولاب خاص بي.. كنت قد تسلمت مفتاحه من مدام جانيت المسئولة عن شئون الطلبة ومضيت. ذهبت لموعدي مع كريس، وطرقت على الزجاج فشاهدني، وأشار لي برأسه بأنه قادم. كانت الساعة قد قاربت الثالثة، وكان موعد الراحة مدة نصف ساعة يوميًّا.. ذهبنا إلى مطعم مجاورٍ للمخبز لتناول الغداء. وضعت لنا النادلة طبق الأوردفير من بطارخ السمك، ثُم أعقبته بالوجبة الرئيسة من الأرز وسمك السالمون بصوص الترتار اللذيذ؛ فكنا نأكل بشهية ونثرثر بشهية أيضًا.. أخبرت كريس بجميع أحداث اليوم فأجابني:

- فنان القصر الإمبراطوري ودوق! والفنان أغوست رنوار بشخصه! تُرى هل سيأتي اليوم الذي تخجلين فيه من عامل المخبز؟

- كريس لا تقول ذلك، ألا تعرف قيمتك عندي؟! ثُم من أكون وسط كل هؤلاء! أنا تاليا تلك الفتاة الفقيرة التي تعمل أمها بمخبز.

ربَّت كريس على يدي بحنان، وتشابكت أعيننا في نظرة يملؤها الحب والعطف، نعم إنه كريس الذي لا يمسني البوح بشهية إلا له، والذي لم أخجل يومًا من أن أحكي له أدق تفاصيل حياتي ويسمعني بصبر مُتقَن، وينصحني بحنان أبويّ. لم ينطق كريس بحبه لي مرة أخرى منذ أن أخبرني به ونحن في طريقنا للزيارة الأولى لبيت الفنان؛ فهل لأنني أجبته بالصمت؟.. كان يكتفي فقط بتلك النظرات كاعتراف صامت للحب. ابتسمنا معًا حيث لم نكن نستطيع أن نفعل غير ذلك.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

19

يناير (1867):

عام جديد إذن، غادر عام بخُطى سارق، يعدو سريعًا، بعدما سرق اثنى عشر شهرًا من عمرنا. ويتركنا بعدها في حسرة نتساءل عن حصيلة سرقته. كثيرًا من وجوه التقينا، وأخرى فارقنا.. كثير من أحلام تحققت، وأخرى كانت في طريقها للتحقق.

توالت الأيام بعد ذلك برتابة.. كان مسيو ليون ينتهي من دروسه، ويذهب بعدها بدون أن يُلمح لي بكلمة واحدة. كان كمن يتعمد تجاهلي، إلى أن جاء يوم كنت أجلس للرسم في الفناء؛ فوجئت به يقف خلفي تمامًا، فارتجفت الريشة بيدي عندما سمعت صوته هامسًا:

- ها أنتِ تجيدين رسم الطبيعة كما تجيدين رسم الوجوه.

- أحاول سيدي.

- نتاليا، تعلمين أنه في الرسم لا بد أن تكون لك علاقة ثقة بالفرشاة.. أن تتركي لها جنوح أفكارك دون قيد، أو تحديد.. حتى لا تتسلى الفرشاة بمعاكستك وتخرج لك عملًا بعيدًا كل البعد عن الذي كنت تنوين رسمه.

لم أجد ردًّا على كلماته، بينما واصل حديثه قائلًا:

- سأنتظرك في السابعة بمنزلي.

مرة أخرى ها هو يذهب ويتركني مُعلقة بعلامات من الاستفهام، لأرجع سريعًا للبيت بعدما تخليت عن موعدي مع كريس، أخلع ملابسي، وأقوم بإعداد الطعام لإخوتي، وأستعد للذهاب، ومزيج من السعادة والقلق يتملكانني، حملت معي اللوحة التي كنت قد رسمتها له، وفي السابعة تمامًا كنت أدق الجرس.

قادتني الخادمة هبوطًا للمرسم؛ فكان يجلس مُنهمكًا في العمل فلم يشعر بي إلا عندما نطقت بتحية المساء.

_أهلًا نتاليا، يمكنك الجلوس حتى أنتهي من ذلك الجزء.

جلست خلفه، أتابع بنظري يد رجل تتحرك برشاقة وسرعة، يدًا كنت قد لمحت فيها قدري. بعدما انتهى انتصب واقفًا.

- عذرًا، فهناك معرض بعد أسبوعين من الآن وعليّ أن أستعد له باللوحات.

وضعت اللوحة جانبًا فلاحظها وأشار قائلًا:

- أريني اللوحة.

كنت أطوقها بقطعة من القماش.. خلعته عنها سريعًا، عند رؤيتها أخذ في التحديق بها مندهشًا وهو يقول:

- هذا أنا!

نطقها هامسًا، وكأنما لا يحدث بها سوى نفسه، ونفسه فقط.

- ولكن أي قدر هذا الذي توهمته لي!

كنت قد رسمته كأمير شرقي، وسيم يضع فوق رأسه تلك العمامة، بينما يرتدي عباءة حريرية بخيوط ذهبية.. يجلس تحيط به نساء شرقيات جميلات، كنت قد رأيتهن في لوحاته الموضوعة في زاوية في أحد أركان الغرفة، بملابسهن وملامحهن التي وجدت فيها كل ذلك الجمال مساويًا له كل تلك الغرابة.

أطال النظر كمن يريد أن يكتشف شيئًا ما، ثُم أخيرًا نطق قائلًا:

- ولكن لماذا؟

هل كان لي أن أخبره وقتها أن وسامته الخرافية تلك لا تليق سوى بأمير من تلك البلاد الدافئة البعيدة بقصصها وأساطيرها الخرافية وقد أهدى ابتسامته، ونظرة عينيه، وعمق صوته لأجمل نساء الأرض.

- لا أعرف، ولكن بعد انتهائي من اللوحة هكذا وجدتك؛ محاطًا بأجمل إناث الأرض، فقد أخذت بنصيحتك ألا أعطي الفرشاة أي تعليمات صارمة، وأن أدعها ترسم ما تراه هي.

تركته وذهبت في اتجاه تلك الزاوية المُعتمة المخبأة بها تلك اللوحات، وسألته:

- هل تسمح لي برؤيتها؟

اكتفى بهز رأسه إيجابًا؛ فذهبت للوحات، وأخذت أتأملها الواحدة بعد الأخرى، وأخيرًا سألته:

- هل هذا العالم كما رسمته أنت، أم أنك قد صنعت بعضًا منه من خيالك؟

- أحيانًا يهزمك خيالك لأنك مهما جنحت به لا يماثل جمال الواقع.

منبهرة أجبته:

- حقًّا!

- منذ أن رأيت ذلك العالم في لوحات فنانين آخرين كانوا قد وقعوا تحت سطوته يومًا وجدت نفسي لا أقاوم شهوة الذهاب إليه، مُعتقدًا أنها بلاد لا تحيا إلا على الخرافة والأساطير، وإن هؤلاء الشعوب لا هم لهم سوى حياة الملذات والمآدب المتخمة بما لذ وطاب.. يجلس السلطان على رأسها، والخادم يقوم بهز تلك العصا الطويلة التي علق في آخرها ريش النعام لينعم له من حرارة الجو؛ فوجدت أنها ستكون مسرحًا كبيرًا للوحاتي، فركبت أول سفينة ذاهبة للشرق، وكنت أنزل في كل ميناء أزوره يحكي بلسانهم، لأكتشف عكس ما كنت أتخيله تمامًا؛ إنها شعوب تحيا بتلك الدقة المذهلة، يعرفون كيف يتدبرون أمرهم بمزج كل تلك القيم الدينية والمعتقدات الراسخة منذ الأزل بكل ما هو جديد وحديث، فالدين هو المنهج في كل

شيء منذ الميلاد، وتلك العادة بالأذان في أذن المولود إلى الوفاة، وتكفين الموتى بتلك القطعة البيضاء من القماش، الحياة الدينية تطول كل شيء حتى الصيام عن الطعام والشراب في مواسم وأيام معينة، ومن يخطئ أو يخالف تلك الشريعة فهو منبوذ من المجتمع والناس.

- وما أكثر البلاد التي زرتها وتأثرت بها؟

- لا أرى مدينة يمكن أن تتلألأ فيها الأضواء جمالًا أكثر من القاهرة، بأزقتها الضيقة وشوارعها غير الممهدة التي تفوح منها رائحة الحضارة الفرعونية القديمة برائحة القرون الوسطى، بذلك المزيج من روائح التوابل والبخور.

يمكنك أن ترى فيها مظاهر الترف الباذخ موازيًا للفقر المدقع، وتتزامن في القاهرة البسمة والألم معًا ودائمًا، فكثيرًا ما رأيت موكبًا لعروس تتقدمه فرقة موسيقية عازفة، ومشهدًا لجنازة تتقدمها النساء النائحات المولولات يتصادمن بدون أن يقطع أي من العازفين عزفهم أو تسكت النساء عن صراخهن. إنها القاهرة بمآذنها التي تهلل الله أكبر. الله أكبر خمس مرات باليوم، وناسها مختلفو الأشكال والألوان والألسنة.

- ونساؤها؟

- إنه ذلك العالم غير المرئي الذي دومًا تحيط به هالة من الغموض والحذر؛ فإن سألتِ مثلًا رجلًا عن: كيف هو حال زوجته؛ فكأنك قمت بسبه أو تعديت حدودك معه، ولكنهن ببشرة سمراء ذهبية قد لونتها الشمس بعيون واسعة سوداء ورموش كثيفة طويلة، فقط لو يكففن محاولتهن التشبه بأوصاف الشعراء في التغزل في محبوباتهم بوجوه ممتلئة مستديرة كالبدر، وأرداف عريضة سمينة مهتزة، حتى إنك تجدين النساء وقد أصبحن بقوام واحد، وابتسامة واحدة، وفكرة في الرأس واحدة، وهي اللذة؛ فمنذ الأزل وقد أيقن أنهن لم يخلقن سوى للحب.

أخذ يتأمل تلك اللوحات معي، وكأنه يراها للمرة الأولى، أو رُبما قد أعادته لذكرى ما.

- أتعلم، أصبحت الآن أتوق لزيارة تلك البلاد.

أخذ يفكر ثُم قال مؤكدًا:

- ستزورينها يومًا.

ثم كمن تذكر شيئًا مهمًّا تابع:

- هُناك معرض سيُقام خلال أسبوعين من الآن، وقد وضعت اسمك في لائحة الفنانين المشاركين، يمكنك أن تعرضي ما بين عشر لوحات، وحتى خمس عشرة لوحة من أعمالك في تلك المساحة المخصصة لك.

مزيج من الأحاسيس انتابتني وقتها: الفرح، والخوف، والقلق، فتلعثمت قائلة:

- ولكن...!

- ولكن ماذا؟

- ولكن أن تعرض لي لوحات وسط كل هذا الكم المُشارك من كبار الفنانين شيء يصعب تصديقه! بالإضافة إلى أنني لا أملك الوقت الكافي للانتهاء من تلك الأعمال، فأنا بالكاد أنهي لوحة في الأسبوعين.

- نتاليا، لا أعرف لماذا تحبين دومًا التقليل من شأن موهبتك، لماذا لا تثقين بنفسك؟

- يكفي أنك تتبنى موهبتي، وأنني أقف لأتحدث معك الآن لتملأني بالثقة، ولكن اعذرني؛ فأنا لم أختلط بالناس من قبل، فما بالك بمعرض، وجمهور، وفنانين مشاركين!

- لا تشغلي بالك سوى بالأعمال التي سوف تشاركين بها.. كان كريس أخبرني أنك تحتفظين بعدد كبير من اللوحات في مرسم خاص بك.

ابتسمت عندما تخيلت مشهد المرسم بقبو المنزل وسط الظلام.

- يمكنني أن أحضر لرؤيته، وأختار معك بعض اللوحات الملائمة للمعرض.

- ولكن تلك اللوحات هي لا تخصني لأعرضها؛ إنها لوحات لوجوه أشخاص على قيد الحياة يتزاحمون بيننا.. فلا حق لي في عرضها بدون إذن منهم.

- وهل تلك الوجوه التي قمت باختيارها تحديدًا لرسمها، قامت برسمها فرشاتك أم فرشاة لفنان آخر؟

أنهى الموضوع قائلًا:

- إذن فهي ملك لكِ، غدًا بعد الانتهاء من الدرس سنذهب إلى هُناك.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

20

أصابني الارتباك عندما قال (سنذهب إلى هُناك).. فإلى أي (هُناك)! ذلك القبو المظلم بأحد البيوت القديمة في إحدى الحواري الضيقة! أعلم تمامًا أن هيئتي تشي بفقري المدقع، ولكن أي مهانة تلك لأضعه وجهًا لوجه مع بيئتي؟!

كان كل همي يومها ذلك القبو المظلم؛ فاستعرت من إحدى الجارات ذلك الشمعدان النحاسي الكبير الذي تتراص الشموع به في شكل دائري لأنير به المكان، ثُم قمت بتنظيف ومسح الغبار من فوق اللوحات التي علقتها بنظام، وفي الغد، وبعد انتهاء اليوم الدراسي كُنا نسير معًا في ذلك الشارع الطويل الذي تظلل الأشجار جانبيه، وتتناثر كُرات الثلج على أرضيته، أرتدي تنورة سوداء واسعة وطويلة، بالكاد تظهر منها مُقدمة الحذاء الرفيعة، وقميصًا أبيض ووضعت المعطف الصوفي فوق كتفي، وقبعة من القش فوق رأسي تعقد بفيونكة حول عنقي. بينما كان يخطو بجانبي؛ طويل القامة، واثق الخُطى. بمعطف متوسط الطول، وسروال ضيق يخبئ جزءًا كبيرًا منه داخل حذائه عالي الرقبة الذي يصل للركبتين. كان قليلًا ما يضع تلك القبعة على رأسه، وكان من النادر أن يتخلى عنها جنتلمان في ذلك الوقت، فسألته قائلة:

- أنت لا ترتدي ذلك الشابو أبدًا، تكتفي بإمساكه في يدك، ونادرًا ما وجدته فوق رأسك.

أجابني بدون أن يكلف نفسه عناء النظر لي:

- لا أعرف، لا يجذبني لأرتديه, فهو يجعل مظهري مثارًا للسخرية، فأنا طويل القامة وهو يضيف لي عدة سنتيمترات، كما أنني لا أحب التقيد بشيء، أحب أن أطلق سراح نفسي وجسدي وأفكاري.

كنا على مشارف حي (مونماتر)، الذي يمتاز بمطالعه العالية، التي تجد نفسك مُضطرًا لبذل مجهود لصعود التل.. نسير، كل منا تفصله مسافة عدة سنتيمترات من الحياء تعمد وضعها فيما بيننا، وكان الجو يخيم عليه الحزن كعادة باريس في ذلك الوقت من السنة. بينما كنت مشغولة بالسؤال: ماذا لو لم يضع القدر ذلك الرجل مصادفة عند ذلك المنعطف لحياتي؟

أخيرًا كنا قد وصلنا لناصية الطريق، استأجرنا عربة من تلك العربات المتراصة، وبحركة أنيقة مد لي يده ليساعدني لصعود تلك الدرجة إلى العربة، والآن قد أصبح مُلاصقًا لي تمامًا.. ماذا كان عليَّ أن أفعل! خشيت أن يلاحظ شدة ارتباك محاذاته لي فالتزمت الصمت، بينما جاءنا صوت سعال شديد للسائق من النافذة المستطيلة الصغيرة التي تفتح بيننا وبينه؛ فقام مسرعًا بغلقها لننفصل عن العالم في ذلك المربع الخشبيّ المكسو من جلد الكابتوني.

وجدت نفسي أسأله:

- مسيو ليون، لماذا هذا الاهتمام بي؟

- فقط لأنك تستحقينه.

نطقها وهو يطيل النظر لي، فتهيأ إلي أنها مراوغة عشقية؛ فارتبكت وخفضت نظري لأسفل بينما واصل هو:

- أتعلمين نتاليا، نشأت في أسرة غنية ولها صيتها في الأوساط الراقية؛ فكنت أمارس الرسم خلسة بدون أن ينتبه لي أحد؛ لمعارضة أهلي، لذلك كان أبي يأمل أن يراني طبيبًا أو مهندسًا مشهورًا، ولأن الهندسة قريبة للرسم التحقت بهندسة المعمار، وهُناك تفوقت عندما كنت أقوم بمفاجأة أساتذتي بابتكاراتي في تداخل تلك الرسومات الفنية والزخرفة على واجهات وشرفات المباني، وكيف بالفن -والفن وحده- يكون بإمكاننا أن نحول تلك المباني الخرسانية الصماء بتصميماتها الخالية من أي ذوق، الباعثة على الشعور بالاكتئاب لذلك الشكل الأنيق الجميل. كانت أفكار هؤلاء المهندسين توقفت على النهج الباروكي [18] للمعمار، في حين وجدت أن فن الروكوكو [19] أو النيو باروك سيضيف انطباعًا بالأناقة والرقة أكثر؛ لذلك تخصصت دراساتي العُليا جميعها في ذلك الموضوع. بعد فترة أيقن أبي أنه لولا الرسم لما ذاع صيتي كمهندس معماري مشهور، حتى إنني كنت ضمن البعثة الهندسية بقيادة البارون هوسمان [20] التي تعيد تخطيط باريس على النهج الجديد.

زادتني تلك المعلومات دهشة وانبهارًا به؛ فوجدتني لا أنطق سوى...

- حقًّا!

ابتسم وهو يكرر:

- حقًّا، لذلك كنت أتمنى أن أجد بجواري من يشجع تلك الموهبة ويحفزني على ممارسة الرسم. عندما أخبرني كريس بموهبتك، وتأكدت منها، وتعرفت عليك شعرت بالخوف من أن تلك الموهبة رُبما لا يتعرف عليها أحد، وتلك الرسومات لا يراها يومًا أحد.. خاصة لطبيعتك الخجولة، واكتفائك بعرض أعمالك في ذلك القبو المُظلم الذي قد لا تصله قدم يومًا، فتمسكت بأن أدع العالم بأسره يلفظ اسمك انبهارًا بك. ثقي بي نتاليا، فمن هم أقل منك موهبة قد ذاع صيتهم بشكل يصعب تصديقه.. إن الطريق إلى النجاح ليس فقط بالموهبة، ولكن بتلك العلاقات التي تصلك بالعالم. ما أكثر تلك القائمة بالأشياء التي تحدث للآخرين مفاجأة لهم، ونلقبهم نحن بسعداء الحظ مستبعدين أن تلك الأشياء قد تطولنا يومًا، ونندهش عندما نجد أنفسنا يومًا أمامها.

ها هو ذا لا يعرف كيف يتقن النفاق، أو تلك المجاملة، ولا يعرف كيف توضع الظلال على الكلمات، كما يتقن وضعها على الرسومات.. بمنتهى الأمانة قد أجاب عن سؤالي...

أخيرًا كنا قد وصلنا، كان الشارع الضيق المكتسي ببعض من ثلوج، وبعض الآجُرِّ اكتسى بحفر المياه من الثلوج الذائبة. قامت بتحيتي إحدى الجارات، وتسلقت بعينيها

الشرهة ذلك الرجل المار بجواري. كنت أراقبه بعيني لأرى أي انطباع سيئ سيتركه مشهد الشارع على ملامحه، فوجدته كما هو لا يظهر عليه شيء. عندما دخلنا المنزل كنت أسبقه بعدة خطوات. بينما كان يتجه لأعلى الدرج، نبهته بأن ليس علينا سوى الهبوط.. فتحت الباب، ودعوته للدخول، كان المكان مظلمًا، فاتجهت إلى الشمعدان الذي كنت أحفظ مكانه تمامًا، وأشعلت جميع شموعه فأضاء المكان، بينما كان يقف بمنتصف الصالة مذعورًا كالفأر:

- عذرًا، فالظلمة تصيبني بالاختناق.

- أنا قد تعودت عليها، آسفة فالمكان هُنا ليس به مقعد واحد يسمح لي بأن أدعوك للجلوس عليه.

- وأنا لم آتِ هُنا كي أجلس.

قالها وهو يخطو، وأمام اللوحات يقف، ويتأمل، ويشاهد، وأخيرًا قال:

- مازلت أتساءل كيف أقيّم تلك الفرشاة التي رسمت هذا؟

- كيف؟

- انظري إلى تلك المرأة، وتلك النظرة بعينيها.. إنها نظرة استجداء كأنها ترجوك لمد يد المساعدة إليها، بالله عليك كيف أخرجتها كذلك! وهُنا.. انظري لتلك الفتاة بثيابها الرمادية كقدرها الذي تشي به عيناها، وهي تسير كسول الخُطى في ذلك الطريق غير الممهد للسير، وكأنك لم تعرضي لنا سوى تعاستها، وهذا الرجل كيف أوجدتِ بعينيه كل ذلك الشر على الرغم من ثياب الأتقياء التي يرتديها؟!

ثم دخل في صمت عميق أخرجته منه قائلة:

- أي من اللوحات يمكنني عرضها؟

- رُبما علينا اختيار تلك اللوحة لتلك الشابة بملامحها المتعبة، وبوجه صباحي غسلته سريعًا، ولم تمنح نفسها فرصة تصفيف شعرها لتنزل للشارع بتلك الباقة من الورود تبيعها لنا، وهي تغرينا بابتسامة حزينة.. وتلك اللوحة لذلك الرجل والمرأة على جسر ملبورن يطلان على نهر السين، بينما لا تظهر لنا ملامحهما، ولكن في وقفتهما متلاصقين أحدهما بالآخر كل الشوق والحب....

لا أعرف كم مر علينا من وقت في اختيار اللوحات، وفي إطلاق الأسماء عليها لأكتشف أنه شاعر أيضًا؛ فكنت ألقب تلك اللوحة باسم فتاة الورود عندما اختار لها اسمًا أكثر جمالًا (من يشتري الأزهار مني)، وتلك اللوحة للمرأة التي ترتدي معطفًا من الفراء بـ(سيدة الفراء) عندما استبدل به (هل ترى أحزاني).

عندما أبحث اليوم أجد أن لقائي به هو الشيء الوحيد الذي أهداني إليه القدر لأدخل في قائمة سعداء الحظ.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

21

بعد درس اليوم ذهبت لقاعة باريس للفنون [21] لتفقد تلك المساحة التي سأعلق عليها اللوحات السبع التي وقع اختيار ليون عليها لأعرضها هُناك، ثُم طلب مني رسم لوحتين لمشاهد طبيعية، أو لصخب الشارع حتى تكتمل المجموعة، وتبعث على التنوع؛ فهُناك جمهور لا تغريه الوجوه مثلما تغريه تلك المشاهد الحية للأشخاص والمدن، وحتى تحوز أكبر عدد من الجمهور، وعندما سألته عن اللوحة الناقصة لم يجب.

كانت قاعة العرض فسيحة مُقسمة لأكثر من غرفة، كل فنان مُشارك خصصت له غرفة بأضلاعها الأربعة، العمال مشغولون بدهان الحوائط كل حسب مزاج الفنان؛ فهُناك البعض من الفنانين يريد الخلفية قاتمة، والآخر فاتحة، وكنت أنا تائهة وسط هذا الكم من الفنانين والعمال، تركت تلك المهمة لليون؛ فهو أكثر خبرة مني في مثل تلك الأمور، بينما كنت أبذل قُصارى جهدي طيلة الأيام القادمة حتى أنتهي من اللوحتين؛ فكنت أعود إلى مرسمي مُثقلة الخطى بعد يوم شاق أشرع في إعداد تشكيلة من الألوان لأبدأ في وضع اللمسات على تلك اللوحة التي اخترتها لذلك الشارع الذي كنا نسير به أنا وليون في ذلك اليوم، والذي كان عالي المُرتفعات.

فرشت على تلك الأرض «المبلطة» بالصنوان قطع الثلوج فكانت تتحطم تحت وقع أقدام العابرين، واصطفت على الجانبين الأغصان المتشابكة للأشجار. بينما كان هُناك على حافة الطريق رجل يسير بمحاذاة امرأة ترتدي تنورة سوداء طويلة على قميص أبيض، في حين ارتدى هو معطفه الطويل للركبتين بملامح غير واضحة، ولكن في سيرهما بجوار بعضهما في طريق طويل وسماء غائمة فوقهما، قدر ما ربط فيما بينهما. أليس من حقي أن أختلس ذلك المشهد من الذاكرة؟

لذلك وجدتني أرسم تلك اللوحة بشهية مُدهشة؛ فهل أصبح حبه يتسلل خفية إلى فرشاتي دون أن أشعر؟!.. في اللوحة الثانية اخترت ذلك المقهى بساحة الشانزليزيه الذي تتراص الطاولات والمقاعد الخشبية على رصيفه، وتلك المظلة بالتقليمات البرتقالي والأبيض، وبكل ذلك الصخب والحياة لإناث يثرثرن ضاحكات.. لم أنس أن تزين رءوسهن بتلك القبعات من الفراء والريش، وكل ما طالته يد صانعها من حلي، بينما يتصفح الرجال الجرائد، ويمر النادل بمريلته البيضاء يلبي الطلبات، واخترت لها اسم (صباح باريسيٌّ مُشمس). قبل الموعد بيومين كان علينا نقل الأعمال وتعليقها؛ فاتفقت مع ليون على لقائه بالمعرض في العاشرة صباحًا، جئت بملامح مُتعبة بمصاحبة لوحاتي، يساعدني في نقلها سائس العربة التي استأجرتها. بينما وجدت ليون بقاعة العرض مشغولًا مع العمال في وضع اسمي بلوحة نحاسية على باب الغُرفة (الفنانة نتاليا جونسن)، كان من المدهش أن يوضع اسمي تسبقه لقب فنانة.. فهل كنت أستحقه حقًّا؟

انتهينا من ترتيب اللوحات بخبرة السنوات التي مارس فيها ليون ذلك العمل.. فاللوحات الأكثر جمالًا في رأيه كانت في الواجهة، يليها على الجانبين الأقل جمالًا.

كانت اللوحة العاشرة ختام المجموعة هي اللوحة التي كنت قد رسمتها له. فوجئت عندما قام بتعليقها، وسألته مستنفرة:

- ولكن تلك هديتي لك!

- إنها عمل بديع مُتقن، من الخسارة سجنه بين أربعة جدران لا أحد يراه.. انظري كيف وزعت الألوان والإضاءة، وهؤلاء الفتيات الجميلات اللاتي يحطن بي، إن المجتمع الفرنسي نتاليا مهووس بتلك المشاهد. لذلك ستكون تلك الأولى على المجموعة.

ثم قال وهو يلقي نظرة أخيرة على القاعة:

- الآن وقد أصبح كل شيء جاهزًا، ليس عليك سوى تجهيز نفسك لحفل الافتتاح.

نظرت إليه بشيء من الدهشة، وقبل أن أقول شيئًا كانت عيناه تكشفان في نظرة خاطفة هيئتي.

- نتاليا، هذا المعرض هو الأهم والأشهر بين المعارض التي تُقام على مدار السنة، وزواره لا يقلون شهرة عن رساميه؛ لذلك أرجو منكِ أن تذهبي إلى ذلك المتجر لمقابلة صاحبته مدام رينيه مُصممة الأزياء الأكثر ذوقًا وشهرة لاختيار ما يناسبك لتلك المناسبة.

رفعت عيني إليه لتتقاطع نظراتنا، كنت آخذ منه الورقة التي كتب عليها العنوان مُرتبكة قائلة:

- ولكن لا أملك المال الكافي للذهاب لمثل ذلك المكان والشراء منه!

- يسعدني أن تصل فتاة فرنسية لمثل تلك القمة من الإبداع، وأريد لك مظهرًا لا يقل جاذبية وأناقة عن لوحاتك، أما بالنسبة للأموال فهذا الكلام انسيه تمامًا إنه هدية تعبيرًا عن تلك الموهبة.

ابتسمت له قائلة:

- سأخرج من هُنا إليها مباشرة، شكرًا لك مسيو ليون، أرجو أن أكون عند حسن ظنك بي دائمًا.

كان ذلك المتجر في أحد أسواق باريس المتخصصة في بيع أرقى المصنوعات من الملابس والجواهر، والتي ليس بإمكان أحد من عامة الشعب مجرد التفكير في المرور بها إلا إذا كان بدافع الفرجة لا أكثر.

دفعت الباب الزجاجي للمحل الذي تم تأسيسه بأناقة لا تقل عن معروضاته، كنت أنتقل بين فستان معروض على المانيكان وآخر عندما لمحتني سيدة في منتصف العمر تقريبًا، وجدتها حضرت لي تعرفني بنفسها بشيء من الغرور، ثُم قبل أن أنطق اسمي قالت:

- مؤكد مدموازيل نتاليا جونسن.

لا أعرف كيف تعرفت عليّ، هل أخبرها ليون أن فتاة غير أنيقة المظهر ستأتي لزيارتها لاحقًا؟!.. قرأت أفكاري وأجابتني:

- لقد أخبرني ليون أن إحداهن ستقوم بزيارتي فكنت بانتظارك.. أعتقد أنها المرة الأولى التي تزورين متجري.

- نعم، وقد أذهلتني تصميماتك.

- أرجو أن تكوني زبونة دائمة لنا.

- الشرف لي.

ابتسمت بعلياء، ثُم أخذت في تأملي من رأسي وحتى أخمص قدمي قائلة:

- لقد صممت منذ ثلاثة أشهر فستانًا من القطيفة السوداء، مُزينًا بقطع من الأورجانزا الحمراء، ولم أجد من بين زبوناتي من لديها القوام ولون البشرة ليليق بها، ومنذ أن وقع نظري عليك تخيلتك ترتدينه.. انتظري سأدع العاملة تأتي به من المخزن.

ذهبنا معًا لقسم الأحذية، وسألتني عن قياسي، ووجدتها تختار لي حذاءين من الكعب العالي كانت تنظر للحذاء، ثُم ترفع التنورة التي أرتديها لتنظر لقدميَّ وكأنها تتخيلهما فيها، هكذا بدون حتى أن تسألني عن ذوقي؛ وكأني طفلة بصحبة أمها ليس عليها سوى الرضوخ لأوامرها، ثُم انتقلنا لقسم القبعات، وهُناك وجدتها تأتي بقبعة من القطيفة متداخلة فيها الأقمشة اللامعة، ومُزينة بريشة كبيرة قامت بخلعها، ووضعت بدلًا منها فيونكة من القطيفة.. كانت منهمكة بعملها عندما أتت العاملة بالفستان لتصطحبني لغرفة القياس، وتقوم بمساعدتي في ارتدائه.

- معقول كيف لا ترتدين المشد؟!

- وما هو؟

بدون أن تجيبني كانت قد خرجت من الحجرة لتأتي بتلك القطعة الداخلية من الخيوط المطاطية بالحرير والدانتيل التي تمسك الجزء العلوي من الجسد لأجد بعدها بروزًا في ثديي، واستدارة في الأرداف مع تنحيف للوسط.

- هذا هو ما يطلقون عليه المشد.

لا أدرى هل كانت تنطقها بمزيد من الاحتقار، أو هكذا تهيأ لي!

قامت بمساعدتي بارتداء الفستان الذي أظهرني كأميرة، فقد كان بثنايا من الأورجانز تتوقف عند مقدمة الصدر البارز للأمام بفعل المشد، وكأنها تغريك للنظر فيه أكثر، بينما الخصر ضيق ومنفوش من بعد الوسط. انشغلت أنا في النظر في المرآة، بينما انشغلت هي في ضبط وترتيب الفستان، فجلست على ركبتيها أرضًا لتقوم بثني ذيله ليظهر الحذاء ثُم وقفت تتأملني قائلة:

- سنحتاج لجبون من السلك.

لم أنطق وقتها، التزمت الصمت حتى لا يتضح كم أنا جاهلة، في حين أمرت العاملة بإحضاره، كان ذلك الذي ترتديه السيدات أسفل ملابسهن ليظهر الفستان منتفخًا، وكنت لشدة جهلي أتخيل أنه يحاك مع الفستان وليست تلك قطعة إضافية تُرتدى تحت الملابس، لم أكن أحب ذلك التقيد في الملابس، فكنت أشعر وكأني مُقيدة بأغلال من أعلى ومن أسفل؛ فعلى الرغم من فقر وبساطة ملابسي فقد كنت أشعر معها بالراحة والحرية أكثر.

- والآن ارتدي الحذاء.

ثم وضعت القبعة فوق رأسي بعدما قامت بمسكها بشريط من ساتان، وأخيرًا كان على تلك السيدة التي تجاهلتني منذ البدء أن تسألني وكأنها للمرة الأولى تكتشف وجودي.

- انظري ما رأيك الآن؟

هل كان لي أن أجيبها بصراحة عن رأيي؟!.. وماذا كان عليَّ وقتها أن أخبرها أن تلك الملابس لا أشعر براحتي فيها مُطلقًا! نابت ابتسامة عن جوابي، ولاحظت هي ذلك فقالت:

- أعلم أنك للمرة الأولى رُبما ترتدين مثل تلك الملابس، ورُبما تستغربين مظهرك بها، ولكن تأكدي إذا لم تذهبي إلى ذلك الحفل بمثل ذلك المظهر فستكونين مثارًا لسخرية هؤلاء القوم. فتلك الثرثرة النسائية أعلمها تمامًا، هُنالك سيدات سيذهبن لهذا المعرض ليس بنية مشاهدة أعمالك، إنما بنية مشاهدة من هي تلك نتاليا جونسن التي تقيم معرضها الفني الأول في أرقى صالونات باريس وأشهرها.

بعدما خلعت تلك الملابس لأرتدي ملابسي القديمة نظرت بالمرآة مطولًا وتساءلت:

- والآن أي منكما هي أنا؟

وقتها فقط كانت الملامح هي التي كانت تجمع بيننا، وضعت العاملة الأشياء بالعلب الكبيرة المستديرة التي طبع عليها شارة المحل، وهي دائرة وضعت بداخلها صورة لامرأة جميلة وأنيقة تغمز بإحدى عينيها. بينما اسم مدام رينيه مطبوع بالخط العريض.. ودعتها قائلة:

- أشكرك كثيرًا.

- الآن لا ينقصك سوى طاقم من اللؤلؤ تزينين به عنقك وأذنيك، ابتعدي عن أي حُلي أخرى حتى لا تفسدي مظهر الفستان، يمُكنك شراؤه من أي محل للمجوهرات.

عندما لاحظت تجهمي أضافت:

- المُقلدة.

- سأتدبر أمري، أشكرك إلى اللقاء.

- حظ سعيد.

المقلدة! يا ألله، كم كان عمري وقتها! أيعقل أن أكون قد سمحت لتلك السيدة أن تتفوه بذلك؟ أيعقل أن أكون تغيرت لمثل هذا الحد منذ ذلك الزمن الذي يبدو لي اليوم غابرًا؟!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

22

باريس.. فبراير (1867):

في السابعة من ذلك اليوم كنت أرتدي تلك الملابس، ووضعت بعضًا من أدوات التجميل وأتساءل: ماذا كان بنية القدر الذي أوصلني إلى تلك القاعة في هذا الزمن وفي تلك الليلة بالذات، لأجد كل تلك الاستعدادات وكأنه لعرس أو كرنفال؛ تصطف العربات التي يجرها الخيول المملوكة لنخبة المجتمع، وتظهر السيدات بمعاطف من الفراء، ورجال بملابس من ذلك القماش اللامع؟ كان اليوم الأول بدعوات خاصة للشخصيات السياسية، والقادة، والفنانين، والأدباء.. عند المدخل يقف رجل بدفتر كبير يتحقق من الدعوة المُرفقة مع كل شخص عندما سألني فأجبته:

- الفنانة نتاليا جونسن.

فابتسم مُعتذرًا ومُرحبًا بي للمرور.

كنت أخطو مُرتبكة، أخاف من مواجهة أعين الجمهور التي كانت تُراقبني بشيء من الدهشة.

وقفت بالمعرض، أراقب المشاهدين؛ فمنهم من كان يقف مطولًا أمام لوحة ويمر مُسرعًا أمام أخرى، ومن كان لا يعنى بالفن شيئًا، ووجوده في ذلك المكان مجرد شكل اجتماعي يفاخر به، وكان منهم أيضًا الفضولي كثير الأسئلة. حتى دخل هو، الذي كأنما أحببته منذ الأزل بقامته العالية، وشموخه الأخاذ.. وقبل أن أنطق بشيء بتواضع قال:

- أريد أن أهنئك على ذلك الجمال، وهذا المعرض الأنيق.

ابتسمت قائلة:

- الفضل يعود لك.

زارني أكثر من فنان في ذلك اليوم مُهنئين ومشجعين لي، عرَّفني ليون على أهمهم (إدغار ديغا) [22] الذي قال لي:

- لوحاتك شيء مُميز.

فجأة حدثت تلك الربكة، وتلك الجلبة، كان الكل يهمس قائلًا:

- سمو الإمبراطورة وصلت، أوجيني هُنا.

انتفضت لسماع الاسم، وأصبت بالارتباك فلاحظ ليون ذلك.

- تماسكي.. لِمَ كل هذا؟!

- لا أعلم، ولكن ماذا عن تلك اللوحة التي رسمتها لها بتلك الملابس! وكل ذلك الحزن! ماذا إذا لم تحز إعجابها؟

ابتسم قائلًا:

- لقد وجهت الدعوة للإمبراطورة خصيصًا لترى تلك اللوحة.

- ولكن لماذا لم تخبرني؟!

- حتى لا ترتبكي أكثر، والآن استجمعي كل ثقتك بنفسك، وتأكدي أن أوجيني أبسط مما تتخيلين.

تذكرت عندما أخبرني دوق (مانتير) أنه فنان القصر الملكي، لذلك كان من حقه أن يتحدث عنها بكل تلك الثقة، دخلت أوجيني قاعة العرض بكثير من الأناقة والبساطة معًا؛ لينحنى الجميع احترامًا وتبجيلًا لها. كان في وجهها ذلك الجمال الهادئ الذي يدعك تتحدث معها، وكأنك تعرفها منذ قديم الأزل. فرُبما كانت جارة لك، أو زميلة على مقعد دراسي واحد، ولولا ذلك التاج المرصع بالجواهر على رأسها لكانت تشبه أي امرأة عادية. توقفت أمام الكثير من اللوحات وهي تُردد: (مدهش، رائع).. تتبعها وصيفة أولى، وصديقة، والكثير من الحرس يسيرون خلفها مُباشرة، وينتشرون بأنحاء المكان؛ فمنذ محاولة اغتيالها هي والإمبراطور بعدما ألقيت قنبلة على العربة التي كانا يستقلانها -وبمعجزة إلهية نجيا من الحادث المُدبر لهما، في حين حصدت تلك القنبلة أرواح الكثيرين- وهؤلاء الحرس يتناوبون على تأمين طريقها، وأخيرًا كان وقع نظرها على البورتريه الخاص بها. أخذت تتأمل فيه مُطولًا، ثُم ابتسمت لليون وكأن هُناك سرًّا فيما بينهما ثُم قالت:

- أريد تلك اللوحة.

ابتسمت خجلة...

- يكفيني شرفًا أنها أعجبتك، وستعلق على جدار قصرك.

أشارت إلى ثلاث من اللوحات قد وقع اختيارها عليهما، ثُم ابتسمت لي قائلة:

- تعجبني فرشاتك.

انحنيت لها شاكرة.

ودَّعتني قائلة:

- تهانيَّ، وحظ سعيد.

غادرت أوجيني بخطى امرأة عادية، وليست بخطى إمبراطورة مُتعالية ومربكة. رُبما هي امرأة عادية، لكن بتفاصيل غير عادية؛ بحزن ما في وجهها، وبابتسامة غامضة. احتشد رجال الصحافة والمصورون ليلتقطوا صورًا للمعرض وللجمهور، ومؤكد للإمبراطورة.. انتهى اليوم الأول الذي توقعت فيه كل المفاجآت، إلا أن تكون هي مفاجأتي الكُبرى، واختيارها ثلاثة أعمال من أعمالي. كانت عناوين الصحف الصباحية في هذا اليوم لا حديث لها سوى عن افتتاح أوجيني معرض باريس للرسم، وإعجابها بأعمال فنانة شابة، يُعد هذا المعرض أول معرض لها، كانت قد رسمت تابلوهًا خاصًّا بها، وكان مع الخبر صورة كبيرة للتابلوه، توالت

الصحف بعد ذلك تفرغ مساحات شاسعة عن لوحاتي بأقوال النقاد، وأذهلني أنهم يرون في لوحاتي كل ذلك وشرحوها تفصيلًا بشكل أنا نفسي لم أكن لأفهمه أو أعيره اعتبارًا، وعلى الرغم من كل شيء لم يعرف أحد سري وسر نجاح لوحاتي.. ذلك السر الذي يجعل المشاهد يقف أمام اللوحة، وقد أصابه الخرس من الدهشة. حتى إن إحدى السيدات أخذت تتحسس الفتاة باللوحة لتتأكد أنها ليست أمام فتاة تنبض بالحياة. وفي حديث صحفي سألني أحدهم:

- أي مدرسة للفن تتبعين؟

وجدت نفسي أتذكر كلمات مسيو ليون وأجيبه سريعًا:

- التعبيرية.

وعندما استغرب هذا الاسم؛ كان عليَّ أن أشرح له كل كلمة أخبرني بها ليون في ذلك اليوم، ووجدتها مطابقة في طريقة رسمي للوحات، ومن يومها أخذت الزوايا المخصصة في الصحف والمجلات للفن التشكيلي تصفني برائدة المدرسة التعبيرية.

جاء كريس في اليوم الثاني للمعرض، وهو يحمل بيديه إحدى الصحف التي نشرت خبر المعرض كعنوان رئيسيٍّ لها، ومنذ أن وقع نظره عليَّ حملني للأعلى مرددًا:

- برافو.

- كريس، الفضل كله يعود لك.

انشغل كريس بمشاهدة اللوحات، واحتشدت الجماهير على قاعتي لترى تلك الفنانة التي أشادت الإمبراطورة بموهبتها، وعند الخامسة مساءً كانت جميع اللوحات وضعت تحتها ورقة كتب عليها (مبيعة)، كان ليون قد رفع ثمن اللوحات لأكثر من النصف على ثقة منه بأنها تستحق، خصوصًا بعدما ابتاعت مني أوجيني ثلاث لوحات دفعة واحدة. شرفني سكرتير الإمبراطورة شخصيًّا، ووضع في يدي كيسًا ممتلئًا بالفرنكات الذهبية قيمة أعمالي التي ابتاعتها الإمبراطورة، ليصيبني مزيج من السعادة والدهشة.. ها أنا وفي معرضي الأول أحصل على كل تلك الأموال، وتُباع جميع لوحاتي!.. وأخيرًا كان قد انتهى المعرض، ومنذ ذلك الحين «باريس في1867/2/11»

فإذا بذلك التاريخ قد أصبح تاريخ ميلادي الحقيقي؛ فإن كانت أمي قد أنجبتني مرة فقد أنجبني الفن مِرارًا وتكرارًا.. مع كل عمل كنت أضع عليه إمضائي أشعر بأنني ولدت من جديد. توالت بعد ذلك دعوات باسمي شخصيًّا لحضور معارض ودعوات للاشتراك في معارض، وكان لي لقاء مع أكثر من صحفي لجريدة أو مجلة فنية.. أصبحت مُنبهرة بذلك النجاح والشهرة اللذين حققتهما في وقت قليل جدًّا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

23

في تمام السابعة من مساء أحد الأيام كنت أدق باب مسيو ليون لتفتح لي الخادمة وتقودني للصالون. بعدها بعدة دقائق جاء بروب دوشمبر، وذَقَن غير حليق، وشعر فوضوي كما هو دائمًا.

- عذرًا لمجيئي بدون موعد مُسبقًا.

ابتسم بدون أن يجيب.

خلعت الورق المغلف للوحة التي كنت رسمتها له سابقًا، وطلب مني أن يعلقها في القاعة ليستكمل بها المجموعة، تلك اللوحة التي لفتت أنظار الجميع خاصة تلك السيدة الشقراء التي أشارت إليها بكل غرور قائلة:

- أليس هذا جان ليون؟

- نعم هو.

- إذن أريد تلك اللوحة.

هكذا بدون أي إبداء رأي؛ وكأنها تريد شراءها خصيصًا لأنها لليون، تلك اللوحة التي لم أحب أخرى مثلها، كان من الصعب تخيل أنها قد تُعلق على جدار آخر غير جدار قلبي، لذلك أجبتها أنها قد بيعت.

- إنها تلك اللوحة لك لقد احتفظت بها.

وفجأة تفوه بكلمات لم أكن في انتظارها:

- تاليا، هل تعلمين أن عمري ضعف عُمرك تقريبًا؟

- لم أحسب تلك السنوات التي تفصل بين عمرينا، ولكن ما أهمية ذلك؟

بتلك النظرة التي بها شيء ما أجابني:

- كنت أريد أن أوقظ فضولك لمعرفتي أكثر. أنا أكبرك عن العمر بعمر أتبنى موهبتك لإعجابي بك كفنانة متفردة في ريشتها، كنت سعيدًا وأنا أكتشف شغفك بالفن.

كان يتحدث بكثير من الاقتضاب، وكثير من الذكاء.. يضع مسافة بين الكلمة والأخرى، وكنت أعلم تمامًا ما يقصده؛ فقد أشارت أكثر من صحيفة ومجلة فنية إلى أن هُناك علاقة ما تربطني به.

- أعلم هذا، وهل قلت غير ذلك؟!

- هذه حقيقة رُبما قد تكون تائهة عنك.

- لا مسيو، أفهم ماذا تقصد، في حديثي مع بعض الصحفيين كنت أشيد بالدور الذي قمت به معي، وأرجع الفضل لك في كل النجاح الذي وصلت إليه؛ رُبما بعضهم قد

فهم تلك اللغة من الامتنان التي كنت أتحدث بها بطريقة خاطئة. أو بمعنى آخر لم يكن هُناك متسع من وقت لأقص عليهم فصول قصتي المتقاطعة معك، وليس لي ذنب بذلك.

قاطعتنا الخادمة بأن الماركيزة [23] دونا وصلت، وغالبًا لم يكن هُناك موعد لحضورها؛ فتلعثم عندما ردد اسمها، وطلب من الخادمة أن تجعلها تنتظر، ولكنها لم تمهل الوقت إذ كان صوت كعبها يقترب حتى توقف عندنا مباشرة.. أنيقة جميلة تذكرتها منذ أن وقع بصري عليها؛ فهي تلك المرأة التي أرادت شراء لوحة ليون، قالت وهي تضع قبلة على خده:

- ليو، كيف حالك؟

ثم أضافت وهي تعبث بخصلات شعره الفوضوية، وكانت تبدو مصطنعة حتى في مرحها وفي تصرفها معه:

- أنيق حتى وأنت بالروب.

أخيرًا كانت قد انتبهت لوجودي بالغرفة.

- ها أنتِ هُنا، برافو نتاليا.. أُهنئك.

كانت عيناها تتسلقان مظهري هبوطًا وصعودًا، وكنت أخفي بحياء حذائي متشقق الجلد تحت التنورة؛ فكانت أناقتها وعطرها مهانة لمظهري، كانت بعيونها المستديرة دهشة تسألني سؤالًا واحدًا تخجل شفاهها من طرحه (ما مظهرك هذا؟) رُبما لاحظ ليون تلك النظرات فأنقذني قائلًا:

- هل تعرفتما مُسبقًا؟

أجابت:

- نعم في قاعة العرض، عندما كنت أريد شراء لوحة أمير شرقي وسيم وقد ادعت قائلة إنها مبيعة وها هي اللوحة.

بمجيئها أزعجتني، وأفسدت عليَّ راحتي.. تجاهلت كلماتها.

- تاليا كانت قد أهدتني تلك اللوحة، وطلبت منها أن تقوم بعرضها في المعرض لأنها أجمل من ألا يشاهدها أحد، فاللوحة كانت ملكًا لي أنا.

- غريبة! كنت أنوي شراءها لإهدائها لك!

ثم أخذت تتأمل اللوحة، وبلهجة دلال قالت:

- ولكن مع احترامي للنساء المحاط بهن؛ فعلى جمالهن، ليس هذا ذوقه في النساء، فليون يحب المرأة الشقراء.

- النساء في اللوحة تملكن هذا الجمال الشرقي، ولم أرسمهن هكذا تحديدًا لذوق أحد.

تبادلنا النظرات ثلاثتنا، وأخيرًا شعرت أن هذا المكان على اتساعه لا يمكنه أن يسعنا معًا.. اعتذرت مُنصرفة، كنت أسير على غير هدى في أزقة باريس المتشعبة، أفكر في الكلام الذي قاله لي، والتلميحات التي أشارت لي بها، والنظرات المتسكعة على فقري. إنه مجتمع لم يكن لي وجود به، أحزانه لم تكن يومًا أحزاني وأفراحه بعيدة عني، أما جراحي؛ فأنا غير مُعترفة بها هُنا، فأنا أعيش في مجتمع يحترم موهبتي، ويرفض بيئتي. لذلك هربت من ذلك كله بالعمل فقط والخلق الدائم، فكان هُناك شيء يركض بي تحديدًا لأثبت لهم أنني امرأة فوق العادة، وأنهم على جمالهم وثرائهم والأسماء الطنانة لأسرهم الأرستقراطية المنحدرين منها، وألقابهم النبيلة، لكنني أملك ما لا يستطيعون امتلاكه.

هكذا تمر الأيام وأنا من قاعة لقاعة ومن معرض لآخر، كنت أتنقل لا أحمل معي سوى فرشاتي وألواني، لا أشعر بالرضا إلا ولوحاتي مُعلقة بكبرياء للفرجة على الجدران تتأملها الأعين وتفسرها الأفكار كيفما شاءت، لوحاتي أراها تحت الأضواء مُختلفة؛ وكأنها تصير أجمل وأشهى بدلال امرأة تخطف عيون الرجال انبهارًا بها. أصبحت فنانة الأوساط الراقية، أُطلب بالاسم لرسم بورتريه لفتاة مدللة، أو شاب وسيم، وأحيانًا عائلة بكامل أفرادها..

حرصوا على أن يرتدوا أجمل ما يملكون، ووقفوا بترتيب، وعلى وجوههم تلك الابتسامة لأقوم برسمهم. كنت دومًا على قائمة المدعوين لحفلات الزفاف والميلاد لأرسمها؛ لتزين بعد ذلك أحد جدران الصالون المذهب الأنيق، أضع في ذيل اللوحة توقيعي الذي اختصره بأول حرفين من اسمي، ومع مرور الوقت لم تعد الألسن تسأل عن صاحب حروف الـG.Nفي كل لوحة بل تكتفي بفتح عينيها في اندهاش، وعلى الرغم من كل ذلك لم أتخلَّ عن نوبات جنوني، لتلك الوجوه التي أمنحها أقدارها، حتى تلك العروس الجميلة التي كانت تملك كل حزن الأرض، يوم زفافها لم تستغرب كل الكآبة التي تبعث بها اللوحة في الروح، كنا نفهم بعضنا بصمت؛ لذلك عندما رفضت أمها تسلمها أو تعليقها على جدران الصالون، وبعد أشهر قليلة كان حديث انفصالها عن زوجها وجبة شهية في جميع الصالونات الباريسية الراقية.

كنت أخرج من كل حفلة ومن كل بيت بالغموض الضبابي نفسه الذي أذهب به، البعض يفسر ذلك على أنه تعالٍ والآخر على أنه مزاج فني. لم يكن ليعنيني يومًا بماذا يفسرون أو يظنون، فكثير من الظن إثم.

في الجهة الأخرى من الحياة كان نجم ليون يزداد يومًا بعد آخر، خاصة عندما اختير لمجموعة هندسية تضم أكفأ مهندسي فرنسا ليعملوا على إعادة بناء باريس، وتخطيط شوارعها على النهج المعماري ما بين الأصالة والمعاصرة. فكانت صورته تتصدر الصفحات الأولى من الجرائد الوطنية، التي تجدها بيد الجميع.. كان القدر يجمعنا مُصادفة عندما نوضع أنا وهو على قائمة المدعوين لعشاء أو مناسبة ما، ومن عشاء إلى آخر ومن حفلة لأخرى نلتقي بحرارة اللقاء والحديث، ثُم يندمج كل منا بقدره بعيدًا عن الآخر لأتساءل بعدها: تُرى هل التقينا فعلًا؟

أما عن كريس؛ فكنا نلتقي على فترات مُتقاربة.. المسكين كان يمارس أكبر الحماقات في تقربه مني يومًا بعد آخر وتعلقه بي.. أنا التي رفضت حتى أن أبعده عني؛ فمع كريس وحده كنت أحمل تلك الذكريات الجميلة المشتركة بيننا في الطرقات والأزقة، حتى أفراحنا وأحزاننا كانت مشتركة، انتقلت إلى سكن أكبر وأرقى في ساحة الشانزليزيه في ذلك المركز بطرقه المتشعبة التي تقودك لأهم وأشهر الأماكن: (برج إيفل، متحف اللوفر، ضفاف السين، الأوبرا).

اخترت إحدى الفيلات التي يفصل بابها الحديدي وأشجار حديقتها العالية عنها صخب الخارج، وجعلت من ذلك المبنى المنفصل في فناء البيت مرسمي الخاص، بينما غرف الفيلا وصالوناتها كنا نتقاسمها أنا وأمي وإخوتي، الذين انتقلوا لأرقى المدارس الفرنسية.. كل ذلك كان بفضل فرنكات لا حصر لها أحصل عليها من بيع لوحاتي؛ فكنت الفنانة الأكثر شهرة والأغلى ثمنًا، ورُبما كان باب السماء مفتوحًا لأمنية مدام رينيه عندما قالت لي:

- أرجو أن تكوني زبونة دائمة لنا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

24

أتذكر في ثاني لقاء بها عند زيارتي لمتجرها، كنت أخطو بخطوات واثقة عن المرة الأولى، بخطوات فنانة تتصدر صورتها وأخبارها صفحات الجرائد، ويصفها البعض بأنها تشبه كثيرًا ريشتها ذلك الجمال الهادئ الأنيق.

تعمقت علاقتي أكثر بمدام رينيه، ولم أعد أخجل لأخبرها أنني أريد تصميمات خاصة بي وحدي تجمع بين الأناقة والبساطة معًا. أما كل هذا الصخب بالملابس الذي تتفنن به الطبقة البرجوازية من النوفو روش [24] التي انتشرت في المجتمع الباريسي فلا أحبه. وبذكاء امرأة تدربت منذ الصغر على تلبية رغبات زبائنها كانت تصمم لي تلك التنورات الطويلة من البيلسيه، بكسراتها المتراصة بعضها بجوار الآخر بشكل جميل، في الجزء العلوي كانت تختار لي الكورساج الأكثر بساطة وأناقة. في إحدى دعوات العشاء بمطعم مكسيم [25] -ذلك المكان الذي لم أكن لأتخيل أن تخطو عتبته قدماي ذات يوم؛ فيكفي ذكر اسمه حتى تتسع الأعين اندهاشًا، فأصحاب المكان حرصوا على ألا يجلس على مقاعدهم من هم أقل ثراء وشهرة- سألتني سيدة من تلك المُهَوَّسَات بالأزياء والموضة عمَّن يصمم لي أزيائي، أجبتها مدام رينيه. وفي زيارة لاحقة لمدام رينيه أخبرتني أن أكثر السيدات أناقة وثراء ذهبن إليها خصيصًا ليطلبن منها تصميمات تشبه ملابسي. لم أستغرب لذلك فقد كنت في جميع المناسبات والدعوات محط أنظار الجميع، وحمدًا لله على ذلك. هكذا كانت المجتمعات الفرنسية الراقية، ما إن تتفوه بكلمة في أي مائدة مُترفة متخمة بكل ما لذ وطاب- فائضها يكفي إعانة مئات الأسر الفقيرة عن الجوع- حتى تسري كسريان النار في الهشيم، ولا بأس حتى من أن يكتب الخبر بالخط العريض في صفحات الجرائد، مع إضافة الكثير من الثرثرة الكاذبة ليصبح الموضوع ذا حبكة كبيرة، إنه مُجتمع مُنغلق على نفسه، لا هم له سوى التفاخر والتباهي بكل ما يملكه أو في طريقه لامتلاكه، والرحلات التي قام بها أو في طريقه للقيام بها، كل المشروعات التي أقامها، أو في طريقه لإقامتها.

في الطاولات التي تضم السيدات لا يمكنك التفرقة بينهن من كثرة الشبه، ليس في الشكل وإنما في الأزياء الباذخة، والمجوهرات الملتفة حول الأعناق والمعاصم والأصابع، وبالقبعات الكبيرة التي تزينها الريشات تتساوى في ذلك الكونتيسات العجائز، والشابات اليافعات، والأحاديث عمن جاء ومن ذهب، أو من قرر الذهاب أو المجيء. أما على الطاولات الذكورية والموائد الخضراء، فيمكنك أن تلاحظ الغليون والسيجار السمين الذي لا يفارق الأصبع متراصًا في علب ذهبية، والقبعة العالية والقميص الأبيض عقد حول ياقته وشاح من الحرير الأسود، واصطفت أزرار الصديري الذهبية والفضية بشكل أنيق، وجاكت البذلة عادة ما يكون بياقة من الساتان، وضع بجيبه منديل حريري مُطرز بأول حرف من اسم الشخص، وغالبًا كان التطريز من أحجار الألماس، وأخيرًا المعطف بياقة من الفراء يتخطى الركبتين. الأصوات جشاء تتحدث عن التويلري والإمبراطور، والحياة السياسية والمشاريع العملاقة لكل منهم، وحتى تكتمل الصورة الأكثر أناقة تتخلل الجلسة

أحاديث عن الحياة الثقافية، ومُناقشات عن أهم الكتب التي نَشرت.. تمامًا كما هو إصرارهم أن يدعوا إلى موائدهم الكثير من الفنانين دليلًا على ولعهم بالإبداع لا أكثر.. وفي تلك المناقشات يستعرضون ما هو أكثر غرابة، وكيف أن حياة أخرى في الكواكب الأخرى لا أحد يعلم عنها، وأن الله لم يخلق العالم في سبعة أيام وإنما في ملايين السنين؛ هكذا هم دائمًا لا يجذبهم سوى المثير والغريب، وكأن العادي والطبيعي مُحتقر لديهم.

أعترف.. لم أحب ذلك العالم يومًا، ولم يلهمني أو يغرني لرسمه.. حتى التابلوهات التي تُطلب مني كنت أرسمها بحيادية تامة، وكأنها صورة فوتوغرافية لا طرف لخيالي بها. لذلك كانت التابلوهات التي أرسمها بعيدة عن تلك الأوساط المصطنعة دومًا ما تكون الأكثر شهرة ونجاحًا.. تلك اللوحات التي أرسمها خارج جدران المرسم هُناك على حافة نهر السين حيث الشمس مائلة، والجميع مغادر فوق ظهر السفن الممتلئة والفارغة المتجهة نحو مصيرها.. قوارب التجديف وقوارب الصيد، الماء الذهبي المتموج، كل شيء يجري بعيدًا، وبهدوء، وباستمرارية تجاه مصيره.. هُناك فقط كان يمسني الرسم بشهية، كنت على وشك الانتهاء من لوحة امرأة في الحب لتلك الفتاة التي وجدتها يومًا تجلس وحيدة على أحد المقاعد الخشبية بحديقة لكسمبورج، تجلس في انتظار حبيبها بملامح أنهكها التعب والترقب، كانت كل المقاعد مشغولة بالعشاق وكانت هي وحيدة؛ فكان مظهرها مثارًا للتساؤل، وحدي كنت أعلم أنه لن يأتي، جلست على مقربة منها أراقبها، أو رُبما أختبر حدسي وأرى إن كان لا يزال عند حسن ظني به أو لا. لمحت فتاة صغيرة تذهب إليها بخطى مترددة، ثُم تقف على مقربة منها وتسلمها خطابًا بدون أن تتفوه معها سوى بكلمات قليلة، كنت أراقبها وهي تفتح الرسالة بيد مرتعشة، وبعيون مُتلهفة كأن مصيرها كله متوقف على تلك الكلمات، طبعًا لم أستطع قراءة ما كُتب لها، ولكن نابت تلك النظرة من الحزن واليأس عن كل شيء، بعدها غادرت المكان بخطوات متمهلة كسيرة.. عندما كنت أنظم أدواتي لأشرع في رسم لوحة لها، وضعت رتوشها الأولى في حديقة العشاق، وأنهيتها هُنا على ضفاف نهر السين، عندما وجدته خلفي تمامًا، فقد أغرته الشمس وهي تعلن عن ظهورها مُجددًا بعد عدة أيام كانت قد غابت فيها عن السماء على أن يخرج للتريض على ضفاف النهر.

- أهلًا تاليا.

- يا لها من مصادفة! منذ متى لم نلتقِ!

- كان بإمكاننا أن نلتقي إذا سعى أي منا لذلك.

- ولكننا لم نسع.

- أي حماقة تلك التي اقترفها كل منا بحق الآخر!

- لا حماقة ولا شيء، كل ما هُنالك أنك فضلت الابتعاد.

للمرة الأولى كنت أراه يبحث فيها عن كلمات، كان يمسك تلك القبعة بين يديه يعبث بها، وأخيرًا تحدث قائلًا، وبنبرة أقل من المعتاد:

- هل بإمكاني دعوتك غدًا على العشاء، أم إن مُفكرتك لا تسمح بموعدنا معًا؟

كان هُناك تلميح بشيء ما تجاهلته، ولم أتعمق بفهمه؛ فأدرت دفة الحديث:

- يسعدني ذلك حقًّا، ولكن متى وأين؟

- سأكون بانتظارك في (المالون روج) التاسعة مساء.

يا أللہ، لم أكن لأحب ذلك الملهى رغم أنه من أشهر ملاهي فرنسا، وتعرض في صالته أشهر فرق الرقص استعراضاتها؛ إلا أنني لم أحب جوه يومًا، لذلك طلبت منه:

- ولكن هل تفضل ذلك المكان بالذات، أم بإمكاننا الذهاب إلى مكان أقل صخبًا؟

فكر لثوانٍ ثُم قال:

- (لو بركوب) [26] في الحي اللاتيني- ما رأيك؟

- اتفقنا عند الثامنة.

ثم ودعني مُغادرًا، وهو يشير إلى اللوحة التي كنت على مشارف الانتهاء منها بعلامة النصر. مازال يملك تلك المقدرة في جعل نبضات قلبي تعلو كلما وقع نظري عليه، ومازال يغادرني على عجل لأجلس أراقبه حتى الطرف الأخير من ملابسه حين يختفي عن عالمي. كم من نظرات تقاطعت من نظراتي، وكم من ابتسامات ودعوات مفتوحة للحب قد تلقيتها، ولكن كنت دومًا مأخوذة به، مشغولة به.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

25

باريس.. إبريل (1868):

لبست لموعدي معه فستاني الأجمل، تعطرت وذهبت إليه.. حياني المُضيف الذي يقف على طاولة في مدخل المكان بملابسه الأنيقة، وفتش في الدفتر الكبير الذي أمامه عن اسمي، ثُم أمر أحدهم باصطحابي للطاولة رقم (8)، بينما نزعت فتاة شابة المعطف من فوق كتفي، وأعطتني رقمًا على دلاية خشبية لأقدمه لها حين خروجي لتسلمه لي.. وهُناك قادني العامل لطاولة في الركن خُصصت لشخصين. كان يجلس هُنا بشعره الفوضويّ، وعينيه اللتين يمتزج فيهما الرمادي بالأخضر المائل للزرقة، وبابتسامة هادئة حياني بعدما قام وانحنى لتلمس شفتاه بحنان يدي، لم يكتف بأن يقبلها من الخارج فقد أدار كف يدي، وطبع قبلة أخرى بحنان أنفاسه الدافئة في بطن يدي لأغلق يدي عليها جيدًا؛ وكأني أريد الاحتفاظ بها للأبد، كان المتبع في تلك الأوساط الراقية أن يحذو الرجل حذو الجنتلمان في أن ينحني ليقبل يد المرأة، ولكن أن يدير كف يديها ليقبله كان فيه شيء من الاهتمام أو رُبما الحُب، تلك الكلمة التي حرمت من أن أسمعها منه، ولكن ألم يكتب يومًا فكتور هوجو [27] لحبيبته قائلًا: (كم هو الحب عقيم أنه لا يكف عن تكرار كلمة واحدة «أحبك»، ولكنه خصب لا يجف لأن هُناك ألف طريقة يمكنه أن يقول بها الكلمة نفسها). لاحظ أنني أدير رأسي باندهاش في أرجاء المكان الذي كل شيء به يشي بعبق الزمن والأناقة.

- إنه يعتبر أقدم مقهى باريسيّ، ورُبما أقدم مقهى في العالم؛ فقد تم تأسيسه عام 1686، وأصبح أكبر مُلتقى لمثقفي القرن الثامن عشر (فولتير، روسو، وبوفون، جورج ساند، فكتور هوجو). انظري إلى تلك الطاولة، إنها التي كان يجلس عليها فولتير، وقبل الثورة الفرنسية كان يتردد عليها الثوريون، وأصبح مقهاهم الشهير، ويقال إن الطاقية الحمراء رمز الثورة الفرنسية ظهرت هُنا لأول مرة.

- هل تقصد أننا نجلس في ذات المكان الذي جلس فيه هؤلاء العمالقة، وضمت زواياه الأربع أفكارهم وخططهم؟

- تمامًا، ولكن دعيني أدهشك اليوم، وأخبرك أنه ذكرى يوم ميلادي.

- حقًّا! كل عام وأنت بخير، ولكن لماذا لم تخبرني؟

- ولماذا أخبرك؟

- حتى كنت أهديك بشيء ما.

- وحدك أنتِ هديتي.

لم أعرف بماذا أجيبه، لقد كانت كلماته هي ما أدهشني.

- ولماذا لم تقم حفلًا للاحتفال به، وتدعو أصدقاءك ومحبيك؟

- وبماذا سيفيدني ذلك؟ كلما تقدم بك العمر تقل دائرة معارفك؛ فأنت لا تريد سوى من يخفق قلبك بحبهم، وعندما يتمنون لك عامًا جديدًا سعيدًا يكون دعاء نابعًا من قلوبهم وليس رياءً ونفاقًا.

- ولكن مُؤكد هُناك الكثير منهم، الذين يخفق قلبهم بحبك، وليس أنا فقط.

- نعم هُناك الكثير منهم، ولكن فضلت أن تقتصر الدعوة عليك أنتِ وحدك، هُناك الكثير من الكلام أريد أن قوله لكِ بدون أن تتقاسمنا أعين أو تتلصص علينا الآذان.

- إذن تفضل.

بعد نفس عميق:

- الآن وقد مر العام والنصف على افتتاح معرضك الأول، ذلك الذي كان نقطة تحول بحياتك.. دعيني إذن أسألك: ما الفارق بين نتاليا جونسن قبل موعد افتتاح أول معرض ونتاليا جونسن اليوم؟

ما الذي كان يريد معرفته حقًّا؟ هل يستدرجني لأتحدث له عن شعوري تجاهه بعد كل ذلك الوقت، أم يريد أن يعرف ما إذا وقعت أسيرة للشهرة والثراء؟!

- الفارق الوحيد هو تلك الأزياء التي أرتديها، والأماكن التي أذهب إليها، ومجموعة الناس الذين يلتفون حولي.. كل المظاهر الخارجية رُبما قد تكون قد تبدلت؛ إنما نتاليا جونسن تلك الفتاة البسيطة الهادئة مازالت كما هي، أتعلم أنني أكره تلك المجتمعات الزائفة بمظاهرها الخادعة، وثرثرتها التافهة، لم أرسم لوحة وتنال إعجاب الجميع إلا وهي خارج تلك الأوساط. أنا كما أنا مسيو ليون حتى إنني لم أرتبط بصداقة عميقة مع رجل أو امرأة، فأنا في توتر دائم داخل تلك المجتمعات.

- كنت أعي ذلك تمامًا، لذلك قررت الانسحاب من حياتك حتى لا تلوكك الألسنة، وتكونين وجبة شهية على موائد الثرثرة، خاصة أنني قرأت أكثر من تلميح بعد معرضك الأول عن وجود علاقة تربط فيما بيننا، وكثيرًا ما سئلت إذا كان ذلك حقيقة أم شائعة، ورُبما إذا كنت لم أفعل ذلك كانت تلك الموهبة التي تمتلكينها فقدت رونقها وجمالها، تأكدي أنه كان من السهل أيضًا على بعضهم أن يدعي أنني صاحب تلك الأعمال، أو رُبما قد ساعدتك برسمها.

بنبرة حزينة سألته:

- ولكن لماذا لم تخبرني عن ذلك وقتها؟

- وقتها عزيزتي لم تكوني قد تعرفتِ على تلك المجتمعات بعد، ورُبما كنت لا تصدقينني.

رُبما هو مُحق، ولكنني لم أقتنع بوجهة نظره، لأنه كان سيوفر علي الكثير من عذاب الشعور بخذلانه لي وتخليه عني، وكأنما كان يقرأ أفكاري فأكمل قائلًا:

- أنا لم أتخل عنكِ، فقد كنت أراقبكِ من بعيد، أتابع أعمالك، وأسترق السمع إلى أخبارك، وكنت سعيدًا بكِ وأنت تحلقين من نجاح لآخر.

- ولكن منذ آخر لقاء لنا بمنزلك الذي شهدته المركيزة دونا جعلني أظن أنك تتبرأ من معرفتي، وأرجعت ذلك رُبما لفقري وبؤس مظهري.

- وأي خواء هذا الذي تتهمينني به!

ثم أمسك قائمة الطعام التي وضعها النادل، وذهب قائلًا:

- لنطلب العشاء فقد تضورت جوعًا.

سألني بعد برهة إن كنت قد اخترت، فأشرت إليه إيجابًا، ثُم أشار للنادل... طلبت في عشائنا الأول كبد الإوز المشوية، والمغموسة بصوص ماري جلاس.

ابتسم عندما كان وقع اختياره على ذات الصنف، ولكنه أضاف لنا كأسين من النبيذ الأحمر.

لا أعرف هل كان العشاء لذيذًا بمثل تلك الدرجة، أم وجوده أمامي وأنا أمضغ لقيماتي جعله الأشهى والألذ. ما إن انتهينا حتى شاهدنا الفنان تيسو [28] يخطو داخل القاعة أنيقًا كعادته، وكيف لا وهو قد لقب وعن جدارة بفنان الأناقة؛ فبإمكانه أن يجعل من لوحاته «دفيليه» لأحدث تصميمات الملابس النسائية، وليس ذلك فقط فقد كان متأمل لوحاته يكاد أن يشعر بملمس نعومة الحرير، وبروز وردات الدانتيل، وبريق لمعان الساتان في لوحاته، عندما شاهده ليون صاح قائلًا:

- يا ألله، انظري إنه تيسو، وقد فقد الكثير من وزنه حزنًا على موت حبيبته منتحرة، والتي كان يستعين بها كموديل لأكثر لوحاته، حتى إنه لم يطق المكوث في لندن تلك المدينة التي أحبها كثيرًا، لقد اشترى منزلًا على ضفاف التايمز ليرسم هُناك مئات اللوحات لذلك النهر بمينائه المحتشد بالسفن وسمائه الغائمة دومًا.

بخطوات حزينة متمهلة جاء تيسو ليلقي التحية بعدما رآنا، دعاه الفنان للجلوس، ولكنه اعتذر لانتظاره مجموعة من الأصدقاء.

- إنه يلقى مُعاملة سيئة من الأوساط الفنية، واتهامات من النقاد لأنه ترك بلده وذهب ليرسم في أخرى؛ وكأنه في ذلك خيانة لها.

- وما الخيانة في ذلك! إن العالم بأسره كمسرح للفنان!

- البعض يلومك على اشتهائك لرسم وطن آخر سواه.

- ولكنك سافرت للشرق، ورسمت هُناك الكثير من اللوحات، ولم يلمك أحد.

- لأنني لم أعش كثيرًا هُناك؛ فتلك اللوحات ينظر إليها البعض كاكتشاف لتلك البلاد الغريبة، والبعيدة عنا، والآن ها أنا أستعد للذهاب إليها مجددًا.

عبثًا حاولت إخفاء حسرتي وحزني عند سماعي تلك الكلمات، فحاصرته بالأسئلة:

- ولكن متى وكيف وكم ستمكث هُناك؟

ربَّت على يدي بحنان قائلًا:

- لقد تم اختياري مع بعثة هندسية كان قد طلبها الخديو إسماعيل والي مصر للإشراف على تصميمات وهندسة بعض المباني هُناك، كما هو النهج الباريسيّ بعدما جاء لباريس لافتتاح الجناح المصري بمعرض باريس العالمي، وشاهد بنفسه النهج المعماري الحديث في تطوير باريس بقيادة هوسمان، وفي لقاء له بالإمبراطور طلب منه رأسًا السماح له بإرسال بعثة فنية من أكفأ وأمهر المهندسين ليجعل من عاصمة بلاده باريس الشرق. إنه تعلم بباريس أيضًا، ومُنبهر بها يسمونه في مصر بإسماعيل الرائع لاهتمامه بتشييد وبناء دولة حديثة بجميع المقاييس، وهُناك صداقة قوية تربطه بالقصر الإمبراطوري.. حتى إنه خصص قطعة أرض على ضفاف نهر النيل لبناء قصر يستضيف فيه الإمبراطور، وعائلته لحضور حفل قناة السويس.

- وما قناة السويس؟

- إنها قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض، وقد بدأ العمل بها في عهد الوالي السابق سعيد باشا، والآن وقد وَلَّى الحكم لإسماعيل؛ فعليه استكمال هذا المشروع الضخم الذي كانت فكرته لمهندس فرنسي (ديليسبس)، وتبنت فرنسا تمويل المشروع مع مصر.. ستكون نقلة ملاحية كبيرة.

تجرع كأس النبيذ مرة واحدة، وأمر النادل بإحضار كأس أخرى، واعتذرت أنا.

- أما عن متى سأرجع فهذا وحده يعلمه الله.

أصابني الخرس؛ فمجرد التفكير في أنه راحل للبلاد البعيدة كان مأساة بالنسبة لي، حقًّا لم نكن نلتقي كثيرًا، ولكن مجرد إحساسي بأننا تحت سماء واحدة نتنفس ذات الهواء، وتظللنا ذات الشمس، وجوده على مقربة مني كان فيه راحة لي وشعور بأمان وطمأنينة، والآن ماذا عليَّ أن أفعل؟! دخل هو أيضًا في تفكير عميق سرعان ما أنهاه قائلًا:

- ولكن انتظري بإمكاني أن أدرج اسمك في البعثة، فنحن نريد الكثير من الفنانين للمساعدة في الرسم والزخرفة وانتقاء قطع الموبيليات، ورسم نقوش على الأخشاب.

بكلماته هذه وكأنه أعادني للحياة من جديد، ليس فقط لأنني سأكون قريبة منه؛ ولكن لأنني أريد الذهاب للشرق.. فبلهفة سألته:

- أرجو ذلك حقًّا.

ولم أكن لأرجو وقتها أكثر من ذلك.. طلب الحساب وقام بدفعه.

- دعني أدهشك في يوم مولدك، وأخبرك أن ذلك اليوم أسعد أيام عمري.

اكتفى بابتسامة جذابة، بينما كانت السيدة تساعده في لبس معطفه، ويساعدني هو في لبس معطفي، ثُم ودَّعني عند حافة الباب قائلًا:

- سأخبرك بالوقت الذي تعدين فيه حقيبة سفرك استعدادًا للرحيل.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

26

غادر كل منا بعربة مُختلفة، فلم نكن نذهب للطريق نفسه، ولكن قريبًا سأسلك معه الطرق المتشعبة نفسها، وأعشقه بكل مشاعر إناث الأرض.. أنا التي لم أعرف حتى متى ولدت بداخلي نبتة حبه بقلبي، ومن كان يرعاها، ويسقيها، ويوفر لها التربة الصالحة للنمو ونحن بعيدان كل ذلك البعد؟

وقد كان ذلك الموعد للاحتفال بذكرى عيد مولده من تلك الأعياد الكثيرة التي خلفت فيها الحضور؛ لأنني لم أكن أعرفه بعد، هو الأجمل في ثنايا الذاكرة.

منذ ذلك الحين وأنا أعيش على قيد الانتظار لموعد السفر لذلك البلد الذي تناطح مسلته - بساحة الكونكورد بباريس - السحاب بكبرياء وشموخ من صنعها يومًا، تلك المسلة التي أهدتها الحكومة المصرية بسبب جهود علماء الآثار وشامبليون [29] الذي كان له الفضل في حل ألغاز اللغة الهيروغليفية القديمة بعدما عجز الكثيرون عن حل لغزها. بل إن أكثر المتاجر التي تبيع التحف والأنتيكات تعرض تحفًا وتماثيل فرعونية لاقت إقبالًا كبيرًا من الشعب الفرنسي بعدما وقف مذهولًا أمام دقة صنعها. كان عليَّ أن أتعرف أكثر على ذلك البلد الذي سأكون في طريقي إليه؛ فذهبت للمكتبة، واشتريت الكثير من الكتب؛ منها: «رحلة في مصر الخفيضة لشاتوبريان»، «رسائل من مصر لفلوبير»، و«رحلة إلى الشرق» لجيرار نرفال.. واعتكفت لعدة أيام بحديقة منزلي، ألتهم الكتب التهامًا، ومع اختلاف أوجه الآراء بين فلوبير بنظرته الفلسفية الذي لا يعنيه جمال النيل بالقدر الذي يهمه أن يبحث من أين هي منابعه، وإلى أي الطرق تصل روافده؟.. ولامارتين بنظرته الرومانسية حيث وصف تلك البلاد كما لو أنها جنة الله في الأرض، ونرفال بنظرته الحزينة وحبه لتلك البلاد، وولعه بعاداتها وتقاليدها حتى وصف كيف كان يشعر أنه مصري، وفضل أن يترك اللوكاندة التي كان يعيش فيها وقام باستئجار منزل كبير بحديقة، وبعد فترة من الوقت التف حوله الأهالي يطلبون منه أن يتزوج أو عليه بمغادرة المكان، فليس من اللائق أن يعيش بينهم رجل أعزب.

كان يوم أحد مشمسًا وجميلًا، نزلت للرسم بالحديقة، كانت الثانية عشرة ظهرًا تقريبًا عندما سمعت أزيز الباب الحديدي، وصوت أقدام تدهس الأوراق اليابسة للشجر.. نظرت خلفي لأجد كريس بملامح حزينة، وملابس غير مهندمة وكأنه رفض حتى أن يهندمها.

- كريس! يا ألله، ماذا حدث؟

سحب مقعدًا خشبيًّا وجلس مقابلي قائلًا:

- اطمئني نتاليا، لم يحدث شيء.. كل ما هُنالك أن مسيو ديلون قرر أن يبيع المخبز.

أصابتني الدهشة من كلماته؛ فقد كان من غير المتوقع أن تلك الفكرة تخطر في رأس مسيو ديلون يومًا، فقد كان المخبز بمثابة حياته...

- معقولة! ولكن لماذا؟

- لقد أصبح في خسارة دائمة، ولا يأتي حتى بتكلفة المخبوزات بعدما افتتح بجواره أكثر من مقهى، وباتسيري تقدم الأشهى والأجمل في المخبوزات والحلويات، بينما مخبز مسيو ديلون كما هو مُنذ افتتاحه من نصف قرن تقريبًا لم يدخل صنفًا جديدًا، لم يطور من أدوات الصنع؛ فغادرته زبائنه، الواحد تلو الآخر وبعدها غادره العاملون به، وأخيرًا قرر ديلون بيعه، والسفر للريف للعيش ما تبقى له من عمر هُناك.

- ولكن كريس، لماذا كل هذا الحزن، بإمكانك الحصول على عمل بمكان آخر.

- كيف هذا تالي؟ فقد كان الوقت الذي عملت به هُناك عمرًا في حد ذاته، كان مسيو ديلون يعاملني كصاحب للمكان وليس كعامل.

(صاحب للمكان)، انتبهت لتلك الكلمة ماذا لو يصبح كريس صاحبًا للمكان؟

- ولماذا لا تصبح صاحبًا للمكان؟

- كيف؟

- بإمكانك أن تعرض على مسيو ديلون شراءه.

قهقه بصوت عال:

- وهل أشاع أحدهم خبرًا بأنني ورثت عمتي الكونتيسة العجوز! نتاليا أنا لا أملك سوى قوت يومي، وبعض الفرنكات أدخرها جانبًا لوقت الحاجة.. عدا ذلك أنا مُعدم.

- سأشتري ذلك المكان، وستكون أنت شريكًا لي، سوف أترك لك مهام إدارته أنت وأمي.

اتسعت عيناه دهشة، رُبما أصابه الخجل ليسألني: هل أملك الأموال الكافية؟ ولكنه بدلًا منه سألني:

- ولكن كيف تشتري مكانًا يخسر! أخشى على أموالك نتاليا.

- سوف نحول ذلك المكان إلى مقهى باريسيّ فاخر مُصاحب له باتسيري، يُقدم أشهى قطع المخبوزات والحلوى.

تبدلت ملامح ليون بين الفرح والدهشة...

- لقد ربحت الكثير من الفرنكات، وأريد أن أستثمرها بمشروع يدر عليَّ دخلًا ثابتًا؛ فأنا المسئولة على إعالة أسرتي، وتوفرت لهم حياة لائقة بمستوى معيشي مُرتفع لا نرضى عنه بديلًا، أخي جوزيف الذي يصغرني بعام التحق بالـ(سوربون) [30] ليدرس القانون، تصور (السوربون) التي مجرد ذكر اسمها يصيبك بالرهبة، والتي لا يلتحق بها إلا أولاد الطبقة الأرستقراطية! الآن جو طالب بها، وسيليه الباقون، وسأكون مسئولة عن توفير احتياجاتهم، والرسم ليس مهنة، ونجم الفنان الصاعد والهابط دومًا يتحكم كثيرًا في ذلك.

أخيرًا.. ابتسم وكأن بكلماتي تلك وفرت له الطمأنينة النفسية التي لا تمنحنا إياها سوى راحة البال.

- هيا نذهب الآن لمقابلة مسيو ديلون.

- الآن.

- نعم.. الآن.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

27

باريس.. مايو (1868):

بعد ذلك اللقاء بيومين كنا نجلس أنا وكريس وأمي ومسيو ديلون أمام موثق العقود لنوقع عقد انتقال هذا المكان لي، هذا المكان الذي دخلته يومًا بخُطى فتاة تقدم قدمًا وتؤخر أخرى، وبملابس مهلهلة لتحصل في النهاية على أجر ربع فرنك لليوم.. لم يسأل حتى مسيو ديلون كيف حصلت على تلك الأموال؛ فرُبما اعتقد أنني قد فزت بورقة اليانصيب، أو قد آلت لي ثروة عم شديد الثراء.

مسيو ديلون بسنواته السبعين، وذاكرة قد بدأت تخبو، لم يعد الفضول من اهتماماته؛ كل همه أن يحصل على تلك الأموال، ويتخلص من عجزه أمام الديانة. قدم لنا الموثق -بمعطفه الأسود والباروكة البيضاء التي تُغطي شعره- الأوراق والمحبرة والريشة لنوقع عليها، كانت أمي وكريس أكثر فرحًا مني؛ فهذا المكان هو بيتهم الآخر، دخلا إليه يومًا كعاملين والآن في طريقهم لإصدار الأوامر، ولكن كان الأمر بالنسبة لي مُختلفًا؛ ففي ذلك المكان، وفي تلك الزاوية، وهذه المساحة الضيقة من العالم كان القدر يتربص بي ليدخر لي أجمل مفاجآته. لذلك وعدت تلك الأرض والجدران بأنها ستكون الأهم والأرقى، ومنذ ذلك الحين جلست مع كريس لنُخطط، سنحتل تلك المساحة الخارجية بطاولات ومقاعد تطل على الساحة، هذه الزاوية الداخلية ستكون لفاترينات العرض لنستغل المساحة في أكبر عدد من الطاولات التي سنضع عليها مفارش بيضاء نقش عليها من المنتصف اسم المقهى (نتاليا)، كذلك ستكون المقاعد الخشبية الوثيرة مكسوة بأقمشة من قماش البروكار، المُطرز بخيوط ذهبية، ومنحوت على رأس المقعد اسم المقهى.. سأجلب الفناجين والأطباق من أشهر مصانع السيفر، وسأطلب منهم نقش الاسم على الصيني، أما بالنسبة للملاعق والشوك فستكون من الفضة الخالصة الممضاة باسم المقهى، الأرضية من الباركيه اللامع، والحوائط مبطنة بالخشب ستزين بلوحاتي التي سأبدأ في رسمها خصيصًا بما يناسب المكان، وسأضع بالسقف الثريا الكبيرة التي تناسب فخامة المكان.

- ولكن كل ذلك سيكون مُكلفًا جدًّا نتاليا، وأخشى ألا يدر المكان الربح الكافي.

- لا تخش كريس، سأجعل كل من دخل ذلك المكان يومًا يشيد بجماله وفخامته، أنا أعرف تمامًا تلك العقول التي لا شيء يجذبها ويقود خطاها سوى الأناقة والفخامة، وفي نفس الوقت سيكون المكان حميميًّا ودافئًا للمواعيد العشقية.

ابتسم كريس عندما رأى الورقة التي كنت أرسم عليها «سكتش» لما سيكون عليه المقهى بعد الانتهاء منه، كنت أرسم كل شيء بدءًا من الأرضية حتى المزهرية الموضوعة على المائدة، ثُم أطلق صفيرًا بإعجاب.

انشغلت للإعداد للمقهى، كنت أريد الانتهاء منه وافتتاحه في أقرب وقت ممكن حتى لا يفاجئني ليون بالسفر في أي وقت، ولكن ليون اختفى تمامًا منذ ذلك الموعد،

ولكنني أذكر حضوره الأخير عندما جاء ليودعني قبل سفره بساعة، ويضع في يدي ورقة بها عنوان إقامته لإرساله عليه، ويستقر في حلقي وقتها غصة الخيبة والألم وأنا ألومه قائلة:

- ولكن ألم تعدني أنك ستصطحبني معك؟ ألم تقل لي إن البعثة تحتاج لعدد من الفنانين بها؟

- نتاليا، تأكدي ما زلت عند وعدي، ولكن امنحيني الفرصة لأسافر هُناك وأرى ما الوضع؛ فقد طلبوا منا أن نسافر لنخطط تلك الأراضي، ونضع التصميمات الخاصة بها، ثُم نقوم بطلب الفنانين والنحاتين الذين نحن بحاجة إليهم.

كنت سأخبره أنني سأسافر على نفقتي الخاصة عندما تذكرت أنني لم أعد أملك المال الكافي، فشراء المقهى وتجهيزاته كان قد تكلف كل ما أملك، ولم يتبق لي سوى اليسير للعيش. لاحظ هو حزني فأضاف:

- الشرق ليس كما تتخيلين؛ إن بلدًا مثل مصر لن تملكي الحرية الكاملة بها للتريض بالشوارع، والجلوس على ضفاف النهر للرسم كما هي الحال هُنا، وضع المرأة هُناك مُختلف.. حتى تلك الحرية التي يملكها الرجل الغربي على قيدها، إلا أنها أكثر بكثير من حرية المرأة الغربية هُناك، لذلك عند حضورك بشكل رسميّ وعملك لصالح القصر الملكيّ سيوفر عليك كثيرًا من خيبة الأمل التي رُبما قد تصابين بها.

ابتسم وهو يضيف:

- فقط بعض الصبر.

وهل أكثر من ذلك صبر! فعندما كان بالقرب مني كان يقتلني الشوق إليه، وكنت أمنع نفسي من رؤيته لا لسبب إلا لتلك الدائرة المُغلقة التي وضعنا أنفسنا بها؛ فهو لم يصرح لي بشيء، لم ينطق بشيء وكأنه يكتفي بتلك النظرات المُتقاطعة ما بين موعد وآخر.

- لقد انشغلت الفترة الماضية بقراءة بعض الكتب لأدباء فرنسيين عن زيارتهم تلك البلاد، وقد كتب أحدهم أن هُناك ملكًا يُسمى (محمد علي) [31] كان يزأر مثل الأسد، وعندما كان أحد الرسامين الأجانب يقوم برسم لوحة له وقتها أصدر ذلك الصوت تعبيرًا عن غضب ما ألم به وقام بالزئير؛ فخرجت روح الفنان رعبًا منه، وتُوفي على الحال. وفنان آخر كان يرسم لوحة للسلطان عبد الحميد أثناء زيارته للقسطنطينية في فناء القصر، وبجانبه على السجاد العربي -بنقوشه الجميلة- نمر راقد على الأرض، لقد قدر لك أن تصل إلى هُناك فاحذر.

ابتسم قائلًا:

- إسماعيل باشا أكثر تفتحًا وخبرة، قد سمعت من صديق لي فرنسي قادم للتوِّ من القاهرة أن عدد الفرنسيين في الإسكندرية والقاهرة كبير بشكل واضح ولافت للنظر، والاستعانة بالعلماء الفرنسيين رفع الكلفة ما بين المصري والفرنسي، حتى إن اللغة الفرنسية أصبحت مُتداولة بين الأوساط الاجتماعية الراقية، ولكن مؤكد أن

هُناك البعض يملك قدرًا من الحساسية تجاه كل ما هو أجنبي خاصة بعد حملة نابليون، والآثار المُدمرة التي تركها باقية منذ زمن على نفوس ذلك الشعب، فكان لدخوله مسجد الأزهر المقدس بالخيول والأحذية أثر مدمر حقًّا لهذا الشعب، الذي يعير لدينه أهمية كبرى، وبإمكانه أن يُضحي بروحه حتى لا يمس أحد دينه أو مقدساته بأذى.

فجأة وكأنه تذكر شيئًا مُهمًّا:

- ولكن دعينا من تلك الأمور، وأخبريني بأحوالك، ومشاريعك القادمة.

ضحكت قائلة:

- ألم يعد هُناك شيء يُمكننا الاحتفاظ به سرًّا في تلك المدينة.

ابتسم هو، وتركته لأحضر تلك الرسومات المُصغرة للمقهى الجديد، ما إن رآها حتى صاح قائلًا:

- تهانيّ نتاليا، المكان أنيق فعلًا.

- لقد كلفني الكثير، ولكن كنت أظن أنه رُبما خلال رحلتي لمصر ستحتاج عائلتي أموالًا لتعيش، ففكرت بأنه سيكون مشروعًا مُربحًا.

- أحب هذا المكان.

قالها بنوايا عشقية كنت أعلم مقصدها تمامًا:

- ألم يكن ذلك المكان الشاهد على لقائنا الأول؟

- ستبحر السفينة من ميناء مارسليا بعد ثلاث ساعات من الآن، عليَّ الذهاب إذن، واحترسي لنفسك.

ثم وبحركة سريعة كان قد ضمني إليه، رتب على ظهري بحنان، ثُم سحب نفسه مني ببطء وهو يمد يده في جيب معطفه ليخرج منها ورقة صغيرة:

- هذا هو العنوان، يُمكنك أن تراسليني عليه.

قمت بوداعه عند باب الحديقة، وكالعادة راقبته حتى اختفى عن نظري، والتحم بالمارة، لأطبق بيدي على تلك الورقة كما يتعلق طفل بطرف ثوب أمه، مُتعلقة أنا بها وأخشى أن تضيع مني؛ فأخفيتها في علبة موسيقية أضعها بجواري على الشوفنيرة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

28

مرت الأيام بعد ذلك، وتبدلت السماء الباريسية الهادئة، وأمطرت بكاء على فراقه، وأصابني الحزن، وفقدت شهيتي للحياة. لاحظ كريس افترار عزيمتي لإعداد المقهى فظل يشجعني مُجددًا. مرت ستة أشهر تقريبًا ليصبح كل شيء جاهزًا تمامًا، تلقيت خلالها خطابين من ليون في حين أرسلت له أكثر من عشر رسائل؛ فهل الكتابة تعبير صامت للحب؟ ولماذا لم يمسنا البوح إلا على الورق، وعلى الورق فقط؟! أخبرته كيف أصبحت سمائي

رمادية منذ رحيله، وكيف أنني فقدت أكثر من نصف وزني لأنني أتناول الطعام بنية مواصلة العيش لا أكثر، في حين في رسالته الأولى لي كتب: إلى مُلهمتي!

أعلم تمامًا أن عينيك رُبما تتوقف كثيرًا أمام تلك العبارة وتتساءلين: هل حقًّا كنت ملهمته؟ دعيني إذن أخبرك أن تلك العينين الجميلتين بلون حبة البندق هي كل ما أستطيع أن أراه أمامي عند الشروع في رسم لوحة جديدة، وحتى إن كانت موديلها تجلس أمامي فيكفي استحضار تلك النظرة الجميلة، ومسحة الحزن النادرة التي تغلف وجهك حتى تركض الفرشاة على الورق. نتاليا أي رنين جرسي كان اسمك! وأي صوت دافئ هو صوتك عندما رددتيه عليَّ في أول لقاء بيننا (اسمي نتاليا)، وتُرى أي قدر جعلني أحضر إلى هُناك بتوقيتك يومها؟ قد اعترف لك أنني رجل ضعيف يعشق ويحن ويبكي تارة ألمًا وتارة شوقًا، وتأكدي أنه لم يكن لي حُلم في النهاية سوى أن أراكِ كما أنت الآن.. كوني بخير طفلتي.

كانت تلك أول رسالة له، والتي حفظتها عن ظهر قلب بعد عدد لا حصر له من المرات قمت فيه بقراءتها، تلك الرسالة التي كان كل حرف بها قد مسَّ قلبي.. والتي يعترف بها أنه يحن ويشتاق ويبكي أيضًا.

في الرسالة الأخرى والتي وصلتني منه بعد سفره بثلاثة أشهر تقريبًا لم يذكر فيها أي كلام عن عشق أو غرام فقط، تلك الأحرف التي صاغها في بداية الخطاب (اشتقت إليك)، ثُم امتلأت صفحات رسالته الأربع بكلمات عن صعوبة الأعمال الموكلة إليه تحت الشمس الحارقة؛ فالمساحة التي اشتراها الخديو إسماعيل حوالي ستين فدانًا، وخطط ليبني عليها حديقة للحيوان، ومبنى للأوبرا، وحديقة أخرى تشبه غابة بولينا في تصميمها، وعددًا من الكباري والقصور، بالإضافة لبعض المباني لهيئات ومصالح حكومية. وكان عليه هو وأعضاء البعثة الانتهاء من العمل في أقرب وقت، وفى نهاية الرسالة أخبرني أنه جارٍ العمل بالموقع على قدم وساق، وقريبًا سأكون على أول باخرة قادمة لمصر معٍ بعثة تضم الفنانين والنحاتين، والنجارين ومصممين للديكور، والآن وقد مرَّ أكثر من ثلاثة أشهر على آخر رسالة، ولم أعلم عنه أي أخبار.. أصابني القلق من أن يكون قد أصابه مكروه، ولكنني كنت دومًا أستبعد تلك الفكرة مُستعينة عنها بفكرة أخرى رُبما أنه مشغول في تلك الأعمال الشاقة المُكلف بها، وكان عليَّ أن أهتم بأعمال المقهى المُكَلَّفة بها.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا عندما كنت أقف مع كريس في صالة المكان لنضع الطاولات والمقاعد، كان هو هُناك ينظم ويخطط مدينة لم تكن له يومًا، وكنت أنا هُنا أنظم المكان الشاهد الأول على لقائنا، أنظمه بشهية عروس تنظم بيتًا للزوجية، وهي تعلم تمامًا أنه لن يجمعها بمن أحبته يومًا.

بعد ثلاثة أيام من اللا نوم كان كل شيء يجرى إعداده؛ تركيب الستائر والثريا، تعليق اللوحات، فرش السجاد، تنظيم المطبخ ورص أدواته، استلام ملابس الخدم والعمال، وزعنا المهام عليَّ أنا وكريس وأمي التي خصصت لها الإشراف على المطبخ، كما طبعت الدعوات على ورق فاخر معطر برائحة الفانيليا، ومكتوب بماء الذهب، ووزعت على أهم وأرقى الشخصيات الباريسية من سياسيين وإعلاميين وفنانين، كان حفل الافتتاح بمثابة كرنفال للأناقة والجمال كان كل شيء منظمًا وجميلًا، أبدعت مدام رينيه في تصميمها لثوب الافتتاح الذي قمت بارتدائه، أشاد الجميع بديكورات وأناقة المكان، وأفردت الصحف أخبار افتتاح مقهى (نتاليا)، وتصدرت صورتي مع كبار الشخصيات الصفحات الأولى للجرائد، ولكن وبالرغم من كل ذلك كنت أبحث عن خطوات لرجل شقت الطريق ضياء عند مروره من هُنا ذات يوم.

أيعقل أن المدعو الوحيد الذي كنت أنتظره وأتمنى وجوده لم يحضر بالرغم من إصراري على حضوره؛ فبعثت له دعوة الافتتاح مكايدة في القدر الذي أبعده عني لا أكثر، عندما أتذكر ذلك اليوم أجد نفسي أبكي الآن في مدينة الحب، فيا مدينة الحزن، مدينة الفرح.. أجيبي كيف الوصول إليك الآن؟

مرت الأيام سريعة، وجذب المحل الكثير من عاشقي الفخامة والأناقة، وبسبب المذاق اللذيذ الذي تفننت فيه أمي بصنع المخبوزات والفطائر كخبازة مُحترفة، تعلمت كيف تحشو العجين بالشيكولا والقرفة وتصنع حلوى الماورون جلاسيه [32]، لتصبح تلك المخبوزات لا تقدم إلا في مقهى نتاليا فقط. الكُل يسأل عن سر ذلك النجاح ولا يعلم أن تلك المرأة التي قضت أكثر من نصف عمرها تقف على أواني العجين مأمورة بخبزه بطرقه التقليدية أُتيحت لها الفرصة الآن لتقرر ماذا عليها أن تخبز، حتى إنه كان من النادر وجود طاولة فارغة في أي وقت من اليوم، وفي أيام الإجازات، ووقت الراحة كان هُناك قائمة طويلة للانتظار.

ذهبت لمدرسة الفنون الجميلة مرة أخرى لآخذ دراسة في نقوش الركوكو على المباني، والركوكو هو نوع من الفنون انتشر في القرن الثامن عشر، ومن أشهر فنانيه (أنطوان واتو) و(بوشيه) [33]، وأعجب ذلك الطراز الفني الملكة ماري أنطوانيت [34]، حتى إنها كانت زينت قصرها من ديكورات وموبيليات، ومنسوجات ولوحات بهذا النوع من الفن الذي يمتاز بكثرة الزخرفة بما يليق بملكة تعشق إطلالة الملوك.

عندما أتذكر تعاسة نهايتها بعد كل ذلك البذخ أتعجب من تربص الأقدار، فكأنه كان يدعها تجتز من كل متع الحياة في المقابل يدخر لها من الأسى ما لم يتوقعه أحد، عندما وقفت أمام لوحة نهايتها ذات يوم، والتي تفوق فنان كاره لها على نفسه في

رسمها ليخرجها بكل ذلك العنف والدموية مُغلفة بالكراهية، فها هي تَساق على عربة تجرها الخيول إلى قدرها حيث تزاحم الجميع على جانبي الطريق، وتبدلت الورود التي كانوا يرمونها لها يومًا بالحجارة والقاذورات وكل ما وقع في أيديهم، وتصيح وتهتف الألسن بسبها بأفظع الألفاظ، وليس ذلك فقط بل إمعانًا في ذلها طلبوا منها أن تبدل ثوبها الأسود بآخر أكثر بياضًا، حتى يظهر لون دمها عليه. كيف امتلأت العيون في هذه اللوحة بمثل كل هذا الشر؟ في لوحة أخرى لنفس الفنان رسم فيها الملكة بعدما فصل عنقها عن جسدها بمقصلة كانت قد أعدت خصيصًا لها. أو ليست هي التي كانت تعد وتبتكر الأشياء خصيصًا لها! وهذا العنق لطالما تبارى صُناع المجوهرات صنع التصميمات الخاصة به، ليسقط مدرجًا بالدماء أرضًا بينما يجاوره جسدها بحزن.

ماري أنطوانيت تلك التي لم تُصدق رسالة أمها التي دستها في يديها وهي تُغادر النمسا لقصرها الجديد بفرنسا بعد زواجها بلويس السادس عشر، وهي مازالت ابنة الخمسة عشرة سنة، والتي كتبت فيها تقول: (إنني آمرك يا ابنتي العزيزة أن تخصصي يومين كل سنة لتستعدي فيهما للموت كما لو أنك واثقة تمامًا.. إنهما آخر يومين في حياتك).

قالت متحسرة لخادمتها وهي تغادر قصرها حليقة الرأس في ذلك اليوم إلى حتفها: (لم أفعل ذلك.. كنت أعتقد لصغر سني وقتها أنني لن أموت أبدًا).. حقًّا ليس هُناك أكثر من قسوتك أيها القدر!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

29

أغسطس (1868):

كان ذلك الصباح مُختلفًا، فكانت شمسه تملأ السماء الجميلة.. فتحت نافذة غرفتي لأطالع الزهور المتفتحة بحديقة منزلي، وأتنفس بملء صدري أملًا وحياة. حتى رأيت ساعي البريد بزيه التقليدي. كُنت مُولعة بشخصية ساعي البريد وهو يقود دراجته التي يحيا الكثيرون على قيد دوران إطارها؛ تحمل في كل دورة معها أملًا لأحدهم، فرسمت له الكثير من اللوحات، رسمته مرة وهو يسلم رسالة لامرأة جميلة كانت تلتقطها منه بلهفة المشتاق. ساعي بريد منطقة باريس الشمالية رجل مسن يحمل حقيبته السوداء على إحدى ذراعيه ويحمل في الأخرى مجموعة من الرسائل التي حان دور تسليمها بشارب كثيف أبيض، ولحية غير مُهذبة، وكان في أشد أيام السنة حرارة لا يخلع قبعته أبدًا. لمحته وهو يغادر بعدما كان وضع الرسالة في صندوق البريد أمام البوابة الخارجية، وبالرغم من أنني كنت أتلقى الكثير من المراسلات من الجمهور والصحفيين ودعوات لحضور معارض وحفلات فإن حدسي أخبرني أن تلك الرسالة هي التي كنت في انتظارها، فالتقطت الروب، وكنت أرتديه وأنا أهرع على الدرج الخشبي، وبلهفة أدرت المفتاح بالصندوق، وتتحسس أصابعي موضع الرسالة، وتلتقطها لأجد طابع البريد الملكيّ المصري برائحة النيل، والشمس البعيدة تُضيء الأحرف وتزينها.

في البدء اعتذر لقلة الكتابة لي؛ فهو مشغول دائمًا، والآن وقد أشرف على الانتهاء من العمل، والبعثة الهندسية طلبت مجيء الفنانين والنحاتين إلى مصر، وعليّ أن أعد حقيبتي للسفر، هل لأن الكلمات تُشبه دائمًا أصحابها وجدت كلماته رزينة، غير مُتكلفة ومُعقدة في نفس الوقت، تدعوك لقراءة ما بين السطور. رُبما أخرج بتلميح عن شوق ما هُنا، عن لهفة ما هُناك!

ولكنني لم أجد شيئًا. غريب أمر هذا الرجل في أول رسالة بعثها لي أفاض بخبايا ولعه، والآن لم يأتِ على ذكر شيء، وكأنها رسالة يرسلها لقريب أو صديق. تراه هل تراجع في كلماته أم لم يمسه الحنين؟!

آمال كُبرى، كثير من الأحلام والأماني المُؤجلة كانت في طريقها للتحقق. ها أنا أتلقى خطابًا مسجلًا من مدرسة الفنون الجميلة تخبرني فيه أنني رُشحت للسفر لمصر مع بعثة هندسية وفنية [35] لنقوم ببعض الأعمال هُناك، في تطوير وتحديث مدينة القاهرة.

الانتقالات والإقامة ستتكفل بها القنصلية الفرنسية بمصر، هذا بالإضافة لراتب شهري، ومكافأة من الحكومة المصرية عند انتهاء الأعمال، وعليَّ الرد بالإيجاب أو الرفض فور تلقي الرسالة. وهل ذلك الخبر الذي انتظرته طويلًا يمكنني أن أرفضه! إنه من تلك الأخبار التي تأتيك بالفرح. أكملت إعداد الأوراق اللازمة لسفري، خزنت اللوحات التي أحبها، واشتريت الكثير من أدوات الورق، وأدوات الرسم كما أخبرني المُشرف على البعثة.

أمرت مدام رينيه أن تعد لي ملابس تناسب الطقس وعادات وتقاليد تلك البلاد، فقد أخبرني ليون أن نساءها يرتدين ثيابًا فضفاضة لا تظهر منهن شيئًا، ويغطين وجوههن.. حسنًا لا يمكنني أن أغطي وجهي، ولا أن ألبس مثل تلك الثياب، ولكن في الوقت نفسه لم أكن لأخرج أعمل بمثل تلك الملابس الكاشفة أكثر منها ساترة، والمتكلفة أكثر منها بسيطة. اشتريت الجبن الفرنسي الذي لا غنى لي عنه، ومن النادر وجوده هُناك، كما اشتريت الكثير من الشيكولا والبونبون، ليون لم يطلب مني شيئًا وكأن ليس ما ينقصه هُناك؛ ففكرت في هدية أحضرها له معي فوقع نظري يومًا وأنا أتجول للتسوق لشراء ما ينقصني على غليون خشبيّ أبنوسيّ بمبسم عاجي، مخروط بشكل انسيابي جميل دخلت لأشتريه؛ فأخبرني البائع أن أنتظر ثلاثة أيام حتى يتسنى له صنع قطعة أخرى منه لأن تلك القطعة للعرض، وغير مُتاحة للشراء، طلبت منه أن ينحت حروف اسمه عليها، فابتسم لي الرجل وهو يخبرني بأنه سيفعل.

كانت تلك آخر زيارة لي للمقهى في ذلك اليوم، وقبل سفري لاستقلال الباخرة المغادرة ميناء مارسيليا لمصر كنت أودع ذلك المكان بنظري قطعة قطعة.. حتى تلك اللوحات التي قمت برسمها بما يناسب المقهى.. فها هي فتاة تجلس وحيدة على إحدى الطاولات بيديها فنجان من القهوة، والمقعد أمامها فارغ، فهي في انتظار أحدهم ولن يأتي أبدًا. وفي أخرى عجوزان تثرثران بشهية الغياب الطويل، فرُبما مر على لقائهما الأخير الكثير من الزمن.

وهذا الرجل الذي يجلس بملامح جامدة يطالع إحدى الصحف، وباليد الأخرى يرشف من فنجان قهوته، أثارت تلك اللوحات إعجاب الكثيرين، حتى إنني تلقيت طلبات لرسم لوحات مُشابهة، ولكن الوقت لم يكن أبدًا في صالحي.. دخلت المطبخ لأجد أمي بسنواتها الستين، وبجسدها السمين ترتدي مريول العمل وبخبرة امرأة محنكة تشرف على الخبازين، وتقوم بتذوق هذا، وتضيف بعض الكريمة لذاك. كانت رائحة الكراميل الشهية تفوح من المكان، والكراميل هو السكر الذي يوضع على النار ويترك ليذاب، ثم يتحول للون بني برائحة مميزة ومحببة، وبذلك المذاق اللذيذ كانت أمي تضيفه على الكريم وتحشو به قطع الحلوى، كان هذا الصنف من اختراع أمي، ونالت عليه شهرة كبيرة، وأصبح لمقهانا شرف تقديمه للزبائن. كنت أهم بالخروج بعد منح أمي قُبلة سريعة، وطلبت منها ألا تتأخر على موعد عشائنا الأخير. نعم يومها قُلت (الأخير)؛ فصاحت أمي وهي تلومني لقول تلك الكلمة.. أمي التي كانت تحسب حساب أي كلمة صادرة عن شفتيها ودومًا، ما كانت تنصحنا بتوخي الحرص عند اللفظ بالقول؛ فأبواب السماء تكون في كثير من الأحيان مفتوحة على مصراعيها، ولكن هل كنت وقتها أعنيها؟! مؤكد (لا). أما في حال أن أبواب السماء كانت مفتوحة وقتها فمؤكد (نعم). كان كريس في الخارج يومها يشتري ما يلزم المقهى من احتياجات. فقلت لأمي أن تخبره بموعد العشاء في السابعة مساءً، وذهبت أتجول في الشوارع من شارع لشارع، ومن زُقاق لآخر حتى بيتنا القديم زرته، وقابلت جيراننا القُدامى. كنت أتجول بشهية الفقدان وحسرة المغادرة، وهُناك على مقعد خشبي على ضفاف السين جلست. وللمرة الأولى بدون

صحبة فرشاتي وألواني. جلست أتأمل في تلك المياه الجارية كمصير محتوم، وتلك السماء الزرقاء التي تظللني، والوجوه المبتسمة المفعمة بالأمل.

أمرت إيفلين الطاهية بإعداد العشاء بما يليق لغياب طويل. جلسنا حول مائدة مُستديرة لعدم تكافؤ الألم حينها. فها هو كريس تدمع عيناه حزنًا لفِراقي، وأمي -تلك السيدة التي لم تخبر بعالمها سوى العجن والخبز والوقوف أمام الفرن بانتظار تسوية الخبيز- لم تفهم لماذا أترك باريس وأسافر لبلاد بعيدة سمراء. جوزيف أخي الأكبر -الذي يشرفني بأنه طالب الحقوق بالسربون- وحده كان فخورًا بي. بينما أختي فرجينيا كانت باكية من شدة تأثرها لفراقي، باقي إخوتي لصغر سنهم لم يدركوا بعد لوعة الغياب الطويل، كان العشاء شهيًّا ولكنه مرير، تحدثت بعده مع كريس، ووعدته أني سأكتب له، وأن مكانته عندي لن تتبدل يومًا، ووصيته بأمي وأخواتي. كما أعطيته عنوان القُنصلية حتى يراسلني عليها مُؤقتًا حتى أبعث له بعنوان إقامتي.

في صباح اليوم التالي ودعت أمي وأخواتي أمام محطة القطار الذي سيقلني لمرسيليا. محطة القطار بدخانها الأسود الكثيف، وصفيرها الصاخب بقلوب حزينة مغادرة، وأخرى سعيدة قادمة.. وأنا ماذا كان شعوري وقتها؟ ها هي الرحلة التي طالما حلمت بها، وها هو رجل العمر بانتظاري، ولكنّ مزيجًا من مشاعر الحيرة والحزن والخوف من المجهول كان يتملكني. دمعت أمي كثيرًا؛ فقد كانت المرة الأولى التي أغادرها. أما أنا فاحتفظت لنفسي بدموعي؛ فأنا أكره الإشهار بحزني، ووضع بكائي تحت الأضواء الكاشفة. وخاصة عندما يتعلق الأمر بمن يقيمون في ثنايا القلب، وما زال صوتها وهو يعلو ويصرخ (انتبهي لنفسك جيدًا نتاليا) يصدح في أذني وأنا أودعها مُلوّحة لها بالرحيل من نافذة القطار حتى اختفت عن نظري. شغل كريس المقعد المجاور لي بعدما أصر على أن يصاحبني للميناء. أسندت رأسي إلى ذراعه طيلة الوقت، وكنت أسمع نبض قلبه، في كل نبضة كان يقول (أحبك).

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

30

سبتمبر (1868):

غادرت باريس إذن في صباح خريفي حزين، كما يُغادر جنين رحم أمه. وكما تخرج العصافير من أعشاشها لتحلق بعيدًا عن أوطانها. أتوقف طويلًا أمام سمائها، أرضها، أبحث فيهما عن ذكرياتي بها.. كيف حدث يومًا أن فكرت في مغادرتها؟! في الميناء تراصت السفن الكبيرة والصغيرة، سفن بأشرعة بيضاء ترفرف بعناد في وجه صفير الريح، وأخرى بخارية تنفث دخانها الأسود الكثيف. وقفت على رصيف الميناء أنا وكريس. بينما وضع الرجل الحقائب على عربة مُخصصة لجرها. كيف لم أحذر يومًا سادية الموانئ في جلب كل تلك المشاعر الحزينة، كانت الباخرة على وشك الإبحار عندما قطع كريس الصمت ببضع كلمات مُختنقة وهو يقبض على يدي بقوة مُحذِّرًا بأن أحترس لنفسي، وأن أكتب له باستمرار، ولا أطيل الغياب كثيرًا.

ضمني له بحنان وشعرت بسخونة دموعه التي لامست وجهي، ألهذه الدرجة كنت تحبني كريس؟! أتمنى لو كنت أبادله مشاعره؛ فربما كنت الآن بدياري أمارس مهام الأمومة بنجاح. ولكن كنت دومًا أسير وفقًا لرغباتي، ولتلك الومضات الأولى الخافتة التي ينيرها لي القدر كشعاع يأتي من آخر النفق المُظلم، يُشاكس عيني لأركض خلفه دون أن أبالي بما قد يصيبني من أهوال بداخل النفق.

كانت الباخرة كبيرة أنيقة مصنوعة من خشب الجوز. وأخيرًا كان عليَّ أن أخطو تلك الخطوة الواسعة التي تنفرج فيها ساقيّ على مصراعيها لأترك رصيف الميناء للباخرة. أضع خطوة على أرض لطالما أحببتها، والأخرى أضعها على عتبة سفينة لا أعلم إلى أي الأقدار سترسو بي عندها. خطوة واحدة فاصلة بين مدن ومدن، أحلام وأحلام، وجوه وأخرى؛ فحقًا قد كان يلزمها أن تكون بمثل كل ذلك الانفراج.

دخلت الباخرة، وصعدت درجها الحلزوني النحاسي لأخرج للسطح حيث تجمع الركاب. فالكل كان يقف ليودع أصدقاءه وأهله. وحده كريس كان يقف لوداعي مُلوحًا بقبعته، وتلك النظرة بعينيه. أعلن بوق السفينة عن بداية الإبحار لتعلو الأصوات بنحيب الوداع؛ فمن يدري وهو متجه إلى مصيره هل من لقاء جديد؟ لمحت المشرف على البعثة، وذهبت للتحدث معه. استقبلني بابتسامة عريضة، وعرفني على اثنين من أعضاء البعثة الذين يزيد عددهم على العشرين. جميعهم كانوا من الرجال عدا أنا ومدموزايل (كارلا لوتريك) التي تعمل بالنحت، وتدربت مع رودان النحات الشهير. وكعادة النحاتين قليلي الكلام بملامح ويد عصبية؛ فكانت السيجارة التي لا تغادر أصبعها تتراقص مع رعشات يدها. مُنذ البدء تأكدت أننا لن نصبح أصدقاء لأنها كانت قليلة الكلام بمظهر أكثر جدية.

ذهبت للقمرة المُخصصة لي لأجدها قد سبقتني. تقوم برص أشيائها. أصابني دوار البحر طيلة اليوم الأول، وبعد ذلك كنت قد اعتدت عليه. كان الوقت المخصص للرحلة يتراوح بين عشرة أيام وخمسة عشر يومًا حسب حالة البحر آنذاك. أخرج

في مواعيد الوجبات في مطعم الباخرة، وأقضي بعدها ساعة على سطح المركب أراقب البحر. بدأت الرسم في لوحة للميناء حيث تتكاثر الوجوه، وتلوح الأيادي مودعة.. تلك السيدة العجوز التي جاءت في وداع أحد أحفادها المسافر للشرق بملابسها السوداء، وسنواتها التي تتراص الواحدة تلو الأخرى فوق كرمشات وجهها. لم تغادر ملامحها مُخيلتي عندما وقفت تبكي ذات صباح حزين مودعة حفيدها الذي رُبما لن يسنح لها عمرها بلقائه مرة أخرى. أنهيت اللوحة في أربعة أيام على الأكثر، وبخط رفيع في ذيل اللوحة كتبت عنوانها (الوداع).

بعد العشاء تتجمع البعثة؛ نجلس في دائرة كبيرة بصالون الباخرة ونتحدث. فمن زار تلك البلاد مُسبقًا يستعرض معلوماته، ويقوم بإبداء النصح لنا عن المتاح وغير المتاح. ولأنني دومًا كنت أحب الأمور كما أراها وأشعر بها لم أعبأ بنصائح أحد. فربما تلك المأكولات الشرقية التي نصاب بعدها بالتخمة يعجبني مذاقها، أو ذلك البعوض المنتشر لن يقوم بلدغي. هكذا إذن لم أكن لأسمح لأحد أن يُعكر صفو مزاجي.

- كان الهوس الفرنسي بكل ما هو مصريٌّ قد وصل لقمته في عهد نابليون الأول، إلا أنه كان قد سبق ذلك العصر بعصر، كما كانت الإمبراطورة ماري أنطوانيت تزين قصر الفرساي والبتيت تريانون [36] ومكتبها الخاص بالكثير من التُحف المصرية. واصل مسيو دانيال الفنان التشكيليّ الحديث مُستعرضًا بعض المعلومات قائلًا: - فيفيان دينيه الذي رافق نابليون في حملته إلى مصر كان يكتب ويرسم وينحت بنفسه، وقد كان لكتابه (رحلة في مصر العُليا والسُفلى خلال حملات جنرال بونابرت) أكبر الأثر في المزيد من الهوس المصريّ، حتى إنه طبع خلال قرن أربعين طبعة، وترجم بالعديد من اللغات. تابع أحد الرجال الحديث، وقد كان بملامح سمحة، وعينين بريئتين، وأصابع رفضت الصبغة أن تخرج منها لتشي بمهنته؛ فقد كان أحد دهَّاني وصانعي الموبيليات:

- نجار الأثاث الباريسي الشهير شارل موريل قام بتصميم ونحت قطعة موبيليات لمكتبة فاخرة مصنوعة من خشب البلوط الهنديّ، تحمل نقوشًا مصريَّة الشكل، وقد أثارت إعجاب الكثيرين، وصنع منها العديد، وغالبًا لم يوجد معرض أثاث في باريس في ذلك الوقت لم يعرض تلك القطعة. كنت صبيًّا صغيرًا أعمل في إحدى الورش بمرسيليا مع عامل للأثاث يُسمى جان جاك ريفو، أساعده في حفر رأس «أبو الهول» على خشب الأكاجا الذي تصنع منه طاولات الجيريدون، تلك الطاولة برجل واحدة. وقد أثارت هذه الأشكال الفرعونية ولعه حتى إنه كان كثيرًا ما يردد (سأكون أفضل لو عرفت هذا الطراز في موطنه الأصلي). وبعدها بعام حقق حلمه بالذهاب إلى هُناك ليصبح الرجل الأكثر شهرة في نهب آثار مصر.

أضافت كارلا بعيونها الناعسة:

- مصنع السيفر كان يصمم أدوات المائدة والتحف البسكويه من تلك الرسومات، وقد صنع طاقمًا لنابليون استغرق خمس سنوات الذي أهداه إلى القيصر الإسكندر الأول، وطلبت جوزفين طاقمًا مثله تمامًا. ووصل للقصر يحمله أربعة عشر رجلًا

فوق سبع نقالات. وبعد مُضي الوقت طلبت مهندس الديكور الشهير تيودور برونينيار لتقول له بلهجة آمرة إنها تجد هذا الطاقم بسيطًا أكثر من اللازم، وترغب في تغييره ليعود الطاقم إلى مصنع سيفر مرة أخرى. وكانت نهاية ذلك الطاقم الذي أهداه لويس الثامن عشر إلى ولينجتون سفير بريطانيا، وأرفق معه رسالة كتب فيها (أرجو قبول بعض الصحون).

تعالت الضحكات ساخرة من أمر هؤلاء الناس، وأضاف فنان شاب:

- قامت الحملة الفرنسية بإلهام الكثير من الفنانين لعقود كثيرة، فلم تكن هُناك حاجة للذهاب لتلك الأراضي لرسمها، فقد أبدع أنطون جرو وهو الأكثر موهبة من بين الفنانين الذين لم يزوروا الشرق. وبالرغم من ذلك كانت لوحاته (المصابون بالطاعون في يافا)، و(معركة أبي قير) من أشهر اللوحات.

بصوت هادئ عميق، وهو ينفث دخان غليونه في الهواء، أضاف مسيو ماندين، المُشرف على البعثة:

- محمد علي مؤسس مصر الحديثة أصر على أن يحظى جيش مصر بجنود أقوياء وأصحاء؛ فبعث في طلب طبيب من مارسيليا يُسمى أنطوان بارتيملي كلوت لكي ينشئ مستشفى عسكريًّا ومدرسة في الطب، وكان حتى ذلك الحين يقوم بتطبيب الشعب المصريّ الحلاقون. ومن الطريف أن دكتور كلوت بنفسه بدأ حياته كمساعد لحلاق، وحصل بعدها على مؤهل في الطب، ثُم دكتوراه في الجراحة. حضر كلوت لمصر ومعه عشرون طبيًا، والكثير من الكتب الطبية والأبحاث، وقد جمع لهذه المدرسة الكثير من الطلبة المسلمين الذين لا يفهمون كلمة واحدة في الفرنسية؛ فكان يستعين بالمترجمين ويشرح لهم الدرس جيدًا، وهم بدورهم يعلمونه للطلبة عن طريق إعادة الدرس. ورُبما من هُنا جاءت وظيفة المعيد الجامعي. وفي إحدى المرات تعرض الطبيب لمحاولة اغتيال من جانب أحد تلاميذه فطعنه بخنجر في جنبه، ولكنه لم يصب إلا بجرح بسيط، وذلك لطب التشريح الذي رفضته الشريعة الإسلامية وقتها. ولكن سمح له بعد ذلك بمزاولة ذلك العلم على أن يقوم بالتشريح على جُثث لغير المسلمين، ثم أوكل لمدام فير خريجة دار التوليد بباريس تعليم بعض الفتيات الحبشيات علم النساء والتوليد، واستحق الحصول على لقب البكوية لمجهوداته أثناء وباء الكوليرا في مصر 1831.

كان عليَّ أن أتحدث، وأنطق بكلمة حقيقة لأوضح لهم أنني لا أقل عنهم ثقافة، ورغبة وشوقًا في زيارة تلك البلاد...

- كتب الأديب نرفال يقول في كتابه (رحلة إلى الشرق)، وهو لم يكن يحب يومًا أنقاض المدن، أو تستهويه تلك الرسوم على جدران المعابد؛ فهو يقول: (ملاحظة عادات وطبائع المدن الحية أكثر طرافة من حطام المدن الميتة)، وكانت القاهرة المدينة التي ذهب إليها ليعيش قصص وأساطير ألف ليلة وليلة، فكتب خطابًا لجوتيه نشر في جورنال دي كونستا تتنيوبل (لم أعد أفكر في قاهرة ألف ليلة دون أن تمر بمخيلتي كيف أن الأتراك هم الذين يرتدون الزى الأوروبي، والفرنجة يرتدون الزي الشرقي، وقصور محمد على الجديدة بالفوتايت والأرائك المصنوعة من

خشب الأكاجو، وقاعات البلياردو، والساعات الدقاقة ومصابيح الزيت)، ويتنقل بنا نرفال من صور رائعة لأخرى مرعبة، فمثلًا يصف بيع الجواري من الشابات الزنجيات (كان التجار يقومون بخلع الملابس عن تلك الفتيات، ويقومون بفتح أفواههن لكي ترى أسنانهن، ويجعلونهن يتمشين حتى يروا مدى لدانة صدورهن).

ومن مقعد في آخر الطاولة يشغله شاب يعمل بالتصوير الفوتوغرافي، ويحمل أدواته معه، نحيل الجسد، رفيع الصوت، تكلم قائلًا:

- لقد كانت مصر هي أول من فكر بها منذ أن أُعلن اكتشاف التصوير الفوتوغرافي أمام الجمهور؛ ففي يوم 19 أغسطس عام 1893 قدم أراجو عالم وسياسي فرنسي أعلن عن هذا الاختراع أمام حشد كبير قائلًا: (كل إنسان سيفكر بمدى النجاح الذي كانت ستحققه الحملة الفرنسية على مصر، والحصول على صور بمنتهى الدقة والسرعة).. وحصلت رسالة أراجو على استجابة فورية؛ فسافر إلى مصر الرسامان فيرنيه وجوبيل مزودين بجهاز داجير، ووقفا ذات يوم أمام قصر رأس التين. ويحكي فسيكيه: ذهبنا للقصر في السابعة صباحًا بموكب من العربات. كان كل شيء معدًّا مُسبقًا، ولم يتبق سوى وضع الكليشيه في الغرفة المظلمة. وإظهار الصورة في الزئبق.

كان والي مصر محمد على باشا تظهر عليه علامات القلق والانبهار. كانت حدقتا عينيه تدوران بسرعة رهيبة، وأخيرًا صدر صوت ووميض فضيّ، وكان محمد على يقف أمام الجهاز. فقفز من مكانه، وحرك حاجبيه الأبيضين الكثيفين وهو يصيح: (إن هذا الجهاز عمل من الشيطان)، ثُم غادر المكان وهو ممسك بسيفه الذي لم يتركه لحظة واحدة.

كانت هذه الجلسة بمثابة تبادل للمعلومات، وأزاحت الكثير من الغموض لأعضاء البعثة بمظهرهم الأكثر جمودًا؛ فكنت أجدهم يوميًّا ينصبون تلك الجلسة ليتبادلوا الأفكار والمعلومات. أما أنا ففكرت بالمضيّ في كتابة مذكراتي. كان كل شيء مُلائمًا لأبدأ في كتابة تلك الأوراق. وأملأ الصفحات البيضاء الفارغة بالحكايات، وأنا في منتصف البحر الأبيض المتوسط هائج الأمواج لمدينة عشت بها أجمل أيام عمري. رُبما ينتظرني الأجمل، ولكن لن أنكر حق تلك الأيام في نعتها بالأجمل. والآن وقد ودعتها وتركتها خلفي مُقبلة على عتبات مدينة أُخرى.

وكانت تجربتي الأولى في الكتابة لتمطر الذاكرة، وتنهال على الورق وجوه وأحاديث وأماني. كان شيء ما يحثني لأكتب، أكتب لاستحضار اللحظة مُجددًا، وأكتب لاستبقاء تلك الذكريات حاضرة دومًا. بكل ما تحمله معها من فرح وأسى.. سأكتب بدون أن أعي تمامًا من على قرابتي به بإمكانه أن يقرأ تلك الأوراق التي تحمل كل ذلك القدر من الخصوصية. كل ما أرجوه منه ألا يسخر من قدر عاشته امرأة مرت من هُنا يومًا.

هل كان مزاج البحر مفتاحًا للذاكرة؟ وإلا لماذا منذ أن بللت الريشة في المحبرة وانهالت الكلمات وأمطرت الذاكرة واحتشدت الوجوه. كنت قد أنهيت الجزء الأول من مذكراتي خلال الخمسة عشر يومًا التي قضيتها على متن الباخرة، أجلس باكرًا

على سطحها.. يأتي الهواء البارد المُعبأ برائحة البحر، يمتزج مع الحبر، ويختلط به. وأحيانًا كان يعصف بالأوراق بعيدًا فأركض خلفها لأمسك بها. لا أعرف ما الذي صنعه بي ذلك الجو، وتلك الأمواج الهائجة تارة والهادئة تارة أخرى؛ فكنت أكتب على وقع مزاجها، ومزاجها هي لا أكثر. لتأتي الكلمات بصخب وهدوء، بحزن وبفرح، بطمأنينة وقلق. ولكن أبدًا لم تتخل عن مذاق الملح الذي تسلل عبر الكلمات جف بين فواصل الأسطر، وترك مذاقًا لاذعًا فوق الأحرف.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

31

القاهرة مُنتصف سبتمبر 1868:

أخيرًا ظهرت الإسكندرية في الأفق كشريط رقيق أبيض يمتزج بالزبد، وكلما ازدادت المسافة قربًا هلل الخبير بأمر تلك المدينة القديمة. ها هو الفنار القديم.. ثُم دخلنا ميناء الإسكندرية، وألقت الباخرة مراسها في مواجهة قصر رأس التين. ذلك القصر الذي بناه مُحمد علي، وأصبح المقر الصيفي لجميع ولاة مصر من بعده. كنت قد قرأت عن تاريخ مدينة الإسكندرية عندما كانت قرية وميناء صغيرًا للصيادين تُسمى (راكواتيس) قبل أن يدخلها الإسكندر الأكبر، ويأمر ببناء مدينة على النهج الرومانيّ. مدينة ظلت منذ ذلك الحين شامخة زاخرة. لملمت أشيائي على عجل، وهربت إلى تلك المدينة الساحرة؛ إلى الشجر والأرض والمارة. رست السفينة، وحدثت جلبة بسبب صوت رفع الحقائب والصناديق إيذانًا بالرحيل. ليُغادر الركاب واحدًا تلو الآخر. جمعنا المُشرف في مجموعة كبيرة نجلس على رصيف الميناء في انتظار دليلنا، والمترجم الخاص بالبعثة. فبالرغم من أنه يوجد الكثير من أعضاء البعثة مَنْ وفدوا لتلك البلاد مُسبقًا؛ فــإن كل ما يستطيعون التفوه به (السلام عليكم)، وهي تحية أهل البلاد ليس أكثر. كان الجو دافئًا بالرغم من بعض لسعات البرد التي تلفح وجوهَنا. أصابني ذلك الدوار الذي يصيب الكثير من الناس بعد مغادرتهم البحر إلى اليابسة؛ فقد كنت قد اعتدت الحياة في بحر مترامي الأمواج، أتأرجح عليها تارة شوقًا وتارة ألمًا. والآن وقد وضعت قدمي على أرض صلبة أصابني الدوار من جديد حسب طبيعة الجسد البشري. أنقذني توم -ذلك المصور الشاب القصير النحيل- فأمسكني من ذراعيّ حتى لا أرتطم أرضًا.

كان ينظر إلينا العاملون بالميناء، والمغادرون، والعائدون في السفن الأخرى؛ وكأننا كائنات قادمة من كوكب آخر. فمظهرنا ونحن نقف بشكل شبه دائري بملابسنا تلك، وأدواتنا والغليون والذقون، والقبعات العالية؛ كما لو أننا في طريقنا لرحلة استكشافية. أخيرًا كان قد ظهر المُترجم أو (التُّرجمان) كما يطلقون عليه. شاب مصريّ تخرج في مدرسة الترجمة، ويعمل بالقُنصلية الفرنسية. استأجر لنا عربات يجرها خيول بسروج مُزركشة، وقسَّمنا أنفسنا في تلك العربات التي كانت تخطو في طريق طويل على البحر غير مُمهد وتملؤه الحفر والنتوءات. كانت وجهتنا لميدان القناصل، وهو حي في وسط المدينة يسكنه الكثير من الأجانب، وتقع فيه الكثير من القنصليات للدول الأوروبية، والفنادق والمقاهي والبورصة. كان هذا الحي مُختلفًا عن أحياء المدينة بمنازلها من دور واحد أو اثنين ومظهر غير مرتب. بينما كانت مبانيه بأدوارها العالية على طراز النهضة والباروك؛ فلم تكن تختلف كثيرًا عن مباني باريس وإيطاليا. الفرق الوحيد في تلك الوجوه بملامحها المتداخلة، والغريبة عن بعضها؛ فلم يكن هُناك وجه يشبه الآخر، أو لسان يتحدث مثل الآخر. تختلط العمائم البيضاء الكبيرة التي يعمم بها العرب رءوسهم بأحدث صيحات القبعات الإفرنجية.

كانت إقامتنا في فندق (إيات) [37] ذلك الفندق الذي بُني على الطراز الأوروبيّ. وتميزه تلك الشرفة الواسعة على الساحة بمظلاتها المُلونة. لذلك وجدتني فور دخولي للفندق أضع حقائبي، وأنزل مُسرعة لأجلس على تلك المقاعد، وأتابع المارة. نساء ملتحفات بالسواد، وصوت الأذان يعلو (الله أكبر، الله أكبر). صوت باعة الفواكه تتغزل في بضاعتها. رنين الصاجات التي يمسكها بائع العرقسوس، وتمثال محمد علي باشا من البرونز الذي يقف بشموخ وعلياء في وسط الميدان. كل تلك الأشياء تذكرني أنني أخيرًا في مصر؛ فتبدو السنوات التي قضيتها في باريس وكأنها أحلام خُرافية. ألم تكن تلك المشاهد هي التي أغرتني بالقدوم إلى هُنا. أليست هي تلك الخُطى المُتجهة للصلاة بعضها متعجلة وبعضها بطيئة. والوجوه السمراء المُبتسمة، وتلك اللغة الغريبة على الآذان.. وكُل ذلك السحر. كنت أجلس لأشبع نظري بتلك الوجوه، والتفاصيل اليومية لهذه الحياة في شرفة الفُندق الذي يطل على الميدان. عندما أخبرني توم -الذي كان مطابقًا لي في مزاجي- فوجدته يجلس على الطاولة المُقابلة لي يُراقب الناس بعيون نهمة؛ فتلك توابع عمله كمُصور:

- نحن مدعوون لحفل أقامه قُنصل فرنسا تهنئة على وصولنا سالمين في فيلته على كورنيش البحر.

هُنا صحت قائلة:

- يا ألله، ما أمر هؤلاء الناس! عليهم أن يمنحونا بعض الوقت لنلتقط أنفاسنا من الرحلة. أما الشخصية الفرنسية فتحمل معها عاداتها وتقاليدها أينما ذهبت ما بين إقامة حفل وحفل هُناك آخر!

ابتسامة توم الواسعة كشفت عن أسنان صفراء:

- أليس أجمل شيء في الحياة هو تلك الحفلات؟! خصوصًا تلك الولائم؟ ألم تشتاقي لتلك الأطباق الساخنة الشهية بعد هذه الوجبات الباردة بلا نكهة أو طعم التي كنا نتناولها على الباخرة؟

ابتسمتُ وأنا أقول في عقلي: يا لسذاجة الأفكار!

ارتديت فستانًا للسهرة كانت قد صنعته لي مدام رينيه. لذلك النوع من الحفلات، ويناسب الأجواء الشرقية. وفي الثامنة تجمعنا عند واجهة الفندق لنستقل أربعًا من العربات الفاخرة التي بعثتها القُنصلية. لتصطحبنا للفيلا المُقام بها الحفل. كانت الشوارع تكاد تكون فارغة من المارة. بالكاد هُناك أماكن كان قد دخلها الغاز فأضاءها بالكهرباء، وأماكن أخرى تشع ضوء مصابيح الزيت. أمام مبنى أنيق على كورنيش البحر توقفت العربات، ليصطحبنا الخادم للداخل، بعد درج رخامي من خمس درجات. شعرت أنني قد عدت لباريس مرة أخرى. خذلني المشهد حقًّا، كل ما بالمكان قطعة أخرى من باريس. تلك الوجوه، الابتسامات، التصرفات، الديكور، الملابس...

كان بالحفل كثير من الشخصيات الباريسية الشهيرة في عالم الفن والهندسة. وعندما حضر (مارييت) بيه تجمع حوله الكثيرون؛ ليخبرهم عن تلك المومياوات الفرعونية

الساحرة. كنت مُتعبة حتى أنني اكتفيت بتلك الكلمات المقتضبة للرد على الأسئلة، وأنهيها بابتسامة واسعة بلهاء. حتى تلك المأدبة الشهية كانت معظم الأطباق فرنسية. نوع أو نوعان كانا من المطبخ المصري. كانت الثرثرة حول إنجازات البعثة الفرنسية في تشييد وإعمار القاهرة الخديوية. ذُكِر اسم ليون فتسارعت نبضات قلبي، وتوهجت الحياة مُجددًا. السُّفرجي بملابسه المُزركشة، وبحزام عريض ربطه على وسطه، وببشرة لا تقل سوادًا عن لون القهوة التي يحملها على صينية نحاسية كبيرة عليها إبريق من الفضة، وفنجانان وصحن للحلويات الشرقية اللذيذة. فكرت في هذا الطعم الغريب لذلك النوع من القهوة، وذهبت هُناك لمقهاي الباريسي الفاخر؛ ماذا لو قدمت فيه ذلك النوع من القهوة لزبائنه؟ انتهت الحفلة، ورجعنا للفندق مرة أخرى. كان الترجمان قد حدد لنا يومين لزيارة معالم تلك المدينة التي بناها البطل الأسطوري الإسكندر الأكبر، وتحت مائها لا يزال حطام الأسطول الروماني موجودًا إلى يومنا هذا. تلك المدينة الأكزوبتية التي تضم العدد الأكبر من الجالية الفرنسية، بالإضافة لمختلف الجنسيات الأجنبية الأخرى.

كانت جولة سياحية مُهمة بالنسبة لفنان تشكيليّ، ولكن أكثر شيء علق بذاكرتي كان قلعة قايتباي [38]؛ تلك القلعة الساحرة التي كأنها إحدى القلاع في الحكايات الخرافية. قد بُنيت في أزمنة غابرة بسجونها وكهوفها وغرفها المغلقة ونوافذها الضيقة التي تطل على متسع للبحر. أخذت أتساءل: كم صيحة لمظلوم كانت قد امتصتها تلك الجدران الغليظة الصماء وتاهت في متاهات أروقتها! وكم روحٍ قد أزهقت في غرف الإعدام التي أعدت فيها مشنقة من حبل قوى حفر أسفلها بئر تتجمع فيها الأجساد الباردة؟ كم عين كان قد فقأها سهم جانح من البحر؟.. كانت تلك القلعة مُحتشدة بأطياف من خمدت أرواحهم يومًا. أشعر بهم يطوفون معي، وأسمع وقع أقدامهم تتجول بمحاذاتي.

بعد تلك الجولة بيومين كان علينا أن نستقل القطار لنذهب للقاهرة. محطة القطار جديدة ونظيفة، المقاعد من الجلد الفاخر، والأرضية من الخشب اللامع. جميع العاملين من الأجانب، فقط حاملو الأمتعة كانوا من المصريين.

كنت قد لاحظت أن المصريين أو كما يطلقون عليهم العرب - يعملون بالحرف المنتشرة في ذلك الوقت كبائع العرقسوس، بائع فاكهة وخضراوات، فران، صياد، حلاق، سقاء. في حين كانت المهن الأخرى الأكثر رُقيًّا يمتهنها الأجانب بمختلف جنسياتهم وألوانهم. استمتعت برحلة القطار؛ فلم تكن مضجرة قطّ.

كنا كالقطيع نخرج في فوج، ونأتي في فوج، ونذهب ونعود في فوج؛ فعدم درايتنا بأي شيء خاصة اللغة جعلنا نتمسك ببعضنا البعض أكثر. كشاة القطيع التي ما إن تبتعد مسافة بسيطة حتى تُهرول عائدة يملؤها الخوف.

غادرنا القطار.. وعند رصيف المحطة وجدتني -أخيرًا- أمامه تمامًا، مُندهشة ومرتبكة؛ وكأنه اللقاء الأول. يفاجئني مظهره الجديد، السمرة التي صبغت وجهه، شعره القصير. أتوقف كثيرًا أمام هاتين العينين، أبحث فيهما عن ذكرى وقوعي

تحت أسرهما. أطبق على يدي بشوق الأيام التي لم نلتق بها، وبيده الأخرى كان يلامس أطراف شعري، وببحة صوته المميزة -التي كُنت اشتقت إليها كثيرًا- قال:

- ها أنتِ أخيرًا! كيف حالك؟ وكيف كانت رحلتك؟

ها هو يلاحقني بالأسئلة، أنا التي فقدت صوتي منذ رؤيته، ولم أعثر على أي إجابة إلا:

- بخير...

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

32

التف حولنا أفراد البعثة ليحيوا مسيو ليون. انزويت جانبًا أستمتع بتلك الذبذبات التي يبثها حضوره داخلي. وفجأة يحسم الترجمان الموقف ليخبرنا بوصول العربات التي ستوصلنا لمقر إقامتنا. كانت شققًا في أحد المباني التي قامت البعثة ببنائها حديثًا قد خصصتها القنصلية لأعضاء البعثة بمنطقة الإسماعيلية بوسط المدينة. وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى الخديو إسماعيل. الرجل الذي أمر بتأسيسها. كان العمل بها يجري على قدم وساق؛ تسوية ورصف الطرق، حفر وبناء المباني.. كان ليون يجلس بجواري، ويشير بفخر لكل تلك المباني، والاستعدادات ويخبرني: (الخديو إسماعيل.. إنه بحق يُطلق عليه رجل المستحيل الذي يرفض العقبات.. إنه يعلنها بتفاخر بأن عشقه الأول هو للطوب والمونة، حتى إن السلطان العثماني قد منحه لقب خديو وهو يعني «الفارس الشجاع»، وقد أمر هذا الرجل بتحويل مجرى النيل ليتسنى لنا تصميم المدينة والنيل يشق طرقها وميادينها).

توقفت العربة، واصطحبنا ليون والمترجم إلى السكن. كان المبنى حديثًا جميلًا. يُشبه تلك البنايات الباريسية الأنيقة. صعدنا الدرج الرخامي إلى إحدى الشقق التي ستشاركني فيها كارلا. كانت الشقة كبيرة واسعة على إقامة شخصين فقط، ممر طويل يُفتح على ست من الحجرات. بُلطت بالبلاط الفاخر من المربعات البيضاء، يحد حوافها اللون الأسود. كان كل شيء جديدًا ولامعًا، تفوح منه رائحة الدهان. طقم الحمام من الصيني الأبيض بمقابض فضية وبانيو فكتوري مرتفع عن الأرض بأرجل معقوفة. أسقف عالية بنوافذ خشبية لامعة.. كانت الشقة مفروشة بأثاث بسيط وأنيق. كان فقط المطبخ ينقصه بعض أواني الطبخ، وكنا قد قررنا النزول لشرائها لاحقًا.

كارلا من ذلك النوع من الناس الذين لا يمكنك قراءة ما بداخلهم، وجهها دائمًا يعتليه الجمود. ليس هُناك من تعبير سوى تلك النظرة البعيدة الباردة، أيقنت منذ اليوم الأول أن مجيء كارلا إلى هُنا وراءه شيء ما؛ فربما هروب من قصة حب فاشلة، أو أمر أكثر حزنًا فلم ألمحها يومًا متحمسة، مهللة.. فقط الجمود. تركتنا كارلا لحجرتها معتذرة لشدة إرهاقها. ذهب الترجمان لمواصلة عمله في تسليم الشقق لباقي أفراد البعثة، وبقيت أنا وهو وحيدين أخيرًا، وكأنه اكتشف وجودي فجأة قال:

- منذ أن أدركت أن لكل مدينة نكهتها الخاصة التي تشبهها أشتاق لنكهة باريس.

بنبرة فيها الكثير من الأسى والحزن نطقها...

- ولكن، هل أنت غير سعيد هُنا؟

- السعادة ليس لها دخل بالموضوع، ولا أُنكر أنني سعيد بما أشيده وأنجزه في تلك الأراضي، والذي سأدخل به التاريخ. فالأعمال التي نقيمها هُنا تتيح لنا دخول التاريخ من أوسع أبوابه؛ فنحن نصمم مدينة القاهرة؛ تلك العاصمة القديمة التي داست أرضها الكثير من الجيوش والملوك. نصممها لتكون عاصمة أوروبية مع

الاحتفاظ بطابعها الشرقي. وفي الحقيقة الخديو لم يبخل علينا بشيء؛ فهو موفر لنا كل سبل الراحة. هُناك المئات من المهندسين والعاملين هُنا وبمدن القناة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، يعملون بجد وبتواصل فيما بينهم. كل ما في الأمر أنكِ عندما تزورين مدينة في جولة سياحية فهذا يختلف تمامًا عن زيارتك لها وأنتِ مُكلفة بمهمة رسمية.

- يخيفني كلامك؛ كأنني أكتشف معك ملامح أيامي البائسة القادمة.

- لا نتاليا، الوضع معك مُختلف، وأعدك سوف أجعلك تحبين تلك البلاد.

طرق علي الباب.. كان ذلك الشاب العربي أحمد الترجمان، والسكرتير المتولي شئوننا في ذلك البلد الغريب عنا. بعثه ليون ليبتاع الخضراوات والفاكهة من السوق، وطلب منه البقاء في خدمتنا. كانت ملامح الفتى مُحببة، تغمرك بإحساس غامض من الارتياح مما جعلني أشعر بالثقة والأمان أن أحدهم سيقوم بالاعتناء بتلك الشئون الغريبة عني في بلد لا أعرف حتى بأي لغة يتحدث.

ودعني ليون وغادر بعدما اتفقنا على اللقاء في القُنصلية في التاسعة من صباح اليوم التالي، وذلك للبدء في العمل.. كان ليون يسكن في أحد الفنادق على مقربة مني، وهو فندق شبرد، والذي أسسه رحالة إنجليزي يُدعى شبرد للمسافرين في طريقهم إلى الهند وبلاد الشرق. ثُم كان مقر إقامة محمد علي، وبعدها تحول لفندق يحمل نفس الاسم. ولأنه كان من غير اللائق أن تقيم السيدات في فنادق بمفردهن؛ لذلك فور بناء تلك البناية خصصت بها القنصلية أكثر من شقة لأفراد البعثة، وكذلك لأنها وجدت أنها أقل تكلفة من الإقامة الفندقية. لاحظني أحمد وأنا أقف بمنتصف المطبخ مُرتبكة أبحث عن آنية أصنع بها الحساء؛ فكانت الأواني من النحاس بأحجام كبيرة ثقيلة الوزن. فساعدني في حملها.. وطلبت منه أن يشعل الموقد الذي يعمل بالحطب وله طريقة خاصة في الإشعال. حاول أحمد أن يعلمني إياها، لاحظ خيبة الأمل التي علت وجهي؛ فابتسم تلك الابتسامة المريحة قائلًا:

- لا عليك سيدتي، من الغد سوف أحضر لك جارية.

- جارية!

رددتها وراءه في ذهول، تلك الكلمة التي عند سماعها تقودنا لعوالم ألف ليلة وليلة، هل أنا أحياها فعلًا؟!

- إنها عبدة حبشية، تكون مِلكًا لكِ، وجاهزة لخدمتك وراحتك في أي وقت.

- انتظر، ما هذا الذي تقوله؟!

- وما الذي أقوله! هُنا في مصر أسواق مُخصوصة لشراء وبيع العبيد من فتيات وغلمان ورجال ونساء من كافة أنحاء الأرض، ولكن تلك التي سوف أجلبها لك هي ملك لأحد المعارف، وهو يريد أن يبيعها لشراء أخرى.

- ولكن هل تعتقد أنني بتلك الوحشية حتى أشتري إنسانًا من لحم ودم به قلب ينبض بالحياة ليكون ملكًا لي؟

- الأمر ليس بتلك القسوة التي تعتقدينها، سوف أجيء بها في الغد لتريها، وإن أعجبتك اشتريها، ويمكنك قبل سفرك أن تمنحيها حريتها.

- وكيف ذلك؟

- نذهب لقلم تحرير الرقيق، ونطلب منها تذكرة حرية، ويمكنك أن تتنازلي عن ملكيتك لها وتمنحيها حريتها. وبموجب تلك التذكرة فهي حرة في نفسها.

ابتسمت بسخرية:

- هل يعقل ذلك! أكاد لا أصدق!

- هُناك مساعٍ للخديو إسماعيل لإنهاء تجارة الرقيق، ولكنه لم يتخذ تلك القرارات بعد.

أضاف أحمد قائلًا:

- لن تحتاجي للحديث معها؛ فهي تعرف ما عليها من واجبات، يكفيك الإشارة إلى ما تريدين، وهي سوف تكون في خدمتك. ذلك النوع من العبيد خلق ليعمل على راحة الآخرين.

استفزتني كلمات أحمد؛ فلم أكن قطُّ أومن بواقعية الجواري والعبيد.

غادر أحمد، ولم تخرج كارلا من حجرتها حتى مساء اليوم، وبقيت وحيدة في ذلك المنزل الشاسع والخالي من الذاكرة. رتبت أشيائي، حاولت أن أنعس ولكن مُحاولتي باءت بالفشل؛ فارتديت ثيابي ونزلت، كان الجو خريفيًّا جميلًا. مشيت لآخر الشارع لأجد نفسي في ميدان فسيح به عدد كبير من المقاهي المزدحمة بالرجال، وكنت أتساءل أين نساء ذلك البلد؟ فمنذ حضوري لم يقع نظري إلا على الرجال، أو البائعات الجائلات.. كان من النادر مُشاهدتي لامرأة عدا تلك التي تسير مُختبئة عن الأنظار بنقاب يُغطي وجهها. ترتدي ثوبًا طويلًا فضفاضًا، وتمسك وسطها بحزام عريض من قماش لامع.

كان الميدان يفتح على أكثر من شارع، جميعها مزدحمة؛ فالجمال تسير بدلال وببطء تحمل ثواقلها فوق ظهورها، تقابلها من الجهة الأخرى البغال وهي غالبًا وسيلة المواصلات الشهيرة في ذلك البلد. الغريب أن (المكاري) أو صاحب الحمار كان يجري تارة أمام الحمار، وتارة من خلفه ليحثه على الجري بتلك الضربة القوية من العصا على ساقه، بينما يعلو صوته منبهًا السائرين: (أوع رجلك، أوع رجلك)، عدد قليل فقط من العربات التي يجرها الخيول، ومن الواضح أن زبائنها من علية القوم أو أثرياء البلد. غريبة هي تلك الأوطان والبلاد بعاداتها وتقاليدها حقًّا. ما أجمل السفر الذي ينقلك من عالم إلى آخر، يحمل في تلك المساحة التي تفصلك عنه القدر نفسه في غرابته عنك.

الشارع المصري وكأنه كرنفال؛ بإمكانك أن تلاحظ الوجوه الغريبة عن بعضها، وحدهم العرب فقط الذين يمكنك أن تميزهم؛ متشابهين في سمرة الوجوه، وملابسهم، وتلك الابتسامة التي لا تغادر وجوههم أبدًا. بالرغم من اختلاف

مظهرهم.. فمثلًا هذا الرجل الذي يرتدي الزي الإفرنجي -كما يطلقون عليه- وهو السروال والقميص الأبيض ويربط علي وسطه حزامًا عريضًا، ثُم يرتدي فوق كل هذا «چاكت طويل». في حين يلبس الرجل العادي سروالًا، من فوقه جلباب يصل لمنتصف ساقه، وفوق الجلباب صديري، ويلفون أخيرًا العباءة. ودومًا رءوسهم تلفها تلك العمامة. حتى إنني سمعت أنهم يخبئون أموالهم بداخلها. وكانت قد انتشرت سرقة تلك العمامات من فوق الرءوس، عدد قليل هو الذي كان يرتدي الطربوش الأحمر. اقترب مني ولد مكاري وأخذ يحدثني بالعربية، أشرت له أنني لا أستطيع فهمه؛ فأشار إلى ظهر الحمار بما يعني أن أركب.

أجبت بهز رأسي بما يفيد النفي، وجلست على مقهًى في زاوية الشارع لأراقب المارة وأتابع الوجوه، ومن الواضح أنني أثرت الانتباه بمظهري الغربي، أو رُبما بأنني السيدة الوحيدة بالمقهى. فكانت كل العيون تنظر في اتجاهي، ولكني تجاهلتها كعادتي. جاءني النادل -وهو فتى صغير- يرتدي جلبابًا عربيًّا، وينتعل خفًّا بقدميه، وعمامته على رأسه، سألني بالإنجليزية:

- ماذا تريدين أن تشربي؟

واستغربت لمعرفته باللغة الإنجليزية على بؤس مظهره، ولكنني أيقنت أن ذلك المقهى في الميدان الفسيح رُبما يرتاده الكثير من سكان المدينة من الأجانب؛ فقد سمح نظام الامتيازات الأجنبية للكثير من الأوروبيين بالمجيء لمصر، والعيش بها، وممارسة الأعمال.

- قهوة...

بعدها بدقائق قليلة حضر الفتى يحمل بيديه صينية معدنية صدئة ورديئة، وعليها كوب من الماء وفنجان من القهوة. فنجان في حجم جرعة ماء من القهوة التركية، وهي عبارة عن تحميص البن وطحنه، ثُم خلطه ببعض من الأعشاب الجافة لإضافة نكهة مُحببة. أعجبني مذاقها؛ لذلك وجدتني أشير للفتي بأن يجلب لي فنجانًا آخر منها. كان المطبخ مفتوحًا على المكان! بإمكاني أن ألمح ذلك الشاب الأسمر وهو يعد المشروبات على مواقد كبيرة تقاد من الحطب المشتعل. وأدواته التي هي عبارة عن إبريق كبير من الألومنيوم لصنع الشاي، وعدد من أباريق نحاسية بيد خشبية طويلة لصنع القهوة، في زاوية جانبية من المكان كان عامل الشيشة يقوم بتحضير الفحم ليشعل الدخان الذي يُستنشق من خلال أنبوب طويل. كنت أراقب هذا الرجل الخمسينيّ الذي يجلس أمامي، وهو يضع فمه في الأنبوب، ويقوم بسحب نفس طويل، ثم يخرج الدخان ببطء وهو مستمتع بفعلته هذه.

كان ذلك المقهى عالمًا آخر فريدًا من نوعه بزبائنه المختلفة أعمارهم وأشكالهم، بصخب وضجة. فالكل يتحدث في نفس الوقت وبصوت مرتفع، وبروائح التبغ والفحم والدخان. فكرت أين يمكن أن يكون ليون الآن ليشاركني الطاولة؟

أخيرًا كنت قد قررت أن أعود للمنزل؛ فلم أكن قد ابتعدت كثيرًا خوفًا لعدم معرفتي بالطرق، شعرت بالجوع في طريق عودتي، زاد منها تلك الرائحة الشهية للفطائر

التي يقوم رجل بعجنها على مائدة أمام دكانه الصغير، وقفت أراقبه وهو يعجنها ويكورها و«يفردها»، ثُم بِحركة بهلوانية يرفعها على أطراف أصابعه، ويقوم بلفها بخفة ورشاقة في الهواء ثُم يضعها في الفرن بضع دقائق حتى تنضج ويخرجها ليسكب عليها قليلًا من الحليب، ويضع عليها ملعقة كبيرة من الزبد، ورشة من السكر.

دخلت لأشتري فطيرة. كان صاحب الدكان رجلًا كريمًا، رفض أن يأخذ مني ثمنها لأنني لم أكن أملك سوى فرنكات فرنسية. واصلت سيري للبيت، وأنا أقضم منها وهي بعد يخرج منها الدخان لأفاجأ عند وصولي للمبنى الذي أقيم فيه أنني كنت قد التهمتها على الفور. أيقنت أنه في تلك البلاد من غير المألوف أن تسير امرأة بالشارع في الليل. حتى وإن كانت في ساعاته الأولى، وحيدة، وكاشفة وجهها، ترتدي الملابس الإفرنجية، وتقضم من فطيرة ساخنة؛ فكنت مثارًا لسخرية البعض وفضول الآخرين.

لاحظت أن كارلا لم تبرح غرفتها منذ مجيئنا، وإن كان النور مفتوحًا، وأسمع صوت حركة بالغرفة. هكذا كانت تفضل الوحدة على الصحبة. ولم يبد منها أي تعبير على وجهها سوى القلق والغموض؛ لذلك لم أشأ أن أطرق بابها فذهبت للنوم.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

33

في الصباح عرفني أحمد بجوهرة، فتاة عشرينية سمراء بلون طمي النيل الحبشي. ضخمة الجسم، باسمة المحيَّا، تتناسق ملامحها في جاذبية شديدة، تعلق في أنفها المثقوب حلقة كبيرة ممتلئة بشظايا زجاج، وتضع الكثير من الحلي والخلاخيل الفضية، ترتدي ثوبًا طويلًا فضفاضًا مزركش الألوان بخيوط ذهبية لامعة، على رأسها خمار أسود يصل لمنتصف الظهر. طلبت من أحمد أن يخبرها بأنها ستتولى شئون المنزل كافة من تنظيف وطهي وغسيل، وأنني أحب الأمانة وعدم التدخل في شئون الغير، ولكن كيف لها أن تتدخل وهي لا تتفوه غير العربية؟ ترجم لها أحمد الكلام فأشارت برأسها بعلامة الإيجاب وهي مطأطئة الرأس أرضًا، اقتربت منها ورفعت ذقنها لأعلى قائلة:

- هكذا أريدك دائمًا.

فتحت شفتيها الغليظتين لتظهر أسنانًا بيضاء ناصعة. وكأن في بياضها إهانة للون بشرتها السمراء. كانت الساعة أوشكت على الثامنة صباحًا عندما خرجت كارلا من غرفتها، ألقت تحية الصباح، وتأملت جوهرة متفحصة عندما سألتها ما اسمك، فهزت جوهرة رأسها نفيًا بعدم الفهم، في حين ترجم أحمد السؤال فأجابت بصوت جميل:

- جوهرة.

رددت بعدها كارلا الاسم أكثر من مرة، ثُم سألت أحمد: وماذا يعني؟

أخبرها أحمد بأنها تعني المعدن الثمين، فابتسمت قائلة:

- ما أجمله من اسم!

ثم أخبرت أحمد بأنها تقوم بنظافة غرفتها بنفسها، وطلبت منه أن يخبرها بعدم دخول الغرفة. غادرنا المنزل للقنصلية التي كانت بحي الأزبكية؛ حيث الكثير من السفارات والفنادق والمحال التجارية. كان هذا الحي لا يبعد كثيرًا عن المنطقة التي نسكن بها بوسط المدينة. أرشدنا السكرتير لغرفة الاجتماع؛ حيث كان على المائدة الطويلة جميع المهندسين وأفراد البعثة، ووزير الأشغال والأبنية المصرية علي مبارك باشا. استقبلنا السفير وحيانا وتمنى لنا إقامة سعيدة بالقاهرة، ثُم وبعد جلسة عمل استمرت قرابة الساعتين خرج كل منا من الغرفة وهو متخم بوجبة العمل المُوكلة إليه، والذي عليه إنجازها في أقرب وقت ممكن. فقد بقيت شهور قليلة على افتتاح قناة السويس. كان جدول عملي يتلخص في النقوش والزينات التي تجمل القصور والمباني، كذلك رسم بعض اللوحات لسرايا الجزيرة ومبنى الأوبرا التي حرص الخديو على إنشائها مثل أوبرا باريس وإيطاليا شكلًا وتصميمًا. وأوكل تصميمها للمعماريين الأكثر شهرة في العالم وقتها بيترو أوفسكاني وروتسبي. وبالرغم من أن الخديو كان قد استورد كل مستلزمات تلك الأوبرا من الخارج بدءًا من مقابض الأبواب، وحتى أقمشة الستائر؛ فإن التصميم الداخلي شارك فيه

مجموعة من الرسامين من مُختلف أنحاء العالم. أما بالنسبة لسرايا الجزيرة [39]، والتي خصصها الخديو لاستقبال ضيوف الافتتاح من ملوك وملكات أوروبا، وعلى رأسهم كانت الإمبراطورة أوجيني؛ فقد طلب مني ليون -وهو أحد المهندسين المشرفين على بناء القصر- مشاركة فريق العمل في التصميمات الداخلية للقصر، ورسم بورتريه لأوجيني إمبراطورة فرنسا، وجوزيف فرانسو إمبراطور النمسا لتُعلق في مدخل السرايا. فسألته قائلة:

- ولكن الإمبراطورة أوجيني قد شاهدتها وأعرفها حقًّا، ولكن هذا إمبراطور النمسا كيف لي أن أرسمه؟

رد بإيجاز قائلًا:

- سأريك بعض الصور له في الصحف.

كان جدول أعمال كارلا مُرهقًا كجدولي؛ فكان عليَّ رسم المشاهد وهي عليها نحتها, وكان عليها أيضًا نحت بعض التماثيل لسرايا الجزيرة من الرخام والبرونز. قمنا بجولة ميدانية مع ليون، وبعض المهندسين في المناطق المطلوب منا العمل بها. بعدها قام ليون باصطحابنا أنا وكارلا في مكان شهير بحي الأزهر به ضريح الحسين يزوره المؤمنون ويتبركون به. المكان مُحمل بعبق التاريخ، المباني أثرية على النهج الفاطمي والمملوكي. أزقة ضيقة تفضي لأزقة أكثر ضيقًا، بها الأسواق الأكثر شهرة في القاهرة (سوق خان الخليلي، وسوق الغورية) مساحة كبيرة لمحال صغيرة متلاصقة بعضها بجانب البعض الآخر فوقها البيوت التي صممت على الطراز الإسلامي بنوافذ من الخشب المنحوت بشكل جميل يسمح من فتحاته بدخول الهواء والشمس. وتجلس النساء من خلفه يراقبن المارة. في حين فتحاته الصغيرة لا تسمح لأعين المتلصصين أن تنفذ إلى هُناك. ويغطي الخان من أعلى بأقمشة الخيام المزركشة شهيرة الصنع تلك التي اشتهر بها المصريون، والتي لها سوق مخصوص سُمي بها (الخيامية)، روائح البضائع تكاد تنفذ إلى أنفك، وتتسلل بخبث إلى جسدك؛ فتتملكك تلك الأحاسيس الغامضة.

فمحلات العطارة والتوابل تشغل الجزء الأكبر، ثُم المصنوعات النحاسية والذهبية.. بعد جولة في الخان استبد بنا الجوع، فدعانا ليون لمحل كبابجي؛ وهو الطعام الشهير للشرقيين عبارة عن اللحوم المتبلة تُشوى على الفحم فتنبعث روائح شهية تعبق المكان. يفرش المطعم طاولاته الخشبية بمقاعد خيزرانية غير مُريحة بالمرة. فالطاولة كانت عالية والمقعد يسحبك للأسفل، ولكن كان هُناك الكثير من الأمور تشغلك عن تلك الجلسة المتعبة.

فيكفي مراقبة الطاهي وهو يقوم بشي اللحوم أمامك وانبعاث الروائح الشهية لتسد فمك عن أي شكوى.

تحول الغداء فجأة إلى وجبة صمت مربك تتخللها أحاديث مُفتعلة كنت أخترعها أنا؛ فكارلا كانت من هذا النوع الذي لا يقودك لفتح أي حوار. رفع ليون نظره إليّ على وشك أن يقول شيئًا ولكنه صمت...

- ولكن ليون ألا تلاحظ أن الخديو إسماعيل يغالي في تلك النفقات لمجرد حفل افتتاح قناة!

- مشروع قناة السويس مشروع كبير، وقد حارب الخديو سعيد الراحل للحصول على موافقة الباب العالي لإنشائه، وعند تولي الخديو إسماعيل الحكم وجد في هذا المشروع ضالته للانفراد بحكم مصر، والإشارة دومًا إلى أن له الفضل في إنجاز عمل مهم للعالم أجمع. لذلك لم يتوان عن الاستدانة من بنوك أوروبية وبفوائد كبيرة لإتمام هذا العمل. كما أن عقلية الخديو إسماعيل تشبه كثيرًا عقلية جده محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة في العمارة والبناء، لذلك كانت تلك التعديلات في التخطيط المعماري للقاهرة مهمة ليس فقط لحفل افتتاح قناة، ولكن ليخلده الزمن بفعل شيء مهم لتلك البلاد. فمن سبقوه من ملوك حضروا مثلما غادروا بدون أي عمل مهم يخلدهم به التاريخ.

هبت النار فجأة في الفحم، ولكن سريعًا قام العامل بإخمادها وهُنا فقط نطقت كارلا:

- إن حريقًا صغيرًا في ذلك المكان كاف لإشعال المكان بأثره ويعد كارثة.

أجاب ليون:

- لقد تعاقد الخديو منذ سنوات قليلة مع شركة مياه فرنسية لإدخال ماء في الصنابير عن طريق حفر مواسير وطلمبات. بعدما كان لوقت قصير اعتماد تلك البلد على مياه النيل التي يجلبها السقاة -وهم مجموعة من العاملين يملئون القِرَب من ماء النيل مباشرة- ويقومون بتوزيعها على البيوت، وعند حدوث حرائق يلجأ الأهالي لهم فيحاولون إخماد الحرائق، ووقتها إما أن يفلحوا أو لا.

ثم فجأة نظر جانبه وأشار:

- انظري ها هو السقَّا.

كان رجلًا نحيفًا أسمر. وقد صبغته الشمس بلونها الذهبي يرتدي جلبابًا قصيرًا، وحذاء من الجلد الأسود، ويلف عمامة فوق رأسه. يحمل على ظهره قربة سوداء من جلد الماعز، مملوءة بالمياه، وموصول بها صنبور نحاسي، ويلف ويدور بالشوارع وهو يصيح (يعوض الله).

- ولكن ألم تقل إن هؤلاء الأهالي بإمكانهم الحصول على الماء من الصنابير؟!

- لم تدخل المياه في كل البيوت بعد؛ فلازالت تلك المهنة قائمة.

الباعة الجائلون يتوقفون أمامنا، يعرضون علينا بضاعتهم ظنًا منهم أننا سائحون جئنا لنشاهد آثار تلك البلد، وليس لنبني أثرًا فيها.. تماثيل فرعونية مقلدة، وأوراق من البردي، حتى حامل سلة الليمون والنعناع توقف يعرض علينا بضاعته. ودرويش يحمل بيده مبخرة يطلق «ذقنه» بلا تهذيب، ويرتدي جلبابًا متسخًا، ويعلق في صدره الكثير من الأحجبة، لم يبخل علينا بروائح بخوره الجميلة؛ فكان يدير المبخرة فوق رءوسنا بشكل سريع، وهو يتمتم بكلمات بتعاويذه.

- من الواضح أن هذا العالم أعجبك نتاليا؛ فلم أرك طيلة الغداء تلتهمين شيئًا سواه.

- أحاول أن أختزن تلك الصور لزمن لن يتبقى لي منه سوى الصور.

فجأة قامت كارلا، وذهبت للتسوق من تلك البضائع الفرعونية التي صرحت أكثر من مرة أنها لولا تلك التماثيل الفرعونية لما أحبت مهنة النحت، وبقينا أنا وهو.

- أخيرًا وقد خلوت بكِ، وأخيرًا هذا البلد قد امتلأ بحضورك، ألم تكن أمنية حياتك زيارته، ها؟ كيف وجدته؟

- أحببته، أحببت جوه وشمسه، أحببت ناسه بعاداتهم وتقاليدهم، وأحببت نهر النيل.

- حسنًا أعدك برحلة شراعية في نهره.

فقط هذا الذي يعدني به؟ هل نسي موعدنا معًا في ذكرى عيد مولده؟ وتلك الكلمات التي قالها لي، والآن ها هو يجلس أمامي ليخبرني عن رأيي بهذا البلد! فكيف بتلك السهولة بمقدرته أن يمحو تلك الكلمات والأيام من ذاكرته! ألست أنا مُلهمته كما أخبرني؟!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

34

كان موعد أذان العصر. فنادى المنادي للأذان (الله أكبر الله أكبر) بكل ما بها من خشوع؛ لنرى الجميع يستعد للصلاة. فمن يغلق دكانه، ومن يقفل على بضاعته لتمتزج خطواتهم باتجاه المسجد. ظهرت كارلا تحمل الكثير من المنحوتات الفرعونية المُقلدة, والتي يُتاجر فيها بعض الدكاكين في الخان. ثُم طلب عامل المطعم حساب الطعام وغادرنا بعدها. سألت ليون ونحن نستقل العربة للرجوع؛ ماذا يفعل بتلك الأمسيات الطويلة المملة؟

- غالبًا ما نجتمع في بهو الفندق أنا وبعض الزملاء والباشاوات وشخصيات فرنسية والتي تعمل على تنمية تلك البلاد. فهُناك برايس دافين، وماريت بيه عالم الآثار، ومدير القصور الملكية. أحيانًا يحضر نوبار باشا وزير الشئون الخارجية.

- إذن هو مُجتمع ذكوريّ، وليس للإناث وجود به.

- أبدًا، هُناك سيدات أجانب من مُختلف الجنسيات يحضرن تلك الجلسات بشكل يومي؛ كدكتورة إيفيت مُديرة مستشفى التوليد، ومدام كاترين مدرسة الإتيكيت بالبلاط الملكي. وسيدات المُجتمع الراقي هُناك أيضًا مدموزايل فاطيما المانسترلي، عازفة بيانو مُحترفة وموهوبة. كما بإمكانك رؤية الكثير من السيدات المصريات من الأسر الراقية كزوجات وبنات الباشاوات يحضرن مثل تلك الجلسات.

إنه إذن القدر الذي تنبأت له به، يجلس يوميًّا مُحاطًا بالجميلات، عندما رسمته أميرًا شرقيًّا مُحاطًا بالجواري الحِسان. ها هي قد تحققت نبوءتي له. عليَّ إذن أن أحتاط في كل لوحة أرسمها. ومن أقدار تعيسة قد أجلبها لنفسي؛ فمن منا يعلم أنه عندما يرسم، يرسم قدره لا أكثر. وأنه أمام كل لوحة ينتهي منها رُبما تتحقق بشكل أو بآخر لتكون مشهدًا من مشاهد حياته.

- أجمل ما في تلك الجلسات عزف فاطيما على البيانو في بهو الفندق. مع عزفها يمكنك أن تنسي حُزنك وتعبك. إنها حقًّا تنقلك إلى عالم آخر، وكأنك تُحلقين بالسماء.

كان صوتي ينسحب مني أمام دهشتي لكلماته.. لذلك لم أرد. تخلت كارلا عن صمتها قائلة:

- سوف أحضر تلك الجلسات حتى أقابل مارييت بيه عالم الآثار المصري.

- إنها تُعقد يوميًّا بعد صلاة العشاء في بهو فندق شبرد.

أضاف عندما اتسعت عين كارلا اندهاشًا:

- في تلك البلاد يُمكنك تحديد المواعيد بمواعيد إقامة الصلاة، وغالبًا ما تُؤجل مثل تلك السهرات لبعد صلاة العشاء. وهي ختام الصلوات الخمس، موعدها بعد غروب الشمس بساعة ونصف.

أجابت كارلا بحماس:

- حسنًا، سوف أحضر.

فنظر لي، وبعيونه تساؤل لم ينطقه لسانه:

- سوف أبدأ في تلقي دروس تعلم اللغة العربية، ليس هُناك أكثر توترًا من العيش في مُجتمع لا أفهم بأي لغة يتحدث. لقد اتفقت مع أحمد على إعطائي مبادئ تلك اللغة من الغد.

- برافو.

افترقنا ورنين الكلمة التي اتكأ على كل حرف بها يصدح بأذني؛ فلأي شيء تحديدًا تلك البرافو؟

استقبلتنا جوهرة بابتسامتها الجميلة. وقد جعلت كل شيء بالمنزل يبرق من النظافة. كانت رائحة شهية تفوح من المطبخ؛ فوجدتها أعدت يخني اللحم. ويعد من قطع اللحم المقلية بالكثير من البصل وأوراق شجر العنب المحشوة بالأرز. التقطت قطعة من المحشو، وتذوقته. كان لذيذ الطعم حقًّا. أخبرتها أن طعامها شهيّ ولذيذ، ولكننا قد تناولنا غداءنا بالخارج. ولأنها لا تفهم الفرنسية فقد أشرت لها بيدي في محاولة لاجتياز المنطقة المحظورة من عدم الفهم. على حافة النافذة كانت قد وضعت إبريقًا من فخار به ماء في صينية من الألومونيوم، وقد وضعت بها أوراق النعناع، وشرائح الليمون. رفعت الإبريق على فمي لأتذوق ماء باردًا جميلًا مُعطرًا بزهر البُرتقال. أيقنت أن جوهرة كما لو أنها مُدربة على فعل كل شيء؟ تعمل بآلية غريبة، وبخُضوع مذل.

في السادسة مساءً حضر أحمد، وفي يده دفتر كبير. وكنت قد اتفقت معه على تعليمي اللغة العربية إن لم يكن بشكل عميق. فأنا لن أمارس مهنة الأدب، كل ما يهمني هو التحدث مع الآخرين وفهم حديثهم. في الدرس الأول علمني أحمد الحروف العربية قراءة وكتابة، وتركني بعدما طلب مني حفظها -فهي مِفتاح تلك اللغة- ووعده أنه في الدرس القادم سأكون قد انتهيت من حفظهما. أثار حماسي إعجاب أحمد الذي أخبرني أنني من القلائل الذين يحرصون على تعلُّم العربية، خاصة إذا كانوا لا ينوون الإقامة لمدة طويلة، أو هُناك مُعاملات تجارية أو بنكية تجبرهم على التحدث مع أهل البلاد بلغتهم.. فأجبته قائلة:

- لا ليس للأمر علاقة بمدة إقامتي في تلك البلاد، أو مُعاملات تجارية مع أهلها. رُبما لن تُصدقني إذا أخبرتك أن تلك الأناشيد التي يُغنيها عاملو البناء وهم يحملون أطباق المونة فوق أكتافهم، أو وهم يتسلقون السقالات..

وأسمعها أثناء عملي، كذلك تلك الألحان الجميلة التي يطلقها الباعة الجائلون في النداء على بضاعتهم، الكلمات التي تطلقها جوهرة سريعًا في وجهي، وعبثًا أحاول أن أفك رموزها، كل ذلك تحرش بي لأتعلم تلك اللغة. كما أنني أريد التعرف على تلك البلد أكثر، ولن أفلح في ذلك إذا لم أفهم ماذا يحكي أهلها.

شجعني أحمد، ووعدني أنه سيسهل الأمور طالما أن كل مبتغاي أن أفهم تلك اللغة، ولا يعنيني أن أتعمق فيها، وسأكون في فترة وجيزة أتحدث كما لو أنني قضيت كل

عمري بمصر. ثم سألني إن كانت جوهرة لاقت إعجابي، وإذا كنت أنوي شراءها والاحتفاظ بها أم لا؟

- نعم أنوي شراءها، ثُم سأذهب لقلم عتق الرقيق وأقوم بتحريرها. ووقتها سأترك لها مُطلق الحرية في أن تعمل عندي بأجر شهري، أم تذهب لحال سبيلها.

اندهش أحمد عند سماعه ذلك الكلام، وقبل أن ينطق:

- لا أستطيع أن أجبر أحدًا بالعمل عندي. فأي شعور بالمهانة هذا؟!

أعطيت أحمد النقود اللازمة لشراء جوهرة. وعلى كثرتها، إلا أنها لا تساوي شراء نفس بشرية لتكون ملكًا لك. في اليوم التالي أحضر لي عقد ملكيتي لجوهرة، وعلى الفور كنا نركب العربة، وفي طريقنا لتحرير جوهرة التي حاول أحمد أن يخبرها ما الذي أنوي فعله، ولكنها كانت متوجسة وخائفة. ذهبنا لديوان المحافظة ودخلنا إحدى الغرف الكبيرة، وضعت عليها يافطة (قلم تحرير العبيد). لم نكن وحدنا، بل رأيت عددًا كبيرًا من الناس بمصاحبة جارية أو عبد. وتساءلت: تُرى ما نيتهم لتحرير عبيدهم، هل هم على سفر؟ أم لن يحتاجوا لهم مجددًا؟ أو رُبما ليمنحوهم ذلك الشعور بالمتعة عند منحك لأحدهم حريته أخيرًا. أخبرني أحمد بعدها أن في الشريعة الإسلامية كفارة عن فعل ذنوب بعينها يستلزم لها عتق عبد.. وقفنا أمام المُوظف الذي تطلع إلينا بعناية فائقة، ثُم طلب عقد ملكية جوهرة.. أعطيته إياه فنظر في تاريخ شرائها، وبعدها نظر إليّ وقال بلغة لم أفهمها:

- هل قمت بشرائها أمس وترتدين تحريرها اليوم! لهذا الحد أموالك لا حصر لها؟!

نظرت لأحمد، وسألته ما الذي يقوله فترجم لي كلماته، وتجاهل كل منا الرد عليه. أخرج استمارة بتكاسل، وأخذ في تفحص جوهرة من رأس شعرها لأخمص قدمها، ثُم ملأ خانات تذكرة الحرية، تلك الورقة الصغيرة التي بإقرارها وتوثيقها بختم بيضيّ به عبارة (قلم تحرير العبيد)، بإمكان أحدهم أن يحصل أخيرًا على حريته فهي جواز مروره في عالم الآدمية. حصلنا على التذكرة، ومضينا.. جوهرة بخطواتها المتمهلة، ونظرها أرضًا دائمًا.

كانت خلفنا، ولا أعرف لماذا لم أشعر أنها سعيدة لحصولها على حُريتها؟! هل لأنها تعودت على الخضوع والذل؟ أم قلقها على أنها لم تعتد على تدبير أمر نفسها بعد؟.. في العربة طلبت من أحمد أن يترجم لي ما كُتب في تلك الوثيقة:

- الاسم: جوهرة

الجنسية: حبشية.

السن: 25 عامًا.

اسم من كانت بطرفه: مدموزايل نتاليا التون جونسن، فرنسية الجنسية.

أوصاف العبد: مربوعة القامة، سوداء اللون، العين سوداء مفتوحة، مبطونة الأنف، بارزة الشفتين، علامتين لتشريط الموس أسفل ذقنها.. ووضح لي أحمد أن علامات

التشريط هي عادة إفريقية.

تحررت هذه التذكرة لإعادة حريتها كسائر الأحرار، وأن يكون لها ولاية أمر نفسها كيفما شاءت بلا قيد ولا شرط بتاريخ 20 أكتوبر 1868.

قلت لأحمد وأنا أعطيها تذكرة الحرية أن يخبرها أنها بتلك الورقة هي حرة نفسها، وإن رغبت أن تقوم بخدمتي في نظير أن أوفر لها الإقامة وأجرًا شهريًّا فأهلًا وسهلًا. أما في حالة إن أرادت أن تشق طريقها فهي حرة..

ترجم لها أحمد الكلام، وأخيرًا رفعت نظرها في عيني وكان علي أن أشاهد دموعها المنهمرة وهي تنحني وتقبل يدي بكلام لم أفهمه.

أخبرتني كارلا في صباح اليوم التالي ونحن بطريقنا لورشة عمل كبيرة قد خصصت للأعمال الفنية الخاصة بالقصور الملكية بأن تلك الجلسة بفندق شبرد كانت تضم الكثير من الشخصيات الكبيرة من مُختلف الجاليات الأجنبية، وأنها قضت وقتًا مسليًّا وجميلًا، وأنهت كلامها قائلة:

- خاصة عزف فاطيما على البيانو؛ إنها سيدة مصرية تركية جميلة، ذلك الجمال الشرقي، وتتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة.. أنصحك بحضور تلك الجلسات حتى لا تشعري بالملل.

عن أي ملل كانت تتحدث، وقد التهم العمل طوال اليوم! فرسم تلك المشاهد على واجهة المباني والشرفات يختلف عن القيام بالخربشات الخاصة بي على الورق؛ فيحكمني هُنا المساحة والطراز، ولا مجال لإطلاق العنان لمُخيلتي. فهُناك الكثير من المهندسين المشرفين على العمل، ولم أعمل يومًا تحت إشراف أحد. فكنت كما لو أؤدي عملًا وظيفيًّا. وذلك الشيء لم أعتده قبلًا؛ فكان عليَّ إطفاء شُعلة جنوني. شاركتني كارلا في تصميماتي، وكنحاتة مُحترفة كانت تنصحني أن أزيد التصميم هُنا، أو أزيل جُزءًا من هُناك. نصحنا أحد المهندسين أن نبتعد بقدر الإمكان عن تجسيد الأشخاص؛ لأن الدين الإسلامي يُحرم تلك التماثيل. فكنت أرسم مشاهد طبيعية ووجوهًا مُبتسمة فقط.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

35

القاهرة.. نوفمبر (1868):

استيقظ الماضي في داخلي هذا المساء، وتسلل إلى دهاليز الذاكرة؛ فوجدت نفسي أشتاق لبلدي.. لكريس ولأمي ومقهاي. تراءت لي غابات بولينا، وشجر السرو والثلج يكسوها، وصوت جريان نهر السين يصدح بأذني.

وطرقت بابي باريس ملتحفة أناقتها يسبقها عطرها. أيقنت وقتها أن كل تلك الطرقات والأزقة الضيقة في تلك المدينة تؤدي للفن والتخيل، كل ما فيها أرغمها أن تكون مدينة كالحلم؛ طقسها، طرقاتها، ليلها، مبانيها...

فجلست أكتب لكريس وأمي وأخواتي، لا أعرف لماذا يومها هزمتني الغُربة، وقتلني الحنين. وأنا كنت أُلهي نفسي عنهما به، ولكن أين هو مني؟

في بهو فندق شبرد كنت أخطو أنا وكارلا، أرتدي أجمل ما صممته لي مدام رنيه. ونرتدي تلك القبعة الكبيرة المزينة بالريش. كان من أجمل ما أرتديه ذلك القفاز من الدانتيل الأسود. دارت العيون إعجابًا عند مروري، تقدم ليون بخُطى عاشق على طرقات الوله. قبل يدي بأناقة جنتلمان، ثُم عرّفني على الجميع. وعند فاطيما توقف، أصابه بعض الارتباك وهو يعرف كل منا بالأخرى:

- فاطيما.

- الفنانة نتاليا جونسن.

كانت جميلة. من النظرة الأولى لها يمكنك مُلاحظة ذلك السحر الذي ينبعث من عينيها، وتلك الجاذبية التي لا تجعل أنزه الرجال يغض البصر عنها. بقوام شهي مُثير ترتدي فستانًا مخمليًّا بلون الليل الأسود، مُحلى بياقة من الدانتيل الأبيض؛ فظهرت أكثر براءة. شدت على يدي بحرارة وبشوق، مُرحبة بي وهي تقول:

- أهلًا بك في مصر.

أضاف ليون الذي كان يشهد لقاءنا الأول:

- نتاليا هي الفنانة الأشهر من بين الفنانين الفرنسيين في فن البورتريه.

- حقًّا! أنا عاشقة للفن التشكيلي، وخاصة فن البورتريه، فُرصة سعيدة أنني قد تعرفتُ عليكِ.

أشارت للمقعد الخالي بجوارها، ودعتني للجلوس. بينما اعتذر ليون مبتعدًا للحديث مع أحد الأصدقاء. كان المكان أشبه بحلقة كبيرة. بعض الوجوه كنت قد تعرفت عليها مُسبقًا، والأخرى كنت لأول مرة ألتقيها. ولكن لم أجد وجهًا بجاذبية وجمال فاطيما، تلك الجالسة بجواري، يفوح عطرها الشرقي فيعبئ المكان. وتقصع شعرها لأعلى فيُزين رأسها كتاج. بينما تركت بعض الخصلات الفوضوية تتسلل على جبينها، ووضعت غلالة رقيقة من الشيفون الأبيض فوق شعرها.

- وكيف وجدتِ القاهرة؟ أتمنى أنه لم تصبك الصدمة عند رؤيتها بهذا الشكل؛ فالكثير من الفنانين يعتقدون أن الشرق هي أرض ألف ليلة وليلة، لقوم لا شيء يشغلهم في الحياة سوى النوم والحكي والخلاعة.

- لا لم أكن أتصورها بهذا الشكل، ولكنني أيضًا لم أتخيلها بهذا التمدن والتحضر.. انظري إنها أصبحت تضاهي باريس رونقًا وجمالًا، وذلك بفضل عملية البناء والتشييد التي تُقام في كل مكان على قدم وساق.

- نعم، فمنذ تولي الخديو إسماعيل الحكم، ولا هم له سوى التشييد والبناء.. حتى إن كان على حساب الكثير. لقد هدم المئات من البيوت القديمة بعد أن طلب من أصحابها الانتقال لمناطق أخرى، ودفع تعويضًا معقولًا لهم حتى تتم خطته في التطوير العمراني.

وجدت في صوتها نبرة حزن واتهام معًا.. فسألتها:

- لماذا أشعر بك غير متحمسة للفكرة؟

- ليس المقصود هو إن كنت متحمسة أو لا، ولكن هُناك مبان صعب تعويضها. فهي تُراث قد بنيت في عهد الفاطميين، والمماليك بأشكال معمارية جميلة ومتفردة. وقد هُدِمت تمامًا لإفساح الطريق، وتنظيمه بشكل عصريّ جديد، ولإنشاء شبكات المياه والصرف، وإدخال الكهرباء للمنازل. وفي ذلك لا أحد يمكن أن يلومه، ولكن إنها ذاكرة الأمكنة فقط.

أعجبني وفاؤها لمدينتها، وحزنها على أبنيتها القديمة. دومًا أحببتهم؛ هؤلاء الذين يملكون فائضًا من الوفاء لعتبات كانوا قد سكنوها يومًا، وطرقات مروا بها... أضافت قائلة:

- حمدًا لله نجت دار جدي المانسترلي باشا من الهدم بأعجوبة، فقد كانت على حافة الميدان، ولم يكن من داع لهدمها وإلا كنت أصبت بلوثة عقلية.

- لهذه الدرجة؟

- نعم، إنها دار مشيدة على مساحة عدة أفدنة في جزيرة الروضة، كانت ملكًا لوالد جدي، أقام عليها بيتًا فسيحًا ببستان جميل. وعندما حان موعد زفاف جدي حسن المانسترلي مدير ديوان محمد علي باشا -هذا الرجل الذي كان يحمل فكرًا مُتجددًا دائمًا- فقد أوكل مهندسًا إيطاليًّا لإنشائها على الطراز الأندلسي، وكان هذا المهندس مُتخصصًا في ذلك النوع من العمارة، ثُم طلب إليه أن يضيف العمارة والنقوش الإسلامية على المباني. أما فرشها فقد اختاره بعناية فائقة هو وجدتي؛ فأخشاب الأبنوس قد استوردها من السودان، والقيشاني من دمشق، والسجاد والثريا من الهند، أما الأثاث فقد صنعه أمهر النجارين المصريين. وعندما تزوج أبي أقام بها، ولم نفكر يومًا في مُغادرتها. يُمكنك استنشاق رائحة التاريخ بها. وقد علقت بها أطياف كل من سكنوها ورحلوا.

- لقد اشتقت لزيارة تلك الدار.

- نعم، وعندما ترينها سوف تلهمك كفنانة؛ إنها تمامًا كحكايات ألف ليلة وليلة، يسعدني زيارتك لي غدًا إن أردتِ.

- ما العنوان؟

ضحكت بصوتٍ عالٍ وأضافت:

- لا- إن عنوانها صعب الوصول إليه. إنها في أزقة إحدى الحارات المُتشعبة من عدة دروب.. لا تشغلي بالك سوف أبعث لك بعربة خاصة. فقط أخبريني بعنوانك، وبأي وقت يمر بك.

بعدها غادرتني لتعزف على البيانو بزاوية من القاعة الفسيحة، بسجاجيد حمراء وأسقف عالية وثريا ضخمة.. بالرغم أن الفندق قد شيد على الطراز الإنجليزي، فإن كل شيء به يشي بشرقيته. انسابت الموسيقا في أرجاء المكان، هادئة حزينة.. والنادل الأسمر بملابسه المميزة يدور وبيده صينية، وضع عليها فناجين من القهوة. لم يكن مسموحًا في تلك البلاد بتقديم الخمور أو شربها علانية، بالرغم من وجود عدد لا يستهان به من الجاليات الأجنبية المُختلفة. كانت هُناك محلات مُخصصة للبيع فقط.. كان الكل مشغولًا بالحديث حتى كارلا كانت تنصت باهتمام لمسيو مارييت، رُبما كان يخبرها عن آخر اكتشافاته.

لم أعتد الجلوس طويلًا؛ ففكرت أن أقوم بجولة داخل الفندق، اجتزت الممر الطويل الذي تقع على جانبيه ساحة فسيحة لمطعم الفندق، وبجواره مقهى تتسلل منه أنغام شرقية من عزف شجي على آلة العود، وجدتني أفتح الباب، وأدلف للقاعة وأجلس بطاولة في الزاوية. كانت الإضاءة خافتة، والمكان دافئًا تشغله بعض الطاولات. مُندمجة كنت مع الألحان، وصوت المطرب تشوبه بحة مكتومة. إنه المُطرب الأكثر شهرة في البلاد (عبده الحامولي). يُغني مع فرقته المُكونة من ثلاثة أفراد. فجأة وقع نظري مصادفة على الطاولة التي بجواري، كان يشغلها ثلاثة من الرجال يرتدون الملابس العسكرية، ولا أعرف أي جهة يتبعون. تصادم نظري مع الشاب الوسيم الذي يجلس بمواجهتي، كان يتطلع إلي وفي عينيه تساؤل ما، دعوة ما لم تظهر ملامحه بوضوح أمامي. فقط كانت لعينيه السوداوين العميقتين كل ذلك السحر. تشابكت عيناه مع عيني في نظرة طويلة؛ فلم أستطع فك شباكهما، وعلا صوت من ورائي ليفكني من ذلك التشابك العنكبوتي.

- أنت هُنا!

كان ليون بقامته الفارعة، وبعينيه اللتين تملكان كل ألوان الأرض. ابتسمت وأنا أفكر: تُرى أيهما أكثر سحرًا؟!

- نعم هُنا، أعجبتني الموسيقا فجلست أستمع. ولكن منذ متى وأنت تهتم بوجودي من عدمه!

وهو يجلس:

- آسف نتاليا، ولكن العمل يأخذ كل وقتي. كما أننا في هذه المدينة بعاداتها وتقاليدها ليس من اللائق أن نظهر بمفردنا كثيرًا.

كنت أعلم أنها مُجرد حجة فاكتفيت بالصمت. فقط كنت أريد أن أعرف هل مازال يدخر لي تلك المشاعر التي لم يصرح بها سوى يوم في رسالة ما؟ لذلك لم أخجل من أن أسأله:

- هل ما زلت ملهمتك؟

- لم أمسك الفرشاة لرسم لوحة منذ قدومي لتلك البلاد؛ فبالكاد أستطيع أن أنهي العمل والاجتماعات.

كانت كلماته مُوجعة كرصاصات تفرغ في الجسد. كنت أعلم بشيء من المرارة أن هُناك أمرًا ما.. إذن لماذا استدرجني لهُنا باسم الإلهام والحنين لأصدق تلك الكلمات التي ملئت بها جيوب الأحلام وهمًا! (سأكون لكِ مادمنا في بلاد النيل السمراء)، أليست تلك البلاد هي أرض الحب والخصوبة؟.. أليست شمسها الذهبية، وأرضها السمراء شاهدة على حب أنطونيو وكليوباترا؟ فلماذا قد بَخلَت عليَّ بقصة حب شبيهة لهما؟! من الواضح أن خيبة الأمل قد أطلّت على ملامحي، لذلك وجدته يربت على يدي بحنان قائلًا:

- نتاليا، أنت بمثابة وطن لي.

لم أشغل نفسي بفهم كلماته مُجددًا، والوقوع في فخ معانيها المُتمددة المتعددة؛ لذلك كنت أنصت للموسيقا، وتراقبني العيون التي لم تكتف من ملاحقتي بالنظرات.. سألته:

- هؤلاء الرجال ببذلاتهم العسكرية، لأي جهة يتبعون؟

- إنهم ضباط بالجيش المصري.

ثم بعد نفس عميق:

- نتاليا، ليس من اللائق أن نترك الضيوف، ونأتي لنجلس هُنا بمفردنا.. خاصة أنه أول حضور لك.

كمن أريد أن أصرخ به: (تبًّا للائق والجائز والمُستحب)، ولكن بدلًا من ذلك وضعت على وجهي ابتسامة مُصطنعة، واستعددت للذهاب على الطاولة السمراء الأخرى. كانت قد اتسعت العينان دهشة وهي تترجاني للبقاء، كانت المسافة بين المقهى والبهو بعيدة. وبالرغم من ذلك كانت فاطيما تراقبنا بعينيها ونحن نقترب منها شيئًا فشيئًا.

مساءً في تلك الغرفة التي يؤثثها سرير واحد، ونافذة تطل على باحة للكنيسة، ومئذنة للمسجد، وطاولة عليها بعض لوازم الرسم. جلست لأرسم وجهًا جذبني له كثيرًا هذا المساء، ببذلته العسكرية يمتطي صهوة جواده، ويشهر سيفه في وجه الحياة، ويبتعد في متاهات الصحراء.. إنه هو الذي يشبه الفرسان القدامى.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

36

بعد انتهاء العمل في اليوم التالي، وفي السادسة مساء تقريبًا، طرق خفيف على الباب، كان لسائس العربة التي بعثت بها فاطيما لاصطحابي لمشاهدة دارها. رفضت كارلا الحضور بالرغم من دعوة فاطيما لها؛ فتقبلت الدعوة بالفتور بعدما سرق ولعها بالآثار الفرعونية كل حماسها. ولم يترك لها قدرًا ولو ضئيلًا ليبهرها شيء عداه.

غادرت بمصاحبة السائس. كان الطريق إلى البيت وكأنه متاهة لا تنتهي؛ فمن ميدان لآخر، ومن شارع لآخر، وأخيرًا دخل بنا السائس من بوابة خشبية كبيرة. وبدخولنا من تلك البوابة كأننا انتقلنا من بلدة لأخرى؛ فكل شيء كان ينبض بالتاريخ في تلك المساحة من العالم التي لم تطلها خطط العمران بعد. كانت البيوت مُكدسة جنبًا إلى جنب، دافئة بأنفاس أصحابها، تنبعث منها روائح أبخرة الطهو الممزوج بالتوابل. انتقل بي الرجل من حارة ضيقة لأخرى أكثر ضيقًا بُلطت من حجر الصوان، على جانبيها بيوت من دورين بأبواب خشبية خضراء كتبت عليها آيات قرآنية وأمثال عربية. وأخيرًا توقف بي أمام إحدى تلك البوابات. كانت كبيرة بيضاوية الشكل. تُغلق بمزلاجٍ خشبيّ، وعليها مطرقة من نحاس، نُحتت على شكل كف لليد، وبالقُرب من المدخلِ وضِعَت أريكة حجرية مخروطيَّة بشكل بديع لجلوس سائس العربة أو رُبما البواب.

فتح الرجل المزلاج، ودق المطرقة دقتين طويلتين ليفتح لنا عبد أسود بملابس غريبة الشكل لم أرها مُسبقًا. كان يرتدي قلنسوة على شعره. تتدلى منها كرتان ذهبيتان، وقميص بتقليمات، مغزول بخيوط ذهبية لامعة على سروال أحمر واسع، ويضع سيفًا كبيرًا على صدره، مُثبتًا في جيب مُخصص له بالسروال. أخذتني تلك اللوحة بعيدًا.. هُناك عندما وقفت أمامها يومًا في أحد المعارض. كانت ضمن مجموعة اللوحات الفنية للفنان رودلف أرنست [40] بعنوان (حارس القصر)، والذي رسمه بأشكال عدة في لوحات كثيرة، إنه تمامًا كما أراه الآن. استقبلني بملامح جامدة، وقاد خطاي للداخل. في مقدمة الدار بستان كبير ممتد الأطراف، كانت فاطيما بانتظاري في وسط البستان بزي عربي جميل استقبلتني بحرارة اللقاء.

- أتمنى ألا تكوني قد أرهقت من الطريق.

- لا أبدًا إنه كان بمثابة لوحة فنية رائعة التشكيل.

- إذن هيا لأريك لوحة أخرى داخل لوحة.

أمسكت بيدي وكانت تسبقني بخطوة فرحة مزهوة بدارها؛ وطنها الصغير، في زاوية جانبية بالفناء الفسيح كان هُناك مبنى صغير من الحجر تراصت الغرف به الواحدة تلو الأخرى؛ إحداها: إسطبل للخيول والبغال، وواحدة لتربية الدواجن، وأخرى مُمتلئة بأجولة الغلال من قمح ودقيق وأرز وعدس وفول. وفي إحدى الغرف الكبيرة عدة أفران للخبز والطهي، ثُم سكن فسيح لمبيت الخدم. انتهينا من

ذلك المبنى المستقل بذاته، وكأنه لا يتبع المكان، لنمشي بممر طويل مبلط من الفسيفساء. في نهايته كانت بئر عميقة قد أُفْرِغت من مائها. لاحظت فاطيما ملامح الوجوم تكسو وجهي فقالت:

- بنى أبو جدي تلك الدار مع تزامن الحملة الفرنسية على مصر؛ لذلك احتاط من هؤلاء الفرنجة، فحفر تلك البئر وكان يملؤها بالماء للجوء إليها في أوقات الأزمات. وكما حكت جدتي: كان بإمكانهم بواسطة الفرن والقمح الخبيز، وهذا البستان الذي يزرع بشتى أنواع الخضر والفاكهة. لذا كان الباب يُغلق لأسابيع طويلة على أحزانهم، في البدء خوفًا من الإفرنج، وعند تولية محمد علي حكم البلاد كان الخوف من همجية الانكشارية والأرنؤوطية.

- ولكن من هم الأرنؤوط؟

حاولت ترديد الكلمة مرة أخرى، ولكنني فشلت؛ فابتسمت هي، وأعادتها ببطء ثُم قالت:

- إنهم طائفة من ألبانيا، استعان بهم المماليك للتصدي للحملة الفرنسية على مصر، وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتال.

- ألم يقم لهم مأدبة في القلعة وأمر بذبحهم جميعًا؟ لقد رأيت إحدى اللوحات الدموية عن تلك المذبحة قد رسمها هوريس فرينت.

ضحكت بصوتٍ عالٍ قائلة:

- لا عزيزتي، مذبحة القلعة كانت للتخلص من المماليك وليس الألبان، لا تستغربي فتلك الأرض طالما داسها الكثير من الخطى لأجناس مُختلفة، ونيَّات مُختلفة.

- ولكن أليس من الغريب أن رجلًا يملك حكمة محمد علي باشا يتخلص من عدد قليل من المماليك ضعيفي النفوذ بتلك الطريقة البشعة؟

- نعم، لطالما سمعت جدي - وأنا بعد صغيرة - يدافع عن الباشا، ويجزم أن النية وراء تلك المذبحة ليست فقط للتخلص من المماليك. فهُناك أهداف أخرى وراء تلك المذبحة؛ لأن الباشا لو كان القرار لتلك المذبحة قراره هو لما كان يذهب ليبكي تأثرًا في حضن زوجته كالطفل الصغير. وأبدًا لم يكن الندم وراء تلك الدموع، فالباشا لم يكن ليقرر شيئًا يندم عليه لاحقًا.

ضحكت بصوتٍ عالٍ قائلة:

- أعتقد أنني قد أرهقت رأسك بتلك الأحاديث، مالك أنت ولمحمد علي والمماليك والمذابح!

هززت لها رأسي نافية:

- أبدًا، فأنا تملؤني الرغبة في الفضول لمعرفة جزء ولو صغير من تاريخ ذلك البلد العظيم. لقد قرأت رواية قصتها مستوحاة من تلك المذبحة للروائي إسكندر دوماس [41] بعنوان (خمسة عشر يومًا في سيناء)، ثُم إنكِ لا تنسين أن كل تلك الأحداث قد

رسمت في لوحات بيدي أشهر رسامي فرنسا الذين كانوا يفدون على البلاد، ويمرون بتلك الأحداث. حتى إن مجلد وصف مصر العظيم الذي أخرجه علماء الحملة الفرنسية يعد من أشهر الكتب المتداولة في فرنسا منذ نشره من خمسة وسبعين عامًا إلى الآن. وحمدًا لله لأنني أخيرًا عثرت على قارئة للتاريخ تتحدث الفرنسية بطلاقة.. أتعلمين أنني بدأت في دراسة اللغة العربية حتى أدخل في دهاليز هذا البلد؟

- إذن هيا لنستكمل الجولة السياحية.

في رُكن جَانبي كان باب خشبيّ قديم أزاحته بيديها، وأدخلتني بقاعة بلطت من أعلاها لأسفلها بالقيشاني المُزخرف بألوان ونقوش جميلة، وفي المنتصف مغطس غير ممتلئ بالماء. بينما هُناك أكثر من غُرفة صغيرة بها مقعد من القيشاني. كان المكان مهجورًا يملؤه الغبار، ومن الواضح أنه لم يُستخدم منذ زمن.

- انظري، إنه الحمام.. في ذلك المكان كانت تدعو جدتي صديقاتها وقريباتها اللائي لم يَسمح لهن بؤس حالهن من ترف امتلاك حمام مثله. لقد بناه جدي خصيصًا لجدتي بالرغم من وجود عدد كبير من الحمامات العامة في أنحاء المكان، ولكن جدي - هذا الإسطنبولي الأصيل - لم يكن ليسمح لزوجته بمعاودة الحمامات الشعبية، كما أن ذلك هو المتبع في القصور بالآستانة البلد الذي انحدر منه.

كانت تشير بيدها على الحائط قائلة:

- في تلك الأنابيب الداخلية تجري المياه الساخنة التي تتصاعد منها الأبخرة بفضل موقد كبير تحت الأرض، وفي تلك الحجرات الخاصة يمكنك أن تجلسي لتُهيِّئي جسدك ليتشبع بالأبخرة، وتتفتح مسامه فتخرج منه الأمراض والسموم. بعدها يمكنك أن تحظي بجلسة تدليك في تلك الحجرة، ثم بلوف صنع خصيصًا تقوم البلانة بقشط الأوساخ عن جسمك. وبعدها تغطسين بالمغطس الساخن لتزيلي آثار الصابون، وبعد ذلك الحمام تنعمين بخفة الفراشة.

تملكتني الدهشة من حديثها، فلم أقدر أن أتفوه بكلمة:

- حقًّا!

- نعم حقًّا.. ولكي تنعمي بتلك الخفة سنحدد يومًا لأصطحبك فيه إلى الحمام.

- لقد رأيت مشاهد لذلك الحمام في لوحات للفنان جيروم [42].

أصابها الاستغراب:

- ولكن من هو! وكيف تسنى له أن يرسم ذلك الحمام، ولم تتخط عتبته قدم رجل يومًا؟

- جيروم.. إنه أحد أكبر الفنانين المستشرقين، وأشهرهم على الإطلاق، وهو مُدير ومُؤسس قسم الاستشراق في المدرسة الفرنسية للفنون. كانت له حيله الخاصة للتسلل إلى تلك العوالم الخاصة بالحريم والنساء؛ فكان له الكثير من الصديقات من

الجواري الشركسيات والسوريات اليهوديات، اللائي كن يساعدنه في الانصياع وراء خياله الجامح. هو في الأصل مُصور فوتوغرافي، يعتمد على التقاط الصور، ثُم يقوم بتنفيذ أعماله في مرسمه الباريسي. لذلك كانت هُناك أكثر من مقولة أنه كان يسرب تلك الآلة إلى الحمام مع إحدى صديقاته، وفي مكان خفي تقوم بالتقاط الصور دون أن يشعر أحد.

- ألهذه الدرجة! ولكن ألستِ معي أن هؤلاء المستشرقين قد رسموا صورة مُغايرة للمرأة العربية، وتغالوا في خروجها بمشهد غير مُلائم لدينها وبيئتها حتى يرضوا تصورات خيالهم الذي جاءوا به إلى هنا، ويرضوا جمهورهم الذي لا يزال يعتقد أن الشرق هو ألف ليلة وليلة، وأن بداخل عالم الحريم ووراء تلك المشربيات المغلقة نساء لم يُخلقن يومًا إلا لممارسة الحب والمتعة فقط.

- الفنان تثريه مُخيلته دائمًا أكثر مما يراه بعينيه، وفي ذلك التكتم الشديد على عالم الحريم والحرص على عدم ظهورها أبدًا والكثير من الحكي بما يحدث وراء تلك الأبواب المُغلقة كان بمثابة اشتعال للأوهام بما تتوقه نفسه.

- ليست المشكلة في التكتم بقدر رفض الفنان رؤية المرأة العربية تختفي تحت كل تلك التلال من الملابس، تمشي وهي تخبئ وجهها، فتفنن هو في رسمها في شكل حسي.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

37

أصابت الحماسة فاطيما وهي تلقي بالاتهامات على المستشرقين، وأنا؟.. ألم أكن واحدةً منهم! ألم أجئ إلى هُنا يومًا لأرسم ذلك العالم الذي كثيرًا ما أثار مُخيلتي كفنانة، رُبما كانت تلك اللوحات التي رُسمت له -كما تقول فاطيما- من وحي قصص ألف ليلة وليلة؛ فهل تراني سأرسم تلك المشاهد كما رسمها البعض منهم مستوحاة من حكايات ألف ليلة وليلة حتى لا أحبط جمهوري، أم سأدع ريشتي تكون نزيهة وحيادية تنقل الواقع كما رأته يومًا؟.. ولكن أليس في نقل الواقع كما هو مهانة للفن؟ فالفن هو الخروج عن المألوف وعن الممكن، ولكن كيف لفاطيما أو البشر البسطاء أن يستوعبوا تلك الشعرة الرفيعة من الجنون التي تمس خيال كل فنان تمامًا كما أخبرني ليون ذات اليوم الذي أخبرته فيه عن تلك الأقدار التي أخططها للوجوه؟ واتهمت نفسي بالجنون فرد قائلًا:

- ولو لم تنْتَبْكِ تلك الشعرة من الجنون لما كنت اليوم تُلقبي بفنانة.

كان بماذا عليَّ أن أخبرها وقتها؟!

- الفنان لا يملك سوى أن يداعب خيال المشاهد ويثير انتباهه، فإن رسم المشهد بواقعيته الشديدة فلا مجال للفن وقتها. وفي النهاية ليست تلك اللوحات سوى رؤية خاصة للفنان نفسه؛ لذلك ليس علينا أن نجني على الكثير من الفنانين الذين أخرجوا لوحات كثيرة بشكل مميز وجميل.

ابتسمت فاطيما لتزيل تلك الشحنة السالبة التي عبقت الجو، وقطعنا بعض الوقت حتى وصلنا للمدخل الرئيسيِّ للبيت، ثُم صعدنا الدرجات الخمس من الرخام لنقف بعد ذلك أمام بوابة خشبية كبيرة تقود في الداخل لقسمين، أشارت قائلة:

- هذا السلاملك وهو المبنى الخاص بالرجال، وذلك الحرملك وهو المبنى الخاص بالحريم. في السلاملك بإمكان الرجال استقبال وإقامة الحفلات ودعوات الغداء والعشاء لأصدقائهم من الرجال، بينما مبنى الحريم غير مسموح بتخطي عتبته سوى للزوج والأغا فقط.

- وماذا يعني بالأغا؟

- الأغا هو العبد الذي يُختار بعناية فائقة وقبل سن البلوغ تقام له عملية استقصاء لأعضائه التناسلية، وهو يعتبر من أغلى أنواع العبيد.

رددت وراءها باستغراب:

- استقصاء لعضوه التناسلي!

- نعم وبهذه الطريقة يكون مسموحًا له بحراسة الحريم، وخدمتهم بدون أي خوف منه.. رُبما ذلك النوع من الغلمان قد قل الآن، وكان الأكثر استخدامًا لهم الملوك وكبار الشخصيات بالدولة والأثرياء، أما البيوت البسيطة فغالبًا تمتلك جارية أو

جاريتين على الأكثر، ولا داعي وقتها لجناح خاص بالحريم وآخر للرجال. وفي البيوت المصرية تُعامل كلٌ من الجواري والعبيد كابن أو ابنة بالتبني.

بُعد عدة درجات وجدنا أنفسنا في جناح الحريم، غرفة كبيرة تُفتح على عدة غُرف أخرى مفروشة بأجمل المفروشات الحريرية الناعمة، والبساط الأحمر المزركش الفارسي والعجمي، والأرائك تتناثر في أنحاء المكان. بينما عُلِّقت في الأسقف الأباليك العربية من النحاس المُطَعَّم بالحُلي الصدفية والملونة، وبالرغم من جمال كل شيء يحيط بي فإنني شعرت كأنني داخل سجن أنيق. فلم تكن هُناك نافذة أو شرفة عدا تلك المشربيات من الخشب بفتحاته الضيقة ليتسلل منها بعض من الضوء والهواء.

- انظري إلى تلك الغرف، والأسِرَّة الفارغة؛ إنها كانت تؤثث بأجساد الجاريات من كل شكل ولون، حتى جدتي لم تكن تستطيع أن تحصي عدد الجواري اللائي يملكهن جدي.

- وهل كانت علاقة جسدية بين جدك وهؤلاء الجواري، أم يقمن بخدمته فقط؟

- الدين الإسلامي قد أحلَّ للرجال الزواج بأربع زوجات، أو ما ملكت أيمانهم ليمارسوا معهن ما قد أحلّه الله. وما ملكت أيمانهم يعني الجواري اللاتي بحوزتهم.

كان كلامها بمثابة لطمة على وجهي، ورُبما لاحظت هي ذلك فدعتني للجلوس على أريكة عربية مكسوة بحرير منقوش بخيوط مذهبة، وأمامنا كانت منضدة نحاسية مستديرة، وأمرت الخادمة بإحضار القهوة.

- بعد موت رسول الله الذي كان أكثر خلق الله نزاهة وبعدًا عن الشهوات - تولى بعده شئون الإسلام الخلفاء الراشدون فساروا على منهج نبيهم الواحد بعد الآخر إلى أن آلت الخلافة لمعاوية الذي اتخذ من دمشق عاصمة له، وبنى بها قصر الخضراء، وخصص فيه قسمًا خاصًّا للنساء. ومن يومها كان هذا أول حجر يوضع في بناء الحريم، وخلفه ابنه يزيد الذي لم يكن له عمل سوى اللهو والنساء. فكان يكثر من شراء الجواري، ويبني لهن القصور لكي يطفئ جمرة شهوته لا أكثر. وهكذا ومن خليفة إلى آخر كل همهم نيل ترف الحياة لينتهي عهد الفتوحات الإسلامية. حتى نال العباسيون الحكم، وكثر وقتها الطلب على الجواري اللائي ارتفع ثمنهن ليصل إلى مائة ألف درهم، كان الخليفة يدفعها عن طيب خاطر حتى امتلأ نهر دجلة بالسفن التي تحمل الجواري من بيض وسود. وازدحمت القصور بالأغوات والغلمان، وكان التنافس على أشده ما بين الجواري للحصول على رضا وحب الخليفة؛ فحدث تنافس، ثم غيرة أدت لحبك المؤامرات، والخطط للقتل بالسم أو الخنجر. وأصبح الحُكم في يد هؤلاء الجواري، وعند هجوم التتار في عهد المستعصم الذي لم يجد فرصة ليتخلص من قهر هولاكو إلا بملء سلال من الجواهر واللآلئ وتقديمها له، فما كان من أمر هولاكو إلا أنه وزع تلك الهدايا على جنوده ثُم أخذ الخليفة وحريمه، وكان عددهم حوالي خمسمائة، وهُناك أمر بوضع الخليفة في حقيبة من الجلد والطواف به في شوارع بغداد، ثُم إغراقه في نهر دجلة.

ارتشفت من قهوتها، ثم أكملت:

- عندما أذهب لتمضية الصيف مع أهلي في الآستانة الأمر مُختلف في جناح الحرملك عن مصر، فالجواري في مصر يلبسن ملابس بسيطة غير مُتكلفة أو مُغرية. وتدير شئونهن امرأة واحدة هي الزوجة أو الأم أو رئيسة الجواري.

وضعت العاملة فنجاني القهوة، وبجوارهما طبق كبير من الحلوى عبارة عن قطع أصابع من العجين مقلية بالزيت حتى صار لونها ذهبيًّا مُقرمشًا، ومسكوبًا عليها شراب مسكر. قدمتها لي فاطيما لأقضم منها حتى تكسر حدة مرارة القهوة، وهي تشرح لي طريقة صنعها، وعندما سألتها عن اسمها أجابتني بالفرنسية مرة وبالعربية مرة أخرى قائلة:

- أصابع زينب!

كان طعمها شهيًّا ولذيذًا، حذرتني فاطيما وأنا ألتقط الواحدة تلو الأخرى ألا أكثر منها حتى لا أفقد شهيتي لتناول العشاء.

- ولكن فاطيما ليس هُناك داعٍ للعشاء.. فأنا عادة أكتفي بكوب من الحليب.

- ليس من عادات العرب أن يستقبلوا ضيفًا بموعد الغداء أو العشاء ويذهب ولا يتناول طعامه. كما أنه من المؤكد أنك ستبدلين من رأيك عندما ترين الأصناف الشهية التي صنعتها الطباخة الماهرة تحت إشراف جدتي طبعًا، التي لا تمل كل مرة من تلقينها بالمقادير بالرغم من أنها قد صنعت تلك الأصناف لسنوات طويلة.

- ولكن فاطيما لم تُحدِّثيني عنك.

أعادت ورائي الكلمات بنظرة ساهمة:

- لم أحدثك عني، إذن ماذا تريدين أن تعرفي؟

- حياتك، تعليمك، هواياتك.

- لقد ولدت في ذلك البيت الذي عاش فيه الكثير من أفراد عائلتي، كل منهم رحل وترك أثرًا وراءه؛ مَن غرس شجره، وللحين تُلقب باسمه، مَن جلب من الخارج تحفة أو لوحة، مَن ترك وراءه فرسًا ورحل بعيدًا. حتى مقاعد المائدة مازالت جدتي تطلق عليها أسماء من اعتادوا الجلوس عليها، عشت هُنا لتمجيد الماضي وإحياء ذكرياته، وبانتظار ما سيأتي به المستقبل. لم أذهب لأية مدارس؛ فهُنا غير مسموح للبنات بالذهاب للمدارس؛ لذلك تسافر الأسر الثرية لتعلم بناتها بأوروبا أو تجلب لهن معلمات أجنبيات. هُناك في سراي جدتي بإسطنبول جارية تسمى عندليب، معها شهادة حسنة من ماركيزة، وتعرف عدة لغات تحدثًا وكتابة. أوكل لها جدي مُهمة تعليم حفيداته اللغات، والعزف على البيانو الذي كانت تتقنه بمهارة. ويرجع لها الفضل لما أنا به الآن.

وقتها جاءت الخادمة لتخبرنا أن المائدة مُعدة، والجميع بانتظارنا لنخرج من ذلك الجناح وندخل في جناح السلاملك، وعندما سألتها:

- ولكن ألم تخبريني أن ذلك الجناح هو الخاص بالرجال؟

- هذا كان منذ زمن عزيزتي، الآن بـإمكاننا أن نجلس معًا لنتناول الغـداء.

في جناح السلاملك كل شيء يشي بالجلسات الذكوريَّة التي تعقد فيه؛ فقد فرش بشكل أكثر خشونة من الحرملك، في قاعة كبيرة للاستقبال وضع بها أكثر من صالون فرنسي للجلوس. وفي صالة أخرى خصصت للتكايا العربية وضعت الأرجيلة في كل ركن بها. وأخيرًا كانت حجرة المائدة مصنوعة من فن الأرابيسك. في السقف تتدلى ثريا ضخمة بمصابيح نحاسية. كان والد فاطيما وجدتها يقفان في واجهة المكان لاستقبالنا، عرفتني فاطيما عليهما بصوت أقل نبرة من المعتاد التحدث بها. كان رجلًا ستينيًّا، أبيض البشرة تشوبها الحمرة بشارب كثيف تسللت الشعيرات البيضاء منه، وحواجب كثيفة تظلل عينيه. يضع فوق رأسه طربوشًا أحمر قصيرًا، ويرتدي الإسطنبولي التركي؛ وهي سُترة بياقة ضيقة، ويتم تزريرها من أعلى لأسفل. بينما كانت جدتها نحيلة وقصيرة بملامح بشوش مُريحة، كستها الكثير من التجاعيد. وبصوت متهدج الأحبال الصوتية رحبت بي وهي تتفحصني من شعر رأسي لأخمص قدمي. دعاني للجلوس بلغة كنت في طريقي لتعلمها، في نظرة سريعة على المائدة لاحظت أنها كانت ممتلئة بعشرات من الأصناف المُختلفة شهية الرائحة.. تشير فاطيما لكل صنف قائلة:

- هذه الأصناف هي مزيج من المأكولات المصرية والتركية، أبي التركي لم يتخل يومًا عن عاداته في الأكل، وكذلك جدتي لأمي المصرية. لم تعد يومًا مائدة الطعام إلا وأمرت بطبقها المفضل من الملوخية؛ وهي تحريف لكلمة (ملوكية) لأن أحد الملوك الفاطميين كان قد أحبها كثيرًا، تلك هي الكوسة المحشوة بالأرز والخضر، مهروسة، وتلك شركسية الدجاج، بيلاف وهو أرز تركي، طيور محشوة بالأرز.. لحم الضأن المشوي، والكثير من فواتح الشهية.

كان الجميع يأكل بشهية مفتوحة عداي؛ فكان من الصعب أن تتحمل معدتي كل تلك الأصناف الدسمة التي تُصيب بتخمة؛ فاكتفيت بقطع المحشو اللذيذة بالرغم من إصرار فاطيما عليَّ بتناول المزيد، وهي تطمئنني بأنه لا داعي للخوف من التُّخمة طالما هُناك مشروب العريان التركي؛ وهو عبارة عن زبادي مخفوق بقليل من الملح يُشرب باردًا بعد تناول تلك المأكولات الدسمة.

دار حديث يشوبه بعض الغضب بين فاطيما وجدتها، ورُبما كنت أنا محور ذلك الحديث الذي لم أفهم منه كلمة واحدة. ولكن نظرات جدتها لي كانت تشي به، كذلك كلمة فرنسي رددتها تلك العجوز بحنق عدة مرات، ورُبما كما قال ليون مُسبقًا إن الشعب المصري مازال يحقد على الفرنسيين بعد حملة نابليون على مصر، وتلك المعارك التي راح ضحيتها الكثير من شهداء ذلك الوطن. ما الذي جناه نابليون من حملته على مصر والشام غير الآلاف من القتلى، وخسائر فادحة، وإنه رفض أن يخرج هكذا خالي الوفاض؛ فطلب من البعثة العلمية أن تعمل بأقصى جهدها، وحقًّا نجح شامبليون في فك شفرة اللغة الهيروغليفية القديمة، ووضع الفنانون والعلماء كتاب وصف مصر، بالإضافة لكل تلك الاكتشافات العلمية، ولكن وبالرغم من كل

ذلك، وبعد مرور كل ذلك الوقت مازال ذلك المصري لا يتذكره إلا بكل حقد.. تكرر اسم سليمان الحلبي أكثر من مرة، واحتد النقاش بين فاطيما وجدتها؛ لذلك سألتها:

- فاطيما من سليمان الحلبي هذا؟ ولماذا جدتك تنظر لي بكل هذا الغضب؟ أتمنى ألا تكون زيارتي لك سببًا في ذلك الجدال.

- انتظري حتى ننتقل لنشرب القهوة، وسوف أحكي لكِ.

بعد العشاء انتقلنا لنجلس في الصالون العربي، ووضعت الخادمة صينية القهوة، وصينية أخرى للحلوى. غادر والد فاطيما بعدما ألقى تحية المساء، ووضعت فاطيما قبلة على يديه. بينما كان فنجان القهوة يكاد ينسكب على ملابس جدتها عندما غلبها النعاس؛ فحذرتها فاطيما فانسحبت على مضض بعد أن غلبها النوم. فلم تستطع مقاومته.

- أتعلمين أنهم دومًا يصفون العرق التركي بالعند والعصبية. ولكن مع معاشرتي لجدتي وأبي اكتشفت أن جدتي التي تمتد جذورها إلى الصعيد تمتلك عِندًا ليس له مثيل، وتشبثًا بالرأي، بينما أبي المسكين سهل الترويض.

حقًّا لا تعرفين الإنسان إلا بمعاشرتك له، ها هي مازالت تحمِّل كل فرنسيٍّ مسئولية دنس نابليون قداسة مسجد الأزهر بأحذيته وبروث خيله، وقتل وهتك عرض النساء.. بالإضافة طبعًا للنهاية البشعة التي كانت من نصيب سليمان الحلبي لقتله الجنرال كليبر؛ فقد أمروا بوضع يده على المحرقة، وقتله بوضع سيخ من الحديد في مؤخرته، والتمثيل بجثته فوق أحد الأسطح لتكون من نصيب الطيور الجارحة. في الوقت الذي كان الجنرال كليبر تقام له جنازة مهيبة، يلف جثمانه بعلم فرنسا، ويُحمل على عربة تجرها الجياد وسط المئات من الجنود الفرنسيين الذين وقفوا لوداعه على وقع أنغام النشيد الفرنسيّ العسكريّ.

- أووه، يا للبشاعة! ورُبما لها الحق في ذلك. ليت هؤلاء الحكام يتذكرون أن أهالي تلك البلاد سيظلون يمقتونهم إلى ما لا نهاية.

- نعم، فلها عذرها.. كانت لا تزال طفلة عندما كان الموت يمشي ويتنفس معهم، وكانت الأيام تأتي قاسية تمامًا لا تختلف عما سبقتها إلا بعدد شهدائها الذين لم يكن يتوقع أبدًا لهم تلك النهاية التي هي قريبة إلى هذا الحد، ومؤلمة بهذا الشكل. وبالرغم من أنني شرحت لها أنك هُنا مع بعثة فنية وهندسية تضم أمهر المهندسين والفنانين لتصنعوا وجهًا آخر للقاهرة؛ إلا أنها رفضت أن تفهم سوى قناعاتها الخاصة، إنهن العجائز أيضًا.

- رُبما تتبدل نظرتها تلك بعد أن تنتهي الأعمال بالقاهرة، وتأخذيها في جولة مثلًا في حديقة الأزبكية والأوبرا وتريها كيف صمم المعماريون والتشكيليون الفرنسيون مدينتها. والآن يجب عليَّ أن أذهب. فقد قاربت الساعة العاشرة مساءً، وأشكرك على هذا العشاء الشهيِّ، وتلك الحكايات الأخَّاذة. حقًّا لقد استطعتِ أن تنقليني لعوالم ألف ليلة وليلة في هذا المنزل الأسطوريِّ.

- عديني إذن أن تُكرري الزيارة.

- أعدك...

وبعد أن ضمتني إليها في حضن عميق -كعادة نساء العرب وكأنني أعرفها منذ زمن- غادرت بعدما أمرت السايس أن يقود عربته الكوبية؛ وهي عربة صغيرة مُغلقة تجرها الخيل لشدة برودة الهواء ليلًا، ويذهب بي من حيث أتى.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

38

القاهرة.. ديسمبر (1868):

دخل وجودي هُنا شهره الثالث. وغربتي دخلت زمنها الأبديَّ. كان احتياجي للحنان شُعورًا مُلحًّا ومُؤلمًا. ولكن تلك البلاد الدافئة عوضتني بجرعة من حنان غامض. أقامت القُنصلية الفرنسية حفل عيد الميلاد المجيد للجالية الفرنسية في فندق مينا هاوس. وكان على رُقيّه وأناقته مُختلفًا عن عشاء حميمي دافئ يجتمع فيه الأهل والأصدقاء حول المائدة، ويقومون بعدها بتبادل الهدايا. توالت الأيام بعد ذلك مُزدحمة وسريعة.. الكُل يعمل كخلية نحل.

سافر ليون لمدينة الإسماعيلية ليُباشر عمله هُناك، أما أنا وكارلا فكنا نعمل بجهد لننتهي من سرايا الجزيرة. وكنت قد بدأت في رسم بورتريه للإمبراطورة ليُعلق في بهو القصر. كان هذا البورتريه مُختلفًا عن تلك اللوحة التي قمت برسمها لها، وخططت لها قدرًا خاصًّا بها. فهُنا لم يكن من الجائز أن أرسم الإمبراطورة بدون التاج الإمبراطوريِّ، وبفخامة وكبرياء يليقان بها. في حين كانت كارلا تقوم بنحت التماثيل بالقصر من أجود أنواع الرخام والبرونز. باقي العمال مشغولون بزخرفة الأسقف، وتعليق الستائر، وكشط الأرضية، وترتيب الأثاث.

اهتمام الخديو بالإمبراطورة الفائض في سخائه عن الحد كان مثارًا للأقاويل والحكاوي في المجتمع المصريِّ والفرنسيِّ على السواء. ولكن هذا الرجل الذي خُلق ليكون شيفاليه [43] كفارس للعصور الوسطى، وهؤلاء الفرسان ليسوا فرسانًا للحرب ولكن للاستعراضات. على الواحد منهم أن يحب امرأة ذات أهمية خاصة، يتفانى في حبها، ويُضحي من أجلها. لذلك لكي يدعو تلك الإمبراطورة في وطنه صنع حضارة هامة تتلاءم مع أهمية شخصيتها. ولكن أليست تلك أوجيني التي عند زيارتها للمتحف العالمي بباريس، وفي جناح المعرض المصري الذي عرضت فيه مجموعة من الآثار الفرعونية توافدت يومها الجماهير لتقف في طوابير طويلة لتُلقي نظرة على المجموعة الخاصة بملك مصر توت عنخ آمون، وجدت هي في مجموعته جواهر ولآلئ ثمينة أعجبتها كثيرًا، وبدلال همست في أذن الخديو الذي كان يتحدث الفرنسية مع جمهور المعرض بطلاقة، وهو يجلس على أريكة عربية، ويدخن من نرجيلته الذهبية المرصعة بالألماس، أنها تريد تلك المجموعة لتتزين بها. فاعتذر بلباقة، وأخبرها أن تلك الآثار لا دخل له بها. إن مسئوليتها تحت إشراف ماريبيت بيه، عالم الآثار الفرنسيِّ، ومدير المتحف المصري. وإن وافق فهي لها، وعند سؤال أوجيني لماريبيت بيه رفض الرجل رفضًا باتًّا. حتى بعد إغرائها له بأنها ستقوم بترقيته مديرًا لمتحف اللوفر. وحتى يخرج الخديو من ذلك الموقف مرفوع الرأس أهداها يختًا خاصًّا صنع خصيصًا لها من الذهب الخالص تعويضًا عن تلك الجواهر الفرعونية الثمينة. والآن ها نحن هُنا نعمل بكل جد وجهد على شرف قدوم الإمبراطورة. فيا لك من عاشق لا يُكشف له سر يا إسماعيل!

القاهرة.. أول يناير 1869:

بعد حفل العام الجديد الذي امتد للصباح الباكر في فندق مينا هاوس، واجتمعت فيه جميع الجنسيات الأوربيَّة التي تقطن البلاد، وبعض من الطبقة الأرستقراطية المصرية. في الحقيقة لم أجد اختلافًا عما يدور هُنا عن أرقى حفلات باريس. فالطبقة الأرستقراطية تتفنن في أن تظهر بشكل أكثر عصرية وأوروبية. حتى إنني وجدت أن المرأة الشرقية التي تنتمي لتلك الأوساط تفوق الأوربية أناقة. انزويت في ركن بعيد، وأخذت أراقب المدعوين الذين أتوا مرتدين ثوب الفرح والسعادة. جميل أن ننصب لأنفسنا طرقًا للفرح، ونذهب إليها مهيئين أنفسنا باقتناصها. سيدات ارتدين الفساتين الأكثر أناقة من السواريه اللامع، ولففن حول أعناقهن مجوهراتهن الماسية.

ببريقها الذي يضوي. وجنتلمان في بذلاتهم السوداء، بياقات وأساور منشاة، وأزرار ذهبية ومناديل حريرية. ضحكات عالية، موسيقا، رقص، هتافات، تصفيق.. كؤوس الخمر الكريستالية لا تتوقف عن الدوران. شرائط الزينة بألوانها المُختلفة تتدلى من الأسقف. الكُل واضع على وجهه قناعًا واحدًا مُتشابهًا من سعادة مُزيفة. وأخيرًا، وفي أثناء هتافهم العالي، وقبلاتهم السريعة لحصر الثواني العشر الأخيرة المُتبقية ما بين عامين. نصبت لي تلك الدقائق الفاصلة كمائنها لأتسلى بمحاسبة نفسي. ماذا جنيت وماذا فقدت؟ ليصبح وقتها الزمن عروة تفك ببطء أزرار عام مضى ليخلع عنه قميصه، ويُلقي به أرضًا. ونحن نهتف فوق جثمانه لتلك اللحظات التي يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة. ترانا لماذا نحن هُنا الآن؟! ولماذا نحتفل بعام جديد؟! ذلك الاحتفال الذي هو بصيغة الافتراض. فلم نعرف عنه ما يكفي لنحتفي به، ولم يعرف عنا ما يكفي ليدخر لنا، ولم يعرف أيٌّ منا عن الآخر... لننتظر.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

39

مارس (1869):

أفلحت في تعلم اللغة العربية بسرعة رغم صعوبتها، وها أنا الآن بإمكاني أن أُكَوِّن جُملة مُفيدة، وأفهم الكثير من الكلمات. وكالأطفال التي تعلمت كلمة ما للتو تأخذ في تكرارها، وترديدها بشكلٍ لافتٍ؛ فكنت أتكلم العربية أكثر من تحدثي بالفرنسية حتى لا أنساها وأتعمق بها أكثر. وكانت جوهرة المسكينة هي التي وجدت فيها ممرنتي الأولى للكلام؛ فكنت أتحدث معها مُتلعثمة فتُصحح لي الكلمات. كانت جوهرة بمثابة اللغز لي، وكنت أملك الفضول لأعرف الكثير عن ماضيها، طفولتها، ومن جاء بها إلى هُنا؟.. وأخيرًا عرفت الكثير عنها في جَلسة بيننا امتدت لأكثر من ساعتين. في البدء سألتها:(كيف جئتِ إلى هنا؟) سؤال لم تسبق علامته الاستفهامية عدة أحرف، ولكن كانت كأنها تدخر الإجابة لسؤال مثل هذا.

- كنت أعيش في الحبشة على الساحل الشرقي لإفريقيا بعد التوسع الصناعي الذي قام به محمد علي. بعد حكمه للبلاد كثر الطلب على العبيد السود ليقوموا بالعمل. يعمل الذكور في مصانع البارود والحديد والبنادق، وفي أوقات كثيرة يضمهم للجندية، وعملت الإناث في مصانع النسيج والحياكة، ومستشفى الولادة. ومن يومها لم تتوقف المراكب التي تمتلئ بهؤلاء العبيد ذهابًا وإيابًا. ومع الوقت كان قد قل عددهم، ووصل لأدناه في عهد سعيد باشا. حتى إن المركب الكبيرة التي كانت ترسو في الميناء كل أول شهر لاصطحاب العبيد كان عدد العبيد بها يتراوح ما بين العشرة ولا يزيد على العشرين، بعدما كان لا موضع بها لقدم.. لذلك لجأ التجار لطرق أخرى للحصول على الفتيات والغِلمان السود الذين يرفض أهلهم بيعهم، وهي خطفهم، ووصلت الوحشية في أحيان كثيرة لصيدهم بالشباك تمامًا كالحيوانات؛ لذلك فضّل أبي بيعنا على صيدنا، على الأقل سيستفيد من الأموال التي سيحصل عليها.

- بيعكم! تقصدين أنتِ ومن؟

- أنا وثلاثة إخوة فتاتين وولد، أتذكر تمامًا لحظات الوداع بيننا وبين أهلي؛ فأمي عند علمها بذهابنا أصابها المرض، وأقعدها عن الحركة.. وفي ليلة قارسة البرودة تراصت أجساد نحيلة سمراء جنبًا إلى جنب على سطح السفينة. لا أدري كم مكثنا في البحر، فكنت حزينة لمفارقة أهلي بالقدر الذي منعني من حصر تعاقب الليل والنهار. كل ما أذكره أنه ذات صباح يملؤه الغيم كنا نُركَل بمُقدمة قدم غليظة في أجسادنا لنستيقظ، وصوت أجش يصيح بنا: (ها قد وصلنا). كنا نتشبث أنا وأخواتي بذيول أثوابنا كالأرانب المذعورة حتى لا نفارق بعض.

صمتت لبرهة، أشاحت بنظرها بعيدًا.. هُناك، عند ذلك اليوم الذي لم تنسه أبدًا:

-كان علينا أن نسير في قافلة بالصحراء الشاسعة لثلاثة أيام متواصلة، وراء ثلاثة من الجلابة قُساة القلوب. يحرسنا من الأمام جلاب على ظهر الجمل، ومن الخلف

جلابان. وفيما بينهم كانت أجساد نحيلة بوجوه سمراء وأرواح حزينة.

- ومن هم الجلابة؟

- الجلابة هم التجار الذين يشتغلون بتجارة العبيد السود، واليسرجية هم التجار الذين يشتغلون بتجارة العبيد البيض.

لاحظت الدموع التي تسللت على وجنتيها، فطلبت منها قائلة:

- جوهرة، إن كانت تلك القصة تستدرجك لذكريات أليمة فلست بحاجة لقصها عليّ.

واصلت حديثها كأنها لم تسمع شيئًا:

- أختي الصغيرة لم يتحمل جسدها النحيل الضعيف قسوة الصحراء، وقلة الماء، وبامتناعها عن الطعام خوفًا وحزنًا فارقت روحها جسدها الهزيل. ولم نجدها بجوارنا ونحن نسير. فقد سقطت بين أقدامنا، ولم ينتبه أحد لها إلا عندما صاحت فتاة من الصفوف الخلفية. وقتها انهلنا على وجوهنا باللطم أنا وإخوتي.. وحاول أخي أن يسعفها، ولكنها كانت قد أسلمت روحها البريئة، ورفض الجلابة الوقوف لدفنها بالثرى. وتعلل بأننا سنصل متأخرين على موعد افتتاح السوق وفرصة البيع ستقل. وبعدها بفترة قصيرة توقفت القافلة لأن ناقة مُتعبة، وكان الوقت ليلًا فاستسلم الجميع للنوم عدا أخي رجع أدراجه متسللًا في الخفاء ليدفن أختي حتى لا تأكلها الطيور الجارحة، ولكن كان قد خاب ظنه فقد سبقته الطيور وكان جسدها إحدى وجباتها الشهية. وما تبقى منه للحيوانات المُفترسة، فقط الأشلاء التي وجدها دفنها. كنت أنتظره أنا وأختي لنطمئن عليه. فكنا نكتم أنفاسنا خوفًا من ملاحظة أحد أننا لم ننعس بعد، ونحن نفتح عينًا ونغلق أخرى في انتظار صبي قادم من بعيد، حتى لاح شبحه قادمًا من بين حلكة الظلام. تسلل وسطنا ببطء، وقد أصابه الذهول مما رأى، وعقدت الفاجعة لسانه؛ فعجز بعدها عن النطق.. كان يمسك بيديه قطعة من قماش جلبابه الذي نزعها عنه، وبداخلها شيء ما ينزف بغزارة، فكّت أختي الكيس وأخرجت ما به.

بعد نفس حزين:

- وكان قلبها كل ما تبقى منها!

بماذا عليَّ أن أواسيها؟ وهل من كلمات كانت تفلح للمواساة! كنت أعلم أن وراء تلك النظرة الحزينة بعينيها، وتلك الابتسامة التي تُحاول أن تُخفي بها آلامها قصة ما، ولكن لم أكن أتخيل أن تكون بهذا القدر من الحُزن.

- لم يكن هُناك أسوأ من ذلك المشهد الذي رأيناه؛ لذلك غادرنا الخوف وتعمقت فينا تلك اللامبالاة بكل ما هو قادم ويخبئه القدر. حتى وصلنا إلى السوق الذي كان عند ضريح قايتباي عند مشارف القاهرة. كان عبارة عن ساحة كبيرة من الرقيق الأسود، أغلبها من الأطفال والفتيات. تحيط بنا مساكن قذرة لمن لم يبع حتى تتسنى له فرصة البيع لاحقًا. وعلى عكس العبيد الأبيض الذي كان تتوافر له كل سبل الراحة بدءًا من أكلات شهية، ومعاملة حسنة، ونوم هادئ، ومساكن نظيفة لأنه في

النهاية سيدر دخلًا مرتفعًا للتجار. أما نحن فكان نصيبنا الأسوأ دائمًا. والأعمال الأكثر تعبًا وإرهاقًا. وفي تلك السوق تفرقنا أنا وإخوتي لا أعرف مصيرهم حتى الآن؛ فقد كنت أنا أول من بيعت بعدما وقع اختيار تاجر للعطارة عليَّ لأساعد زوجته في تنقية القمح والحبوب وتخزينها في أجولة وعرضها بمحل العطارة لديه. يومها قام بشرائي أنا وغلام صغير يسبقني في العمر بعام أو اثنين، كان يشبه كثيرًا أخي الذي لا أعرف أي مصير كُتب له، خصوصًا بعدما فقد صوته، وخرس لسانه حزنًا على أختي. كثيرًا ما يأتيني في الأحلام وهو يمتطي فرسًا أبيض.

توقفتْ لالتقاط الأنفاس ثم أكملت:

- مكثت في ذلك البيت منذ قدومي للبلاد، في بعض الأحيان كانت السيدة زبيدة قاسية معي، ولكنها كانت عطوفة تُعاملني تمامًا مثلما تعامل أبناءها. كانت كلما رأتني أنضج وأكبر تبتسم قائلة:

- (أَتَذَكَّر عندما جلبك زوجي للبيت لأول مرة، وطرق الباب وكنت تختبئين في ذيل جلبابه كالسنجاب المذعور، لكن منذ أن رأيتك وقع حبك في قلبي).

- وكم سنة مكثتِ معهم؟

- حوالي خمسة عشر عامًا.

- يا ألله! إنه عُمر آخر، ولكن لماذا تخلوا عنكِ؟

- لا، لم يتخلوا عني؛ فقد مات السيد والسيدة، وتزوج الأبناء الواحد تلو الآخر، ورفضت زوجة الابن الصغير الذي يقيم في دار أبيه الآن عيشي معهم لأنها كثيرة الغيرة على زوجها. وفي أحد الأيام أمرتني بجمع أشيائي وأمتعتي لأنني مُغادرة. ارتجف جسدي وقتها وأصابتني الحمى، ورقدت في الفراش. فقد كانوا بمثابة أهلي وبيتي، وتملكني نفس الإحساس عندما غادرت وطني وأنا بعد طفلة. ولكن تلك الطفلة أصبحت الآن أكثر نضجًا فثرت واعترضت، وأخبرتهم أنه بيتي، وإن كان السيد والسيدة لازالا على قيد الحياة لم يكونا ليسمحا بذلك.

- ولكنك غادرتِ!

- نعم غادرت، بعدما أخبرني الابن أنني سأنتقل لبيت تسكنه سيدتان وسأحظى بمعاملة حسنة.

- وهل تخلوا عن الصبي أيضًا؟

لمعت عيناها ببريق أفهمه تمامًا، واتخذ صوتها نبرة أكثر حنانًا وردت:

- فرط الرمان.. نعم تخلوا عنه منذ زمن، كان فرط قويَّ الشخصية، مُشاغبًا، وكان لا يقبل إعطاء الأوامر له من السيدة وأبنائها الذكور؛ لذلك كان سريع الغضب، طويل اللسان، خاصة أن السيد كان قد استبدل اسمه من (جواد) وأطلق عليه فرط الرمان؛ لوجود شامة كبيرة تشبه فرط الرمان على جبينه. فكان كلما ناداه أحدهم بهذا الاسم يرفض أن يجيبه، وفي أحد الأيام قرر السيد بيعه في السوق لأحد التجار.

فقد كان قوي البنية ولم يبلغ بعد؛ فكان لازال هُناك فرصة كبيرة لبيعه. غادر يومها بعد أن وعدني أنه إذا كان في مصر سيزورني مؤكدًا أما إذا كان قد سافر للشام أو إسطنبول فسيحظى بشرف المحاولة. مر أكثر من عام على مغادرته، وتلك الطرقة الخاصة له بالمطرقة على الباب، لم أسمعها مُجددًا حتى عندما كان (غالي) الابن الأوسط يطرقها ممازحة معي. كنت أعلم أنها ليست له، فقد كان فرط قادرًا على طرقها بخفة وجمال.

كنت أريد أن أخبرها ليس لأنه يطرقها بخفة وجمال، ولكن لأنه لم يطرق بها إلا باب قلبك.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

40

يوم بعد آخر كنت قد تأكدت أن فرط الرمان غادر الأراضي ورحل بعيدًا، حتى في أحد الأيام كنت قد ذهبت لشراء الخضر من السوق، وكنت أسمع خُطى تتبعني، وتعكس الأرض أمامي ظلًّا ما لشخص طويل القامة يسير من خلفي، فأصابني الفزع. وكنت كلما أسرعت الخُطى تلاحقني الأقدام، وظل الشخص يزداد اقترابًا. وفجأة امتدت يد لكتفي، تلامسه، وينطق باسمي بصوتٍ كنت أحفظه تمامًا. صحت قائلة:

- (فرط)! معقول أنه أنت!

- نعم، أنا بشحمي ولحمي.

كنت ألاحقه بلهفة بالأسئلة:

- أين كنت؟ ومتى جئت؟ ولماذا لم تسأل عني كل هذا الوقت؟

- إنه موضوع يطول شرحه، هيا بنا نصل للحديقة على قمة الشارع ونتحدث.

- اسبقني إلى هُناك، وسوف أذهب بالخضار للسيدة وألحق بك.

- أما زلتِ تُقدمين فروض الولاء والطاعة كجارية مطيعة؟

- وأما زلت أنت عنيدًا وحاد الطباع؟ انظر، لولا عندك هذا لما كنا افترقنا يومًا.

شدني من ذراعي قائلًا:

- هيا بنا، ويمكنك أن تختلقي لها قصة ما.

وأمام عنده وشوقي لمعرفة مصيره رافقته، وسرت معه للحديقة على حافة الطريق. جلسنا معًا تحت شجرة ظليلة تتسرب أشعة الشمس من بين أغصانها المتكاثفة؛ فتبعث في أوصالنا الدفء والرغبة في الحكي. أخذ نفسًا عميقًا استعدادًا لحديث قد يطول، لم أكن أعلم أن هذا النفس العميق يخرج بكل ذلك الألم والحزن إلا عندما استهل الكلمات قائلًا:

- اشتراني أحد تجار العبيد الذي ساقني وراءه كالنعجة أنا وثلاثة آخرين إلى بيت كبير على أطراف المدينة كان لأحد أكبر تجار العبيد في الشرق، وبعد أن دخلنا إلى السرايا التي يسكن بها انتابني إحساس بالفزع والخوف.

في قبو السرايا المخصص لنوم الخدم والعبيد وتبديل ثيابهم انتظرنا، حتى حضر عبد كبير في السن ضخم البنية أسود كالليل يمتطي سيفه في جانب سترته، وأخذ يقلب فينا يسرة ويمنة حتى فتح أفواهَنا ليرى أسناننا.

ألم أخبرك أننا كنا كالنعاج التي يكشف عن أسنانها لمعرفة عمرها ومدى قسوة أو لين لحمها! وبعد أن تفحصنا هذا الرجل من شعرنا حتى أخمص القدم أوكل لآخر مهمة تعليمنا. فكنا نأخذ دروسًا في المُبارزة والقتال، وكيفية أن تكون عبدًا قويًّا

وشجاعًا، والأهم من ذلك مُطيعًا. كنا نرتدي أفخم الثياب، ونأكل أشهى الطعام، ولم تكن لنا صنعة سوى النوم واللعب وتعلم فنون القتال؛ حتى خيل لي أنني انتقلت للجنة مُقارنة بالحياة التي كنت أعيشها من قبل. وعندما كنا نسألهم عن البدء في ممارسة أعمالنا كعبيد كانت الإجابة (عند بدء الخريف).

ولم يسعنا وقتها أن نسأل ولماذا (الخريف) بالتحديد؟ فكان يجيب زميل لي:(رُبما سيوكلون إلينا جمع أشجار الورق المتساقطة). هذا الغبي، فهل كان لجمع أشجار الورق المتساقطة كل تلك الاستعدادات والتدريبات القتالية التي نتلقاها! ثُم جاء يوم خريفي شديد الرياح، استيقظنا على صوت العبد الأسود، وأمرنا بدون إبداء كلام أن نجمع بعض الأمتعة لنا للسفر لرحلة قصيرة لأسيوط. وبعد أن قطعنا الأميال في عربتين تجرهما الخيول جمع فيهما نحو خمسة عشر صبيًّا من نفس العمر تقريبًا. كنا نضحك ونتمازح ونحن نجهل أي مصير ينتظرنا. البعض كان يقول:(إنهم سيذبحوننا كما تذبح النعاج خاصة بعد أن قاموا بتسميننا بكل ما لذ وطاب)، والبعض الآخر يقول: (إننا سنسكن في أحد قصور الأثرياء ممن لا تثير شهوته المريضة سوى صغار الغلمان). وكنا نضحك بصوتٍ عالٍ، استيقظنا ذلك اليوم على صوت حوافر الخيل وعجلات العربة وهي تسير بصعوبة وتهتز بنا في طريق طويل ممتلئ بالحصى والرمال، وتحده من الجانبين الأشجار الكثيفة. كنا على مشارف قرية صغيرة علقت عليها يافطة (زاوية الدير) تقع على هضبة عالية بها دير قديم. هادئة لا تسمعين بها سوى صفير الريح، وأصوات ضرب الطيور بأجنحتها في الهواء ونعيقها. ولا ترين سوى القساوسة بملابسهم السوداء، وبذقونهم الطويلة والصلبان تتدلى على الصدور. انتابتني قشعريرة في أوصالي، شعرت معها برهبة وفزع أنا وباقي الصبية، حتى إننا بعد ما كنا نملأ الحياة بالضحك والنكات إذا بنا وقد انتابنا الخرس واصفرت وجوهنا. وفي مبنى من دور واحد بباب خشبيٍّ كبير وفناء واسع من الرمال أمرونا بالدخول في غُرفة كبيرة وضع بها عدد من الأسرة جنبًا إلى جنب تفوح منها روائح طبية غريبة، ثُم وضعوا لنا غذاءً شهيًّا، وعند حلول المغرب أمرونا بالنوم. وبعدها بعدة ساعات دخل الغرفة عدة رجال من القساوسة يحملون بأيديهم قناديل من الزيت ليضيء المكان بنور خافت.

واصطحبوا غلامًا خارج الغرفة، وبعدها بأقل من ساعة دخلوا ليصطحبوا غلامًا آخر، وهكذا إلى أن جاء الدور عليَّ.. تبعت الرجل في الممر الطويل المؤدي لغرفة بها سرير، وبجانبها طبق به أدوات طبية وزيوت ومراهم، وأمرني بالنوم بعد خلع ملابسي على الفراش المخضب بالدماء. وقتها ارتجف جسدي خوفًا وتلعثمت قائلًا:

- ولكن سيدي ما الذي يجري هُنا؟ وما هذه الدماء؟! هل حقًّا ستقومون بذبحنا؟

ابتسم الرجل، ورَبَّت على شعري قائلًا:

- إنها عملية بسيطة لتصبح بعدها أكثر طهارة، فقط استلقِ على الفراش، وأغلق عينيك جيدًا واهدأ.

كانت تقف سيدة بجانب القسيس بملابس سوداء وحجاب للرأس من الأبيض، ويتدلى من صدرها الصليب الخشبي الكبير، تقوم بمساعدته. عندما وجدتني أبكي وضعت

يدها على رأسي، وقرأت بعضًا من الإنجيل باللاتينية القديمة. ليتملكني بعض من الهدوء وقتها. ثُم أمرتني بأن أفرج ساقي على المتسع، وقامت بربط كلٍّ منهما على حدة في عامود خشبي متصل بالفراش. وكذلك فعلت مع يدي، وبهذا الوضع الذي قيدوني به كان يصعب معه التحرك حتى وأنا أشعر بحدة الموسى وهو يستأصل عضوي الذكري، وهو يقتطع رجولتي، وهو يجعلني عاجزًا مُحطمًا لأصبح أغا.

لا أعرف بأي من النعوت البذيئة كنت أنعت هذا الرجل، وهذه الحياة وذلك القدر، حتى فقدت الوعي تمامًا من شدة النزف وحدة الألم وهم يسكبون زيتًا مغليًّا على الجرح. أفقت بعدها لأجد نفسي في حفرة مدفونًا بها حتى بطني. أنظر بجواري لأجد الفناء وقد امتلأ على آخره برءوس الغلمان، وقد دفنت أجسادهم في الرمال. تلك الأجساد التي أصبحت مبتورة الذكورة، مطأطئي الرءوس، ونخجل حتى أن تتشابك نظراتنا. بقينا على هذا الوضع لمدة أربعة وعشرين ساعة كاملة، وضعوا لنا الطعام على مقربة من الحفرة، وأمرونا بأن نأكل حتى نعوض الدماء التي سالت منا، ولكن أي شهية كانت وقتها! فلم تكن لنا شهية مفتوحة سوى على الموت. بعد أن أخرجونا من الحفرة، وجدنا أنبوبة طويلة موصولة بالفتحة الباقية من القناة البولية، ثُم رشت بمسحوق الحناء وزعوا علينا برطمانًا ممتلئًا من الزيت والطمي، وأمرونا بدهن الجرح ثلاث مرات يوميًّا. أتذكر عند نقلي للحجرة لم أقوَ على القيام، وسرت بمساندة بعض الرهبان.. في مساء ذلك اليوم اجتاحتني الحمى، وغبت عن الوعي لعدة أيام لا أنا بالحي ولا بالميت حتى أفقت في أحد الأيام الخريفية الباردة لأجد أمامي رجلًا مسنًّا يكسو شعره البياض، وفي عينيه نظرة دافئة، وبجوار الفراش منضدة وضع عليها أدوات طبية، وزيوت وأعشاب. نظر لي الرجل مُستغربًا ثم قال:

ها أنت أفقت أخيرًا!

ولوهلة تذكرت ما حدث لي، وصحت قائلًا:

ليتني لم أفق، ليتني لم أفق.

ثم أخذت أرتجف بشدة، وتملكتني حالة من البكاء.

وهل الرجال يبكون؟!

لم أعد رجلًا الآن، بعد أن خصوني هؤلاء الأوغاد.

الرجولة شيم وصفات لا تُحصى أبدًا، أتعلم أن هُناك عبيدًا يتمنون تلك العملية حتى يصبحوا أغوات في بيوت الأمراء والملوك، وبهذه الطريقة يحصلون على مكانة وثراء من الصعب أن يحصلوا عليها في حالة إن كانوا من عامة العبيد؟

أي مكانة وأي ثراء! وبماذا يفيدان وقتها إذا كانت كل أهميتي تتلخص في أن أحكم غلق الأبواب على النسوة، وعلى شهوات الرجال!

دخل الرجل في تفكير عميق:

انظر.. حالتك كانت سيئة للغاية كما قال الطبيب، لقد كنت في عداد الأموات، وإن لم تكن أفقت اليوم كنا سنقوم بدفنك، بإمكاني أن أعلن في الصباح أنك مت وقمت بدفنك ليلًا. ولكن عدني أنك لا تظهر مرة أخرى في الجوار.

وقتها فقط شعرت بأن الحياة قد عادت مُجددًا في أوصالي، حاولت أن أقفز من الفراش ولكن ضعفي وهزالي منعاني.. سأكون حرًّا أخيرًا.

ولكن أنت لا تقوى أن تقوم من الفراش. انتظر، سأعد لك غذاءًا من مسحوق الحلبة والسمن والعسل الأسود سوف يمنحك القوة والطاقة.

انتصب الرجل واقفًا. فلاحظت أنه فقد إحدى ساقيه، ويتكئ على عكازه الخشبيِّ، وبحركة بطيئة كان قد غادر المكان، واختفى لعدة دقائق. ثُم جاء مُجددًا يحمل بيده وعاءً كبيرًا تنبعث منه رائحة شهية، وبعض أرغفة من الخبز. لم أكن أملك شهية للأكل، ولكن رائحة الطعام كانت أشهى من أن أقاومها، ورغبتي في شحن طاقتي جعلتني ألتهم الطعام التهامًا. كان الرجل يراقبني وأنا آكل بتلك العجلة. فتلاقت نظراتنا وشعرت ببعض من الخجل زال سريعًا عندما ابتسم في وجهي ابتسامة هادئة. سألت الرجل:

ما اسمك؟ وماذا تفعل هنا؟

أنا أعمل في الدير، أما اسمي فلا أعتقد أنه سيفيدك في شيء.

شعرت من رده المقتضب أنه لا يريد الخوض في نقاش...

بمساعدتك هذه يمكنني أن أفقد عملي إن لم تحرص على ألا تُخبر أحدًا.

أعدك بذلك عمي.

انتهيت من طعامي، وغاب الرجل ثُم عاد سريعًا يحمل بيديه آنية من الفخار مملوءة باللبن، وطلب مني أن أشربه.

إنه لبن الناقة، اشربه سيمدك بالقوة سريعًا.

أحكمت ربط صرة ملابسي، وودعت الرجل الذي شد على يدي وهو ينصحني:

سوف تقوم بالفرار من البوابة الخلفية، ومنها تعبر الشارع للاتجاه الآخر ستكون في الحقول, هناك حيث الأراضي الزراعية. بإمكانك أن تحصل على عمل هُناك، احرص على تدفئة نفسك، يمكنك ارتداء سروالين أو أكثر من الصوف حتى لا تتعرض للحمى مرة أخرى.

وغادرت في الاتجاه الآخر للحياة، مُكبلًا بمأساتي. ومن طريق لطريق، ومن قرية لقرية، ومن قدر لآخر. كانت عيناكِ دومًا تطلان عليَّ، وابتسامتك البيضاء تزيل حلكة الليل الطويل.

ثم بعد أن قص عليَّ مأساته غادرني كما جاء على وعد بلقاء قريب.

اقتربت خطوات كارلا الحادة العصبية، وتمتمت قائلة:

ها أنتِ تعلمتِ اللغة العربية إذن؟

- نعم.

وهل تعلمتِ العربية لتشغلي بالك بحديث جوهرة؟

- مؤكد لا, تعلمت العربية حتى أنخرط في ذلك البلد، والآن وقد أخبرتني جوهرة عن قصة أشهر رجل يشغل لوحات الحريم التي يتفنن في رسمها الفنانون من كل حدب وصوب. إنه ذلك العبد الأسود الذي دومًا يكون كأحد مكملات اللوحة بتلك النظرة المنكسرة التي ترفض المواجهة خوفًا من أن تشي عيناه بسره. الآن بإمكاني رسمه بشكل آخر ومُختلف تمامًا.

هزت رأسها غير مقتنعة بكلامي، فلم تكن مولعة سوى بالتاريخ القديم للبلاد. أما عاداته وتقاليده فتشعر تجاهها بالازدراء. مثل كثير من الفنانين الذين لم يفدوا للبلاد سوى لرسم مجموعة من اللوحات يتباهى بها أحدهم أمام جمهوره وأصدقائه. لاحظت كارلا أنني دخلت في تفكير عميق فنظرت لي قائلة:

-دعاني مسيو ماريبت لحضور فك غطاء إحدى المومياوات التي عثروا عليها. تخيلي! سوف نقوم بفك تلك الأربطة والأقمشة من على جسد أنثى كفنت فيه منذ آلاف السنين!

متى؟ وأين؟

اليوم في الخامسة مساءً، في متحف المصريات القديم ببولاق [44]. يمكنك أن تأتي معي.

لا شكرًا، لا أملك الوقت؛ فحديقة الأزبكية على وشك الافتتاح، وهُناك بعض الأشياء عليَّ أن أنهيها في كشك الموسيقا والمسرح الملحقين بها.

حسنًا إلى اللقاء، أراك لاحقًا.

في التاسعة من مساء ذلك اليوم كنت أجلس لأرسم. بينما سمعت صفعة الباب وخطوات كارلا مُسرعة على غير عادتها. طرقت عليَّ باب غرفتي، ودخلت يملؤها الاندهاش:

- حقًّا شيء لا يُصدق! ليتك كنت حضرت؛ فالجلسة كان بها علماء وأطباء وفنانون، لقد فاتك حدث مُذهل.

لم تمهلني فرصة للرد، فتابعت حديثها قائلة:

- في حجرة شبه مظلمة إلا من مصباح للزيت، وضعت المومياء على منضدة بالعرض، ومن حولها وقف مسيو ماريبت هو وعدد من تلاميذه، وبدءوا في فك الأقمشة الملفوف بها الجسد المُتصلب منذ آلاف السنوات، كان لسيدة عاشت منذ أربعة آلاف سنة مضت، مر الوقت ببطء وسط أنفاس محبوسة وعيون مترقبة. كانت أيديهم حريصة على الجسد تخلع عنه القماش بحرص شديد في حركة دائرية. لوهلة من الزمن شعرت أنها لن تنتهي أبدًا؛ فكان يبدو على القماش أنه يتجدد إلى ما

لا نهاية. وأخيرًا تملكنا الرعب عندما ارتطمت ساقها بالطاولة فأصدرت صوتًا كما لو أنه خشب. ثُم ظهر جسد تلك السيدة التي وكأنها تأخذ غفوة بعد الظهيرة، ولم ترحل عن الحياة منذ آلاف السنوات! كان مسيو مارييت يتفحصها ببطء وعناية، اكتشف وجود زهرة تنبعث منها رائحة عطرية غريبة لم أشمها من قبل لنبات الكافور. كانت تضعها تحت كل ذراعٍ، وفجأة ظهر وميضٌ تحت ذقنها، فأزاحوا آثار التحنيط ليجدوا عقدًا ذهبيًّا منقوشًا على شكل صقر. ثُم وبدون رحمة انهالت المقصات والسكاكين على هذا الجسد حتى يكتشفوا الصدر. وأخيرًا انتزعوا آخر شريط عن الوجه لتظهر تلك الابتسامة الرقيقة التي رسمتها على وجهها وعينيها، كما لو أنها على قيد الحياة.. أثارت فيَّ بعضًا من الفزع؛ بدا الأنف أفطس ومسدودًا بالتحنيط. كانت المرأة مُممددة على الطاولة ذليلة ومكشوفة للأعين التي كانت تتفحصها. فلو علمت تلك السيدة أنها بعد موتها بكل تلك السنوات سوف يحدث لها ذلك، فكيف سيكون رد فعلها!

كانت كارلا تتحدث بسرعة على غير عادتها، وجهها اكتسى بحمرة، وكانت تبلل شفتيها الجافتين من وقت لآخر، وهي تسعل سعالًا خفيفًا آخذًا في التزايد.

من الواضح أنني أصبت بالبرد، أشعر برجفة غريبة تسري في أوصالي وسخونة. سأخلد للنوم الآن.. فغدًا ينتظرني يوم عمل طويل، تصبحين على خير.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

41

في صباح اليوم التالي استيقظت على ربت جوهرة على كتفي، وهي تخبرني أنها سمعت كارلا تهذي بكلام غريب. وعندما دخلت لتراها وجدتها وقد احمر وجهها وارتفعت درجة حرارتها. قمت مُسرعة، دخلت الغرفة لأتأكد من كلامها، وطلبت منها أن تذهب لتأتي بعربة حتى ننقل كارلا للمستشفى، وبصحبة سائس العربة وجوهرة قمنا بحمل كارلا للعربة. كانت المسكينة في حالة يُرثى لها؛ محمومة تهذي بكلمات غير مفهومة، وأمام إسبتالية قصر العيني [45] تركنا السايس بعد أن قام شخصان من العاملين بالإسبتالية بنقل كارلا لعنبر داخليّ. وحضر الطبيب على الفور. كان رجلًا مصريًّا بملامح سمحة. سألني: ما الذي حدث لها تحديدًا لتصل لتلك الحالة؟ حتى أنا لا أعرف ما الذي حدث لها، فقد كانت في أوج صحتها وعافيتها عندما ذهبت! أبلغني الطبيب أن حالتها متدهورة رُبما قد أصيبت بعدوى ما. ثُم طلب منا الانتظار بالردهة. وعلى الفور جمع عددًا لا بأس به من الأطباء كان منهم المصريّ والأجنبيّ يتشاورون في حالة كارلا. كان قلقهم زائدًا على الحد خشية أن تكون هذه حالة لعدوى مرض الكوليرا، أو الطاعون؛ فقد كان هذان المرضان أكبر مأساة لذلك البلد. لذلك أمروا بنقل كارلا لغرفة خاصة، ومنعوا عنها الزيارة. غادرت أنا وجوهرة بعدما أصابنا اليأس. وفي الصباح التالي علمت أن القنصلية الفرنسية كلفت طبيبًا فرنسيًّا شهيرًا للكشف الطبي عليها.

القاهرة.. مايو (1869):

بعد أسبوع غادرت كارلا الحياة بعدما عجز الطب عن اكتشاف إصابتها. أقمنا مراسم الدفن والعزاء بالمقابر الكاثوليكية، وسريعًا كان قد ردم الصندوق تحت الثرى، ووضع شاهد القبر يحمل اسمها وتاريخ ميلادها ووفاتها.

تُرى ما أهمية ذلك؟! من الذي سوف يقوم بزيارة مقبرتها ذات يوم أو يستوقفه اسمها؟ وهي التي جاءت من بلاد بعيدة لتموت هُنا، وتُدفن وسط أناس لم تسمع عنهم، أو حتى التقتهم من قبل. في المساء، أقامت السفارة حفل تأبين لكارلا يليق بموهبتها، وبما صنعته هُنا في تجميل القاهرة من مبانٍ وقصور. ضم أعضاء البعثة ومجموعة من فنانين وأدباء تصادف وجودهم في البلاد وقتها، بالإضافة طبعًا لمارييت بك الذي كان يقف في زاوية بمفرده. ذهبت إليه وعرفته بنفسي قائلة:

- نتاليا جونسن، فنانة تشكيلية وزميلة كارلا في العمل والسكن.

رد بصوتٍ هادئ:

أهلًا وسهلًا، مسكينة كارلا.. إنها خسارة كبيرة للفن الفرنسي.

مسيو مارييت: كانت كارلا مُولعة بالفن المصريّ القديم. وقد حضرت قبل مرضها بساعات قليلة مراسم فك قماش مومياء، وعادت من المراسم ممتلئة بالدهشة والرهبة حتى أنها تخلت عن صمتها المطبق، وأخذت في سرد وقائع الحدث وهي متّقدة بالحماس.

لم يغادره هدوؤه قائلًا:

نعم، كانت مولعة به.. كانت لا تتوقف عن طرح الأسئلة، لا تنسي أنها نحاتة، والمصريون القدماء رواد هذا الفن.

وماذا عن لعنة الفراعنة؟

ردد ذاهلًا:

- لعنة الفراعنة!

نعم، كارلا لم تكن تشكو من أي مرض، وكانت بحالة صحية جيدة. إلى أن حضرت تلك المراسم الخاصة بفك قماش المومياء، الذي التحفت به من آلاف السنوات. ثُم أصابتها تلك الحمى الشديدة بعدها بساعات قليلة. وقد فشل الأطباء في تشخيص حالتها، وفسروا هذا المرض الغامض بأنه عدوى ما.

كانت عيناه ضيقتين، حادتي الذكاء، يضع عليهما نظارة طبية، وملامحه جامدة، لا تستطيع أن تستشف تحت أي حالة مزاجية يقع.

لا يوجد شيء اسمه لعنة الفراعنة، إنها مُجرد خرافة. ولكن تلك الأجساد المُحنطة منذ آلاف السنوات بمواد خاصة مجهولة، رُبما تُنشر بعض منها في الجو فور فتحها، وتؤثر بشكلٍ أو بآخر على من مناعتهم قليلة، ورُبما كانت كارلا من هؤلاء.

هكذا إذن رحلت كارلا، بعد إصابتها بعدوى فطرية سامة، من أكثر الأشياء التي شاهدتها وأعجبت بها وبحياتها المملوءة بالإثارة والغموض.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

42

القاهرة.. سبتمبر (1901):

وضعت نوال الأوراق جانبًا، وهي مأخوذة بما تقرؤه. تلك الأوراق التي كانت تحيا على قيد قراءتها؛ إنها تمامًا كشرفة أحد الجيران ترك بابها مواربًا لتملأك الرغبة في أن تتلصص عما يدور بداخلها. دهشتها بتلك الكلمات جعلتها تخبر حسن بفعلتها تلك متحدية اللوم والعتاب بذلك الكنز الذي عثرت عليه. كانت تُريد أن يُشاركها أحد في اكتشافها. تلقت وابل كلمات حسن العنيفة بصدر رحب، ويومًا بعد آخر عندما تجمعهما مائدة العشاء كانت تقص عليه أحداثًا جديدة. حسن هو نفسه الذي لامها على فعلتها تلك، الآن اقتنع بأن ذلك الاكتشاف المُذهل أثمن بكثير من وجوده مُهملًا في صندوق قديم. هو أيضًا أصبح أكثر تشويقًا لمعرفة الأحداث الجديدة التي مرت بحياة تلك المرأة. لذلك أصبح هو الذي يبادرها بالسؤال دومًا ويلح عليها:

ما الجديد؟ ماذا فعلت نتاليا؟ أين ذهبت؟ بمن التقت؟

وبعد أن تخمد نار فضوله يدخلان معًا في مناقشة تلك الأحداث. في إحدى المرات صارحته قائلة:

أتساءل لماذا كانت تكتب؟ هل لتخليد الأشياء؟ أم للقبض على اللحظة لقراءتها في زمن آخر؟.. صفحة بعد أخرى، ونصًّا بعد آخر. أصبحت واقعة تحت سطوة تلك الأحداث والشخوص، أتصفحها كما لو كنت أتصفح رواية لأحد الأدباء. أصبحت كلماتها تقودني لسحر الحكايات، ودهاليز العواطف، ودهشة اللقاءات وكمائن المواعيد. كنت أنتظر حتى تخرج للعمل وأصنع لنفسي كوبًا من القهوة، وأخرج الأوراق من مُجلدها البني. وقتها فقط كنت أشعر أنني أنتقل إلى عالم آخر، في زمن آخر. دارت معظم أحداثه في ذلك المنزل الذي أشغله الآن. وكُتبت تلك الأوراق في الغرفة المجاورة. أذهب لقراءة تلك الأوراق بتلك اللهفة التي تذهب بها النساء للتسوق، وذلك الفرح الذي يذهب به الأطفال للملاهي، والمتعة ذاتها التي يذهب بها الرجال للنساء. تُرى كيف كانت تلك المرأة ترانا؟ وما هو إحساسها بنا؟ كنت أتمنى لو كانت هُنا، وأصطحبها في تجولها في البلاد. أنا بنت البلد فاجأتني هي بإحساسها عن بلادي. قادتني على الورق لأماكن لم أزرها، أو حتى أفكر في زيارتها. بفضلها أصبحت كسائحة في رحلة سياحية تملك في يدها جدولًا لزيارة معامل المدينة الأثرية والترفيهية. وجدتني أرتدي ملابسي، وأنزل أخطو على ذات الدروب التي داستها ذات يوم، وأزور أماكن كانت قد زارتها. زرت الحمامات الشعبية، والكنائس، زرت المساجد، والمتنزهات. تجولت في الأسواق، وارتشفت قهوتي في المقاهي والفنادق. وأسأل نفسي: تُرى أهو الإحساس نفسه الذي كان يتملكها وقتها كان يتملكني؟ لا أعتقد ذلك؛ فهي كانت تخطو على الدروب بخُطى غريبة عنها. تتابع كل شيء بإحساس المغادر بلا رجعة، وتتأملها بعيون فنان.

كان حسن ينصت إليها فى اهتمام وأخيرًا قال:

- تحدثتِ عن الأماكن، ولم تتحدثي عن الأشخاص. انظري تلك الفتاة السمراء جوهرة، وقصتها مع حبيبها فرط الرمان الذي قصته في حد ذاتها مأساة، وفاطيما وعطف وسخاء الأمهات الذي تمتلكه.

- تُرى، هل فاطيما أعجبت يومًا بليون؟ أم هو شعور بغيرة نسائية اجتاح نتاليا؟

-ولِمَ لا؟ رُبما يكون أعجبها؛ فهو فنان ووسيم. ولكن متى تنوين أن تُنهي تلك الأحداث؟ فأنا في شوق لأعرف النهاية.

أنا أبطئ القراءة، وأحيانًا أعيد قراءة الأوراق مرة ومرتين لا أريد أن أنتهي منها أبدًا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

43

القاهرة.. مايو (1869):

تسلمت دعوة لحضور حفل افتتاح حديقة الأزبكية [46]، تلك الأرض الفسيحة التي حوَّلها الخديو لمتسع من حدائق على مساحة عشرين فدانًا. تحدها الأسوار العالية من الحديد المشغول، وصممها مسيو ديشان المهندس الفرنسي مؤسس غابة بولينا. ارتديت أحد فساتين السهرة التي كنت جلبتها معي من فرنسا، وكان، عن حق، أجملهما. كان من قماش التفتا الأزرق بلون السماء، ضيق الكورساج، ومنفوشًا من أسفل، ويحد خصره حزام عريض وردي اللون، ولبست معه حذاء من الساتان؛ فكنت أبدو كما لو أنني سندريلا. وضعت قبعة تليق بالمناسبة، وأحكمت شد القفازات، وحييت جوهرة وذهبت. كانت العربة الكوبية التي تجرها الخيول تنتظرني تحت المسكن وبها أحمد الترجمان، والذي بدأ احتياجي له يقل بعدما تعلمت اللغة العربية. وفي النهاية كان الفضل يعود له.. سطعت الأنوار من بعيد، وتراصت كثير من العربات الملكية الفاخرة أمام البوابة الحديدية للحديقة في انتظار المرور. الحراس يتحققون من الدعاوى، ثُم يسمحون للعربات بالدخول.. فُرشت الأرضية بالحصى والرمال، ونُثِرت الورود. نسمة هواء ربيعية مُحملة بعبير الزهور التي تمتلئ بها الحديقة. ممرات تقود لميادين، وميادين تقودك لشوارع طويلة تفتح على بحيرات تمتلئ بالبجع والبط. فوقها ممشى من جسور خشبية. شجرتا الزيزفون والبنيان العملاقتان تمتد غصونهما، وتتدلى لتفترش الأرض. الأشجار والزهور نُسقت بشكلٍ بديعٍ، ورُصت المقاعد الخشبية بكثرة، وعُلِّقت المصابيح.

وصلنا إلى مقر الاحتفال، نصبت بالمنتصف منصة للخديو وحاشيته، ومنصة بجهة اليمين لأعضاء البعثة الفرنسية، ومنصة جهة اليسار لكبار الشخصيات.

توقفت بي العربة على مقربة من المنصة، ترجلت منها وسرت مسافة لأصل إلى هناك. كنت أتمنى لو قام السائق بتوصيلي إلى مقعدي مباشرة إن أمكنه ذلك؛ فقد كان الحذاء عالي الكعب بشكل مُبالغ فيه، ومصنوعًا من الساتان الناعم، وقدماي تتزلقان بداخله. صافحت أعضاء البعثة، وجلست على المقعد المُخصص لي. ربكة وجلبة في المكان؛ فالخديو قد وصل، الحديقة ممتلئة بالعساكر للتشريفة الخديوية ولتأمين الحفل. تفقد الخديو الحديقة من عربته الملكية الفاخرة، وتبعه الوزراء وبعض السفراء في عرباتهم الخاصة. بعد أن أكمل جولته توقفت عربته أمام المنصة الخاصة به. كان يرتدي حلته الرسمية المزينة بالنياشين والأوسمة، بهيًّا وقورًا كما رأيت صوره في الجرائد، في منتصف العمر تقريبًا، متوسط الطول وممتلئ القوام، بشرته بيضاء مشربة بالحمرة. عندما جاء دوري لمصافحته وتعريفي بنفسي ابتسم ابتسامة هادئة، ولاحظت حسن محياه بحاجبيه السوداوين الكثيفين، وعيون حادة الذكاء. بعد ذلك ذهبت لأجلس في مقعدي لأكتشف أن المقعد المجاور لي لا يزال خاليًا، وفكرت أي عضو في البعثة يغيب عن مناسبة مهمة

كتلك؟! انشغلت بالكلمة التي ألقاها الخديو، ثم مسيو ديشان مُصمم الحديقة، ثم علي مبارك باشا وزير الأشغال. وبعدها بدأت الأوركسترا الموسيقية تقوم بعزف إحدى مقطوعاتها في الخلاء بين عبيرِ الأزهار وتمايل الأغصان. ورائحة الشواء اللذيذة تفوح في الهواء من المأدبة التي أُعِدت للمدعوين. استغربت أن الحفل قارب الانتهاء ولا يزال المقعد فارغًا من صاحبه؛ فألقيت نظرة على اللوحة المعدنية التي كتب فيها اسم المدعو أمام مقعده مباشرة وتصيبني القشعريرة بعدها، إنه المقعد المخصص للنحاتة (كارلا لوتريك)، وأنا التي كنت أنتظر قدوم أحدهم فإذا بي كنت في انتظارها هي! هي التي ذهبت بلا رجعة، ولكن كيف يقع خطأ بمثل هذا السوء! كارلا التي جاءت يومًا لبلد غير بلدها لهثًا وراء حضارة قامت هُنا منذ آلاف السنوات، فإذا بها تلقى حتفها غدرًا منها. قلبت اللوحة على وجهها قائلة:

عذرًا فكارلا ترقد الآن في أحد المقابر، وفوقها شاهد رخامي كتب عليه اسمها (كارلا لوتريك 1835-1869)، وأتساءل من بإمكانه أن يستوقفه اسمها يومًا ليدعو لها بالرحمة والمغفرة.

افتتحت المأدبة التي تضم أشهى وألذ الأصناف، ولكن ذكرى كارلا كانت قد قضت على شهيتي. ففكرت في أن أتجول في الحديقة. قادتني قدماي لممر يُفتح على ميدان فسيح، تتناثر حوله المقاعد الخشبية. جلست لأرتاح، ثُم حاولت أن أواصل طريق الرجوع فضللته، وأرهقتني قدماي. حتى أنني لم أستطع أن أمشي خطوة أخرى. فقمت بخلع حذائي واستكملت السير حافية. لا أعرف في أي الطرق أسير، ولم ألمح أحدًا لأسأله عن الاتجاه الصحيح، ولكن كنت أعلم أنني قد ابتعدت بقدر كبير حتى أن الجلبة والأضواء أصبحت وكأنها من زمن آخر. ارتبكت، وتملكني الخوف. خاصة أن الجو به بعض اللسعات الخفيفة الباردة، والطيور أخذت تصيح بأصوات مُخيفة، ومن الواضح أن من ربكتي سقطت مني فردة حذائي دون أن أدري أو أنتبه.

يا الله، ماذا أفعل الآن! لا يمكنني الرجوع لأبحث عنها لأنني لا أعرف تحديدًا أين سقطت، أو حتى أين أنا؟ وكيف بإمكاني الذهاب الآن؟!

كنت أريد أن أبكي، ثُم رميت نفسي على مقعد خشبيٍّ أفكر.

ماذا لو تحدث مُعجزة الآن، ويظهر أمير على فرسه يخرج من الغابة المسحورة وقد عثر على حذائي! ولكن زمن المعجزات قد زال، ولست أنا بسندريلا، وليس هناك أمير وخيول بيضاء للحب.

استسلمت لمصيري، وجلست مُنكمشة في مقعدي أنظر إلى السماء، وأتسلى بلعبتي، إذا ظهر القمر مُجددًا من خلف تلك الغيمة التي حجبته فسيأتي أحدهم لإنقاذي. وأخذت أراقب السماء بعيون راجية مُلحة. عندما سمعت حوافر الخيل وهي تطرق الأرض، ثُم خرج جواد أسود جميل من بين غصون الأشجار. اقترب أكثر فظهر رجلٌ على ظهره، يرتدي الملابس العسكرية. وقف أمامي مباشرةً ونزل من فوق جواده وسألني:

لماذا أنت هنا؟

كان في لهجته نوع من الاستجواب، ولم أكن أملك القدرة على مجابهته لذلك أجبته على الفور:

أنا إحدى المدعوات في الحفل، وكنت قد فكرت في جولة سريعة فإذا بي أضل طريقي.

فجأة ظهر القمر من خلف غلالة من السحاب فأضاء المكان. وكنت بسهولة أستطيع أن ألتقط ملامحه، كان في وجهه شيء ما، وأيقنت أنني قد رأيت تلك العينين من قبل. كنت من هذا النوع الذي يصعب عليه أن ينسى وجهًا التقاه. وكيف هذا وأنا رسامة الوجوه المحترفة! وفي غضون لحظات ترجمت اللقطات البصرية في العقل، وفتحت دهاليز الذاكرة عن لقائي به منذ عدة أشهر في فندق شبرد. نعم، كانت تلك العين الساحرة التي قمت برسمها أيضًا مساء ذلك اليوم. كل ما تمنيته وقتها ألا ينتبه إلى أنني أضعت حذائي، لكن أملي كان قد خاب عندما وجدته يخرج حذائي من جيبه، وينحني على إحدى ساقيه وبدون حتى أن يسألني هل هذا الحذاء يخصني أم لا، وجدته يرفع قدمي، ويقوم بوضعه فيها. شعرت بأنامله تلمس بشرتي فباغتتني رعشة ما.

ها هي المُعجزة قد تحققت، وتحولت في دقائق قليلة لسندريلا. حسنًا أيتها الفتيات المنتظرات أمير أحلامكن، لا تيأسن. يحدث أحيانًا أن تتحقق المعجزات، ورُبما تلتقين بأمير شرقيٍّ وسيم ينحني أمامكن ليضع في أقدامكن الحافية حذاء السندريلا.

لقد كان الحذاء عالي الكعب كما ترى. وفاتني أن أنتبه إلى أن ذلك سيحرمني من السير بحرية، لذلك خلعته.

لشدة ارتباكي نطقتها بالفرنسية:

أتفهم أنك خلعته، ولكن أن تلقيه جانبًا فهذا أمر يصعب فهمه!

لفرط دهشتي أنه جاوبني بالفرنسية، وجدتني بدلًا من أجيب سؤاله أطرح عليه سؤالًا:

وهل تتحدث الفرنسية؟

كما ترين، أنا ضابط بالجيش، والقادة عندنا من الفرنسيين. وهُناك مواد تُشرح وتُدَرَّس بالفرنسية. فمن الطبيعي أن أتقنها.

ولكن هل أنت من العائلة الخديوية أم ماذا؟

أنا فنانة تشكيلية، إحدى عضوات البعثة الفنية الفرنسية لتجميل وبناء القاهرة الجديدة.

هز رأسه، ثُم جاء ليجلس بجانبي بعدما وضع مساحة من الحياء بيننا. رائحة مسك وخشب عنبر تتسلل منه:

وكيف هي إقامتك في القاهرة؟

- مُمتعة.

وماذا جملتِ في مدينتنا؟

كان في سؤاله نبرة الاستخفاف...

ساعدت في النقوش والتصميمات الداخلية والخارجية على بعض المباني والقصور، منها قصر الجزيرة، ومبنى الأوبرا الخديوية. وقمت ببعض الأعمال هُنا أيضًا.

هز رأسه قائلًا:

عظيم، عظيم.

فجأة قام من مقعده، وبلهجة آمرة قال:

- هيا فقد تأخر الوقت.

- وهل يبعد الطريق؟

- نعم كثيرًا.

لاحظ ملامح اليأس التي اعترتني. فقط كانت مجرد فكرة أن أخطو خطوتين أو ثلاثًا بهذا الحذاء، وحدها تبعث على الألم.

- هيا لأساعدك لتركبي (سلطان).

يا للشهامة! سيترك لي جواده لأركبه!

- ولكن...!

- ولكن ماذا؟ من غير اللائق أن أركب أنا وأتركك تسيرين، كما أنك لن تستطيعي السير كل تلك المسافة بهذا الحذاء.

وبدون أن ينتظر ردي، رفعني لأعلى بساعدين قويتين لأمتطي ظهر جواده، وسحب اللجام وسار بي. كنت أراقب خطواته العسكرية الواثقة، وظهره المستقيم. كان أميري المفاجئ، أمير جاءني على ظهر جواد ليضع حذاءً في قدمي الحافية. أمير خارج من قصص ألف ليلة وليلة مُحمل بالشهامة والغرور. استمر ذلك الحلم الجميل طيلة عشرين دقيقة، رجل يسير بثقة يسحب جوادًا أشهب تجلس عليه سيدة أنيقة، يتطاير شعرها من تحت قبعتها، يخطوان فوق دروب معبدة بالحصى والرمال ونثر الزهور. حولهما أشجار عالية ونباتات تنشر رائحتها في المكان، وفوقهما سماء صافية، وقمر مُكتمل ينير ليلهما. صحت في نفسي قائلة:

يا أَلله، يا له من مشهد أشعر أنني جزء من لوحة فنية مُعلقة على أحد جدران المعارض، ويتأملها المشاهدون الذين مهما وصلت قوة تخيلهم فلن يعتقدوا أن هذا المشهد بكل تفاصيل جماله قد حدث فعلًا.

على مقربة من مكان الاحتفال، أوقف فرسه. ثُم ساعدني على النزول، صافحني مُودعًا:

- احذري من التجول وحدك ليلًا ثانية.

- ولكن أنا لم أتعرف عليك.

- عمرو.

- نتاليا جونسن، ويمكنك مناداتي تالي.

- أفضل نتاليا، لنغمه الموسيقيّ.

- متى سنلتقي مُجددًا؟

- أجمل الأشياء هي التي تأتي مُصادفة.

ماذا أفهم من ذلك، وأي مصادفة تلك التي يتحدث عنها، وماذا لو لم تجمعنا مصادفة مُجددًا؟ كنت أريد أن ألاحقه بالأسئلة، ولكنني فضلت التزام الصمت.

وفي حركة سريعة امتطى صهوة جواده، واختفى تاركًا صدى حوافر جواده لا تطرق سوى قلبي.

في ذلك المساء فردت الأوراق على الحامل الخشبي إيذانًا للبدء في لوحة جديدة. احترت أيهما أرسم؟ أي مشهد ينبغي لي أن أصنع منه لوحة وهو ينحني ليضع في قدمي الحذاء؟ أم وهو يسير أمامي بخُطى فارس في مدن

الحب؟ ثُم كنت قد قررت رسم الاثنتين.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

44

القاهرة.. يونيو (1869):

وجدت نفسي طيلة الأيام القادمة مَشغولة برسم اللوحتين. وقد أزحت أي مشاهد أخرى لتلك البلاد من واجهة الذاكرة. أنهيتهما في أسرع وقت لأنني لم أتخيل المشهد؛ فقد كان مطبوعًا في عينيّ وقلبي. كُنتُ سعيدةً ومنتشية.. وأنا أرسمه وكأني بذلك كنتُ أستعيدُ دقائقه بتفاصيله مرةً أخرى.

زارتني فاطيما هذا الصباح، لتُعزيني في موتِ كارلا، وبعد أن احتسينا القهوة، قامت منفوضة كمن تذكرت شيئًا...

كُنت أريد شراء بعض الأقمشة والكلف من سوق الأزهر. ما رأيك لو جئتِ معي؟

ارتديت ملابسي على عجلٍ، ملابس تُناسب رحلة للسوق.. تأملتني فاطيما قائلة:

- انظري، لو غطينا وجهك هكذا...

وضعت غلالة من الشيفون الأبيض على شعري، وطوقتها حول وجهي. فقط تركت مساحة مفتوحة ليمكنني الرؤية من خلالها. يا ألله، شعرت بمدى العذاب الذي تُعاني منه المرأة العربية في هذا الزي.

أتعلمين فاطيما، مُجرد فكرة ربط شعري في شريط تُشعرني بالتقيد والاختناق، فما بالك بغطاء الرأس والوجه!

- ولكن ذلك أفضل حتى لا نتعرض لفضول المارة، وطمع الباعة في السوق. الآن يبدو مظهرك كامرأة مصرية، أو تُركية.. وخاصة أنك أصبحت تُتقنين العربية.

أمرت فاطيما السائس بالتوجه لسوق الأزهر.

مرت عربة ذهبية أنيقة، وضِع عليها الشعار الملكيّ، بخيول مزركشة يجري أمامها اثنان من الحراس بسترات وسراويل واسعة يصيحان: (وسع الطريق). بينما جلس السائس بملابسه الرسمية.

-انظري، إنهن حريم الخديو. إنها العربة الخاصة بابنته الأميرة زينب. لقد صُنعت خصيصًا لها بأوربا، وقلدها أحد الصناع هُنا، وخصصها لزف العرائس بها بعد حصوله على أجر كبير جدًّا.

- العربة أنيقة فعلًا، ورُبما كن ذاهبات للتسوق.

ابتسمت فاطيما:

هن لا يذهبن للتسوق؛ فالسوق هو الذي يذهب لهن. رُبما ذاهبات لمأدبة غداء أو حفل ما.

توقفت العربة أمام الوكالة التي تُفتح ببابٍ خشبيّ كبير، يقود لشوارع ضيقة. تعرض الباعة البضائع في دكاكين تكاد تستوعب فردًا أو فردين. بينما يعرض البعض

الآخر البضائع على الطريق، ويصيحون عليها بأصوات عالية.

حركة البيع والشراء ونداءات الباعة، وأزياء الرجال والنساء، وأشكالهم المُختلفة ذكرتني عندما توقفت أمام لوحة سوق في القاهرة. التي شاهدتها في مرسم مسيو ليون. عندما أبهرتني مجموعته الشرقية، وسألته عن هذا المكان وهل هو كذلك كما أخرجه حقًّا أم مجرد شطحات من خياله، وفي كلتا الحالتين تمنيت أن أزوره، فهل كانت وقتها أبواب السماء مفتوحة، لاحظت فاطيما شرودي بعيدًا عنها وبذكاء فهمت ما يدور بخلدي فصاحت قائلة:

- مؤكد تخططين لرسم لوحة لهذا المشهد.

-أيتها العبقرية، هل كنت تقرئين أفكاري؟!

كنت أحيانًا أرى تلك اللمعة في عين مسيو ليون، ولكن أين هو؟

- لقد سافر ليشرف على أعمال الحفر في قناة السويس.

مسكينة فاطيما، لا تدع ليون يخرج من تفكيرها أينما ذهبت. ولكن أنا لماذا لم يعد يمسني الشوق إليه بعد لقائي بعمرو، وهو الذي كان يتغلغل في الذاكرة، ويشغل تفكيري ليل نهار. لماذا أزاح ليون جانبًا، وشغل مكانًا مجاورًا له على مقعد القلب. وأخذ الاثنان يتناوبان على تفكيري. تتملكني فوضى في المشاعر صعب معها تحديد شيء ما. هل هو مزاج الفنان؟ أم جو ذلك البلد؟ أم تلك اللامبالاة من ليون التي جعلتني أشعر بمهانة، وأحاول أن أزيحه عن تفكيري بحلول رجل آخر محله؟ حقًّا لم أكن أعرف!

ابتاعت لي فاطيما قماشًا عربيًّا مُوشًّى بخيوط ذهبية لامعة، وأخبرتني أنها ستدع الخياطة تقوم بحياكة زي عربيّ لي قائلة:

- ليس من اللائق أن تكوني بالقاهرة، وتخلو خزانة ملابسك من زي عربيّ.

فاطيما التي تبتاع أقمشة مستوردة لتجعل الخياطة الفرنسية تحاكيه لها على أحدث التصميمات لملابس الصيف الباريسية، تطلب مني أنا حياكة زي عربي! جميل هو تبادل الأدوار، وذلك التغلغل في الآخر. أليس الأديبان نرفال وفلوبير تخليا عن أوربيتهما فور وصولهما إلى البلاد، وارتديا الزي العربيّ. وألم يكتب شامبليون في مذكراته أنه أصبح عربيًّا بذلك الشارب الذي أطلقه، وتناوله عددًا كبيرًا من فناجين البن العربي، وبين رشفة وأخرى يأخذ نفسًا عميقًا من النرجيلة.

ذهبت لدكان القرطاسية، وابتعت منه أوراقًا وألوانًا للرسم. كنت قد قررت الذهاب لحديقة الأزبكية والجلوس على أحد المقاعد الخشبية للشروع في رسم لوحة للسوق. في حين اعتذرت فاطيما بأنها لا تستطيع التغيب عن المنزل أكثر من ذلك.

كان الوقت عصرًا، والحديقة هادئة. لم يعتد بعد الشعب المصري التريض في الحدائق العامة. فكرت أنها لو كانت حديقة «لوكسمبورج» الآن، وفي هذا الجو من العام لكانت مكتظة بالناس. صنعت حاملًا من أغصان الشجر، ووضعت عليه أدواتي، وها هو بائع الأقمشة يعرض بضاعته، وفاطيما تقف يظهر منها جانبٍ

وجهها. وتختبر بيديها ملمس القماش.. كنت منهمكة في الرسم حتى سمعت تصفيقًا حادًّا أعقبه كلمة:

برافو.

- أنت؟

كلمة من ثلاثة أحرف لا أكثر، ولكن تكلف مني نطقها التغلب على تلك الرعشة التي سرت في أنحاء جسدي.. والتماسك حتى لا أكشف عما بداخلي؛ فأظهر كم أنا سعيدة ومرتبكة ومتلهفة لرؤيته.

تُرى هل جئت هنا لأستدرج القدر للقائه؟ أليس هو الذي طلب مني عدم ترتيب موعد لنا، موكلًا تلك المهمة للقدر. نظرت إليه مبتسمة لأشاهد أجمل عيون كنت قد وقعت تحت طائلة سحرها.

- مفاجأة سارة إذن.

هل يسألني أم يجزم بذلك؟! لم أترك الريشة من يدي، اصطنعت أنني ما زالت مهتمة بالرسم بالرغم من أنني لم أعد أعلم تحديدًا الذي أرسمه.

- كيف حالك؟

بخير، وأنت؟

بخير مادمت رأيتك.. ولكن لم أنت هُنا الآن؟

كنت في جولة مع إحدى الصديقات للتسوق، وفكرت بعدها أن هذا أنسب مكان لرسم المشاهد التي رأيتها.

ولكن هل ترسمين تلك المشاهد لأنها أعجبتك؟ أم لرصد عيوب المجتمعات الشرقية التي ترونها جاهلة وبدائية؟

استفزني السؤال؛ فوجدت نفسي أجاوبه بقسوة:

وهل تعتقد أنني تكلفت عناء البعد عن موطني حتى آتي هنا لرصد عيوبكم وجمعها في لوحات! أي منطق هذا!

- إنه منطق العقلية الغربية التي لا ترى في الشرق إلا العيوب.

- لا يا سيدي، من قال هذا؟

- ألم تأتِ هُنا لتجميل مدينتنا؟ وكأن المصريّ الذي بنى الأهرامات ذات يوم لا يستطيع فعل ذلك؟ إنها العقلية التركية التي لا تثق في الشخصية المصرية، أو ربما هي تثق، ولكنها ترفض أن تهبها هذا الشرف.

- الخديو وضع تحت كل مهندس وخبير فرنسي مجموعة من المهندسين والعمال المصريين ليشرف على تعليمهم، ومن ثَم تنتقل الخبرة إليهم.

قهقه بسخرية، وهو يتابع الطيور التي تركض للمبيت في أعشاشها هُناك في أعالي السماء.

الخديو الذي يبعثر أموال الشعب هباءً، ويثقل كاهله بالضرائب. أسمعت يومًا عن ضريبة الملح تلك التي يجمعها في سبيل حصول الفرد على حصته من الملح؟

ولكن لا أرى أي غضاضة في تطوير وتخطيط المدينة بشكل جميل ومُنظم يُتيح للشعب التمتع والعيش برخاء.

أي رخاء هذا! في أطفال وشباب وكهول يقادون كالنعاج للعمل بالسخرة في شق قناة السويس، أو بعث الجنود للدفاع عن أراض تبعد آلاف الأميال عنهم. بلاد لم يسمعوا باسمها من قبل للدفاع عن أراضيها، لإرضاء شهوات السلطان العثمانيّ في فتوحات وحروب.

- لماذا أنت ناقمٌ هكذا؟!

-كل شيء يدعو للسخرية والنقمة.

وفجأة قام وهو يخبرني:

- عليَّ الذهاب الآن، سأتركك للوحتك.

صافحني وغادر. بعدما ركب جواده وغاب بين الأشجار، لملمت أنا أدواتي ورحلت، وأنا أتساءل: ما السر وراء هذا الرجل ليجعله على كل هذا القدر من الألم؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

45

في مساء اليوم التالي، وعندما كنت مشغولة برسم أحد التصميمات الفنية لقصر الجزيرة. طرقت «جوهرة» الباب وجاءت لتخبرني أن فاطيما تنتظرني بالصالون، ومعها سيدة أخرى. ذهبت لأجد فاطيما بثغرها المبتسم دائمًا.. ما إن تدخل المكان حتى تشيع فيه بهجة وحياة. كانت تخلع الحبرة وغطاء الوجه والرأس. عانقتني بحرارة، ثم عرفتني بالسيدة التي اصطحبتها معها (مدام ألين).

منذ أن وقع بصري عليها علمت أنها فرنسية، أخبرتني أنها جاءت للإسكندرية مع زوجها منذ ما يقارب السنوات العشر. عندما طلبت الحكومة المصرية في عهد سعيد باشا والي مصر السابق مجموعة من المهندسين الفرنسيين للاستعانة بخبرتهم في إنشاء خط سكة حديد، بعدها عمل زوجها بمنصب مرموق بالهيئة.

ما أخبرتني به أيضًا أنها كانت تُمارس الخياطة كهواية، ولكن مع إقامتها المستمرة في تلك البلاد اضطرت أن تشتري الأقمشة، وتنتظر كتالوجات الموضة الباريسية لتصمم أزياءها بنفسها. فكانت تثير الإعجاب بتلك الملابس وسط سيدات المُجتمع الراقي، وبنات وزوجات الخديو والباشاوات. فذاع صيتها فيما بينهن، وأصبحت خياطة البلاط الأولى لعدة سنوات. إلى أن جاء العديد من المصممين الرجال وأزاحوها عن مكانها. خاصة بعد ذلك التفتح الذي أصاب المجتمع، ولم يعد من غير اللائق أن يقوم رجل بتفصيل أزياء للسيدات. نظرت إليّ مطولًا ثم أضافت:

وأنت، من يقوم بتصميم أزيائك؟

مدام رينيه.

صاحت قائلة:

رينيه دومنيك!

نعم هي بعينها.

نظرت لفاطيما قائلة:

- كم يلزمنا من شرف، ومن صيت ليسمح لنا فقط بالمرور من أمام فاترينة ملابسها؟

أجابت فاطيما بتفاخر:

- نتاليا جونسن هي رسامة البورتريه الأولى في فرنسا.

أين ذهبت بي تلك الكلمات؟ هُناك عبر الزمن، لسنوات طويلة ماضية، وتذكرت عندما كنت أقف أمام ليون كعصفورة مبتلة، وهو يخبرني بالمرور على متجر مدام رينيه، وهو سيتكفل بكل شيء. استحضرت ذلك المشهد كاملًا؛ هو بقامته الفارهة، ولون عينيه اللازوردي، ونبرة الحنان التي يتحدث بها.

سألتني ألين -وهي تتفحصني باهتمام- رُبما كان مظهري وقتها في ملابس البيت لا يُوحي لها بأنني من زبائن رينيه.

كم ستطول إقامتك في مصر؟

أوشكت الأعمال التي جئت من أجلها أن تُنجز، لكنني سأنتظر لأحضر حفل افتتاح قناة السويس، إنه حدث عالمي، سيأتي الفنانون من جميع البلاد لحضوره. عدا ذلك لا أعلم ما الذي رتبه لي القدر على أرض تلك البلاد.

بعد أن تناولنا القهوة. أخذت مدام ألين قياسي لتقوم بحياكة ثوبٍ عربيّ لي، ثُم ودعتني فاطيما بعدما اتفقت معي على المرور بي باكرًا، والذهاب للحمام.. سألتها:

ما الذي علي أن أجلبه معي؟

لا شيء سوى منشفتك الخاصة، ومن الممكن الاستغناء عنها؛ فمعلمة الحمام فور دخولك تسلمك عددًا من المناشف وزيوتًا عطرية لجلسة التدليك. رُبما رائحة الزيوت الشرقية لا تُعجبك.

في منتصف شهر يونيو، وفي أحد الأيام القائظة توقفت بنا العربة في أحد الأزقة الضيقة. أمام بابٍ خشبيّ كبير متآكل، مُغلق بمزلاج نحاسي يحرسه عبد أسود. نزلنا من العربة، أنا وفاطيما وخادمتها، التي كانت تحمل احتياجات فاطيما في سلة من الخوص، مُغطاة بمفرش من الكشمير الأحمر. في حين وضعت احتياجاتي في حقيبة يد جلدية. فتح الباب عن صدى أصوات تأتي من آخر الردهة. كانت تقترب كلما مررنا في الممر الضيق.

استقبلتنا المُعلمة بابتسامة واسعة، وهي تتفحصني. ثُم سلمتنا مناشف بيضاء نظيفة يفوح منها رائحة الزهور. قادنا الممر المُبلط ببلاطات من حجر الصوان إلى مساحة فسيحة مُتسعة مبلطة بقطع القيشاني المزخرفة، ويعلوها قبة زجاجية بألوان مُختلفة تعكس أشعة الشمس على حوض كبير من الفسيفساء ممتلئ بالماء.

من الواضح أن هذا المكان -كما أخبرتني فاطيما مُسبقًا- هو أكبر تجمع لنسوة المدينة؛ حيث القصص والحكايات، كل سيدة تشغل أذن الأخرى تارة بتذمرها وشكواها، وتارة أخرى بسعادتها وفرحها. الحوض ممتلئ بأجساد عارية من مختلف الألوان والأحجام، وعلى حافته تجلس بعض من النسوة يدخن الأرجيلة، أو يشربن القهوة. تدور سيدة مُسنة، بالكاد تستطيع المشي بالقبقاب الخشبيّ الذي يعلو عن الأرض بمسافة خمسة سنتيمترات، بكعب عريض غليظ حتى يحمي من الانزلاق، بصينية مستديرة بها قطع من الحلوى الشرقية تطوف على السيدات. تُقدم لهن صنع يديها من الحلوى. ربتت فاطيما على كتفي، وأنا أقف مُنبهرة قائلة:

- ماذا؟ هل سنقف هُنا للصباح؟ هيا لنقوم بتغيير ملابسنا. لا تتعجبي من كل تلك الأجساد العارية؛ فالحمام وحده هو الذي يمكن أن تنتهك فيه حرمة الجسد. هُنا فقط بإمكان النساء خلع تلال ملابسهن. الغريب أن المرأة منهن تستحي خلع ملابسها أمام زوجها.

في الحقيقة صدمني المشهد؛ فها أنا في الحمام أخيرًا، وبعد كل تلك المشاهد في اللوحات التي كنت أقف أمامها صامتة متأملة. كانت لأجساد ووجوه وبرك مياه صماء. خرساء بدون صخب، والآن أقف أمام الحقيقة، لم تتغير الأشياء كثيرًا. فقط كان الاختلاف في الحياة التي وجدت هُنا. في غرف صغيرة للبخار متفاوتة الحرارة، من غرفة لأخرى اختارت فاطيما غرفة أشد حرارة، وعلى الرغم من أنني أعاني من ضيق التنفس؛ لكنني كنتُ أنساق لأوامرها، وليس لي أن أجادلها.

جلسنا على مقاعد رخامية، وجلست أمامنا سيدة عربية جميلة. كانت تقوم بفرك جسدها بملح خشن، وأخرى كانت تضع على بشرتها مسحوق الترمس المطحون للتنظيف وتعرضه للبخار. بينما فاطيما استسلمت لتلك الحالة الخاصة من الاسترخاء التي يصنعها البخار، وأغمضت عينيها. بعد تلك القاعة اصطحبتنا «المكيساتية» إلى غرفة للتدليك فسيحة. لم تكن مؤثثة سوى بأريكة رخامية، وأجساد نساء عارية للاستلقاء عليها والاستسلام ليد المدلكة القوية. كانت تلف قطعة قماش من الخيش على خصرها، ترتدي الكثير من الحلي الفضية. كانت أكثرها غرابة تلك الحلقة الممتلئة بشظايا من الزجاج التي تُعلقها في أنفها تمامًا كتلك الحلقة التي في أنف جوهرة.

أظهرت ابتسامتها أسنانًا كبيرة ناصعة البياض، وبعيون غائمة وهي تراقبني وأنا أحكم لف المنشفة حول جسدي.. لم أكن وحدي بين النساء من تحكم لف المنشفة على جسدها، فقد كانت هناك كثيرات منهن تعلمن كيف ينكرن جسدهن. كيف يخبئنه، وكيف يكبتن رغباته. استسلمت ليد المدلكة التي سكبت على جسدي زيت تدليك ساخنًا برائحة فواحة. كنت حقًّا في حاجة لتلك الجلسة التي أزالت التعب والتوتر الذي كنت أشعر به. جلسنا (أنا وفاطيما) على أريكة عربية، ووزعت علينا الخادمة فطائر محشوة بالجبن.

- إنها حقًّا لذيذة.

أجابت فاطيما وهي تمضغ الفطيرة ببطء. وكأنها تختبر مكوناتها:

- إنها محشوة بجبن الماعز المدهوس بالزعتر وزيت الزيتون.

- يشبه خبيزًا فرنسيًّا يسمى باتيه، يُعجن بالبيض واللبن، وحشوه بمختلف أنواع الجبن.

ابتسمت فاطيما قائلة:

- ما كل هذا! ها أنت تتحدثين كما لو كنتِ خبازة ماهرة، أراك تحفظين طريقة صنعه.

ما الذي آل به وقع تلك الكلمات عليَّ حتى يباغتني الماضي، وتقف اللقيمات في حلقي، ويستعصي بلعها. وفي تلك المنطقة الملتبسة بين واقع وخيال، والتي يشغل البخار حيزها، وجدتني أقص على فاطيما فصول قصتي، عندما انتهيت وجدتها تتأملني قائلة:

- أي حياة عشتها، وأي خطط محبكة رتبها لك القدر!

ابتسمت وهي تربِّت على يدي بحنان، وشعرت براحة بعد ما حكيت لها. لقد خف ما كنت أحمله في نفسي من حمل. إن نفوسنا تحتاج للنفض من آنٍ لآخر حتى نُزيل ذرَّات الغبار التي علقت بها. غادرنا تلك الغرفة للردهة.

استلقيت على أريكة رخامية، واستسلمت ليد خشنة تزيل الأوساخ عني بلوف لا يقل خشونة عن تلك الأمة التي تحمله. ثُم نزلت للمغطس الساخن لأزيل آثار الصابون. لم يكن بمقدرتي أن أسأل: هل تلك المياه -التي تكدر لونها برغوة الصابون الذي يصنع من زيوت الورود وزيت الزيتون ولون مسحوق نبات الحناء الذي تحرص النساء هُنا على صبغ شعورهن به- نظيفة أم لا؟ فلم تكن إحداهن تهتم؛ فلماذا كان عليَّ الاهتمام؟! لمحت فاطيما علامات الاستياء على وجهي من تعكر لون المياه؛ فأخبرتني أن المياه تتكرر من مواسير ساخنة من خزان كبير تحت الحوض، وهذا كاف للقضاء على العدوى والميكروبات. كنت سرًّا أخطط لرسم لوحة للحمام، وأنا من موقعي هذا وسط الماء والبخار والأجساد العارية. وهُناك سؤال يلح عليَّ أكثر وأكثر: كيف رسم «جيروم» الحمام الشرقي بكل تلك الواقعية وهو لم تطأه قدمه يومًا؟! كانت هُناك أقاويل أن بعض اليهوديات والأرمنيات اللائي يعملن كعارضات للفنان، يقصصن عليه ما يجري. وهُناك أقاويل أُخرى أنه سلم إحداهن كاميرا فوتوغرافية لكي تصور له تلك المشاهد، ولكن أين وضعت تلك المرأة الكاميرا؟ وكيف نجحت في تشغيلها؟.. كل هذا كان يدور في رأسي عندما نبهتني فاطيما أنه قد حان وقت المغادرة. ذهبنا لنرتدي ملابسنا ونحن أكثر خفة ورشاقة وإقبالًا على الحياة. وقتها فقط علمت ماذا يعني الحمام الشرقيّ بالنسبة للسيدات. حتى خادمة فاطيما كانت مُبتسمة وقد أصبحت أكثر بياضًا. هُنا في ذلك الحيز من الحياة لا فرق بين أن ترتاد الحمام جارية أو ملكة؛ فالكل يتجرد من زيه الذي اختاره ليتأنق به حسب قيمته في المجتمع، ووقتها فقط تتشابه الأجساد في عُريها، وتُصبح كلٌّ منهن سواء، لا فرق بين جسد وآخر.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

46

عدت إلى البيت، بدأت في رسم لوحة للحمام. ولم أكن أدري أنه يكفي أن أنوي البدء في رسم لوحة حتى يغلبني النوم بذلك الشكل. وللحق كانت المرة الأولى منذ أن خطت قدمي البلاد أن أنام بمثل هذا العُمق. كان هذا كله بفعل حالة الاسترخاء التي صنعتها بي زيارتي للحمام. حلمت ليلتها بأماكن وأحداث متشابكة، ووجوه متداخلة؛ كان منهم كريس وليون وعمرو.

استيقظت يملؤني التفاؤل، والحنين لكل تلك الوجوه التي حلمت بها. وها هو حلمي يتحقق عندما دقت «جوهرة» على الباب لتخبرني أن مسيو ليون ينتظرني بالصالون. وبملابس النوم وجدت نفسي أركض إليه قائلة:

- ليون أخيرًا!.. اشتقت إليك.

ضمني إليه بحنان، وهو يعبث في خصلات شعري.

- كم أنت جميلة وأنت بعد مستيقظة من النوم! ها أنتِ تدفعينني لرسمك وأنت هكذا.

بإبهامه كان يلمس ملامح وجهي، وتوقف عند شفتيّ قائلًا:

- سأطلق عليها اسم الاستيقاظ.

- أنت هكذا دائمًا، لا تشعر بي سوى وأنا رسم على ورق. وبين أربعة أضلع. ألم يخبرك أحدٌ أن تلك العروق تتدفق بها الدماء، وتلك العضلة المحشورة بين الضلوع تنبض بالحياة؟

صمت ولم يجبني.. كانت ملامحه مُتعبة ومرهقة. وضعت «جوهرة» فنجان قهوة له، وكوب شاي ممزوج بالحليب لي. جلس قبالتي لأقص عليه كل شيء حدث لي مُنذ سفره. أخبرته عن الأعمال التي أنجزتها، وكيف لاقت إعجاب مُشرفي البعثة والحكومة المصرية بما فيهم الخديو نفسه. كما أخبرته عن علاقتي التي توطدت بفاطيما وزيارتي معها للسوق والحمام. وقصصت عليه ما حدث بحفل افتتاح حديقة الأزبكية. كما لم أغفل نبأ الموت وما صنعه بي رحيل كارلا. هل كان يفتح شهيتي على الحكي أن شعوره بالمسؤولية تجاهي هُنا في تلك البلاد كان يحتم عليَّ أن أحكي له كل الأحداث التي مرت بي؟! فإذا بي أحكي له كل شيء عدا لقائي بعمرو.. لم أخبره عنه.

طرقت «جوهرة» الباب قائلة:

- الإفطار مُعَدٌّ سيدتي.

ابتسم عندما رأى مُحتويات مائدة الإفطار؛ بيض مقلي، جبن أبيض، طبق فول بالزيت والليمون، أقراص مقلية من الفلافل اللذيذة، وصحن به عسل أبيض، وخبز طازج تخبزه «جوهرة» بيديها.

- ها قد أصبحتِ مصرية وتخليتِ عن كوب القهوة بالحليب والكرواسان.

-هذه المرة الأولى التي أتناول بها إفطاري بتلك الشهية؛ فأنا عادة أكتفي بكوب من الحليب. ولكن وجودك أضاف تلك النكهة اللذيذة للحياة مُجددًا. هيا احكِ لي عن أخبارك.

كنا قد فرغنا للحظة من إفطارنا، ومن الواضح أنه كان شهيًّا لحد أننا التهمنا الأطباق التهامًا.

-سأحكي لكِ أخباري، ولكن ما رأيك في أن نذهب للتجول حتى يتسنى لنا أن نهضم ذلك الطعام؟

- حالًا سأذهب لارتداء ملابسي.

مع ليون كنت أشعر أنني في موطني؛ فكنت أحرص على أن أظهر بتلك الأناقة الباريسية التي اعتدت عليها. ها أنا أرتدي عقدًا وقرطًا من اللؤلؤ الأبيض، وأختار قبعة أنيقة تناسب لون القفازات الحريرية، وأضع بعض مساحيق التجميل. شهق عندما رآني، واقترب مني ببطء وهو يتحسس القرط بأذني قائلًا:

- الفتاة ذات القرط من اللؤلؤ [47]، أراهن لو رآك فريمير [48] الآن لكان عاتب القدر في أنه لم يجعلك أنت صاحبة اللوحة.

- وهل تريد أن تُخبرني أنني أجمل من الفتاة التي رسمها فريمير في اللوحة؟

- انظري إلى الفتاة؛ لم تكن جميلة الملامح بقدر جاذبية المشهد الذي صنعه لها. فهي تفتح فمها بشكل في غاية الإغراء، وكأنها تريد أن تفضي إليك بشيء ما، وهُناك ما يمنعها. وتلك النظرة بعينيها التي تحمل كل هذا القدر من الطفولة. وأخيرًا كان القرط من اللؤلؤ الذي ينشر وميضًا من البراءة والنقاء. إنه ذلك التضاد ما بين الإغراء والبراءة معًا هو سر جمال اللوحة.

- لا تنس أيضًا توزيع الإضاءة وإسقاطات الضوء ما بين عتمة محكمة ونور باهر. الكثير من مؤرخي الفن والنقاد جزموا أنه رسم القرط بضربة فرشاة واحدة ليحاكي الحقيقة تمامًا في اللون والشكل. أوووه فريمير إنه بارع، من المؤكد أن هُناك علاقة ما ربطت بين الفنان والفتاة. لو أنك نظرت في لوحات الفنان والتي كان معظمها للنساء لوجدت أن تلك الفتاة هي الوحيدة التي اهتم بإخراجها بذلك الشكل. فريمير لم يهتم يومًا بملامح الوجه بقدر اهتمامه بالحكي الذي يقصه علينا في اللوحة.

- رُبما أراد أن ينوع من طريقته؛ فكلما تقدم بالفنان العمر يبحث عن شيء أكثر عمقًا.

- لا ليون، دومًا هُناك ذبذبات ما تشي بمشاعر الفنان أثناء رسمه للوحة تكون الموديل هى حبيبته. كثيرًا ما كان حدسي يخبرني بتلك العارضة في اللوحات... فمثلًا في لوحات رنوار وهو فنان الجمال انظر كم من امرأة جميلة رسم، ولكن خلال مشاهدتي للوحاته كان من السهل أن أخمن من هي حبيبته. كذلك عثرت عليها في لوحات جوفاني وتيسو وبوشيه. وكأن الفرشاة تُترجم تلك المشاعر والأحاسيس والتفاعلات الكيميائية التي تصيب الفنان وقتها بكلمات من الغزل والحب.

- رُبما أنتِ تملكين تلك القدرة الخارقة، أما أنا فلا. ولكنك ذكرت كل هؤلاء ونسيت أن تذكري ليوناردو دافنشي [49] واللوحة الأشهر الموناليزا.

- لسبب بسيط أنني لم أصدق بأن علاقة حب ما قد قامت بينهما كما يدعي خبراء الفن.

- لقد رسم دافنشي تلك اللوحة وهو في الرابعة والخمسين من عمره، وكانت السيدة زوجة لأحد سادات فلورنسا. ويُحكى أنه كان يطيل الوقوف أمامها متعللًا برسمها بعدما أغرم بملامحها الجميلة والبريئة، وعندما شك زوجها في ذلك وأمره بتسليم اللوحة ادعى أنه سيقوم بالانتهاء منها هُناك في مرسمه الخاص حتى يضع خلفية مناسبة لمشهد السيدة، ولم يسلم أبدًا دافنشي اللوحة لأصحابها. بل كان يقوم باصطحابها معه في كل مكان يذهب إليه. فتُرى ما الذي يجعل فنانًا يصطحب لوحة لامرأة معه أينما ذهب إلا إذا كان واقعًا في غرامها؟!

- هُناك سر ما وراء ذلك، سر اختفي بموت دافنشي ودفن معه هذا العبقري الذي كان يكتب مذكراته بالمقلوب حتى لا تُقرأ إلا بالمرآة. كيف لي أن أصدق أنه وقع في غرام تلك السيدة، ويقوم بحمل لوحتها معه في كل مكان!

- بعد موته بعقدين من الزمان كتب عنه فاسيري [مؤرخ فني] في كتابه السير الذاتية للفنانين: أن اسمه والشهرة لن يُطفآ أبدًا.

- حقًّا، ولوقتنا هذا لم ينطفئ بريق شهرته؛ بل يومًا بعد آخر في ازدياد.

نسمة هواء حارة لسعت وجوهنا، اجتزنا الطريق إلى أن وصلنا إلى نهر النيل.

- ألم أعدك مُسبقًا برحلة شراعية في النهر؟

لم ينتظر ردي، كان يشير لقائد المركب قائلًا:

- يا ريس.

- ما هذا! هل تعلمت العربية؟

- بعض الكلمات التي سمعت عُمال حفر القناة والمهندسين المصريين يرددونها أمامي هناك.

ساعدني في ركوب المركب، وعلى مقعدٍ خشبيّ جلسنا متجاورين. بعد أن جدف الرجل لمدة عشر دقائق بساعد تملؤه القوة، وجدنا أنفسنا في عرض النهر. ليس هُناك من صوت سوى لارتطام المجداف الخشبيّ بالماء.

وطيور النورس التي تحلق فوقنا في مجموعات. كان الجو يبعث على التأمل.. لذلك لم يستطع أي منا أن يقطع خلوة الآخر. كل منا كان يخطط لرسم لوحة لذلك المشهد.

- أتعلم ليون، لقد ازدحمت بتلك المشاهد التي أقرر رسمها، وأشعر باللوم لنفسي لأنني لم أنهِ عملًا بدأته إلى الآن.

بصوت كسول أجابني، وبعينين مُحلقتين لبعيد قال:

- لا تشغلي بالك، فقط استمتعي بتلك المشاهد. املئي نفسك بها. خزنيها جيدًا في تلابيب الذاكرة. حتى يتسنى لكِ بعد ذلك استحضارها ورسمها هُناك، عندما تعودين لباريس، وتجلسين في ليالي نوفمبر الباردة أمام المدفأة، أو حتى وأنتِ تجلسين في صباح ربيعيٍّ مُشمسٍ على مقعد خشبيٍّ أمام نهر السين وتشعرين أنه لم تعد هُناك مشاهد تثير شهيتك للرسم.

- أيُعقل أن أجلس أمام نهر السين لأرسم نهر النيل!

- ولِمَ لا؟! الفنان قادر على رسم ما تُمليه عليه مُخيلته. كما أننا لن نرسم ما نشاهده؛ نحن نرسم ما نخشى ألا تقع عليه أعيننا مرةً أخرى.

كان له جمالية هذا الهدوء، وصخب الرجولة التي يبثها في المكان...

- متى تنوين السفر؟

- لقد شارفت الأعمال على الانتهاء، ولكنني سوف أؤجل سفري حتى يتسنى لي حضور احتفال قناة السويس، وأنت؟

- أنا أعد نفسي للرحيل.

أفزعتني الكلمات، فرددتها:

- رحيل!

- نعم، فقد انتهى عملي هُنا، وأرسلت لي الجامعة خطابًا تنبهني بموعد ابتداء العام الدراسي؛ أنا لا أملك من الوقت الكثير.

- ولكن.. هل ستدع حفل الافتتاح يفوتك!

- سأحرص على المجيء لحضوره، ولكن أنا بحاجة للعودة؛ فقد أصابني السأم من هُنا. اشتقت لباريس، كما أنني لم أعد أجد هُنا ما يُغريني. الأحداث الأخيرة التي مرت بي هُناك في القناة جعلتني أبغض المكان.

- وما تلك الأحداث المريرة التي تتحدث عنها؟

- الطريقة الوحشية التي يعامل بها العمال في شق القناة بدون رحمة أو شفقة.

- لقد سمعت أن هُناك مساعي من الخديو لدى الشركة التي تملك حق امتياز القناة في إلغاء قانون السخرة.

- نعم، لقد تم إلغاؤه بالفعل، ولكن هل تعتقدين أن تلك القروش البسيطة التي يحصل عليها العمال مُقابل هذا العمل الشاق لها أي قيمة؟! هؤلاء البؤساء الذين يموتون بالعشرات يوميًّا من التعب والمشقة ليدفنوا مكان ما حفروا.

- ولكن.. ما الذي يجعلهم يموتون؟

- العمل الشاق والمتواصل ليلًا ونهارًا. لا تقوى الأجساد الضعيفة المنهكة عليه، ومع استعمال الحفارات الآلية، إلا أن هؤلاء البسطاء لم يفهموا طريقة استعمالها،

ويصرون على استعمال الطرق البدائية في الحفر. إنهم يتراصون في طابور طويل، ويشبكون أيديهم خلفهم. يحملون سلالًا يملؤها آخرون بالطين المتخلف عن الحفر، وتكرر تلك العملية في اليوم تحت الشمس القائظة مئات المرات. ومن يقع منهم لا يلتفت إليه أحد. لقد تقدمت بأكثر من شكوى لهؤلاء الضحايا، ولكن هذا اللئيم ديليسبس الذي لا يرجو من أفعاله هذه سوى هدف الوصول للمجد. فهُناك شرط جزائي وقعته الحكومة المصرية إذا لم تفتتح مشروع القناة في موعد مُحدد، وديليسبس هذا أين ذهب عقله عندما اعتقد أن تلك الفترة الزمنية القصيرة كانت كافية لشق قناة بكل هذا الطول؟! أم أنه كان يعتمد في حفرها على مخلوقات فضائية عملاقة، وليس على هؤلاء المساكين الذين لا ذنب لهم؟!

غريبة.. يتحدث مثل عمرو تمامًا! هو ذات الشعور بالكراهية تجاه الذل والمهانة. ولكن عمرو مصري، ومن حق تلك المشاعر أن تسطو عليه. الأمر الأكثر غرابة بالنسبة لليون -هذا الجنتلمان الفرنسيّ. رُبما قرأ ما يدور في رأسي؛ فأجاب عن سؤال لم أطرحه:

- الإنسانية - نتاليا - لا تُفرق بين فرنسيّ أو مصريّ. والشعور بالضعف والمهانة تجاه ما يتعرض له هؤلاء المساكين هُناك جعلني ألوم الحكومة الفرنسية في بخسها حق الفقراء منهم. لذلك سوف أفوض الأمر للمختصين هُناك بفرنسا في ذلك الموضوع. لقد التقيت نوبار باشا [وزير الخارجية المصرية]، وهو رجل كريم، وله مساعٍ كبيرة لإلغاء نظام السخرة، والحد من تفشي ذل العمال هُناك، وتحدثنا في هذا الأمر، وفوضني أن أنوب عن مهندسي البعثة في هذا الشأن، وأقوم برفعه للإمبراطور بنفسي.

ها نحن كنا على موعد في قارب يجوب بنا نهرًا لأول مرة.. جلسنا متجاورين على مقعدٍ خشبيّ لأول مرة. ألقينا نظرة على جراحنا دون أن نُلقي نظرة على بعضنا. كتمنا أشواقنا في قبضة يدينا، تحدثنا في أشياء لا تعنينا، وعن أناس لا يمتون لنا بصلة؛ فترُى أين ذهب وقتها الحُب؟

ودعني ليون وهو يخبرني أنه سوف يبحر للإسكندرية خلال بضعة أيام، ليستقل من هُناك باخرة لمرسيليا. كما طلب مني أن أحاول أن أنهي عملي سريعًا لأغادر معه البلاد. أنا التي جئت هُنا لأكون بالقرب منه تركني وذهب للقناة، والآن يخبرني أنه سيرحل لفرنسا وعليّ أن أتبعه! من الذي أعطى له الحق في ذلك! هو الذي لم يبدِ أي تفسير عن مشاعره تجاهي، أو عن مُستقبل علاقتنا. أصابني الحنق منه. هو يريدني بجواره دائمًا، ولكن بأي صفة؟!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

47

القاهرة.. يوليو (1869):

جلستُ في المساء، وغمست الريشة في المحبرة برائحة الفانيليا. كنت قد ابتعتها من متجر للعطور من فرنسا. كتبت لأمي وأعلم أنها تجهل القراءة والكتابة، ولكن كنت أريد أن أفيض لها بالكثير من الحكايات؛ لذلك كنت أكتب إليها كأني أشاهدها وهي مُنهمكة بخبيزها، وتروي لي أحداث يومها في المخبز والسوق وأخبار الجيران. تارة تتجعد جبهتها غضبًا، وأخرى تنفك أساريرها ضحكًا. هكذا هي أمي.. كتبت لها عن أحوالي وعن (جوهرة)، وكيف تهتم بي وترعاني بحنان الأمهات اللائي لم تنجبهن. أخبرتها أنني -أخيرًا- عثرت على صديقة مصرية مُسلمة، وأنني أشعر معها براحة لم تمسني من قبل مع أي من الفرنسيات. حتى مع كارلا زميلتي بالبعثة. كما أخبرتها عن الطعام المصريّ الشهيّ، والمخبوزات الشرقية التي لو ذاقتها لأعجبتها كثيرًا. وأخيرًا أخبرتها أنني أريد أن ألقي نفسي في أحضانها وأبكي. ولكن لماذا البكاء؟! هل أبكيه أم أبكيها أم أبكي نفسي؟! تُرى أيًّا منا كنت أبكي؟! انسابت الدموع حارة جارفة لتمتزج بالأحرف.

كتبت أيضًا لكريس، أخبرته أنه ليس هُناك داعٍ لمجيئه؛ فأنا أوشكت على إنهاء عملي، وسأرجع على الفور. كانت مشاعر كريس التي يكنها لي تشعرني بالعبء واللوم لنفسي. ليس لأنني لم أبادله نفس الشعور؛ بل لأنني لم أوقف تيار مشاعره الجارفة تجاهي. فأنا لم أحاول يومًا أن أخبره حقيقة مشاعري، ولم أنصحه أن يتخذ من أخرى حبيبة وزوجة له. كل ما هنالك أنني فقط كنت أبتسم في وجهه عندما يعبر لي بطريقة أو بأخرى عن قوة مشاعره. كنت أضعف من مواجهة يأسه وحزنه في حال أن أخبرته بالحقيقة. في صندوق مصدف بالعاج وضعت فيه توابل حارقة، بخورًا شرقيًّا، وشالًا من البشكير العجمي عُقدت حوافه بخيوط من الصوف بغرزة أخبرتني جوهرة أنها تسمى عش النملة.. بُنًّا تركيًّا، مشغولات فضية، وبعض التماثيل الفرعونية. وأغلقت الصندوق بعدما وضعت به الرسائل. كنت أنوي تسليمه إلى ليون لتوصيله لأمي التي كانت جميع محتويات الصندوق لها. عدا التماثيل الفرعونية كانت لكريس.

زارني ليون في قصر الجزيرة ظهر ذلك اليوم، كنت أضع اللمسات الأخيرة على بورتريه الإمبراطورة أوجيني الذي طلب الخديو أن يتم تعليقه على الحائط، بمقابلة باب الدخول في ردهة الاستقبال، حتى يكون أول ما تقع عيناها عليه عند دخولها مقر إقامتها. كان خلفي تمامًا عندما قهقه بصوتٍ عالٍ وهو يقول:

- لماذا قدرك مرتبط دومًا بتلك السيدة؟!

- أتمنى أن أصيب منها بعدوى الحظ السعيد هذا إن كانت تملكه حقًّا.

- ولكن حقًّا نتاليا، هُناك في فرنسا كانت تلك اللوحة التي رسمتها لها بطاقة مرورك لعالم الفن والشهرة وهُنا أيضًا. ها هو توقيعك بخط رشيق على ذيل اللوحة تاليا

جونسن.

- ولكن مع الفارق ليون بين اللوحتين؛ فعندما رسمت الأولى رسمتها امرأة عادية بملابس عادية وبأحلام وآمال مغدور بها. ولكن انظر هُنا، هي تقف أمامك بكل ما تملكه الإمبراطورة من كبرياء وشموخ.

- إذن بعد كل تلك السنوات عليَّ اختبار حدسك لقدر ينتظرها، أعتقد أنه رُبما قد خاب.

- ليس بعد ليون، دعنا ننتظر ما سيكون.

أخذنا جولة لنا في أنحاء القصر الذي صممه على النهج الأندلسيّ المهندس الفرنسيّ يوليوس فرانس [مُهندس البلاط الخديوي]، اخْتِيرت بلاطاته من رخام المرمر، وجلدت حوائطه من الخشب الماهوجني، أطقم الحمامات على الشكل الفكتوري صُممت جميعها بإنجلترا. تم اختيار الأثاث والمفروشات من أفخم مصانع فرنسا.

تعال ليون لتشاهد غرفة نوم الإمبراطورة، إنها تُحفة فنية.

في الممر الطويل قادنا في النهاية لجناح الإمبراطورة، بستائره من قماش الأورجانزا والحرير، أما السرير فكان من أربعة أعمدة. الأماميان كانا أكثر طولًا من الخلفيين، وصنعت تلك الأعمدة من الذهب الخالص، ورصعت بالألماس. وغطيت الأرض بالسجاد الإيرانيّ. صفر ليون إعجابًا بغرفة النوم، سمعنا جلبة تحت النافذة ففتحنا لنرى عمال الزراعة يقومون بعزق الأرض.

- انظر، إنهم يقومون بزرع فاكهة الكرز المحببة إلى الإمبراطورة كما أمر الخديو.

- إن شخصية الخديو إسماعيل تحتاج لدراسة خاصة. هذا الرجل النهم للتحديث والعمران والأناقة، الآن أصبح يقول وبمنتهى الفخر: إن بلادي الآن ليست في إفريقيا بل أصبحت في أوربا.

حقًّا وقد أصبحت المدينة قطعة من باريس، إنها (باريس الشرق).

غادرنا القصر في حوالي الثالثة، أخبرني ليون أنه سيصطحبني لأشاهد شيئًا رائعًا بدون أن يخبرني ما هو. أمر سائق العربة للتوجه إلى الحي القبطي القديم، بعدها بقليل غادرنا العربة لنتجول في أزقة قديمة متعرجة وضيقة تفوح منها رائحة التاريخ. كان هذا المكان مُختلفًا عن أزقة وشوارع القاهرة التي يغلب عليها الطابع الشرقيّ في البناء. أخبرني ليون أنه حي روماني قديم. كانت العمارة في البيوت المُحاطة بنا تشي به. وأخيرًا وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه مع كنيسة قديمة غاية في الجمال والغرابة معًا. تملكتني تلك الدهشة، وكأنها أحد مباني القصص الخيالية. لاحظ ليون دهشتي، وأخذ يراقبني بمتعة وأنا في تلك الحالة التي وضعني بها.

- إنها الكنيسة المُعلقة، وقد بنيت بين برجين رومانيين.

- يا لروعة البناء!

فتح ليون بابها الخشبيّ العتيق الذي نقش عليه: (من أراد الغنى فالقناعة تكفيه). كنت قد أحببت التراتيل القبطية الشرقية التي أسمعها عند حضوري قُداس الأحد بالكنيسة الكاثوليكية المُجاورة للمنزل، ولكن هُنا كان كل شيء مُختلفًا.. الصور التي تُزين المكان، وتمثال العذراء.. الأرضية الخشبية التي تصدر صوتًا عند السير فوقها، الأسقف العالية المُزينة برسومات. رائحة البخور الشرقية، الشموع المشتعلة التي لم يتبق منه إلا ومضات.

القداسة الطويلة التي صاحبت المكان والسكون في أنحائه. كل ذلك وجدته يتغلغل بداخلي، ينفذ لأعماقي. أقمت صلاتي وتبركت من الراهبة ذات الابتسامة السمحة التي كانت تتفقد أرجاء المكان. تمامًا هو الإحساس الذي يتملكني عند صلاتي في كنيسة نوتردام والقلب المُقدس. إنه الجو الروحانيّ المُعبق بالتاريخ... خرجنا وشُعاع من النور يُضيء، ويمنحنا طمأنينة وسلامًا. بعدها تجولنا في الحي القبطيّ العتيق. كُنا نسير بمحاذاة بعضنا البعض، يمسك كف يدي، يقبض عليه كما لو أنه يخشى أن يفلت منه. أشعر معه بأمان. حتى ملامحه أصبحت أرى فيها وطني ومدينتي. نظر إليّ قائلًا:

- سأستقل قطار السابعة صباح الغد للإسكندرية، ومن هُناك ستقلع الباخرة.

هي ذاتها الكلمات التي أخبرني بها قبل سفره لمصر: (سأستقل القطار لمرسيليا لأكون على متن الباخرة التي ستقلني للإسكندرية)، الآن هو سيستقل القطار للإسكندرية ليكون على متن الباخرة التي ستقله لمرسيليا. إنها الحياة إذن، تلك التي تدور بنا في دائرة مُغلقة لتوصلنا في النهاية لأقدارنا. وتراه كان إحدى محطات الحياة والآن كان قد حان الموعد لمغادرة تلك المحطة؟ لذا كان علينا الحديث لنقطع تلك الشعرة الرفيعة العالقة فيما بيننا، ولتظل كلمات النهاية دومًا ترن في الأذن.

- لتتحدث الآن، أو لتصمت للأبد.

كنا نتحدث بدون أن ينظر أحدٌ منا للآخر، نسير في الطرقات المتعرجة التي لا تفضي إلا إلى طرقات متعرجة وليس لنهاية. لذلك الطريق تمامًا كما هي قصتي معه... حدثت نفسي بتلك اللعبة التي أمارسها في الخفاء بيني وبين نفسي: إذا لاحت نهاية للطريق ستكون نهاية لعلاقتي معه، أما إذا كان علينا الرجوع من حيث جئنا فلن تنتهي.

- نتاليا، أتذكر بداية تعارفنا، وكيف كنت تلك الفتاة الصغيرة التي تحبو عند قدمي لأشعر وقتها أنني مسئول عنك. انتشلتك بيدي ورفعتك للأعلى، والآن ها أنت امرأة جميلة وفنانة مشهورة. تنبضين بالحياة والتفاؤل، أما أنا فانظري لي وقد تخطيت الخمسين بأعوام؛ فهل تريني بعد كل ذلك العمر بإمكاني التخطيط لأبدأ من جديد، ومع شابة تصغرني عن العمر بعمر؟ استمتعي بحياتك نتاليا؛ فالعمر متسع أمامك، وسأكون لك دائمًا الأخ والصديق.

- أتعلم ليون، إن تلك الكلمات والأفكار التقليدية لا تليق بفنان مثلك ليقولها.، كما لن يستطيع عقل فنانة مثلي أن يستوعبها. تلك الكلمات تليق برجل عادي له آمال

وأحلام عادية، أما أنت فلا.

- نتاليا، أعلم تمامًا سبب تعلقك بي؛ فأنا الذي أعرف الحلقة المفقودة من قصتك، وأعرف أنكِ تشعرين بي كالأب الذي لم تريه سوى مرات قليلة في حياتك. فأنا أملأ لكِ فراغ جيوب حنينك إليه. ومتأكد أننا لو ارتبطنا فستسأمين ذلك الأب وتبحثين عن شابٍ وسيم لتعيشي معه قصة حب ملتهبة. ولن أدع نفسي أن تقع في ذلك الفخ من الألم.

قبل أن أنطق بكلمة وجدت نفسي أمام ميدان فسيح. إذن بتلك الكلمات كان علينا إسدال الستار على المسرحية وهي بعد في فصولها الأولى. أمام باب البيت غادرت العربة بعدما شد على يدي، وهو يودعني ويقول إنه في انتظار معرضي في باريس ليشاهد أجمل لوحات شرقية، ونصحني قائلًا:

- عليك أن تُغادري البلاد فور انتهائك من عملك، لأن المعايشة اليومية تقضي على الحلم بداخلنا، وتقتل جمال الأشياء.

- منذ قدومي لتلك المدينة وأنا أشعر بها كمدينة خُرافية، أتصفح صورها ومبانيها، ناسها وأهاليها، كما لو أنني أطالع صورًا في أحد الكتب القصصية. وأتساءل: هل يعلم أهل تلك البلاد أنهم يسيرون على صفحات التاريخ؟

وأن الفراعنة لا يزالون يراقبونهم من خلف تلك التلال من الأحجار؟ ومن وراء كل تلك الأزمنة الغابرة؟

ابتسم ليون وهو يضغط على يدي مُودعًا، أخبرني أن السفارة تُقيم حفلًا في الليل لوداعه وشكره على العمل الذي قام به. كما أخبرني أنه سيكون في انتظاري، أخبرته أنني سوف أحضر، وكنت على يقين بعدم ذهابي.

غادرني ليون إذن بعدما أخبرني أن احتياجي له مُجرد حنين لأسدَّ به فراغ حنيني لأبي. غادرني بعدما أخبرني أنه وضعني على أعلى درجات سلم المجد كما ينبغي للأب أن يفعل مع ابنته. غادرني بعدما خلف وراءه مرارة اليُتم. أليس هو الذي أخبرني أن عشقي له عشق أبويٌّ؟ ثُم افترقنا... رأيت الجياد تقود العربة بخطوات واسعة سريعة، تحمل رجل أحلامي باتجاه قدره. ولكن مؤكد سيأتي اليوم ويشعر بحنينه لي، بينما سأتحايل على ألم الفِراق والوداع. سأستعيد ذكرى جمال البدايات، كل ما بدأ جميلًا بيننا يوم الهزة القلبية الأولى للقائي به، أول رسالة وصلتني منه، أول موعد لي معه. كان لابد أن أرسم لأرتاح؛ فجلست أرسم بكل ما أملك من احتياج للحب والحنان وبغصة في الروح من الخذلان.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

48

زارتني فاطيما في صباح اليوم التالي، ومعها الثوب العربي الذي حاكته لي خياطتها. وقفت مُندهشة عندما قمت بقياسه وهي تصيح:

- مظهرك عربيّ تمامًا! لن يشك أحد في أنك إفرنجية.

كان الثوب يتكون من ثلاث قطع ليظهر في النهاية وكأنه ثوب واحد طويل مُتسع وثقيل. يصدر حفيفًا كلما سرت به، ولكنه كان على كل حال مُختلفًا عن الفساتين الأوربية كثيرة العقد والربطات، والتي أشعر معها بأن هُناك شيئًا ما يجثم على صدري. وأخيرًا كان عليَّ أن أضع وشاحًا من الشيفون لأخفي به شعري ووجهي. فإذا قمت بارتداء ذلك الزي، لا يحق لي أن أسير في الشارع كاشفة وجهي وإلا تعرضت لسباب الناس واشمئزاز نظراتهم.

- والآن هيا بنا للسرايا العالية.

صحت بها قائلة:

- السرايا العالية!

- نعم فالوالدة باشا أم الخديو إسماعيل في انتظارنا لتقومي برسم حريم الخديو. فقد حدثت عنك شويكار كبيرة الوصيفات هُناك وبالتالي ثرثرت عنك أمامهن، خُصوصًا عندما علمن أنك رسامة مُحترفة للوجوه، وقد قمت برسم الإمبراطورة أوجيني. فطلبن أن ترسمي بورتيريهات خاصة لهن.

- ولكن فاطيما، أنا جئت هُنا للعمل بمهمة رسمية، ولا أملك الوقت الكافي لرسم أشخاص. أتعلمين كم يتكلف من الوقت والجهد رسم بورتريه لحريم الخديو!

- عزيزتي، ألم تأتي لهُنا لولعك بالحياة الشرقية؟ ومن هُناك يمكنك مشاهدة عالم الحريم وقصر الخديو، والحياة هُناك على حقيقتها. إنه تمامًا كتلك الأسواق والحمامات العامة التي تقومين بزيارتها ورسمها لاحقًا.

- نعم أرسم حمامات وأسواقًا ومشاهد تتجلى بداخلي، ولكن الأمر يَكُونُ أكثر مللًا عندما أُكلف بعمل مثل ذلك.

- لا تسبقي الأحداث، هيا ضعي الوشاح فوق رأسك ودعينا نذهب.

في العربة أصابني الصمت؛ فقد كنت بحالة لا تسمح لي بالحديث. رُبما بسبب الضيق من إصرار فاطيما على الذهاب لمقابلة الوالدة باشا. ولكن في نفس الوقت كانت تملك الحق في ذلك. أليس هو ذلك العالم الذي جئت لرؤيته، وتمنى كبار الفنانين أن يحظوا بتلك الفرصة فسيكون من السذاجة لو أفلتها. كما أنه في حالة رفضي ترى ماذا سيكون رد فعل الخديو وحريمه؟ رُبما قيدوني من يدي ورجلي وألقوا بي داخل قبو في سجن القلعة، ومنعوا عني الطعام والشراب حتى ألقى حتفي، فمن باستطاعته رفض أوامر خديوية!

فتح لنا البوابة اثنان من العبيد بملابس رسمية، وبسيوف طويلة وضعت في جانب سترتيهما. أخبرت أحدهما فاطيما أن هناك موعدًا مع الوالدة باشا؛ فتركنا حتى تأكد من ذلك، ثُم أمر بدخولنا. اجتزنا حديقة فسيحة كبيرة، وسرنا في ممر رخامي تصطف على جانبيه أشجار السنط العالية، ويتدلى من أشجار النخيل تمر أحمر شهي. صعدنا مدخل القصر بدرجه الرخامي، ودخلنا في بهو فسيح مفروش بأناقة فائقة. كان به اثنان من الأغوات في استقبالنا بملابس كثيرة الزخرفة، وعيون تخشى المواجهة. كان منهم خليل أغا المُكلف بحراسة حريم الخديو إسماعيل، وفي نفس الوقت كان خادمه الخاص. وعلى عكس بقية الأغوات يرتدي بذلة اسطنبولي سوداء بأزرار مقفولة حتى العنق، تحتها كان قميص أبيض بياقة وأساور عريضة منشاة مُحلاة بأزرار ذهبية. أما الحذاء فمن الجلد الأسود اللامع. يليق مع لون طربوشه الأحمر. قاد خُطانا للدور العلويّ الذي أوصلنا لردهة أخرى كبيرة، وسلمنا بدوره لشويكار هانم [كبيرة وصيفات القصر] سيدة في مُنتصف العُمر تقريبًا، بملامح جادة، وخطوة عسكرية، وملابس أنيقة. عرفتها فاطيما بي؛ فحيتني وهي تتصفحني:

- أهلًا وسهلًا.

- أهلًا بكِ.

في استغراب سألتني:

- أتتحدثين العربية؟!

- نعم، لقد تعلمتها خلال إقامتي في البلاد.

- من لم يعلم بهويتك لا يشك أبدًا أنك غير عربية.

اكتفيت بالابتسام، ثُم أمرتنا بالدخول في غرفة مُتسعة مفروشة بأثاث عربيّ وبمشربيات ينفذ منها شعاع من ضوء الشمس.. وعلى أريكة تُركية مُحاطة بوسائد ضخمة من الديباج الدمشقي ذهبي اللون كانت الوالدة باشا تجلس مُحاطة باثنتين من الجواري، واحدة منهما تقف خلفها تقوم بتدليك عنقها، وأخرى تجلس أرضًا تقلم لها أظافر يديها. ترتدي فستانًا أسود يحده الدانتيل الأبيض، وتعقد شعرها لأعلى بينما تتدلى حلية من الفيروز الأزرق مُحاطة بفصوص من الألماس تدوي في ضوء الشمس. استقبلتنا بحرارة وتحاورت مع فاطيما وشويكار باللغة التركية لأصاب بالتوتر من جراء تلك اللغة التي لا أفهمها، وفي الغالب فاطيما قرأت أفكاري فقالت بالفرنسية:

- الوالدة باشا تُفضل التحدث بلغتها الأم، وهي تقول إن مظهرك كامرأة عربية جميلة.

أمرتنا بالجلوس، ووجهت الكلام لي قائلة:

- سمعت أنك تجيدين الرسم.

- لا أستطيع أن أجزم بموهبتي، ولكن كل من يشاهد أعمالي يُخبرني بذلك، رُبما أستطيع أن أخبرك أنني عاشقة للرسم.

- أريدك أن تقومي برسمي أنا وأمينة هانم [بنت الخديو] في صورة كبيرة لتُعلق بالقصر، كتلك التي رسمتها لإمبراطورة فرنسا.

لا أعرف عن أيهما تتحدث هل عن بورتريه الإمبراطورة الذي كان جواز مروري لعالم الشهرة، أم عن تلك اللوحة بقصر الجزيرة؟ لم تتركني أسبقها بالسؤال فقد سبقت هي بالإجابة عنه:

- كتلك التي قمت برسمها لها، وتُعلق بسرايا الجزيرة. كم ستأخذ منك من وقت؟

- لا أستطيع أن أحدد الآن؛ فأنا مشغولة بعملي الذي انتدبت لأجله من السفارة للمنشآت العامة والقصور التي يقوم بها الخديو لتطوير القاهرة.

ومن الواضح أن كلامي هذا أثار حنقها؛ فهي من ذلك النوع الذي لا يقبل أعذارًا؛ فليكن.. وفي كل الحالات فقد أطلعتها على الحقيقة.

- عمومًا سأقوم في البدء بها والرجوع لها كلما امتلكت من وقت.

وسعت حدقة عينيها اندهاشًا:

- كيف ذلك! فهل تقومين بالرسم من الذاكرة؟ ألا يتطلب رسم بورتريه شخصي لي أن أجلس أمامك لتقومي برسمي؟

- لا يا هانم، لكل منا طريقة خاصة به للرسم. أنا لا أجيد الرسم إلا من الذاكرة.

أومأت برأسها بعلامة الرضا، ثُم سألتني:

- أخبريني عن إقامتك بالقاهرة هل هي مُريحة؟

- ستظل مصر دومًا وأبدًا قبلة الشرق.

- وماذا عن الشئون السياسية في البلاد؟ هل يروقك حكم الخديو؟

-أنا مجرد زائرة للبلاد لا أستطيع الحكم على ذلك.

تذكرت حديث عمرو لي ومقته من حكم الخديوي، وتلك الضرائب الباهظة المفروضة عليهم وسفر الجنود المصريين لحملات حربية إرضاءً للسلطان العثمانيّ حتى يفيض بكرمه على الخديو. ولكنني لم أستطع أن أفصح بذلك، فأنا غير متأكدة من رد فعلها. وقتها طافت علينا جارية بصواني من الفضة وأطباق من السيفر وضعت بها قطع من الرقاق المحشو بالفستق، ومُحلى بالشربات الحلو، وأكواب من عصير الليمون البارد. ثُم طلبت الوالدة هانم حضور الأميرة أمينة هانم بنت الخديو إسماعيل، كانت كثيرة الشبه بجدتها؛ هذا الجمال الرائق، وفهمت وقتها لماذا اختارتها هي بالذات لتشاركها التابلوه.

جاءت تسبقها كبيرة الوصيفات، وتسير وراءها جارية. ترتدي فستان أورجانزا من اللون الوردي، وتتنعل بقدميها حذاء من نفس اللون بشريط يُعقد من الأمام من

الساتان. كانت هيئتها تَشبه إحدى راقصات الباليه اللائي يرسمهن (أدغار ديغايس) خلال الوقت الذي قضيته بصحبتها. لم أعتقد أنني سمعتها تتحدث إلا بتحية الصباح التي ألقتها عليَّ بالفرنسية، عدا ذلك لم تتحدث سوى الوالدة باشا بذلك البطء المتعمد. بينما كانت كبيرة الوصيفات تقوم بالهمس في أذنها كلما أرادت أن تخبرها بشيء أو تذكرها بشيء. احتد الصمت عدا صوت الطاووس الكبير الذي كان ينفش ريشه تارة، ويصرخ بصوتٍ عالٍ تارةً أخرى في حوض كبير للماء مبلط من الفسيفساء. حينما كنت أستعد للمُغادرة دخلت جارية ترتدي ملابس الرجال، وتضع على رأسها طربوشًا أحمر قصيرًا، وتحمل صينية من الذهب وضع عليها علبتان من القطيفة الحمراء في كل منهما سوار من الذهب المرصع بفصوص من الياقوت. قدمتها لنا كبيرة الوصيفات وهي تُخبرنا أنها هدية من الوالدة باشا لنا. وجدت فاطيما تذهب إليها وتنحني لتقبل يدها.. أنا التي لم أعتد مُسبقًا الانحناء لأحد، اكتفيت بالشد على يدها وأنا أشكرها.

غادرنا أنا فاطيما بعدما وعدتها أنني سأقوم برسم اللوحة فور انتهائي من أعمالي. انشغلت فاطيما طوال الطريق بقياس السوار مُندهشة وسعيدة بجماله.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

49

القاهرة.. سبتمبر (1869):

انتهى الصيف أخيرًا في تلك البلاد، وأقبل الخريف بدماثة خلقه جاء كعادته بعد ضيف ثقيل ليرطب الحياة مرة أخرى. الخريف من فصولي المُفضلة.. أتذكر كيف هو حال مدينتي في هذه الأيام عندما تكتسي أشجارها الكبيرة بلون واحد لأوراقها. ذلك اللون الذي احترت كثيرًا في انتقائه لألون به لوحاتي. إنها أوراق أشجار ذلك الفصل، تلك التي ليست بالصفراء الذابلة، ولا هي بالخضراء المزهرة؛ إنها بين هذا وذاك. تمامًا كخريف عُمرنا في تلك المرحلة المُلتبسة ما بين عنفوان شباب ما زال تتملكه الروح وشيخوخة زاحفة على ملامحنا، وليس علينا سوى المزج ما بين الاثنين، والتأقلم على هيئتنا الجديدة. رُبما أكثر ما أحببته في ذلك الفصل خُطاي فوق الأوراق اليابسة التي تكسو الأرض، وأنصت بتلذذ لهذا الصوت الذي يصدر عن دهسي لها. أغراني الجو الخريفي لأذهب لحديقة الأزبكية؛ فقد كنت انتهيت باكرًا من عملي، وكنت في حاجة مُلحة لترتيب بعض أفكاري. وعلى المقعد ذاته تحت شجرة البنيان العملاقة التي تتدلى غصونها على الأرض باستحياء كنت أجلس أمام البحيرة، أتابع البجع الأبيض وأفكر في مغادرتي البلاد بعد احتفال افتتاح قناة السويس مُباشرة ومعي تلك اللوحات التي قمت برسمها، وسأقوم برسم أربع أو خمس أخريات حتى تكتمل المجموعة، وأقيم معرضي هُناك بقاعة باريس للفنون عن اللوحات الشرقية. فهل كان القدر يبتسم وقتها وهو يراني أخطط لشيء وهو يخطط لشيءٍ آخر مُختلف تمامًا؟ فهل قللت من شأنه عندما تدخلت في شئونه الخاصة؟! كنت أستعد للمغادرة عندما رأيت عمرو قادمًا من بعيد يتهادى بعلياء على ظهر جواده بزيه العسكريّ الذي يضفي عليه وقارًا يليق به.

- هل كنا على موعد هُنا اليوم أم الشوق هو الذي جاء بنا؟

- جاء بك تقصد.

- لا تراوغي واعترفي.

كان لا يزال يجلس على ظهر جواده الذي لم يكن ارتكز في الوقوف بعد، يتململ للخلف تارة والأمام تارةً أخرى في مساحة ثابتة بينما عمرو يحاول أن يسيطر عليه لإيقافه.

ما أجمل مجيئه!

كان يأتي ليُختطف به القلب، كان يأتي لتمتلئ به الحياة.

كان يأتي وفي صحبته البهجة والأمل، كان مجيئه كدقات الأجراس في الكنائس القديمة. يُوقظ الروح من سكونها.

نزل من فوق جواده، وجلس بجانبي وهو يتأملني...

- لماذا اخترت سلاح الخيالة؟

- أحب ركوب الخيل مُنذ الصغر.

- ولماذا اخترت أن تكون ضابطًا بالجيش؟

بعد حصولي على الشهادة الإعدادية التي اجتزتها بنجاح كبير، وبأعلى الدرجات قدمت أوراقي للمدرسة الحربية إيمانًا بأهمية الجيش للوطن. والتحقت بمدرسة السواري الحربية. كنت لبلاهتي متخيلًا أن كل من يلتحق بالجيش يلتحق حبًّا في الوطن ورفعة من شأنه لأكتشف أن معظم المُلتحقين من أولاد الباشاوات والبكاوات، هؤلاء المدللين الذين يجدون أن في التحاقهم بالجيش فُرصة للهرب من مشقة التعليم؛ فبعد الشهادة الإعدادية بخمس سنوات يتخرج وهو حاصل على لقب ضابط، وحدهم أبناء الشعب المصري الذين لا ينحدرون من جد تركي أو شركسي يقدرون قيمة الجيش والوطن. وبالرغم من ذلك فمن النادر أن يمنحونا أعلى من رتبة قائمقام ويوزباشي، كم أتمنى أن يأتي اليوم الذي نتخلص فيه من شوكة المستعمر.

- مستعمر! ولكن كل ما يصنعه الخديو إسماعيل في البلاد لا دخل له في الاستعمار البتة.

- في النهاية الخديو إسماعيل يتلقى أوامره من سلطان عثمانيّ لا يرى في مصر إلا دولة واقعة تحت يديه. وإلا فما تفسيرك لكل هؤلاء الجنود والضباط الذين يزجون بهم في حروب وفتوحات لا تنتهي، ولا تمت لنا بصلة؟!

بلاد لم يسمعوا عنها يومًا، كل ذلك حتى يشبعوا رغبات السلطان في الفتوحات والغزوات، لا يهم كم عدد الذين قُتِلوا أو أُسِروا، لا يهم كم من امرأة ثكلى ستلبس الحداد البقية الباقية من عمرها على زوجها أو ابنها، ولا يهم عدد الأطفال الذين يسألون أمهاتهم ليل نهار متى يصل أبي؟ وهم يقفون بالشرفة في انتظاره.. كل ذلك لا أهمية له سيدتي؟!

كنت أتأمله وهو يتحدث بنبرة تملؤها الحسرة والمرارة لأنزل معه من طوابق فرحي العالية، وأتدحرج للطوابق السفلى من الحزن. وأتساءل: ما أمر هذا الرجل الذي هو قادر على أن ينقلني من مزاج لآخر أتنقل معه في طرقات ألمه تلك التي لم تكن طرقاتي يومًا! وبقدرة فائقة على وضع نقاط انقطاع عن الحديث وجدته يقوم من على المقعد، ويهندم مظهره، ويستعد لركوب فرسه وهو يخبرني أن عليه الرحيل؛ فهُناك تشريفة خديوية، وقبل أن يقول إلى اللقاء:

-غدًا سأعرفك على أهلي، فأنتِ مدعوة على غداء مصري أصيل.

ألجمتني المفاجأة؛ فلم تكن علاقتنا بمثل ذلك التوطد ليدعوني للغداء في بيتهم، ومع أهله.. فتلعثمت قائلة:

- غداء! أهلك! ليس هُناك داعٍ لذلك.

وكأنه أصدر أمرًا ليس عليَّ مُناقشته...

- غدًا في الثالثة عصرًا، نلتقي هُنا وأصطحبك لبيتنا.

تركني ومضى، وكانت دومًا هكذا تحدث الأشياء معه...

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

50

أكتوبر (1869):

كان لبداية ذلك اليوم طعم الفرح الغامض. عندما جمع بين الاستعدادات للقاءات العشقية مرة واحدة. ها هي جوهرة ارتدت أجمل ما تملك، تزينت من مكحلتها الفضية. كنت أراها وهي تصنع الكحل بنفسها من الرماد المُتخلف عن الشموع. غريبة هو الكُحل العربيّ، ما إن تكحل به العين حتى تصبح أكثر جمالًا وجاذبية. ارتدت جلبابًا من القطيفة، وشبكت الحلية النحاسية على برقع الوجه، وتعطرت بزيت المسك. خلاخيلها الفضية وأساورها النحاسية تحدث رنينًا أينما سارت، رنينًا يشي بها وبأحلامها وأشواقها المؤجلة. كانت على موعد مع فرط؛ فقد بعث لها أمس برسالة كتبها عند الكاتب، وأرسلها مع إحدى الفتيات الصغيرات يخبرها أنه في انتظارها غدًا عند مشارف وكالة الغورية. أعطتني الرسالة لأقرأها لها، كنت أتابعها.. كلما قرأت حرفًا تلمع عيناها، وتنفرج أساريرها. غريبة هي الدهاليز السرية للمشاعر وحدها قادرة على أن تُبدلنا من حال لآخر، ومن مزاج لآخر.

بخجل اعتذرت لتتغيب عن البيت من بعد ظهيرة اليوم التالي لمدة ساعة. أخبرتها أنها حُرة حتى وإن تغيبت اليوم بطوله. مسكينة لم تكن تشعر أن من حقها الحصول على إجازة والتمتع بالحياة كباقي البشر. وكأنها خُلقت في هذا العالم لتعمل على خدمة وراحة الآخرين فقط. وليس من حقها التمتع ولو بالقليل من عمرها. غادرت جوهرة وهي مُمتلئة بالفرح.

وقفت أنا أمام خزانة ملابسي، كنت سأرتدي الزي العربي الذي حاكته لي خياطة فاطيما، ولكنني بدلت من رأيي؛ فربما هذا يمنحهم انطباعًا بأنني أريد أن أستدرج ابنهم لعشقي ووقوعه في غرامي بالتشبه بهم. حرصت على أن أظهر بشكل أنيق مُحتشم. قبل أن أغلق الباب خلفي وجدت نفسي أتسلل لغرفة جوهرة، وأبحث عن المكحلة الفضية. وجدتها قد وضعتها على طاولة خشبية بجوار فراشها. كانت عبارة عن حلية من الفضة نحتت على شكل فراشة، وعلق بها ريشة حمامة تغمس في أنبوب من الكحل الأسود. سحبتها منه ببطء، وقمت بتكحيل عينيّ فأضفت لنظرتي المزيد من الإغراء.

كان موعدي معه في الثالثة بعد انتهاء عملي بدار الأوبرا التي شارفت على الانتهاء، وسيكون افتتاحها على شرف زيارة الإمبراطورة أوجيني لتشاهد أول عرض بها وهي لأوبرا عايدة التي وضع موسيقاها الموسيقار الأشهر فيردي. كان المبنى يُضاهي أوبرا باريس وروما فخامة، كل شيء يدل على الذوق الرفيع والأناقة؛ بدءًا من الدرجات الرخامية، المنحوتات البرونزية، اللوحات التشكيلية، الثريات، الستائر، المقاعد، الوجهات... كل شيء يجبرك خلال تواجدك بها أن تحترم ذلك الذوق، والجهد المبذول في خروجها بهذا الشكل. حتى المسرح وهو خاوٍ من عروضه لا تستطيع أن تتحدث به إلا همسًا. أخطو على الدرجات الرُّخامية الدرجة تلو الأخرى، بكعبٍ عالٍ أحرص على ألا يصدر صوتًا. ممر طويل يصلني

بصالة العرض، تفوح منه رائحة الخشب الأبنوسيّ المُبطنة به الحوائط. المقاعد من القطيفة الحمراء الكابتوني. أنظر لأعلى لأشاهد السقف على شكل قبة نقشت عليها مشاهد لفينوس والملائكة يحيطون بها وسط الفردوس جنة النعيم. الستارة الحمراء تتسدل على المسرح، المقاعد مرصوصة بشكل تنازلي يقودك آخر صف فيها إلى خشبة المسرح مُباشرة. ثلاث درجات خشبية وأجد نفسي على حافة المسرح، خلفي الستارة الحمراء. أقف في المنتصف وأقوم بإزاحتها بكف يدي من الجهتين لأجد نفسي وقد كشفت القاعة بأكملها البنوار الملكيّ الذي يتوسط القاعة، ويشغل مساحة كبيرة. يتصدر المقدمة وتتراص حوله باقي البنوارات. هل جاذبية التخيل التي تجعلني دومًا أنثر الحياة في الأماكن الخالية منها؟! ها هو الجمهور يتوافد، الصخب يتصاعد، كلما ازدحمت القاعة أكثر تعالى صوت الهمسات والهمهمات أكثر وأكثر. وقع النعول على الأرضية الخشبية، حفيف الفساتين من الأورجانزا والساتان. الكل يجلس، الكل يستعد.. معاطف من الفراء تُعلق على الشماعات المُخصصة لها في البنوارات. نظارات مكبرة هُنا وهُناك، يستعد أصحابها بضبط عدساتها على خشبة المسرح. هب مع الهواء مزيج من روائح العطور المتنوعة. تضبط الكونشرتو آلاتها الموسيقية نغمة من هُنا، وأخرى من هناك. تتعالى الأصوات وتحدث ربكة، ها قد شرف الخديو بصحبة أوجيني. وراءهم بعض نساء الخديو. والوفد المُصاحب للإمبراطورة، وكبار رجال الدولة والمعية السنية. الخديو إسماعيل ببذلة أنيقة ارتدى فوقها معطفه الإسطنبولي ببهاء وقاره، يقف يحيي الجماهير من البنوار الملكيّ برفقة أوجيني التي تقلدت طقمًا من الألماس.. وبرز جزء كبير من صدرها من ديكولتيه الفستان الأسود. بينما كان تاج الإمبراطورية يزين رأسها. تفتح ستائر المسرح رويدًا رويدًا بذلك البطء المتعمد لتظهر الفرقة الموسيقية. يعلو تصفيق الجمهور، يُعزَف النشيد الوطني المصريّ ثُم المارسيز النشيد الفرنسيّ. يقف المدعوون ويعلو التصفيق مرة أخرى.. ثُم تقل الضجة تقل، تقل... تختفي ويسود الهدوء ويبدأ العرض.

لاحظت أنها شارفت على الثالثة، وأنا هُنا أمارس تخيلي كان عليَّ أن أهرع إلى السلالم الرخامية غير عابئة بقدسية السكون الذي يحتمه المكان. يعلو وقع خطواتي، ينظر لي عامل إيطالي كان يقوم بكشط الأرضية الخشبية بازدراء. لا ألتفت إليه، أواصل طريقي لحديقة الأزبكية. هُناك حيث وجدته في انتظاري. قطعت أكثر من خمس عشرة دقيقة مهرولة على قدمي فاحمرت وجنتاي، وعلت أنفاسي.

- يا ألله، ماذا حدث لك؟!

- كنت أتابع عملي في دار الأوبرا، وانهمكت فيه (أقصد في تخيلي) حتى أخذني الوقت، واكتشفت أنها قاربت على الثالثة وأنا مازلت هُناك.

ابتسم بمكر، وكأنه بحديثي هذا اكتشف مدى أهمية موعدي معه...

- حسنًا هيا بنا.

ولكن أين فرسك؟

- بالإسطبل، سنستقل عربة من الخارج.

-هل يبعد مسكنك؟

- لا، إنه قريب من هُنا، أنا أسكن في طريق بولاق، ويعني اسمها بالفرنسية البحيرة الجميلة.

كانت المرة الأولى التي يجلس فيها بجواري تمامًا، أشعر بصوت تنفسه الهادئ، وأختلس النظر بين الحين والآخر لبشرته السمراء، وعينيه العميقتين، وشاربه الذي هذبه بشكل مُنظم.

- ولكن ما السبب في تلك الدعوة؟

-السبب أني قد حدثت عنك أمي، وهي تتوق لرؤيتك.. كما أنه من غير اللائق أن تتوطد علاقتنا بمثل هذا الشكل ولا أدعوك على الغداء في بيتنا.

كان الطريق غير ممهد، تتأرجح العربة بنا فتتلامس أكتافنا، وعند منعطف أحد الأزقة توقفت العربة.

ساعدني في النزول، وأخبرني أن أحترس حتى لا أتعثر في الحصى. زقاق ضيق تتقارب به البيوت حتى تكاد تتلامس. ذكرني المكان بالشارع الذي كنت أقطن به بفرنسا. باب خشبي متهالك. قام عمرو بدفعه فأصدر صريرًا،

وفُتِح على حوش فسيح به بعض الدواجن تمرح هُنا وهُناك. المبنى من دورين من الخشب الذي بهت لونه. في حجرة لحيوانات الركوب لمحت جواده وبغلتين. أمام باب بضلفة من الخشب القوي كان مواربًا فأزاحه عمرو بيده، ودعاني للدخول. وكانت في استقبالنا روائح الطعام الشهية. الردهة من أريكات الإسطنبولي بمساند كبيرة من القطن. وضعَت بالمُنتصف مائدة مستديرة أعلى من الأرض بمقدار بسيط. كنت أهم بالجلوس عندما سمعت صوتًا مُرحبًا:

- يا أهلًا وسهلًا.

قالتها سيدة بمُنتصف العُمر تقريبًا، مُمتلئة القوام، ترتدي جلبابًا أسود، ولفت رأسها بطرحة ينبعث منها روائح الطعام.

- أهلًا بكِ.

كانت تتفحصني من أعلى رأسي لأخمص قدمي عندما نظرت لعمرو وهي تخبره:

- لم تصفها لي بمثل هذا الجمال! ما شاء الله!

كنت سأشكرها عندما جاءت مجموعة من الفتيات بأعمار مُتدرجة التفوا حولي، ورموني بوابل من القبلات. عرفني عمرو بهن الواحدة تلو الأخرى؛ صفية أخته التي تكبره سنًا، ومديحة أخته الصغرى. أما عن بقيه الفتيات فهن بنات أختيه، كان عددهن حوالي ست فتيات بأعمار مُتدرجة.

سلم خشبي يقود للدور الأعلى، وفي جانب الردهة مطبخ كبير تقوم أمه بمساعدة خادمة سمينة سوداء بإعداد الطعام، وعلى أكثر من موقد يعمل بالحطب وسعف النخيل وضعت قدور طهي نحاسية كبيرة. المكان بسيط ودافئ تمامًا كتلك البساطة والدفء الذي يشع من سكانه. لم أحظ بترحيب حار منذ قدومي لمصر كهذا الترحيب، وعلى تلك الطاولة التي جاءت فتاتان تعدانها للطعام تراصت الأطباق والملاعق. بينما وضِعت قدور الطعام من الفخار يخرج منها الدخان ممتزجًا بروائح شهية.

اعتذر عمرو عن الذهاب لتغيير ملابسه بعدما أخبرني أن البيت بيتي. مجموعة من الغلمان الصغار تراصوا خلف الستارة يسترقونِ النظر لي، وعندما لمحتهم فروا هاربين. طاف نظري بالمكان، من الواضح أنه أُسس منذ زمن؛ السقف من ألواح الخشب المتراصة الواحد تلو الآخر، والأرضية من بلاطات الموزايك العريضة. لم تكن أي لوحة تشغل جنبات المكان، أو حتى صورة.. فقط مزهرية وضِع فيها بعض الزهور.. تساءلت: وهل بمقدورهم تخيل أني قد تركت وطني لآتي هُنا لأزين القصور برسومات ونقوش ليسكن بها غيري؟

وقع أقدام على الدرج الخشبي، أنظر لأعلى لأجد عمرًا ينزل الدرج بعباءة عربية. كانت المرة الأولى التي ألمحه بها دون زي عسكريّ. تمامًا كرجل خارج من أروقة التاريخ العربية.

ابتسم عندما رآني أتأمله...

- أرتاح في هذا الزي أكثر.

- العباءة تليقُ بك كأميرٍ شرقيٍّ وسيم.

فجأة سمعت صوت حوافر للخيل، وحدثت ربكة في صف الفتيات. يعدلن من مظهرهن ويتراصصن في صف. بينما يدخل الدار شيخ في الستين من عمره، بلحية بيضاء وملامح حادة، ولكن تحمل بعض الطيبة. يرتدي العباءة العربية، ويربط على وسطه حزامًا أبيض، وفوق كل ذلك الجبة. ولم يتخل عن لبس المركوب. بينما دخل معه شابان. من ملامحهما تأكدت أنهما أخوا عمرو. أخذني عمرو لأبيه الذي وقف يتلقى التحيات، وعندما جاء دوري نظر إلي طويلًا ثم قال:

- ها أنت ضيفتنا الفرنسية، أهلًا وسهلًا بك.

- أهلًا بك.

- وتتحدثين العربية!

-نعم، أتقنها.

عرفني عمرو على أخويه؛ محمد الذي يصغره بعام، وأحمد الذي يكبره بعدة أعوام. كان الأول يقوم بمساعدة أبيه في تجارة السجاد، بينما الآخر في عامه الأخير بمدرسة المهندسخانة. جلس الشيخ على الأريكة يمسك بمسبحته الخشبية، تنبعث منها رائحة مسك. عدلت من جلستي وأنا في مقابلته تمامًا...

- كيف وجدتِ مصر؟ وهل تشعرين بالراحة في إقامتك هُنا؟

سألني الرجل بالفرنسية الطلقة؛ اندهشت فلم أستطع أن أمنع نفسي من سؤاله:

- ولكن هل تتحدث الفرنسية؟

- لا تنسي أنني تاجر سجاد، تلك الصنعة التي تشغل عقول الأجانب من جميع الجنسيات وخاصة الفرنسيين منهم الذين تمتلئ بهم البلاد، ومن احتكاكي بهم أصبحت أتحدث لغتهم. كذلك بعد الحملة الفرنسية على مصر تخلف عدد كبير من الجنود الفرنسيين عنها وأقاموا بالبلاد، تزوجوا وأنجبوا. علموا أولادهم لغة بلادهم. لا تستغربي إن صديق طفولتي كان أحد هؤلاء الأولاد، وربطت بيننا صداقة طويلة إلى أن غادر بلاده منذ عدة سنوات.

نفس عميق، وأضاف وهو مشغول بالنظر إلى حبات مسبحته:

- عمرو أخبرني أنك تجيدين الرسم.

- نعم أجيده.

- هل تعرفين إذن رجلًا يجيد الرسم اسمه جيروم؟

- مؤكد أعرفه، فهو من أشهر الفنانين الفرنسيين، وخاصة في الاستشراق.

- إنه صديق لي.

- حقًّا!

- نعم، كان يتردد على السوق كثيرًا تارة للرسم، وأخرى للتأمل والتحدث مع الباعة والتجار. هو لم يكن يكتفي برسم المشاهد، بل يحب أن يتغلغل للنفس البشرية حتى يخرج ذلك برسوماته. ومن هُنا نشأت صداقة بيننا، كنت أنا شيخ تجار السجاد، ولم يكن ليدخل السوق ويخرج إلا بأمر مني. وخاصة أنه كثير التردد عليه. لقد أهديته سجادًا فارسيًّا بمثابة تحفة فنية، وعندما حضر من فرنسا في العام التالي أهداني شالًا من الحرير.

قهقه بصوتٍ عالٍ ثُم أضاف:

- لا يعلم أن الرجال المسلمين حُرم عليهم ارتداء الحرير، ولكن لم تضع هديته هباء فقد أعجبت بها زوجتي، وكانت من نصيبها. نعم هكذا هي الحياة تكون من نصيبك ثُم تُقسَم لغيرك.

ممتع هذا الرجل، بقدر سنوات عمره وخبرته بالحياة. من هؤلاء الرجال الذين إذا التقيت بهم لا تنساهم. يخلبك حديثهم الذي وكأنه جولة في أحد الأزقة بمدينة سياحية قديمة. كلما تجولت بها لا يصيبك إلا الدهشة والانبهار، وكانت عفويته سر لذة حديثه.

على المائدة التي تراصت عليها جميع أصناف المأكولات الشرقية الشهية جلست والدة عمرو الست زبيدة، وحولها بناتها وحفيداتها. بينما على مائدة أخرى أعدت

للرجال جلس الشيخ وحوله أولاده وأحفاده الذكور وأزواج بناته. إنه العُرف السائد في هذه البلاد على ألا يجتمع الرجال بالنساء يومًا. كانت الفتيات الصغيرات ينظرن لي وكأنني هابطة من كوكب فضائي، رُبما في تلك القبعة التي تزين رأسي، أو لملابسي الغريبة عنهن. والدة عمرو هي التي تقود دفة المائدة؛ فهي التي توزع الطعام على الأطباق. هي التي تفسخ البط والإوز المحمر بشكل شهي بيديها لنصفين، وتقوم بتوزيعه بالتساوي، وهي التي تسكب الحساء وتضع الأرز والمحشو في الأطباق. ومن الواضح أنها أجزلت لي العطايا، وهي لا تعلم أن أقل القليل من الطعام يشبعني. ولكن حتى لا أضايقها كنت أصطنع الأكل وأبطئ المضغ في فمي. حدثتني ويديها ممتلئتان بالسمن والدهن، وتمسك بأحد أوراك الطيور:

- هل الأكل لا يعجبك أم ماذا؟

- على العكس إنه أجمل ما تذوقت.

- إذن لماذا لا تأكلين بشهية؟! تناولي طعامك حتى تسمني فأنتِ بحاجة لتزيدي عشرين كيلو على الأقل.

ردت صفية:

- لا يا أمي فهي جميلة هكذا.

- يا ابنتي هي نعم جميلة، ولكن تحتاج لتسمن، انظري إلى جسدها هو مسطح كجسد صبي صغير.

كنت مقارنة بها وبأحجام المصريات كما تقول تمامًا. لذلك لم أشأ أن أجادلها...

- وهل تجيدين الطهو؟

- الفرنسي نعم أجيده وأجيد الخبيز أيضًا، أما الطعام المصري فلم أجرب طهيه.

- وتخبزين المشلتت؟

باستغراب رددت الكلمات وراءها:

- مشلتت! لا وما هذا؟

- ألم تقولي للتو أنك تجيدين الخبيز؟

- الخبيز الفرنسي، العيش الفرنسي والفطير المحشو وهكذا...

لم أكن معتادة على الحكي أثناء الطعام، ولكن في مصر لا يحلو لهم الحديث إلا وهم يمضغون الطعام.

- ومن علمك الخبيز؟

- أمي خبازة ماهرة عملت في مخبز شهير بباريس، والآن قد افتتحت مخبزًا ومقهى خاصًّا بها.

نظرن لي جميعهن باستغراب، وكنت أعلم أن سيدة تفتتح مخبزًا ومقهى أمر يصعب تصديقه. مديحة التي كانت طيلة الوقت تعقب على كلامي بفتح فمها على متسعه، أخيرًا قد قررت ملاحقتي بالأسئلة:

-وهل يسمح عندكم للمرأة أن تدير المقاهي وترتادها؟

- عندنا يسمح للمرأة بالعمل في كل شيء.

- وهل تسرن في الشارع كاشفات الوجه؟

- نعم.

ضحكن بصوتٍ عالٍ، بينما واصلت أمه ملاحقتي بالأسئلة: ما عدد إخوتي؟ وماذا يفعلون بحياتهم؟ ولماذا أرسم؟ وما الذي أجنيه من وراء رسمي.. و.. و.. و؟

انتهينا من الطعام، جاءت الخادمات لتسوية المكان. بينما قادتني صفية للحمام لأغسل يدي في قدر من النحاس، ودورق من الصاج المطلي بالمينا، وصابون بزيت الزيتون ساعدتني على غسل يدي وهي تسكب لي الماء.

ناولتني منشفة بيضاء مطرزة الحواف ينبعث منها روائح للزهور. كان البيت على بساطته ينبض بالنظافة التي تلمحها في كل شيء. صواني نحاسية كبيرة وضع عليها أكواب الشاي الزجاجية، وعروق النعناع الأخضر التي أكسبته نكهة عَطِرة. كان لا يزال عمرو هُناك بصحبة الرجال، بينما كنت أنا هُنا محاطة بعيون تتأملني. سألتني مديحة، قائلة:

- أين تعيشين، ومع من؟

- أسكن في منطقة الإسماعيلية في شقة استأجرتها السفارة للبعثة، في البدء كانت تشاركني السكن زميلة لي اسمها كارلا، ولكن قد أصابتها الحمى الشديدة وتوفاها الله، والآن أعيش مع جارية سوداء تُسمى جوهرة.

حديث دام لأكثر من ساعة، كانت خلاله تطوف صواني القهوة والحلوى، ثُم الشربات بنكهاته المختلفة، وكان علي أن أحتسي كل ذلك دون تذمر أو أعذار. علا صوت الأذان يردد: (الله أكبر الله أكبر) إيذانًا بموعد صلاة المغرب. عندما انسحب الرجال الواحد تلو الآخر لإقامة الصلاة في المسجد غادرت بعدما عانقني الجميع لوداعي. كانت العربة في انتظارنا على حافة الزقاق.

كنت أجلس بجواره، أشعر أنه رجل خارج من ذاكرة التاريخ. حبه الشرقيّ بدل حياتي، غير من عاداتي وتقاليدي. قضى على برودة المدن المتحضرة التي أقبلت منها، أرجعني للوراء حيث البراءة والجمال. بجواره سعيدة بسكينتي معه واستكانتي إليه، أتركه يتولى الدور الأساسي في العلاقة، دور الرجولة الآمرة الناهية التي تقود الدفة. وأخيرًا كان قد تحدث قائلًا:

- أتمنى أن تكوني قد استمتعت بوقتك.

- كثيرًا، مُنذ الزمن لم يرحب بي أحد بمثل هذا الدفء.

أوصلني حتى باب البناية، دعوته لتناول فنجان من القهوة. اعتذر بأن الوقت متأخر، صافحني وغادر بعدما تواعدنا للقاء غدًا في ذات المكان، وفي نفس الموعد. استقبلتني جوهرة بوجه بشوش فَرِح، سألتني عن موعدي، وسألتها عن موعدها.. طأطأت رأسها أرضًا، ثُم أجابتني بصوت يكاد يكون مسموعًا:

-لقد طلبت منه أن يتزوجني.

- ولكن جوهرة، ماذا تقولين! هل جننت! تتزوجين منه؟!

- نعم، أنا أحبه، وإن لم أتزوجه فلن أتزوج بغيره.

- ولكنه لا يصلح للزواج.

- في كتابنا الحكيم يقول الله: (وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) ... وهذا كافٍ يملك كل منا للآخر مودة ورحمة.

- ولكنك بذلك تكونين قضيت على حلم الأمومة.

- وما الفارق! فإن لم أتزوج به فلن أتزوج بغيره، وفي كلتا الحالتين لن أصبح أمًّا.

- وهل وافق؟

- في البدء رفض وبكى بكاءً مريرًا، ولكنني أقنعته.

- ومتى ستتزوجين؟

- فور سفرك لبلدك، لن أتركك.

ضممتها في حضني، وشكرتها.. تلك السمراء بعيون كحيلة التي لا تأبى أن تتزوج مَنْ نبض القلب له حتى وإن كان معطوب الذكورة.

جلست لأرسم هذا المساء؛ فكان هُناك الكثير من اللوحات كنت قد بدأتها ولم أنهها بعد، إلا أن وميضًا من الضوء كان يشق نور الصباح؛ فاستلقيت على الفراش.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

51

اقترب موعد حفل قناة السويس الذي تحدد له الخامس عشر من نوفمبر، ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف الصحف والمجلات عن الحديث عن الإعدادات الخاصة لذلك الحفل الأسطوري لحدث يشبهه كثيرًا. رست (الإيجل) باخرة أوجيني في مياه الإسكندرية، وأضيئت أنوار تلك المدينة التي تُقيم فيها النسبة الكبرى من مواطني فرنسا. هؤلاء الذين استعدوا لتلك الزيارة قبلها بأسابيع، عندما أعلنت السفارة الفرنسية والبنوك والمقاهي الفرنسية عن فتح باب التبرعات، وجمع الأموال لتزيين المدينة بما يليق بقدوم الإمبراطورة. وفي صباح أحد الأيام ارتدت المدينة حلتها الأجمل، استيقظ الأهالي مبكرين، كل منهم ارتدى أناقته وغادر على شوق لقاء ملكته التي مرت على أحلامهم مرور الكرام. فقد استقلت القطار مباشرة لمدينة القاهرة، حيث علقت الزينات في الشوارع، ونُثرت الورود، وأقام الخديو حفل استقبال للإمبراطورة في سرايا الجزيرة، دعا فيه أعضاء البعثة وأهم وأبرز الشخصيات الفرنسية المُقيمة بالقاهرة، والوفد الفرنسي من فنانين وأدباء وصحفيين، الذين حضروا خصيصًا لحضور ذلك الحدث. وسمعت أصوات الموسيقا تنبعث من السرايا حتى فجر اليوم التالي. أخبار ذلك الحفل تصدرت صفحات الجرائد الوطنية والأجنبية، وكالعادة جريدة أبو نظارة لم تخلُ من النقد اللاذع.

سلمني مدير البعثة دعوتين كتبتا بخط مذهب رشيق وبعثت للمدعوين ومنهم أنا، إحداهما لحفل افتتاح الأوبرا، وكان بتاريخ 1869/11/1 والدعوة الأخرى لحضور حفل افتتاح قناة السويس، وكانت بتاريخ 1869/11/19، كانت إقامتي في بورسعيد ستكون في فندق بالاس هاوس، وقد بناه الخديو خصيصًا لإقامة الوفود اللائي سيحضرن الحفل.

منذ أن استقلت أوجيني الباخرة التي أقالتها لميناء الإسكندرية لم تتوقف الجرائد المصرية والفرنسية عن نشر الخبر، ورُبما كان مجيء الإمبراطورة في موعد يسبق حفل الافتتاح بثلاثة أسابيع مثارًا للدهشة والتساؤل.

خاصة وأن مجيئها بدعوة رسمية لافتتاح القناة، ولكنها كانت تخطط لقضاء رحلة مثيرة لبلد طالما حلم الجميع بزيارته.

في أمسية لي قضيتها في مقهى لوكير بميدان الأزبكية -وهو المقهى المخصص للجالية الفرنسية في مصر- وفي ذلك المكان تحديدًا ما أن تخطو عتبة الباب وتنتقل لمقهى على ناصية الشانزلزيه، حتى تغشاك روائح القهوة، والمخبوزات، الجرسونات، الديكور. على طاولة كبيرة تجمع فيها أعضاء البعثة كان ضيفنا مسيو برايس دافين، وهو أبرز رجال الوسط الفرنسي بالقاهرة التي حضر إليها في أول القرن، وعمل لدى الباشا محمد علي؛ منذ ذلك الحين وهو يطوف أنحاء البلاد يدون ويسجل كل شيء خاصة وأنه مهندس ويجيد فن الرسم كست وجهه الكثير من التجاعيد. له حاجبان كثيفان، ولحية تحتاج للكثير من التهذيب. على المقعد المجاور

له كان الأديب اللامع غوتيه جاء في زيارة لمصر ستمدد لحضور حفل القناة. صافحتهما بحرارة اللقاء. أليس من الغريب أننا أبناء الوطن الواحد، ونحن على بعد عدة أمتار عن بعض هُناك بفرنسا، عند لقائنا يكون هُنا في مكان يفصل بينه وبين وطننا البحار والأنهار! غوتيه بملامحه الدقيقة وصوته الهادئ تطلع إليَّ لبرهة، ثم قال:

ها أنت تجلسين هُنا، وأنت تمتلكين المقهى الأشهر في باريس!

أصابتني البهجة، ها هو مقهى نتاليا أصبح الأشهر في باريس! لم تخلُ جريدة فرنسية من نشر أخبار الطبقة الأرستقراطية التي تقصده باستمرار، والأحاديث واللقاءات العشقية التي تتم خلسة فيه.

- الغريب حقًّا أننا عندما نلتقي.. نلتقي هُنا! أنظر كم من شارع رُبما كان قد صادف مرورنا به في ذات التوقيت، ولكننا لم ننتبه لذلك حتى يجمعنا هُنا اللقاء!

رد برايس دافين بصوت مبحوح:

- والغريب أكثر أن إمبراطورتنا أيضًا هُنا.

تعالت الضحكات بينما أضاف برايس دافين:

-لقد اصطحبت معها ما لا يقل عن ثلاثين فردًا من حاشيتها ووصيفاتها، حتى إنها اصطحبت معها مصففة شعرها، ومصممة أزياء.

أجاب مسيو دوكمب أحد أعضاء البعثة:

-ولم لا! والخديو منذ شهور يُعد الترتيبات التي وضعها خصيصًا لها، كل شيء في غاية الجمال والثراء والترف. حتى إنه كون لها لجنة تشرف على إقامتها في مصر، وسيكون رئيسها نوبار باشا وزير خارجيته.

صوت من نهاية الطاولة، يقول:

من الواضح أنه مُغرم بها ووقع أسيرًا لجمالها.

رد مسيو دوكمب بصوت يملؤه الحسرة:

- وقد اعتذرت للجالية الفرنسية المقيمة بالإسكندرية عن ذلك الخطأ غير المقصود بمرورها مرور الكرام على مدينتهم، ووعدتهم أنها في رجوعها للإسكندرية عند مغادرتها البلاد ستقيم لهم حفلًا، وتلتقي بهم عوضًا عن ذلك.

وزع علينا أحد الحاضرين كتيبًا صغيرًاعن تاريخ مصر الفرعوني أعده مسيو مارييت بأمر من الخديو إسماعيل؛ حتى يوزع على المدعوين والوفود الأجنبية. أضاف أحدهم:

- إن الخديو إسماعيل لم يكتفِ بذلك فقط، لقد أمر بإنشاء أول مدرسة لتعليم الفتيات لكي تراها الإمبراطورة!

تعالت الضحكات أكثر، كانت جلسة مُمتعة، خاصة أنني علمت الكثير عما يجري هُناك في فرنسا، وكنا نتبادل الأحاديث والنكات بالتفاعل الذي يحدث بين أبناء الوطن الواحد، وبلغة فرنسية صحيحة تمامًا. وفي الحقيقة كان قد مسني الحنين للغتي وبلدي.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

52

كانت الثالثة من عصر يوم الأحد كموعدي معه دومًا، أجلس على المقعد الخشبيّ بمواجهة البحيرة التي تمتلئ بالبجع الأبيض والبط الأسود. أقوم بقذف الحصى الصغير في البحيرة فيصدر صوتًا، ويرسم دوائر فوق صفحة الماء. عندما لمحته قادمًا من بعيد، أراقب خطوته الواثبة كجواد في حلبة للسباق. يخطو بثقة المراهنين عليه. ابتسم عندما رآني، ولوح لي وبعيون تلمع من شدة الشوق قال:

-كنت أخشى ألا تأتي.

- ولماذا لا آتي؟!

رُبما بعد لقائك مع أسرتي، ومشاهدتك للحياة البسيطة...

عندها وضعت يدي على فمه حتى لا يتفوه بتلك الكلمات.

-ومن تظنني أكون! فلولا خطط القدر لكنت مازلت تلك الفتاة التي ترتدي ملابس مهلهلة وحذاء أنهكه الزمن، على العكس عمرو؛ فقد شعرت يومها بألفة ومودة لم أشعر بهما من قبل. أمك التي تملك حنان كل أمهات الأرض، وأختك صفية وترحيبها بي، وتلك المائدة المستديرة وأصناف الطعام الشهية. كُل ذلك مس في الحنين لحياتي البسيطة هُناك حيث الحياة بدون عقد أو نفاق.

أثرت فيه كلماتي تلك، وأزاحت شكوكه فابتسم قائلًا:

- منذ رحيلك وهم لا يتوقفون عن الحديث عنكِ، وعن جمالك، وبساطتك، وإتقانك للعربية.

اقترب مني ولف ذراعه خلف ظهري، بينما سندت رأسي على كتفه، وتوقفنا عن الكلام. كُل منا ينصت لذلك الشوق واللهفة الصارخ بداخله. كم من الوقت مر علينا ونحن هكذا؟ لا أعلم! ولم يكن يعنيني أن أعلم؛ فلم أكن بحاجة لحساب الوقت حتى وإن مر العُمر كُله وأنا ساكنة بجواره.

سأمر عليك غدًا لاصطحابك لحضور افتتاح الأوبرا.

- حقًّا!

- نعم، بالرغم من وجودي هُناك لتأمين الحفل والمدعوين، فإنني سأنتهز الفرصة لأبقى بجوارك لمشاهدة العرض، وأفتخر بأنكِ شاركتِ في بناء هذا المكان الراقي الأنيق.

غادرت الشمس وغادرنا معًا، نسير على صلابة المستحيل، ونحن ننتعل هشاشة الممكن.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

53

نوفمبر (1869):

كان حفل افتتاح الأوبرا لا يقل أناقة عن الحفلات التي أقامها الخديو إسماعيل على شرف الإمبراطورة. وبينما كان الجميع في انتظار أوبرا عايدة التي أعد موسيقاها الإيطالي الأكثر شهرة (فيردي)، وقام بتأليفها (مارييت بيه) [عالم الآثار الفرنسي الذي استوحى القصة من حكايات الفراعنة] تفاجأ الجميع أن العرض تغير إلى رواية أخرى بعنوان (ريجوليتليو)، فلم ينته العمل بأوبرا عايدة بعد؛ لذلك قدمت الفرقة تلك الأوبرا حتى يتسنى للإمبراطورة أوجيني أن تقوم بافتتاحها كما خطط خديو مصر. كان الحفل كما رسمته بخيالي تمامًا. الشيء الوحيد الذي لم أتخيله وقتها جلوسي في مقعد مجاور مع هذا الرجل الذي جئت بمصاحبته لحضور العرض.

ارتديت يومها فستانًا من القطيفة الزرقاء، بسيطًا وأنيقًا، ولففت جسدي بمعطف من فراء المنك. دخلنا للمكان وهو يتأبط ذراعي، نعلن عن حبنا للجميع. ما أجمل تعلقي بذراعه! ووجودي في حياته! كنت أسير بجواره فخورة به وبوسامته الخرافية الشرقية، وبذلته العسكرية. استمتعنا بالعرض كما استمتع به جميع المدعوين. واشتد التصفيق في أرجاء المكان الذي كان أنيقًا بشكل يصعب تصديقه. أثناء مُغادرتنا كانت العربات الملكية الذهبية بالخيول المزركشة تصطف أمام المكان. نظر لي عمرو قائلًا:

- أتساءل إذا لم تحظ أيٌّ من تلك العربات الملكية بشرف توصيلك! فمن التي تملك غيرك ذلك الحق؟!

- أحب عربة حبنا، تلك العربة من الزهور ومن الدهشة ومن الألوان، لن تدري كم أكره صخب الثراء الكاذب، وطقوس الفرح المُزيف.

ونحن نركب عربة كوبيه تجرها الخيول...

-أعدك بأن حياتك ستكون دومًا ممتلئة بدهشة وفرحة، وستكون حياة ملونة.

كانت كلماته زينتي وحليي التي أتدثر بها؛ لذلك سندت رأسي على كتفه، وشعرت بدفء وأمان.

- باقي على حفل القناة عدة أيام؛ سأستقل القطار صباح الغد للسفر إلى هناك أيمكننا أن نلتقي هُناك؟

- إذا أُتيحت لي الفرصة فسأمر عليك بالفندق، وسأنحني للقدر شاكرًا في حالة إن التقينا مصادفة. مؤكد ستكونين وسط الحشد الراقي للبعثة، والوفود الدبلوماسية الفرنسية. وأنا سأكون ممتطيًا صهوة جوادي لأتفقد الأمن والنظام بعد ذلك العرض العسكري الذي سيقوم بأدائه الجيش المصري.

لقد حان موعد افتتاح القناة، والسند الدبلوماسي الذي يؤهلني للإقامة في البلاد قد انتهى وعليَّ الرحيل، رُبما قد لاحظ امتقاع ملامحي؛ وكأنه قرأ أفكاري فسألني بلهجة حزينة:

- ولكن ماذا تنوين فعله بعدها؟

نفس عميق ثُم أجبته:

لا أعلم حقًّا، ولكن رُبما علي الرحيل.

حضن كف يدي بقوة، وربت عليها وكأنه يمنعني من ذلك...

وإذا طلبت منكِ ألا تذهبي؟

- كيف؟

- نتاليا، أريد الزواج منكِ لأبقى معك طول العمر.

نطقها سريعًا بدون توقف، بدون انقطاع وكأنها رصاصات من الفرح، أطلقها إلي ليقتل حزني:

حقًّا!

- رُبما هي الحقيقة الوحيدة التي أومن بها، وأرجو من الله تحقيقها.

- ولكن...

- ليس هُناك لكن، أرجوك لا تجمعي حُزمة مشاعرنا وتعقديها برباط من أدوات الشرط (لكن ولو وإذا)، ولا تجعلي تلك الأحرف تتناوب عليك.

سألته السؤال الذي كنت أريد أن أسأله لنفسي بنبرة حزينة:

-كيف سيتقبل أهلك خبر زواجك من إفرنجية؟

- لماذا تظنين أنني طفل في العاشرة! إنها حياتي نتاليا، وأملك من العمر والنضج ما يؤهلني لأقرر بنفسي الخطأ من الصواب.

- (وأنا كيف سيستقبل أهلي خبر زواجي من مصري؟).

-كان الأجدر بي أن أوجه لنفسي هذا السؤال، من الواضح أنني سأقتبس إجابته وأظل أرددها كثيرًا: (أملك من العمر والنضج ما يؤهلني لأقرر بنفسي الخطأ من الصواب).

- الأمر يحتاج بعض التفكير لكلينا، ليس التفكير في حقيقة مشاعرنا تجاه بعضنا، إنما حقيقة ما إذا كانت تلك المشاعر قادرة على الانتصار على كل ما سيقابلنا من مشاكل.

بنبرة أكثر علوًّا:

- مشاكل! تتحدثين كما لو أننا مُقبلان على حرب، وليس زواجًا يتوج قصة حبنا. اسألي أهلك هل باستطاعتهم مباركة هذا الزواج أم لا؟

لا أعلم لماذا عندما نطق بكلمة أهلك وجدت نفسي أفكر في كريس، تراءت لي صورته على الفور. إنه شعوري العميق تجاهه كأخ وصديق، ولكن تُرى ماذا ستكون وقتها ردة فعله؟ وهو الذي لم يتخذني يومًا سوى حبيبة!

وأمي.. كيف ستتلقى الخبر؟!

أصبحت سجينة داخل دوائر مُغلقة من علامات الاستفهام...

- امنحني إذن الفرصة للتفكير، وسأجيبك بعد رجوعي من الحفل.

توقفت العربة، وودعته على أمل بلقاءٍ قريبٍ.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

في حقيبة سوداء صغيرة وضعت احتياجاتي للإقامة لعدة أيام في مدينة بورسعيد. كان أفخمها فستانًا من الموسيلين الأسود. محلى بالفراء عند العُنق والأكمام. استقللنا عربة القطار الذي ازدحم بأكمله لنقل الضيوف.

وصلنا عند العصر تقريبًا. كانت مدينة جميلة بنيت على النمط الأوروبي في المباني التي لا تعلو عن دورين. يحدها بوابات حديدية وحدائق كبيرة وشوارع فسيحة مُمتلئة بالزهور والأشجار ومبلطة الأرضية. بها الكثير من المقاهي وعدد من الفنادق. أصبحت المدينة كعروسٍ في ثوبِ زفافها. الزينات في كل مكان، والأنوار والضيوف من شتى أقطار الأرض. الكل في كامل أناقته سعيد مبتهج...

كان الحفل بمثابة كرنفال. أوجيني كانت نجمته. اسمها وأخبارها يترددان على كل لسان. الجميع يأمل في رؤية تلك المرأة الجميلة زوجة إمبراطور أعظم دولة في العالم. في الميناء كان هُناك أكثر من ثمانين سفينة من مختلف الجنسيات ترفرف أعلام الدول التابعة لها على سطحها. كانت أهمها (الإيجل) التي وصلت على متنها الإمبراطورة وسط تصفيق الجميع عند رسوها على الميناء، وإطلاق طلقات المدافع ترحيبًا وابتهاجًا بها. الكل كان بانتظار إمبراطور النمسا (فرانسوا جوزيف) إلا أن عاصفة هوجاء قابلته عند مغادرته يافا أخرت موعد وصوله. ظهر الخديو إسماعيل بهيبة وقاره المعتاد. ألقى كلمة الافتتاح، شكر المدعوين وبخاصة الإمبراطورة التي ابتسمت في خجل عندما قال على الملأ (روحك الشّجاعة تفعل أفضل الأشياء في صمت). على رصيف (الإيجل) كان الشيوخ مع رجال الدين المسيحي جنبًا إلى جنب. ألقى شيخ الأزهر خطبة طويلة، تلاه مونسنيور باوير

مرشد قصر التويلري. كان بمثابة عيد يحتفل به كل أجناس الأرض وجميع الأعلام والرايات تُرفرف مع نسيم البحر. الفرق الموسيقية تجول في المدينة تعزف الألحان. فتيات جميلات يرتدين أثوابًا بيضاء، ويعلقن على صدورهن أسبتة من الخوص تمتلئ بالزهور والحلوى يوزعنها على الضيوف.

الفُندق الذي أُقيم فيه كان بمثابة فُندق عالميّ بالرغم من أن النسبة الكبرى من الفرنسيين ينزلون به فإنه كان هُناك الكثير من الجنسيات المُختلفة أيضًا. يمكنك سماع جميع اللهجات في قاعة الطعام.. التقيت بعددٍ كبيرٍ من الفنانين الفرنسيين؛ منهم من جاء بمصاحبة الإمبراطورة، ومنهم من جاء بمفرده على نفقته الخاصة. في المساء خرجنا نتجول في المدينة الساحلية أنا وعدد من أعضاء البعثة، وأخيرًا كنت تناولت عشائي وأخلدت للنوم بعد يوم ممتع وطويل. في الصباح كان الكل يستعد لمغادرة المدينة إلى مدينة الإسماعيلية التي تبعد عنها القليل حتى يتسنى لهم رؤية افتتاح القناة بعبور أول باخرة بها. وكانت (الإيجل)، وعلى متنها الإمبراطورة أوجيني والخديو إسماعيل. احتشد الجميع فوق الأماكن العالية على حافة القناة، ينتظرون قدوم الباخرة، وفي الخامسة والنصف تقريبًا من مساء اليوم ظهرت (الإيجل) تمر ببطء في القناة. الكل يكتم أنفاسه إلى أن دخلت أخيرًا الميناء لتنطلق

المدافع، وتصفق الجماهير. تقف أوجيني بكامل أناقتها في مؤخرة السفينة، بجانبها ديليسبس. تُلوح بمنديلها للجميع، تطير القبعات في الهواء، الجميع يتبادل العناق من مهندسين، وموظفين، ووزراء. تغيب الشمس وتضيء البلدة الجميلة الأنوار الألعاب نارية أمام قصر الخديو إسماعيل. خيام لموائد الطعام في كل مكان. كانت أفخمها مأدبة بالخيمة الخديوية التي شاركته فيها أوجيني والإمبراطور فرانسوا، والمندوب عن السلطان العثمانيّ، والشيخ عبد القادر، وكبار رجال الدولة المصرية والعثمانية. وقبل الحفل بعدة أسابيع طلب الخديو 500 طاهٍ من أفخم مطاعم العالم من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وتركيا، ومؤكد من مصر.. لذلك كان الطعام متنوعًا وكثيرًا.

بسطاء العمال والفلاحين والبدو الذين أمر الخديو بحضورهم الافتتاح يرتدي كلٌّ منهم الزي التابع لمدينته، كانوا يأكلون ويثرثرون وهم سعداء. على المقعد المجاور لي الكاتب والفنان أوجين فرومنتان من أشهر كاتبي فرنسا، كنت أره وهو غير مشغول بطعامه بقدر تأمله لذلك البذخ وهو يخطط ليكتب عنه. بعدها عندما لمحني أنظر إليه ابتسم قائلًا:

- هل رأيت أكثر من ذلك بذخًا وجمالًا؟

ابتسمت وأنا أخبره:

أبدًا!

سألته:

- ولكن، لماذا لم يحضر الأديب غوتيه؟

- لسوء حظه لقد تعرض للسقوط وأُصيب بكسر في ذراعه، ويقيم الآن في إحدى الغرف بفندق شبرد.

في الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم عشرين نوفمبر دخلت (الإيجل) البحر الأحمر لتتغير خريطة العالم، وأخيرًا وبعد عرض كرنفاليّ رائع استمر لعدة أيام كنت مشغولة فيه بكل تلك الوجوه؛ فأنا المولعة بالوجوه، ولم

أكن لأفوت تلك الفرصة التي أهداني إياها القدر. كنت أجمع أغراضي للرحيل عندما طرق أحدهم طرقًا خفيفًا على باب الغرفة...

- أنت!

لا أخفي أنني كنت خلال تلك الأيامِ الماضية أشتاق له كثيرًا، كنت باستمرار أبحث عنه بين الوجوه، كلما لمحت ضابطًا من فوق ظهر خيله تطلعت إليه لعله يكون هو، ولكن في كل مرة يخيب ظني. والآن ها هو أمامي مُباشرةً، فماذا علَّي أن أفعل! وقتها لقد وجدت نفسي بين يديه، ضمني إليه بقوة شوق الأيام التي التقينا -ولم نلتقِ- بها، بشوق مؤجل، بشوقٍ كانت تحكمه الكثير من التقاليد والقيم، ثُم سحب كف يدي وأمطره بقبلات ساخنة، ثم ببطء تنازلي يقبلني من جبهتي إلى أن يصل لشفتيَّ يضع عليهما قبلة خفيفة، وينزل لعنقي ليدفن وجهه به وهو يهمس: (أحبك). عطر شرقيّ

قويّ لخشب الصندل ينفذ منه، يتسلل لداخلي لأجد نفسي وقد أصابني الخدر من ضمته وقبلته، عطره وسطوة رجولته. تعبث يده في ظهري، تفك الشرائط المعقود بها ثوبي.. أنا أفك ربطة شعري شريطًا وراء شريط ينزلق الثوب على الأرض، تضغط يده بعنف مغلف بالحنان على قميصي الحريري، وهو يطوق خصري ويهمس: (أحبك).

هل كان لا بد لنا هذا الصباح أن نخلع عقولنا ليرتدي كلٌّ منا جسد الآخر! أمطرت السماء يومها في يوم غير متوقع للمطر. غيمة غادرت السماء وجاءت تهطل على فراشي! سألته وأنا بين يديه أيكما الذي يهطل بقوة وغزارة بداخلي أنت أم المطر؟! أزاح خصلات الشعر من على وجهي وابتسم بحزن ولم يجب.

أوصلني للمحطة، وسألني وهو يودعني:

-ماذا تنوين أن تفعلي؟

- سأجهز لحفل زفافنا.

لم يتمالك نفسه من الفرح، رفعني لأعلى وأخذ في الدوران بي. ألهته الفرحة عن نفسه فلم ينتبه أو يهتم لوجود أحد، وكأن العالم على اتساعه وقتها لم يعد به سوانا عندما تجاوزنا الواقع بالأحلام.

-ومتى تريدين أن نعلن ذلك؟

-عندما ننهي استعداداتنا، ولكن هل حدثت أهلك بالأمر؟

- نعم قبل حضورك بيوم كنت قد أخبرت أبي، وطلب أن يتعرف إليك.

وبعدها ابتسم لي قائلًا:

- حقًّا أحسنت الاختيار.

- وأمك؟

- أمي وأخواتي البنات مبهورات بك، بجمالك وبثقافتك، ويشعرن أنك امرأة شرقية.

ودعني وهو ينبهني أن أعد نفسي لحفل في نهاية الأسبوع بمناسبة إعلان خطوبتنا.

- حفل! ولكن أي حفل؟! ولماذا لم تخبرني مُسبقًا؟

- اطمئني، إنه ليس كتلك الحفلات الراقصة التي يقيمها الخديو على شرف الإمبراطورة إنه حفل بسيط، لا تشغلي بالك.

طوال رحلتي في القطار كنتُ أُفكر في ذلك القدر الذي أنا مقبلة عليه. تُرى هل كان من الصواب أن أرتبط به، مراكب تذهب بي بحمولة الأحلام؟ وأخرى تعود بي بحمولة الأوهام؟! وقتها شعرت أنني بحاجة للتحدث مع أحد..

إنها تلك الفضفضة التي تبعث على الراحة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

55

في الثالثة كان موعدنا كالعادة، الهواء بارد وأوراق الشجر ترتعد على الأغصان، كنت ألف نفسي بشال من الكشمير الهندي فوق أحد فساتين الكوكتيل البسيطة، فقد أخبرني عمرو أنه مجرد حفل بسيط، وقفت بنا العربة على أعتاب الشارع، عندما وصلنا كانت البوابة الخشبية مفتوحة وصبية صغار يلعبون في الحوش الفسيح، بينما كالعادة رائحة الطعام الشهي والخبز الطازج تتسلل من البيت، استقبلتني والدة عمرو وأخواته بحرارة اللقاء، كنت أقف معهم في المطبخ أساعد في إعداد الطعام، أسأل والدة عمرو كيف تصنع هذا الحساء أو ما نوع ذلك البهار الذي يشع رائحة شهية عند تحميصه، وكانت تخبرني بحماس وحب. أوكلت للجارية الحبشية السوداء إتمام إعداد الطعام واصطحبتني من يدي للدور الأعلى، في ردهة صغيرة ثُم باب خشبي مغلق أزاحته بيدها، فتح على غرفة استقبال كبيرة بأرائك عربية ونافذة من المشربية تطل على فناء المنزل الخلفي «المندرة»، مكان فسيح تراصت به المقاعد والطاولات يستقبل فيه الضيوف الرجال. كان عمرو يجلس بين أبيه وأخيه ورجل آخر لم أكن شاهدته مُسبقًا، كانوا يدخنون الأرجيلة ويحتسون القهوة، عرفتني والدة عمرو على سيدة سورية يهودية تقوم بحياكة الملابس لنساء وبنات الحي تسمى «ظريفة»، أوكلت لها والدة عمرو مهمة إعداد جهاز العروس، من ملابس متعددة القطع والأشكال حتى الملابس الداخلية، كانت تصنعها من الحرير وخيوط الدانتيل، وقفت لتأخذ مقاساتي ثم ابتسمت بخبث قائلة:

- قياس خصرك 30، تحتاجين لعدة كيلو جرامات من الدهن حتى تمتلئي وتصبحي أنثى شهية.

ابتسمت والدة عمرو قائلة:

- انتظري بعد الزواج بعدة أشهر وعند أخذك قياسها مجددًا سوف تذهلين، سيزيد قياسها عدة سنتيمترات.

ابتسمت ظريفة قائلة:

- حقًّا هذا يحدث دائمًا.

أخذت ظريفة في تدوين قياساتي، وفتحت سلة من الخوص بها أنواع وأشكال من الأقمشة وهي تخبرني بأنواعها، والموديلات التي سوف تقوم بتفصيلها لي، كنت أعلم تمامًا أن ظريفة لا تتقن سوى تفصيل الثوب العربي، لذلك لم أجهد نفسي معها أو أطلب منها موديلًا مخصوصًا، فذلك سوف أقوم بعمله مع خياطة فاطيما الفرنسية التي تصلها أحدث كتالوجات الموضة، أما عن والدة عمرو فلن أخيب أملها، فسأتركها تفعل ما يحلو لها، لا أريد أن أجعلها تشعر بحزن لأن ابنها اختار فتاة فرنسية من ذلك النوع الذي لا يمتثل لأوامر ورغبات حماته.

كم من الوقت أخذته تلك السيدة في أخذ قياساتي وتشبيك وتدبيس الأقمشة على جسدي؟!! أخيرًا كانت قد انتهت، كنت أنظر إليها وأنا أتذكر مدام رينيه دومنيك

وهي تأخذ قياساتي، وأشعر أن ذلك كان في زمن آخر، أنا التي تبادل على أخذ قياساتي أشهر مصممي الأزياء الفرنسية، الآن لا بأس أن تفعل ذلك ظريفة، تلك التي لم تخبر من حياكة الملابس إلا موديلًا واحدًا ومتكررًا لنساء ذلك الحي الشعبي، وأنا، ما الذي جاء بي إلى هُنا ذات يوم سوى طائر الحب الحزين! طرقت الباب صفية لتخبرنا أن الطعام جاهز.

كان على المائدة ذلك اليوم عددٌ كبير من النساء القريبات وجارات من الحي، وكنت أنا وجبة ذلك اليوم الشهية فلم تلتهم هؤلاء النسوة بنظراتهن أحدًا سواي، كما كان عليَّ أن أستمع لهن، لنصائحهن وأحلامهن المحدودة، تلك التي يحدها إطار كبير من الممكن والمسموح لنسوة لم يتعلمن من أبجدية الحياة سوى الزواج والإنجاب، أخبرتهن صفية أني شاهدت الإمبراطورة أوجيني والخديو إسماعيل فأخذن في ملاحقتي بالأسئلة، ما شكلها؟ ما لونها؟ وكيف هي القصور الخديوية؟ وكان علي أن أجيبهن بمقدار عقولهن وأحلامهن البسيطة. بعد الغذاء اجتمعنا في الحرملك، دارت أكواب الشربات بنكهاته المختلفة وأباريق عصير الليمون الباردة.

دخلت فرقة من الغوازي يرتدين ملابس الرقص التي تكشف أكثر مما تخفي، ببطون متهدلة وأفخاذ ممتلئة، والمعلمة الكبيرة تضع على رأسها شمعدانًا من النحاس به شموع موقدة، وترقص على وقع طبلة ودف تقوم بالعزف عليه غازية أخرى، وتصفق النسوة ويزغردن.

دخل صبي صغير ليخبر أمه أن خاله سيصعد للحرملك، أخبرت صفية النسوة بذلك فحدث ارتباك، الكل يعدل من جلسته، يهندم من مظهره، وتخفي النساء وجوههن تحت تلال الأقمشة، يطرق الباب بخجل طرقة، طرقتين، ثم يدخل عمرو وتتعالى الزغاريد، تدور الخادمة الحبشية السمينة ببخور من العنبر، تقبله أمه وتبارك له، بينما جدته العجوز أخذت في الهمهمة بالدعاء وهو ينحني ليقبل يدها ورأسها، بينما كان يمسك صندوقًا من خشب الصندل المطعم بالفضة يسمى الشكمجية، فتحت أمه الصندوق وأخذت تدور به على النسوة اللائي تعالت أصوات زغاريدهن، وأخيرًا توقفت بها أمامي لأنظر إليها وأجدها ممتلئة بحلى ذهبية مختلفة الأشكال، قرط مفرغ كبير، أساور مخروطة على شكل ثعبان برأس كبير وبعين من العقيق الأحمر، زوج من الخلاخيل الذهبية تتدلى منها حلي صغيرة، ودبلتان من الذهب نقش عليهما من الداخل اسمي واسمه، سحب الخاتم ببطء ووضعه في إصبعي، ارتبكت وأنا أقوم بوضع الخاتم في إصبعه، كانت كل نظرات النسوة معلقة بنا، وتساءلت هل على فقرهن وبؤسهن تفهمن هذا التقليد الأوروبي الراقي؟ والذي أصر عمرو على اتباعه حتى لا يشعرني بحزن، فقد ذهب لخواجة يتاجر في الحلي الذهبية وطلب منه نقش اسمينا على خاتمين ليكونا بمثابة رابط أبدي بيننا.

تعالت زغاريد النسوة مذهولات النظرات، وتسابقن لمشاهدة الحلي المعروضة للفرجة وكل منهن تترك بعدها مبلغًا ماليًّا، أو هديتها في سلة من الخوص وضعت خصيصًا في ركن الغرفة، تعبيرًا عن فرحهن بي ولمباركة تلك الزيجة. واصلت الغوازي تقديم عروضهن وسط فرح وتصفيق المدعوات، نظرت أنا وصفية من

المشربية على مجلس الرجال، كان والد عمرو يجلس ببهاء وسط رجلين، أشارت صفية إلى أحدهما قائلة:

- إنه الإمام مصطفى العروسي شيخ الأزهر ومفتي الديار، وهذا الذي على اليسار شيخ التجار، وهذا كبير قلم الترجمة في القصور الملكية وو و..

مجموعة كبيرة من الرجال كانوا مشغولين بمناقشة الأمور السياسية والتجارية كعادة الرجال وهم يشربون القهوة.

يدخنون الأرجيلة ويجلس عمرو وسطهم بحاجبيه المعقودين على وسامته، وبعينيه السوداوين العميقتين اللتين نظرتا فجأة لأعلى لتلمحا ظلًّا من خلف المشربية لامرأة تهيم به كثيرًا.

اندمجت مع وقع الطبل لأجد نفسي أهتز كما تفعل الراقصات والنسوة، بينما أغاني العرس بصوت المغنية التي تغلفه بحة حزينة تبعث على الشجن والفرح معًا، كانت عيون حماتي تلمع بالفرح والسعادة، قامت لتهز جسدها الثقيل مع الأنغام، سحبت ببطء يد جدة عمرو العجوز التي بالكاد تستطيع الوقوف لتتمايل ببطء مع الأنغام، وجدت نفسي والدموع تنهمر مني وأنا أتخيل أمي هُنا، وتشارك هؤلاء النسوة الرقص، وأخيرًا كنت قد طوقتهن في حضني على تلك الهدية برقصهن فرحًا بي.

عند الثامنة انتهى الحفل وغادرت النسوة بعدما انهلن عليَّ بالقبلات مودعات وهن يتمتمن بدعاء واحد:

- ربنا يتمم لك بخير.

لتجلس صفية بجواري تفض محتويات الصندوق وتطلعني على الهدايا، سوار من ذهب، عقد من لؤلؤ، أكواب من الكريستال، مناشف مطرزة، مفارش من الكروشيه والحرير وأغطية للفراش من الساتان، حلوى وسكر، وزجاجات من الشربات، كل سيدة جلبت هدية تليق بمكانتها الاجتماعية، حتى الفقيرات منهن وعلى بؤس حالهن إلا أنهن أبين أن يأتين خاليات الوفاض، أغلقت صفية الصندوق على هداياه وأخبرتني أنها سوف تنقله مع شوار عمرو لبيت الزوجية السعيد.

بعد ذهاب الحريم دخل والد عمرو يرمي بطرف عباءته على كتفه ويضع عمامة عالية فوق رأسه ويصافحني وهو يبارك لي ويخبرني قائلًا:

- من الواضح أن أمك تحبك كثيرًا وكانت جزيلة الدعاء لك لارتباطك بعمرو.

بينما اكتسى وجه عمرو بحمرة الخجل، يا ألله! أهُناك رجال لا زالت الحمرة تكسو وجوههم؟ حقًّا كنت متيقنة أن عمرًا هدية من السماء لذلك ابتسمت في وجه أبيه مؤكدة كلامه.

بمفتاح فضي صغير أغلقت صفية الشكمجية ولفتها في قطعة قماش من القطيفة الحمراء وأعطتها لي، بالرغم من أن الحلى الذهبية التي بها لا تتناسب سوى مع تلك الطبقة الشعبية التي ينحدر منها عمرو فإنني فرحت بها كثيرًا.

أخبرني عمرو أثناء رجوعنا في العربة أن ذلك العقد الذي تتدلى منه قلادة كبيرة تسمى «العنبرية» تلك الحلية الشهيرة التي كان من الصعب أن يخلو صندوق حلي أي امرأة منها، وهذا تقليد منذ الزمن الغابر، وأخبرني كيف أنها كانت لجدته التي قد أهدتها لها أمها في زفافها، وأمها هذه كانت قد أهدتها لها أمها، وهكذا، فإذا بحثنا عن عمر تلك القطعة الذهبية المتوارثة فسنجد أنها منذ مئات السنوات، فهذا عرف في تقاليد عائلتنا، وأنت أيضًا ستهديها لابنتك عند زفافها.

- وفي حالة أني لم أنجب بنات؟

- تهديها بدورك لإحدى فتيات العائلة.

فتحت جوهرة فمها مندهشة من جمال القطع الذهبية، فبالنسبة لجوهرة هذا الحلي أكبر مما يستوعبه عقلها، أمسكت قلادة العنبرية في يديها وهي تصيح باسمها، حزنت جوهرة لعدم اصطحابي لها لحفل شبكتي، أخبرتها أني لم أعلم بذلك الحفل ولم يخبرني عمرو بأمره حتى أنني لم أكن أعرف معنى «شبكة» تلك.

- إنها الهدية التي يشبك بها الرجل عروسه لتصبح له وحده، وقبولها إياها دليل موافقتها على ارتباطها به.

كان يكفي الخاتم الذهبي، وليس كل تلك المشغولات التي تصل لأكثر من اثنين من الكيلو جرامات من الذهب. قضيت ليلتي مشغولة بالتفكير في قدر تلك القلادة بعدما سحبتها من الصندوق وأخذت في التطلع إليها، خرزة مستديرة لونها بني مائل للذهبي، وحولها إطار من الذهب تفوح منها رائحة ذكية، مصنوعة بشكل دقيق وجميل. ترى أي قدر كان لتلك السيدة التي عُقِدَتْ مَشْبَكَهُ حول عنقها؟ وأي عنق التف حوله وتمنى ألا يخلعه أبدًا؟ هل مستهن الفرحة وقتها أم الحزن؟ وأي عنق التف حول صاحبته وتمنى ألا يغادرها يومًا؟ وأيهن تمنت ألا تطوله يدها يومًا وترتديه؟ وماذا لو كانت تحمل الفأل السيئ؟ أعلم تمامًا أن للأشياء ذاكرة، فما ذاكرة تلك القلادة؟

وماذا لو كانت تدخر في معدنها الأصيل شحنات سالبة لنساء ارتدينها يومًا وسربنها بدورهن لنساء أخريات؟ وإلا لماذا أصابتني تلك المشاعر المتناقضة عندما وضعتها حول عنقي؟ فتارة أبتسم وأخرى أشعر أنني بحاجة للبكاء! ظلت تجمح بي الأفكار، وكعادتي دائمًا وجدت نفسي أجلس لأرسم تلك القلادة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

56

توالت الأيام محملة بروائح الفرح، اصطحبني عمرو فيها لأشاهد مسرحية هيلينا الجميلة على مسرح حديقة الأزبكية، تقوم بعرضها فرقة تمثيل فرنسية، ذهبنا لمشاهدة أحد سباقات الخيل التي تقام بساحة العباسية، وقمنا برحلة للأهرامات، والمساجد الأثرية في مصر، ووعدني برحلة إلى مدينة سانت كاترين وجبل سيناء بعد زفافنا، أصبح يذهب معي ويأتي معي كقطار حب أستقل إحدى عرباته، كانت لمسة واحدة منه كافية لتجردني من عقلي وتعلقني بأرجوحة تصل بي لأبواب السماء، البعثة تلملم أشياءها لمغادرة البلاد وأرتب أنا نفسي لإقامة طويلة بها.

استطعت أن أجد حجة للمكوث في البلد بتوقيعي عقد عمل كفنانة للقصور الملكية، لذلك تركت لي القنصلية الشقة التي أعيش فيها حتى مغادرتي البلاد لاحقًا.

أنا التي أزين القصور كان عليَّ أن أختار لبيتي أثاثًا لا يقل فخامة وأناقة، حتى وإن كلفني الكثير، ومنذ اليوم الأول بدأت في الاستعداد لتأثيث شقة الزوجية، بطنت حائطًا كبيرًا بالردهة الأمامية بالخشب وبدأت الرسم عليه ليكون بمثابة تابلوه جميل وأنيق، اخترت مع عمرو حجرة نوم على الطراز الإمبراطوري الأنيق من خشب الأكاجو، واتفقت مع نحات أثاث فرنسي شهير يصنع غرف القصور الخديوية لتصميمها يحيط السرير أربعة عمدان من الخشب منحوت عليها أشكال فرعونية، كذلك في الدولاب طلبت منه أن ينحت لي عمودين كبيرين بذات الأشكال، والشوفنيرة ومنضدة الزينة تطعم كلها بالنحاس والحلى الذهبية، اخترت غرفة المائدة على طراز لوي كنز وكانت تملك كل ذلك الترف والأناقة، كنت أنزل أماكن بيع التحف والأثاث أختار وأنتقي الشمعدانات الفضية والفازات من السيفر، الطاولات المتدرجة الأطوال بحلى نحاسية، حجرة كارلا ستكون حجرة المكتب، سأضع بها سكرتيرة من خشب الماهوجني وتبطن من الداخل بأدراج من القطيفة الحمراء، وسأضع شيزلونج، واثنين من الفوتيه في حالة إذا أردنا أن نتناول قهوة الصباح أو شايًا بعد الظهيرة ونحن نتصفح الجرائد أو نقرأ الكتب، نظر لي عمرو بعدما أصابه الذهول من السعر الذي طلبه مصمم الموبيليا، سألني:

- نتاليا من أين لي أن أحصل على تلك الأموال التي يطلبها الرجل؟

- لا تهتم أنا التي سأدفع.

- ولكن أنا لا أقبل.

وضعت يدي على فمه..

- أرجوك لا تضع فوارق بيننا.

- نتاليا أنا رجل شرقي، والرجل الشرقي لا يحب أن تنفق زوجته من أموالها فهكذا تقتضي الأعراف عندنا.

- أرجوك عمرو لا داعي لمثل هذا الحديث، كما أنه باقي الكثير من المفروشات والأشياء علينا شراؤها وسأدع هذا لك.

في المساء غمست الريشة في المحبرة وجلست لأكتب لكريس رسالة طويلة أخبرته فيها أنني سأتزوج رجلًا مصريًّا، عشقه لم يبقِ عليَّ، لم يدعني في حالي، بايعته حبيبًا لعمري، سنأتي لنقضي شهر العسل في باريس وسنقيم احتفالًا كبيرًا بتلك المناسبة، وسأقوم أيضًا بإقامة معرض للوحات الشرقية، طلبت منه أن يخبر أمي وأخواتي ويوصل إليهن سلامي، كما طلبت منه أن يرسل لي أموالًا من أرباح المقهى على البنك الوطني الفرنسي وأعطيته رقم حسابي، كنت أعلم تمامًا وقع تلك الكلمات على كريس، وتمنيت من قلبي وقتها أن يكون قد أزاحني من واجهة القلب حتى يتسنى له تلقي الخبر دون أن يمسه حزن كبير، كريس كان آخر شخص يمكنني أن أؤذيه. أعيد قراءة الرسالة مرة أخرى وأصطدم بالكلمات «سأتزوج مصريًّا» سيتم العقد في يوم والتصديق عليه من السفارة في اليوم الذي يليه وسيتم حفل الزفاف في اليوم الثالث، ولكن من تكون إشبينتي؟ ومن الفتيات الصغيرات اللاتي سيتحلين بالبياض ويحملن الشموع ويسرن خلفي في ذلك الممر الطويل، الذي سأخطو به تطوقني ذراع أخي الأكبر، وبدوره يسلمني لزوجي لتطوقني ذراعه؟ أمر على المقاعد فيشهق المدعوون من جمالي وأناقتي، ويلقون عليَّ بالزهور والياسمين، وكيف سأنظر حولي ولا أجد أمي؟ وحتى لا ينتابني اليأس أقنعت نفسي أنه لا قيمة لكل ذلك طالما سأتأبط ذراع عمرو في النهاية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

57

ديسمبر (1869):

زارتني فاطيما ذلك الصباح بعد رجوعها من إسطنبول، كانت كل منا تدخر للأخرى الكثير من الأخبار، هي سبقتني بالحكي عن أنها ستزف لوجيه من الأعيان مثلها تمامًا، نصفه تركي ونصفه مصري التقت به خلال زيارتها الأخيرة لإسطنبول أثناء حضورها حفل زفاف إحدى قريباتها هناك، كانت تضع على وجهها غلالة رقيقة من الشيفون الأبيض،عندما لمحته أثناء مرورها في الردهة مصادفة واصطدمت عيناهما، بعد ذلك الحفل بعدة أيام أخبرها والدها أنهم مدعوون للغذاء عند أحد أصدقائه القدامى في قصرهم الذي تطل شرفاته على مضيق البوسفور، وفي مدخل القصر كان صديق والدها وعائلته يقفون في استقبالهم بينما يمسك الطاهي السمين بشاة صغيرة استعدادًا لنحرها على شرف قدومهم كما تقتضي التقاليد، ثُم رن صوتها بالفرح قائلًا:

- وكان هو الابن البكر لصديق أبي.

بعد تلك الزيارة بيومين أخبرني أبي أن ذلك الشاب يريد الزواج مني وهو يراه مناسبًا لي كزوج، وقتها لم تسعني الفرحة.

-ولكن فاطيما، ألست في حاجة للحديث معه لتتعرفي عليه ثُم تقرري ما إذا كان مناسبًا لك أم لا؟

ضحكت بصوت عالٍ قائلة:

-وهل تحسبين نفسك في باريس؟ عزيزتي إسطنبول لا تختلف عن القاهرة بل رُبما هي أكثر تشددًا.

- في الحقيقة أنا لا أصدق أن يتم الزواج دون أن يتعرف الرجل والمرأة كلٌّ منهما على شخصية الآخر!

وهي تبتسم بحسرة:

-يتعرف كلٌّ منهما على الآخر؟ ما كل هذا الترف؟! يتم الزواج دون أن يرى الرجل المرأة، ألم تسمعي عن نقطة كشف الوجه؟

- لا، وما هي؟

- بعد عقد القران وحفل الزفاف وعندما يختلي الرجل بزوجته يمنحها مبلغًا من المال كهدية لتكشف له عن وجهها الذي لم يكن رآه من قبل.

- وماذا إن كانت قبيحة؟ أو رُبما جميلة ولكن ليس من ذلك النوع الذي يفضله؟

- مسكين! ليس عليه سوى الرضا بمصيره. ها أنت قد غيرت دفة الحوار وأنسيتني ماذا كنت سأخبرك.

-لقد توقفت عند أنه قد تقدم لخطبتك.

- نعم وسيعقد قراني خلال شهر من الآن.

كانت سعيدة، تكاد الفرحة أن تتحدث بعينيها، ضممتها لي وباركت لها..

- ولكن أين ستقيمين؟ هُنا أم في إسطنبول؟

ستكون إقامتنا ما بين هُنا وهناك، ولكن سأقيم منزلي هُنا وعند زيارتنا لإسطنبول سنقيم بقصر عائلته.

- رُبما أنا الأخرى سأتزوج في غضون الشهر أو أكثر قليلًا.

- معقول!

صاحت غير مصدقة وأخذت تلاحقني بالأسئلة، بينما كانت جوهرة تنثر البخور في المبخرة النحاسية الكبيرة لتنبعث روائح عطرة تمامًا مثل سيرته..

- إنه ضابط في الجيش المصري وكنت التقيته..

وهنا قاطعتني قائلة:

- انتظري، أتقولين مصريٌّ؟ هل ستتزوجين من مصري؟

- نعم، إنه رجل، كل رجال الأرض اختصرت فيه.

-نتاليا، هذا قرار يحتاج إلى تفكير عميق؛ طباع الرجل الشرقي مختلفة تمامًا عن الرجل الأوربي.

-أعلم جيدًا وقد فكرت وقررت.

كم كان يلزمني من وقت لأقص على فاطيما حكايتي معه التي وضعت رتوشها الأولى أنامل القدر، وواصلت رسمها بعد ذلك تقلبات الحياة، فاطيما التي ما تلبث أن تلاحقني بسؤال ما بين سؤال وسؤال، بعدما انتهيت قبضت على يدي بقوة وهي تهنئني.

- إذن دعينا من الغد نذهب لنختار الأقمشة ونذهب بها إلى مدام إلين الخياطة لتقوم بحياكتها لنا، فأنت عروس ويلزمك الكثير من قطع الملابس المختلفة الأشكال والألوان، وفستان الزفاف، هل اخترتِ موديلًا له؟

- لا، ليس بعد، سأبعث برسالة لمدام رينيه لتفصل لي فستان زفاف من اللاميه والدانتيل الأبيض المطرز بوردات، وكل وردة داخلها فص من اللؤلؤ، ولكن فور استلامها الرسالة سيكون ذلك الخبر حديث المجتمع الباريسي، ومؤكد ستنشره صفحة المجتمع في الجرائد، ولم أكن لأحب أن تتهامس الألسن، فأنت لا تعرفين إلى أي حد الفرنسيون مولعون بالثرثرة وإجادة تأليف القصص والحكايات.

تخيلت وقتها ليون وهو يتصفح «الفيجارو» ويقرأ الخبر، ماذا ستكون ردة فعله؟ وقتها مؤكد سيبتسم في هدوء ويقوم بثني الصفحة كأنه لم يقرأ شيئًا.

-أتعتقدين هذا كل شيء؟ أم أنك تخجلين أن نتاليا جونسن الفنانة المشهورة ترتبط برجل مصري بسيط؟

هل كشفتني فاطيما؟ هل هذا هو حقًّا الذي كنت أخشاه؟ هززت رأسي بعنف..

- مؤكد لا، أنا لا أخجل من الاقتران بعمرو، يشرفني ذلك حقًّا، كما أنني سأسافر وأقيم حفلًا بمناسبة زفافي والجميع سيعلم به.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

58

الإيجبسيان.. ديسمبر (1869):

(غادرت أوجيني القاهرة إلى الإسكندرية، وهناك ستودع الجماهير الفرنسية الكبيرة التي تسكن تلك المدينة، تفاديًا للإثم الكبير الذي ارتكبته الإمبراطورة الجميلة في عدم تحيتها للجالية الفرنسية أثناء قدومها للبلاد لافتتاح حفل قناة السويس، وقد امتدت إقامة الإمبراطورة أوجيني في القاهرة لأكثر من الشهر والنصف، افتتحت خلالها الأوبرا المصرية التي قدمت مسرحية ريجلوليتو على مسرحها، وكان من المقرر عرض الافتتاح بأوبرا عايدة ولكن هُناك ظروف ما أجلت العمل، كما زارت أوجيني الأهرامات بصحبة الخديو، وأقام لها هُناك حفل شواء بالهواء الطلق، كما رتب لها الخديو رحلة زارت فيها جنوب البلاد لمشاهدة الآثار هُناك بصحبة الأمير حسن ابن الخديو إسماعيل، وقد كتبت الإمبراطورة لزوجها إمبراطور فرنسا نابليون بونابرت عند حضورها حفل افتتاح قناة السويس «استقبال عظيم لم أكن لأحلم به». وكان مقر إقامة الإمبراطورة خلال وجودها بالقاهرة سرايا الجزيرة الأنيقة، التي بناها الخديو خصوصًا لإقامة ضيوف حفل الافتتاح على الطراز العربي والباروكي، ليعلن مهندسها الفرنسي لويس أنها أجمل المباني المعمارية على الإطلاق).

غادرت أوجيني إذن وأنا متى سأغادر؟ أنا التي كان مجيئي إلى هُنا في مهمة رسمية ستنتهي سريعًا، فما الذي حدث وقتها؟ وأي جاذبية لتلك الأرض التي تشرع أبوابها لاستقبالك كأحضان العشاق؟ كل ما بها يحرضك على الحب، جوها الدافئ، شمسها الذهبية، نيلها الأسمر، عبق التاريخ الذي ينبعث من كل إنش فيها، صخب أسواقها، رائحة توابلها، نساؤها بعيون سوداء كحيلة، ورجالها الذين يبثون وسامتهم في صمت، فهل يا ترى وقعت أوجيني أيضًا ضحية لتلك البلاد؟ وهل أحبت الخديو إسماعيل كما انطلقت الشائعات؟ لقد أهدى لها عند مغادرتها البلاد تيواليت من الذهب به جوهرة من الياقوت، وقال في خطبته أثناء افتتاح القناة: «روحك الجميلة تفعل كل هذا في صمت»، فأي «هذا» الذي يقصده الخديو؟ أيقصد «هذا العشق»؟ أم «هذا الغرام»؟ وهل تلك الشائعة التي تتداولها الأوساط الفرنسية في القاهرة صحيحة؟ كنت أعلم أن الخديو طلب من مهندس فرنسي تشجير طريق الأهرامات وتبليطه بالرمل والحصى، وعلى الفور أوفد المهندس لمنطقة العمل الآلاف من العمال الذين كانوا يعملون في قيظ الشمس، وانتهى العمل في وقت قصير بفضل شقاء العمال وتعبهم، ولكن الذي لم أكن أعلمه وأشاعه الناس بناء على أقاويل تتردد، أن الخديو طلب من المهندس أن يجعل أحد منحدرات الطريق أكثر ميلًا، حتى عند سير العربة التي تجرها الخيول تجد أوجيني نفسها وقد مالت عليه ووقعت في أحضانه، عقلي لم يستطع أن يصدق مثل تلك الأقاويل، فعقلية تملك مثل كل هذا الذكاء والتحضر الذي يتمتع به الخديو إسماعيل لم تكن لتنحدر بالتفكير إلى هذا الحد، وشخصية «الشيفاليه» التي وجدت فيه لم تكن أيضًا لتسمح له أن ينفذ ذلك، حتى وإن ملك حب الإمبراطورة قلبه.

منتصف ديسمبر (1869):

كان صباحًا باردًا حزينًا، تخيلت هذا الجو في باريس الآن رُبما هو أكثر برودة ولكن ببهجة عيد الميلاد المجيد، بالشجرة التي نعلق فيها الزينات والهدايا المغلفة بالورق الملون والأشرطة الذهبية، ورجل الثلج الذي أتمتع بصنعه وأهبه في النهاية شالًا أحمر يلفه حول عنقه، جرس الكنيسة في منتصف الليل وتراتيل أعياد الميلاد، المائدة العامرة وأصنافها المتعددة، بطاقات المعايدة والتهاني والأمنيات، كل ذلك أفتقده، بالرغم من أن الجالية الفرنسية تقيم هُنا الاحتفالات والولائم وتدق أجراس الكنائس في منتصف الليل، إلا أن باريس لها نكهة خاصة.

مرت الأيام الماضية وأنا أستعد لفرش البيت، ها قد انتهيت من رسم تابلوهات جميلة على حوائط الاستقبال بالشقة، وابتعت بعض القطع من التحف نثرتها في الأرجاء، اشتريت طاقم طعام من السيفر رسم عليه روميو وجوليت من متجر الصالون الأخضر، فما أجمل أن تأكل وتشرب وتطالعك صورة أشهر العشاق في التاريخ، وربما لنستجلب تلك الأحاسيس التي ربطتهما يومًا، والد عمرو كان قد أهداني طاقمًا من السجاد العجمي والفارسي، لأزين به الأرضية التي بطنتها من الخشب المصقول، أحب دفء الخشب ويجلب لي الشعور بالأمان والراحة، زارتني والدة عمرو وأخواته أكثر من مرة وأشادوا بذوقي كثيرًا، لولا تلك النصائح التي تحاصرني بها حماتي ولم أكن لألقي لها بالًا.

فصلت أكثر من موديل عربي وأوروبي عند خياطة فاطيما، وفستان الزفاف بعثت برسالة لدومينيك أخبرتها فيها أني أريده من اللاميه الأبيض على أحدث كتالوجات الموضة، وطلبت منها أن تزينه بوردات صغيرة، وردات تكاد تكون حية وتضع في كل وردة فصًّا من اللؤلؤ، وأكدت عليها أن يكون محتشمًا لأني سوف أزف لرجل شرقي، لا أعلم لماذا ارتعدت الريشة تحت يدي وأنا أكتب «رجل شرقي» كان ولم يزل وقع الكلمة غريبًا على أذني، ولكن يكفي أنني ما إن أتذكره حتى ينبض قلبي إيذانًا بالحب.

طلبت منها أيضًا ألا تشيع ذلك الخبر، فأنا سوف أحضر لباريس قريبًا وهناك سأقيم احتفالًا كبيرًا أعلن فيه زفافي، وفي النهاية أخبرتها أن مقاسي مازال كما هو كآخر فستان حاكته لي، جوهرة كانت سعيدة من أجلي، تساعدني في شراء احتياجاتي وتقدم لي نصائحها وخبرتها، كنت أقوم بتجهيزها هي الأخرى عندما أرى عينيها تلمع عند شرائي أدوات المائدة وأواني المطبخ، فأقوم بطلب قطعتين، وعندما ذهبنا لتاجر الأقمشة اشتريت لها أقمشة مختلفة الأشكال والألوان، وكانت تقوم بخياطتها بنفسها لإتقانها تفصيل الثوب العربي، وتعقد المفارش والأغطية بغرزة تسمى عش النملة، دقيقة وجميلة.

مرت الأيام سريعًا، كنت صباحًا أذهب للإشراف على القصور الخديوية [50] التي لا يكف الخديو إسماعيل عن بنائها وتزيينها، وبعد الظهر أقوم بجولة في الأسواق المزدحمة، حيث كل سوق متخصص في نوع معين من البضاعة، تمنيت وقتها أن أكون بالحي التجاري بباريس، حيث تجتمع المحلات والبضائع في مكان واحد،

ولكن بالرغم من التعب الذي كنت أعانيه، فإنني كنت أرجع إلي البيت مغمورة بالسعادة متوسدة بالأمل، أي شيء أشتريه كنت أتخيل ردة فعل عمرو عند رؤيته، حتى موديلات الملابس أكاد ألمح في عينيه تلك النظرة المنبهرة، لذلك كنت أعيش على قيد الانتظار مشغولة بإخفاء أجمل ثيابي، فما أجمل ما سأرتديه وأخلعه لرجل واحد سكن ثنايا القلب. نصحتني جوهرة ألا أقوم بفرش المنزل إلا قبل الزفاف بأيام بسيطة، حتى لا يختفي بريق الأشياء ويعلوها التراب، كما أنه فأل سيئ، لذلك كنت أقوم بتخزين كل شيء أشتريه.

يناير (1870):

في أحد الأيام الممطرة وصلتني ثلاث رسائل دفعة واحدة، ومعها ثلاث بطاقات للمعايدة بالعام الجديد. كان من الغريب أن تتشابه أذواقها إلى هذا الحد، فالبطاقات الثلاث جاءت لأماكن أحبها فى مدينتي باريس، وكأنها باختيارها هذا تحسرني على تركها يومًا. جاءت بطاقات المعايدة لبرج إيفل، ونهر السين، وقوس النصر لتتحرش بالذاكرة وتفتح صنابير الحنين.

تطلعت في رسالة كريس، كان يبارك فيها الزواج، يحاول أن ينتقي عبارات الفرح والبهجة، ورغم ذلك كانت الرسالة تشي بحزن من كتبها وكأنه سرب الألم دون أن يدري إلى الورق، أخبرني أيضا أنه حول لي الأموال التي طلبتها، وأخبر أمي وأخواتي بأمر زفافي، وفي ذيل الرسالة كتب «أثق في رجاحة عقلك وحسن اختيارك، ولكن إذا تعلق الأمر بالزواج فأرجو منك توخي الحذر» مسكين كريس! أعلم إلى أي مدى أحبني، فكرت في نصيحة كريس، هل توخيت الحذر؟ وهل كنت راجحة التفكير لاختياري عمرًا زوجًا؟ كل ما كنت متأكدة منه وقتها أني أحبه، ولم يعد هُناك وقت لأبذره في بعدي عنه، فالحب معه لا صبر لي عليه، ثم من يملك الحدس الكافي لتتبع خطى القدر؟!

الرسالة الثانية كانت من أخي جون ولكنها موقعة من «أمك، وأخواتك» كتب جون بلسان أمي يقول: «أعلم تمامًا أني مهما نصحتك بالرجوع عن هذا القرار فلن تفعلي، كنت دومًا متشبثة الرأي، وفي أمر يتعلق برجل قمت باختياره ليكون زوجًا لك يصبح الأمر أكثر تعقيدًا، لذلك ليس عليَّ سوى أن أبارك هذا الزواج، وأتمنى ألَّا يصيبك منه ما أصابني من زواجي من أبيك، ولو وضعت تلك التجربة المريرة نصب عينيك فلربما أفادتك في قرار يحتاج الكثير من التروي والتفكير» بالرغم من كلمات أمي القاسية إلا أنها تملك كل الحق، فقد عانت في حياتها، سواء أثناء زواجها من أبي أو حتى بعد انفصالها عنه.

الرسالة الثالثة كانت من مدام رينيه تخبرني أنها قد بدأت بالفعل في خياطة الفستان، وسيكون مطابقًا تمامًا لذوقي الذي تحفظه جيدًا، ولكنها حزينة لأنها لن تراني وأنا أرتدي الثوب الذي لا يلبس في العمر سوى ليلة واحدة، وختمت رسالتها بتهنئتي وحرصها على شحن الثوب لي فور انتهائها منه، لم أجعل تلك المشاعر السلبية والنصائح تؤثر فيَّ، أزحت الرسائل جانبًا وبدأت في الرسم.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

59

فبراير (1870):

مرت الأيام مسرعة وأشرف فصل الشتاء على الانتهاء، جاء أمشير وهبت على البلاد رياح عاصفة محملة برمال وأتربة مع برودة تسري في العظام، اكتست البلاد ذات صباح بلون أصفر ورائحة تزكم الأنوف أعيتني بعدها لعدة أيام وجعلتني أرقد في الفراش، حرص عمرو على زيارتي يوميًّا للاطمئنان عليَّ، وبالرغم من مدى شوق كل منا للآخر فإنه كان يجمح جماح شوقه فيكتفي بأن يضمني له، دومًا كان يقف عند حافة الحرام بضمة أو قبلة مؤجلًا أشواقنا إلى أن يتم زواجنا، استعدت عافيتي مرة أخرى وواصلت ترتيبي للبيت وذهابي مجددًا للعمل في أحد القصور المكلفة بها، كان قصرًا قد أهداه الخديو إسماعيل للبارون هوسمان الذي طلبه ليخطط القاهرة كما خطط باريس تمامًا، وللغرابة فالبارون هوسمان عند اختياره التصميمات لقصره وقع اختياره على العمارة الإسلامية!!

مارس (1870):

يكفي أن يأتي مارس ليحل الربيع في تلك البلاد ويكتسي كل شيء بالألوان الزاهية، تسطع الشمس الدافئة ويخرج المصريون من بيوتهم ليستمتعوا بها، أينما ذهبت تر باعة الزهور يضعون بضاعتهم على عربة كارو، أو يحملونها في سلة من الخوص فوق أكتافهم ،وينتشر في أرجاء المدينة عطر زهر البرتقال والياسمين والقرنفل والورود بجميع ألوانها وأشكالها، حتى إن جوهرة كانت قد اشترت الورد البلدي وصنعت منه الشربات والمربى اللذيذة، وأخيرًا امتلأ نهر النيل بالمراكب الشراعية بعد فصل شتاء طويل وبارد، وكان من الصعب العثور على مقعد خالٍ في حديقة الأزبكية. أخبرني عمرو وبعض الأصدقاء من فرنسا عن احتفال الأجانب والأقباط من مختلف المذاهب بعيد الفصح وكيف أنهم في الصباح الباكر يخرجون بالملابس التنكرية للشوارع والمقاهي وهم يرقصون ويغنون. وعدني عمرو أنه سيشاركني الاحتفال فوجدته يطرق بابي في السابعة صباحًا وهو متنكر في زي عربي بدوي يرتدي العقال على رأسه ويلف وسطه بحزام عريض، وكان للحق مشهد يدعو للضحك، هالني منظره عندما فتحت له الباب فأخذت أضحك بصوت عالٍ..

- حتى وأنت في مثل تلك الملابس إلا أنك وسيم كعادتك.

أفطرنا بتناول الشاي مع خبزِ البريوش [51]، خبز عيد الفصح الذي قمت في الصباح الباكر بعجنه وخبزه ثم لفه على شكل جديلة بها فراغات عميقة لوضع البيض المسلوق، وبعد تسويته قمت برص البيض فيها كان طعمه شهيًّا ولذيذًا، تذكرت وأنا أخبزه في هذا الوقت الباكر من الصباح أن أمي تشاركني هذا الفعل، ولكن بمطبخها الآن في باريس، كانت تلك عادتها في كل عيد فصح، تستيقظ باكرًا لتعجن الخبز الخاص به، وجدت نفسي أفعل مثلها تمامًا وإن لم يكن الخبز في مذاق لذة خبزها.

لوهلة وأنا أقف أمام الدولاب كانت يدي ستمتد للثوب العربي لأتنكر فيه متناسية أنني أحيا في بلد شرقي، أخذت أفاضل أيهما الذي عليَّ أن أتنكر فيه، هل فستاني الذي صنعته لي مدام رينيه دومنيك على أحدث صيحات الموضة الفرنسية، أم ذلك الثوب العربي الذي خيطته لي «ظريفة»؟ وأي شخصية بداخلي عليَّ أن أخفيها وأتنكر في غيرها؟ فرنسيتي أم الادعاء بشرقيتي؟ أن تتنكر في شيء هو أن ترتدي شيئًا يخالف شخصيتك وبيئتك، فالثوب العربي سيناسبني أكثر، ولكن ترى هل العيون العربية التي ستسترق إلي النظر ستعتقد أنني حقًّا متنكرة؟ أما هذا فهو ثوبي الأصلي في وطن معظم نسائه يختفين تحت تلال من الملابس. ارتديت فستاني الذي صنعته لي مدام رينيه واكتفيت للتنكر بأن أخفيت عيونى بوضع قناع وغادرنا.

كانت الكرنفالات في الشوارع والميادين، خرج الجميع للتنزه والغناء، وازدحمت الأماكن الترفيهية، حتى المسلمون نزلوا للشوارع ليشاهدوا مواكب الكرنفال المتتالية ويلقوا عليها الزهور والأوراق الملونة وحبات الفاصوليا.

أخبرني عمرو أن الغد هو عيد شم النسيم، وهو عيد فرعوني قديم تحتفل به كل طوائف البلاد حتى اليوم، عند الصباح يفطرون بالبيض المسلوق الذي يتم تلوينه ويتناولون أيضًا النباتات التي كان المصريون القدماء يعتقدون أنها تمنح عامًا به الكثير من الخيرات والبركة، كالترمس والملانة والبصل الأخضر، أما وجبة الغداء الشهيرة في ذلك اليوم فكانت للسمك المحفوظ والذي يتم تمليحه وحفظه في أوانٍ خشبية من العام للعام، ذهبنا في الصباح الباكر فى ذلك اليوم لحديقة الأزبكية، جلسنا على مقعد أمام البحيرة، تنفسنا روائح النسيم الأولى للصباح، كان قد جاء ليصطحبني ومعه باقة من الورود أعطاها لي وهو يخبرني...

- إنها تشبهك كثيرًا

قرب الظهيرة غادرنا بعدما دعاني لأتناول معهم طعام شم النسيم ولكني اعتذرت قائلة:

- لا أفضل هذا النوع من الطعام وسيكون من غير اللائق أن أجلس بينكم ولا أتناوله.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

60

مايو (1870):

زارتني فاطيما، وكان قد مر الكثير من الوقت على رؤيتي لها، وجودها دومًا كان يمنحني الشعور بالأمان والسعادة، جاءت بصحبة الخياطة التي غادرت فور تسليمها لي الفساتين والقطع الداخلية من الملابس، وللحق كانت خياطة ماهرة، فالملابس كانت أنيقة، رقيقة، تركتني مع فاطيما أعرض لها الأشياء التي اشتريتها فابتسمت قائلة:

- ها قد أصبحت خبيرة في الأسواق المصرية.

- نعم بفضل جوهرة.

تركتها تشاهد أدوات المائدة من السيفر والكاسات والأكواب من الكريستال وطاقم الشاي من الفضة وهي منبهرة وذهبت لأحضر الشمجية لأريها شبكة عمرو، صاحت قائلة:

- يا ألله! ما أجمل تلك القلادة!

- نعم إنها مصنوعة بدقة فائقة.

طوقتني بفرح وهي تستعد للمغادرة..

- جئت لأدعوك لزفافي؛ الحفل سيقام يوم الخميس المقبل، ولكن طيلة هذا الأسبوع نعلق الزينات ونقيم الموائد، ويوم الأربعاء زفة الحمام، احرصي على أن تأتي باكرًا.

- ولكن هل انتهيت من تجهيز البيت بتلك السرعة؟

- هو تكفل بالموبيليا وأنا بالمفروشات وأدوات المطبخ كما هي العادة، وقبل الزفاف بثلاثة أيام سننقل تلك الأشياء على ظهور الجمال والعربات الكارو وهناك نقوم بفرشها.

- ينتظرك إذن أسبوع شاق؟

- نعم، كثيرًا.

- سأحتاجك معي نتاليا في ترتيب بيتي، على ذوق راق لفنانة مثلك.

- نعم، بالطبع سأكون معك، لا تقلقي.

انشغلت مع فاطيما في ترتيب منزلها، كان في منطقة الزمالك بجوار قصر الجزيرة، تلك المنطقة التي كانت في الأصل يشغلها عدد من الفلاحين فقام الخديو إسماعيل بشرائها منهم وتعويضهم عنها، وباع قطعة الأرض فيها مقابل ألفي جنيه للوجهاء والأعيان، واشترط أناقة وثراء البناء، كان من نصيب فاطيما قطعة أرض

كبيرة بني فيها زوجها قصرًا كبيرًا تحيطه حديقة واسعة زرعت في أرجائها أشجار الياسمين الهندي والتمر حنة.

خرج شوار [52] فاطيما من البيت على ظهور الجمال وعربات تجرها البغال، معروض في سلال من الخوص وصوانٍ من الفضة والذهب، تسبقه زفة بالمزمار، بينما استقلت هي وقريباتها وصديقاتها مجموعة من العربات الكوبيه المفتوحة تسير وراء الشوار إلى أن وصلنا للقصر، ونقل العمال الأشياء للداخل، في الداخل كان الكل يساعد ويعمل في ترتيب المنزل: فرش سجاجيد، تعليق ستائر، رص الصيني، والمشغولات الفضية في دولاب الفضية، كانت مهمتي تعليق اللوحات الفنية في الأماكن المناسبة وتنسيق الزهور في الفازات، ووضع التحف في الأركان وعلى الطاولات بشكل أنيق، كل شيء أصبح منظمًا ومرتبًا.

أهديت فاطيما لوحة كنت قد قمت برسمها لها في وقت سابق عندما ذهبنا معًا لنشتري القماش من السوق، رسمتها وهي تختار القماش من بائع الأقمشة وتختبر ملمسه بينما حولها زحام وصخب الباعة والمارة، فرحت بها كثيرًا وتباهت بها أمام صديقاتها وقريباتها اللاتي أثنين عليها وأخذن في الإلحاح عليَّ لرسم لوحات لهن.

غادرت بعدما ودعت فاطيما التي شكرتني كثيرًا مؤكدة عليَّ حضور زفة الحمام في الأسبوع المقبل، فإنها أهم من الفرح نفسه، أثناء عودتي كنت أفكر في تلك الترتيبات المكلفة والمرهقة للزواج، دوماً كان الشعب المصري يتفنن في طرق أفراحه، تذكرت مقولة نابليون بونابرت عند دخوله مصر، وكلما مر في طريقه من فوق صهوة جواده يرى احتفالًا فقال: «عجبت لهذا البلد الذي لا يعرف الحزن أبدًا»!!.

وأنا أي مصير ينتظرني؟ كانت فاطيما محاطة بصديقاتها وقريباتها، أما أنا فمن سيكون بجواري؟ ومؤكد أن أم عمرو بعقليتها، الراسخ فيها كل العادات والتقاليد البالية ستحرص على إقامة تلك الطقوس بمنتهى الدقة، لذلك كنت أذهب مع فاطيما لأتطلع إلى قدَر مقبلة أنا عليه.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

61

يونيو (1870):

انتهى الربيع سريعًا كضيف كريم لا يحب أن يثقل على الحياة ليأتي الصيف، وكضيف ثقيل أعلن عن مجيئه بارتفاع كبير في درجات الحرارة والرطوبة، ولأني لم أكن معتادة على مثل هذا النوع من الجو، كان يتصاعد بداخلي إحساس بقلة الأكسجين في الجو، وأصاب بالاختناق والتوتر والعصبية. ذهبت لبيت فاطيما في الصباح، مسكينة كانت، مرتبكة، وتظهر عليها ملامح الإجهاد. كانت الشوارع التي تقود لبيتها مزينة بأعلام من الأحمر والأخضر، فناء المنزل مزدحم بالمدعوات اللاتي أخذن في التوافد الواحدة بعد الأخرى، حتى خيل إليَّ أن حريم القاهرة جميعهن مدعوات لتلك الزفة، رُبما في بلد يحرم فيها خروج النساء وكشف وجوههن، كانت مثل تلك المناسبات بمثابة متنفس لهن يحرصن على حضورها.

خرجنا قبل منتصف الظهيرة بقليل إلى الحمام. تتقدم الموكب السيدات المتزوجات بالحبرة السوداء، تليهن الفتيات بالحبرة البيضاء، وأمام الموكب كان حامل المبخرة يدور بمبخرة كبيرة نحاسية لينشر الدخان الممزوج برائحة عطرة، وحامل الإبريق من الفضة يوزع ماءً معطرًا بزهر البرتقال على المدعوات، بينما الجاريات الحبشيات تلقين الملح تفاديًا للعين الحسود، ومربية فاطيما تنثر قروشًا فضية وذهبية. جلست فاطيما على هودج فخم على ظهر الجمل يتمايل بها يمنة ويسرة وتظللها مظلة من قماش موشى بالفضة والذهب، غطيت بأكملها بثوب من السكري، لا يظهر منها سوى القصبة التي تشبك شال الرأس بغطاء الوجه، كانت من الذهب المرصع بالألماس، وبالرغم من أن الحمام كان من جهة اليسار، فإن الموكب اتجه لجهة اليمين، لأن اليسار يجلب الفأل السيئ على العروس.

كانت أسرة فاطيما قد حجزت الحمام كله لتلك المناسبة، تجمعت النسوة في الحمام حول البلانة [53] التي وضعت الحنة في طبق كبير من النحاس، وأخذت تقوم برسم نقوش جميلة على أيدي وأقدام الفتيات، بينما دخلت فاطيما لغرفة تسمى الخلوة ومعها بلانة أخرى تقوم بنزع الشعر الرقيق عن جسدها، ثُم قامت بدعك جسدها بلوف خشن، وقامت المكيساتية بتكييس جسدها، ثُم خرجت عارية إلا من بشكير أبيض تسلمه لنا معلمة الحمام عند الدخول، كانت تلف به جسدها الذي أصبح أكثر بياضًا وجمالًا. عندما خرجت تعالت الزغاريد وقامت مربيتها الحبشية بتبخيرها من عين الحسود، ثم نزلت للمغطس بينما انشغلت النساء بنقوش الحنة ونزع الشعر والتكييس، وكأن فاطيما فتحت شهيتهن؛ لتصبحن أكثر جمالًا وإثارة.

دارت أكواب الشربات والليمونادة الباردة، وصواني عليها أقداح من أرز مطبوخ باللبن، وأطباق من الكسكسي لذيذ الطعم المنثور علي وجهه السكر المطحون، امتلأ الحمام بأشكال وألوان مختلفة من النساء، فاطيما ممتزجة الأعراق التركي والمصري جمعتهن هُنا تثرثرن وتضحكن وتقدمن النصائح. وحدي انزويت في إحدى أركان الحمام متخمة بتلك المشاهد، فها هي إحدى اللوحات التي كنت أتسمر

أمامها وقوفًا مُسبقًا، أصبحت جزءًا منها، وهؤلاء النسوة اللاتي كنت أعتب على عقليتهن التي لا يشغلها سوى الزواج والإنجاب، أصبحت أستمع إلى سذاجة أفكارهن، أشاركهن أحلامهن البسيطة في أن أصبح زوجة أحد الرجال الشرقيين، أجلس في البيت بانتظاره لا يشغلني عنه سواه, بطني ممتدة أمامي، وأحمل على أكتافي أحد أطفالي، بينما يتشبث بذيل ثوبي طفل آخر، فهل هذا حقًّا الذي كنت أريده؟ هل هذا حقًّا ما أنا مقبلة عليه؟ هل سأترك كل ما ينتظرني هُناك في باريس لأجلس بين هؤلاء النسوة، وتكون زيارة الحمام أحد أهم ترفيهاتي!!

أعلم أن حبنا عابر للقارات، عابر للأزمنة، جردني من أحلامي وطموحاتي، أزاح عقلي جانبًا ودثرني بعباءة شوقه، ولكن إلى متى؟؟ ماذا لو انطفأ ذلك البريق؟ ماذا لو اكتسى بغبار الزمن؟ ماذا لو تحطم على شط الواقع؟ تقول عني أمي: إنني متشبثة الرأي وعنيدة، ولكن في وجه من أعاند «المنطق»، ذلك الذي جعل ليون على عشقه لي يغادرني ويمضي، حتى يحافظ على حبه لي الذي نبض في الضلوع؟! لقد فضل أن نبتعد ونجعل تلك الشعلة بين الضلوع كوميض خافت، على أن تنطفئ تمامًا إذا ارتبطنا. هو الذي يفصلني عنه فقط عدد من السنوات، فأي عقل يحكمني ليجعلني أركض وراء رجل تفصلني عنه عادات وثقافة ودين ولغة و.. و.. و..؟!

غادرت حتى دون أن أخبر فاطيمـا؛ تملكتني مشاعر سيئة جعلتني لا أرى أمامي، كنت أحتاج أن أبكي في حضن أحد، ولم أجد أمامي سوى حضن جوهرة التي أخذت تتمتم بأدعية وآيات من القرآن، حتى تزيل عني حزني وهمي، وعلى الرغم من الحالة السيئة التي كنت أبدو عليها، فإن حياءها منعها أن تسألني حتى ما الذي حدث؟

لذلك وجدتني أخبرها بكل ما تحمله نفسي من معاناةٍ، جوهرة التي لا تملك خبرة من الحياة نصحتني أن أتبع خطى القلب، هي التي اختارت رجلًا بلا ذكورة لترتبط به، فقط لأن القلب نبض له.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

62

يوليو 1870:

استقللت القطار باكرًا للسفر لمدينة الإسكندرية لقضاء بضعة أيام على البحر، فقد كان القيظ في القاهرة لا يحتمل، حتى إن معظم الأهالي قد غادروا للسواحل أو للسفر للخارج، الخديو نقل مقر إقامته لقصر رأس التين بالإسكندرية ولن يأتيَ إلا عند دخول الشتاء، بينما أخبرتني فاطيما أنها ستقضي الصيف كلّه في إسطنبول؛ لأن حرارة الجو هُناك ألطف بكثير من القاهرة، جلست أنا وعمرو في صالة الانتظار، جلسنا متقابلين على أحد المقاعد الخشبية، وخلفنا شباك حجز التذاكر وساعة معلقة تمر دقائقها بصبر.

- سأشتاق لك.

- لن أطيل المكوث، أسبوع واحد فقط.

- لو لم أكن مشغولًا لذهبت معك.

- لا تشغل بالك بأمري، سأكون بخير.

- عليك إذن أن تعتادي طقسنا وطقوسنا.

- أكثر من ذلك! أحيانًا أشعر أن السنوات التي قضيتها في باريس مجرد حلم خرافي!

- نعم وقد أصبحت ملامحك تأخذ شكلَ أهلي ووطني.

- أستغرب حال هؤلاء الناس الذين يأتون هنا ثُم يغادرون بلادهم، متناسين كل شيء وكأن أمر تلك البلاد لا يعنيهم مطلقًا!

- لا تنسي أننا لو لم نلتق لكنت الآن هُناك في بلدك، تمارسين حياتك وطقوسك، وتنسين حتى أنك مررت من هُنا يومًا.

- رُبما كنت لأمارس حياتي وطقوسي، أما أن أنسى أنني قد مررت، فهذا افتراء. كل إنش في تلك المدينة يسكن في كل حدث، كل عادة، وكل وجه.

عامل نظافة يقف على مقربة منا يكنس الأرضية بمكنسة القش بيد خشبية طويلة، يراقبنا ويبتسم، بينما تدق الساعة التاسعة ويصل القطار. ظل يلوح لي وهو على الرصيف وأنا أطل عليه من النافذة إلى أن غادر القطار المحطة.

كان الجو في الإسكندرية أكثر لطفًا، أقمت في فندق أوربا بميدان القناصل، وكانت غرفتي تطل على البحر، وهذا وحده كان يكفيني لأبدل مزاجي.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

63

أغسطس 1870:

تلقيت رسالة من فاطيما كتبتها لي من إسطنبول، التي سافرت إليها فور زفافها تحدثني عن أخبارها، كانت جميلة في ثوب زفافها من قماش البروكار الدمشقي الموشَّى بخيوط الذهب، وعلى رأسها تاج مرصع بالجواهر، وفي أذنيها قرطان من برلنت، وفي عنقها ويديها أساور وعقود لا عدد لها، تجلس على كرسي عالٍ كتمثال معروض للفرجة، محاطة بالنسوة والفتيات اللاتي تجملن وتعطرن وجئن للاحتفال معها. أحيا الحفل المطرب الشهير عبده الحامولي، كان صوته يتسلل إلينا مع الهواء من بين المشربيات، صوته شجيٌ جميلٌ، جعل المدعوين يتوقفون عن ثرثرتهم ليطربوا بصوته. وبين الحين والآخر كنا نسمع وقع حوافر الخيل التي تقود العربات تتوقف، وتزداد همهمات الرجال ترحيبًا بالضيوف، الذين كانوا من صفوة المجتمع المصري والتركي، ناب عن الخديو إسماعيل سكرتيره شريف ثابت باشا، بينما حضرت إحدى زوجاته شفق نور هانم، كانت جميلة وأنيقة منذ أن توقفت العربة الملكية أمام باب السرايا، وقد ذبحت الذبائح تشريفًا بها.

عند دخولها للحرملك تسابقت النسوة لمصافحتها وتقبيل يديها وثوبها، جلست على مقعد كبير مبطن بالكشمير، وجاءت خادمة بصينية من الذهب تحمل القهوة وقدمت لها أولًا، ثُم دارت بالصينية على المدعوات، ولم تتوقف بعدها صواني القهوة والمشروبات عن الدوران على المدعوات. وفجأة أعلنت أم العروس بدء الزفة، أسرعت السيدات لغرفة الاستقبال الكبيرة ووقفن في صفين، وزعت الجواري للهوانم أكياسًا بها ذهب وفضة.

خرجت فاطيما تسير ببطء بين الصفوف، يتدلى من التاج الذي على رأسها خيوط طويلة من الذهب، سارت الدادة والجواري الحبشيات أمامها يدعون لها أن تسلم من عين الحسود، كلما مرت فاطيما بين الصفوف انحنت السيدات وألقين الذهب والزهور تحت قدميها، بينما كل سيدة تحاول أن تأخذ خيطًا من الخيوط الذهبية المتدلية من التاج، لأن ذلك يبعث على الفأل الطيب. بعد أن أتمت فاطيما طوافها ذهبت مرة أخرى لمقعدها في الصالون، بينما تعالت أصوات الزغاريد وضرب الدف، وتمايلت الراقصات على أنغام الموسيقا. بعد العشاء أخبرتنا أم العروس أن العريس سيأتي ليقدم التحية للمدعوات اللاتي شرفنه بالحضور، لتحدث تلك الربكة والكهرباء التي تسري في أبدان النساء كلما سمعن بمرور رجل ما، سريعًا غطين وجوههن، وعدلن من ثيابهن ووقفن في استقبال العريس. كان وسيمًا أنيقًا كما يليق بعريس يوم زفافه، أكثر ما لفت نظري فيه تلك الزهرة البيضاء التي وضعها في جيب سترته. انحنى يحيي السيدات ثُم ذهب لشفق نور هانم ليقبل يديها ويشكرها على شرف حضورها حفل زفافه، ثُم انتهى الحفل وغادرت المدعوات، إلا المقربات من العروسين، حيث سيشرفن على «فض عذرية» فاطيما! يا لها من طقوس غريبة وفاضحة! طقوس تدعو للدهشة تارة وللسخرية تارة أخرى، أخبرتني جوهرة التي حضرت معي الحفل، وكانت مبتهجةً ونحن في العربة بطريق عودتنا،

أن هُناك بعض العائلات تحرص على استخدام مفتاح من الخشب يصنع خصيصًا لفض عذرية الفتاة، والتي تقوم بتلك المهمة الداية صحت قائلة:

- مفتاح من الخشب! يا ألله! كم هذا مؤلم!

- نعم هو مؤلم ولكن هُناك عائلات -وخاصة التي تنحدر من جذور شعبية وريفية- لا تستطيع أن تتخلص من تلك العادة.

لبرهة من الوقت فكرت: هل من الممكن أن عمرو يسلمني لهذا المصير؟ فهو من عائلة تنحدر من جذور شعبية، وتؤمن بتلك العادات الباهتة الجاهلة، كما لو كانت نزلت من عند الله! ولكن عمرًا، أتراه يوافق على ذلك؟ هززت رأسي بعنف وكأني أطرد فكرة شريرة عن نفسي، ولاحظتني جوهرة فابتسمت سرًّا.

كان الجميع يتحدث عن إقامة احتفال كبير بسبب فيضان النيل، ذلك الاحتفال الذي يحرص عليه المصريون منذ قديم الزمن، ومنذ أفاض النهر والمنادون يطوفون في البلاد يعلنون نسبة قياس النهر، وكانت الأعلى خلال السنوات الخمس الماضية، لذلك انتشرت في أرجاء المدينة الفرحة العارمة، علقت الزينات وأطلقت المدافع نيرانها ابتهاجًا، وخرج الجميع ليحتفل منذ الصباح الباكر، نزلت أنا وجوهرة لنحتفل معهم، واعتذر عمرو بأنه سيكون مسئولًا عن الأمن في البلاد في هذا اليوم المهم، الذي يخرج فيه الجميع من بيوتهم ويأتي الكثيرون من قراهم ومدنهم.

كان المشهد يستحق الرسم حقًّا، لذلك وجدت نفسي أخطط لرسم لوحة له في المستقبل. خرج الأطفال ممسكين بالأعلام الملونة، يمرون وبيدهم أوانٍ يقرعون عليها بقطع خشبية، ويصيحون «البحر زاد»، والجميع يسير في اتجاه مصر القديمة لرأس القناة، وعلى طول شواطئ النيل والقناة، تروح المراكب وتجيء في تلك القناة الضيقة، التي تفصل جزيرة الروضة عن شاطئ النيل الأصلي، محملة بالمحتفلين وهم يرقصون ويغنون، بينما على منصة عالية أقيم سرادق للخديو، الذي يشهد الاحتفال بنفسه مع حاشيته وكبار رجال الدولة، ومن تلك القمة العالية التي بُني عليها سرادق الخديو والهيئة المرافقة له، دعاني رئيس مهندسي القصور الخديوية، الذي كان يجاور الخديو في السرادق لأشاهد المنظر من ذلك الارتفاع.

بعد أن حييت الخديو والحاضرين وقفت أتلفت حول نفسي في ذهول، فمن تلك المنصة كانت تظهر جزيرة الروضة بأشجارها وأسوارها المرتفعة، وعلى مسافة بضعة أميال تظهر الأهرامات في شموخ، وقبب المساجد والكنائس تتجاور معًا، وفي الأسفل يظهر مشهد الأهالي أكثر ضآلة، وهم يتزاحمون حول بائعي الحلوى والمخبوزات، والحواة الذين يقدمون عروضهم، بينما كان السقاة لا يتوقفون عن إصدار ذلك الرنين بضرب أكوابهم النحاسية الواحدة في الأخرى. وفجأة راح الكل يصيح، الكل يراقب المياه المندفعة التي تخترق السد الطيني، وهو بمثابة خدعة يقوم ببنائه مجموعة من الرجال خصيصًا لتحطمه قوة المياه، كدليل على مدى اندفاعها، وعندها بإمكانهم الصياح والتصفيق بصوت عالٍ، ثُم تنسكب المياه منهمرة بقوة لتمتلئ القناة وتصبح في مستوى نهر النيل تقريبًا، ويظهر المحافظ ويمارس تقليدًا متبعًا منذ سنين، فيلقي قروشًا فضية جديدة في القناة، وذلك لاعتقاد راسخ بأن العملة

الفضية تدر مياه النيل بينما يقذف الأهالي بأنفسهم في النهر، ويتنافسون في جمع العملات التي صكت خصيصًا لتلك المناسبة، ونقش عليها إله النيل راقدًا على الأرض، ممسكًا في يديه بعنقود من العنب، وعلى مقربة منه هُناك تمساح أو فرس البحر. كنت أعلم أنه في مثل هذا التوقيت كان المصريون القدماء يحرصون على الاحتفال بعيد وفاء النيل، ويقومون بإلقاء عروسٍ للنيل قربانًا له، وعندما جاء عمرو بن العاص وفتح مصر ألغى تلك العادة، ولكنني لم أكن أعلم أن جزيرة الروضة هي المنطقة التي عثرت فيها زوجة فرعون مصر على سيدنا موسى، بعدما وضعته أمه في سلة وألقت به في نهر النيل، وأن هذا المكان كان شاهدًا على قصة حدثت منذ آلاف السنوات، ولذلك سمي المكان بشجرة موسى نسبة إليه، وأن الآية القرآنية التي تقول: «موعدكم يوم الزينة». كان يقصد بها هذا اليوم وهذا المكان، أخبرتني جوهرة بتلك المعلومات لأندهش أكثر وأكثر من أمر تلك البلاد وأحداثها المترابطة، المتشابكة والتي تقود للتيه وعدم التصديق.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

64

سبتمبر (1870):

هل كانت تلك الاحتفالات والأيام الرائعة التي عشتها في هذا البلد قصاصًا لما سوف يحدث لي بعدها؟! وإلا لماذا تبدلت الحياة من لونها الوردي المبهج فجأة للون الرمادي المقيت؟!

استيقظت على خبر في جريدة أيجيبسيان يعلن قيام حربٍ بين فرنسا وألمانيا، كان هُناك الكثير من المشاكل السياسية المتعلقة بين الدولتين، ولكن أن تنتهي بحرب كان ذلك أسوأ خبر تلقيته بحياتي.

أجزلت الجريدة الصفحات والعناوين الدموية الحمراء تتحدث عن الخبر، وكيف أن نابليون يدخل تلك الحرب وهو متأكد من الانتصار، بالرغم من القصف الشديد الذي تعرضت له المدن الفرنسية في أول أيام العدوان وبخاصة باريس. تركت الجريدة جانبًا وأنا شبه مذهولة من جراء الخبر، فزعة، حزينة، كل تفكيري وقتها كان في أمي وأخواتي، وأيضا كريس وليون، هل بإمكانهم أن يظلوا بخير في مثل تلك الظروف؟ ارتديت ملابسي وذهبت للكنيسة، أقمت صلاتي وأوقدت الشموع، وبقيت أتوسل أمام تمثال العذراء لتحفظ أمي وأخواتي ووطني، هممت بالُخروج عندما سمعت خطوات، دخلت للمكان واقتربت مني، وتوقفت خلفي تمامًا ثُم لمسة حانية على كتفي.

- عمرو!

- قرأت الخبر في الجريدة، وتأكدت أنك علمتِ به أثناء تصفحك للجرائد صباحًا، فجئت أطمئنك بأن الأمور ستكون بخير.

- ولكن كيف عرفت أني هُنا؟!! أنا حتى لم أخبر جوهرة؟

- أعلم أن الأحد إجازتك، فأي الطرق ستسلكين في هذا التوقيت الصباحي سوى للكنيسة؟

- لقد توسلت للرب وللعذراء أن يحفظا أهلي وبلدي، ولكن ترى هل سيجيب دعائي وأنا المقصرة في حق إيماني؟ منذ متى لم تطأ قدميَّ الكنيسة وأرتل في الإنجيل؟

- ولكن قلبك ممتلئ بالإيمان والخير، وهذا وحده كافٍ، كما أن الله سبحانه وتعالى لا يحاسبنا من هذا المنطلق.

- أرجو أن يستجيب لدعائي، أكاد أجن منذ علمت بأمر الحرب والخراب الذي طال باريس.

تجولنا أنا وعمرو ذلك الصباح في أنحاء المدينة، مررنا باتجاه جسر جميل أوشك العمل فيه على أن ينتهي، يربط ما بين الضفة الغربية والشرقية من النهر، صممته شركة «ليل» الفرنسية التي تشرف على بناء أهم الجسور والمباني بباريس، تلك

المدينة التي يقتلها الغدر الآن، تتبدل رومانسيتها للعنف، وطقسها الصحو يمتلئ بالدخان والبارود، وأرضيتها المعبدة بالبلاطات والتي كانت تلمع بعد المطر الآن تفترشها الدماء وجثث القتلى، يا ألله ما أصعبه من قدر!

- لا تقلقي نتاليا، فأنا لا أشك في ذكاء نابليون، مؤكد سيخرج من المعركة منتصرًا.

- لا يهم من سيخرج منتصرًا، الأكثر أهمية بالنسبة إليَّ هو الخراب الذي سيجتاح البلاد. يا ليتني كنت هُناك الآن، بدلًا من تلك العاصفة من القلق.

اعتذرت منه لألحق بأصدقائي من الجالية الفرنسية، حيث تعقد لقاءاتهم دومًا في شرفة فندق شبرد، لأعرف منهم الأخبار وأستعين بهم على الصبر، رُبما إحساسي بأني معهم يشعرني بالأمان أكثر.

- نتاليا، أرجو منك أن تتماسكي، الأمر ليس بمثل هذه الصعوبة.

قالها وهو يربت على يدي..

- أرجو ذلك حقًّا.

- سأمر عليك غدًا صباحًا لأودعك؛ كلفت بمهمة عمل وربما سنبحر بعد الغد للحبشة.

- الحبشة! وأين تقع؟

- إنها في الجنوب الإفريقي على مقربة منا.

لاحقته بالأسئلة:

- ولماذا تذهب، وما الذي كلفت به، وكم ستمكث؟

لامس خصلة شعر كانت قد تسللت من تحت القبعة التي أرتديها:

- غدًا نتاليا سأخبرك بكل شيء وسنتحدث.

يا ألله ما أتعس ذلك اليوم! ها هو بعد خبر الحرب يأتي خبر الوداع! وكأن القدر كان يدخر مفاجآته السيئة ليقدمها لي دفعة واحدة.

اجتزت بوابة الفندق بخطوات عصبية قلقة، وذهبت للتراس حيث كان عدد كبير من الجالية الفرنسية مجتمعين، رجال ونساء وأطفال جميع الأعمار، مزيج من القلق والحزن والخوف يكسو وجوههم، تناثرت على الطاولة الجرائد التي تطبع بالعربية والفرنسية والإنجليزية، وحتى اللاتينية، الأخبار متضاربة والأحداث متلاحقة، وانقطاع خطوط التلغراف أدى إلى المزيد من القلق والخوف.

أين هو الأمان الذي جئت أبحث عنه؟ لم يكن هُناك سوى القلق والعذاب والصياح وإلقاء الاتهامات، بعدما تحولوا إلى خبراء سياسيين، ها هم الفرنسيون، لن يتغيروا يومًا. كنت أجلس أترقب خبرًا من هُنا أو هُناك، وفي الخامسة مساء غادرت. قدمت لي جوهرة الطعام ولكني رفضت، جلست أمام لوح من الخشب

لأستكمل لوحة الوالدة باشا، لم يكن ينقصها سوى بعض الرتوش، لذلك وجدتني أنهيها على عجل، وأخلد لنوم تملؤه الكوابيس.

بعد الانتهاء من عملي في ذلك اليوم بأحد القصور الخديوية، ذهبت للأزبكية لألتقي بعمرو لأعرف منه تفاصيل سفره، وكعادتي وصلت قبله فجلست على مقعد خشبي أراقب طائرًا صغيرًا يغرد على الشجرة لحنًا جميلًا،

اختفى الطائر فجأة وبينما كنت في انتظار ظهوره مجددًا رحت أمارس تلك اللعبة التي طالما لعبتها، إذا ظهر الطائر ليغرد مرة أخرى فستنتصر فرنسا في الحرب. طال انتظاري أحارب اليأس بمزيد من الأمل، حتى وإن كان في شكل لعبة سخيفة، ولم يغرد الطائر، ولكن طائرًا آخر غرد بخطواته على إيقاع دقات القلب، ظهر فجأة من بين غصون الأشجار الكثيفة والمتدلية على الأرض، شد على يدي وجلس على مقربة مني، كانت تكسو وجهه تعابير الحزن على غير عادته ثُم قال:

- كيف حالك وهل هُناك أخبار؟

- اليوم أعلنت الصحف أن ألمانيا تدخل الحرب بفائض عدد في الجنود وبأسلحة حديثة، فالسكك الحديدية لنقل الجنود والأسلاك البرقية لإصدار الأوامر، هُناك أكثر من 380 ألف جندي ألماني في الجبهة الأمامية، بينما وصلت العديد من الكتائب الفرنسية متأخرة، ترى هل سينجح نابليون في هذه الحرب؟

- مؤكد سيفلح.

- كل الشوارع والحارات والممرات في تلك المدينة العريقة لا تؤدي إلا للصمود.

- هُناك مدن لا تختار مصيرها، فقد حكم عليها تاريخها وجغرافيتها ألا تخضع أبدًا.

ربت على ظهري بحنان:

- وأنت ما قصة سفرك تلك؟

- هناك بعض الثورات الصغيرة تحاك ضد الحكومة المصرية في السودان والحبشة، سنذهب لنقضي عليها.

- وكم ستمكث من وقت؟

بعد نفس عميق وعيناه مسمرتان هُناك لبعيد..

- لا أعرف حقًّا نتاليا.

- متى ستغادر؟

- غدًا صباحًا ستبحر أورطة [54] صغيرة على متن سفينة.

- هل يمكنك أن تعتذر أو تتخلف عن الأورطة؟

- لا.. تالي، لا يمكنني ذلك أنها أوامر صارمة.

- ولكن ما دخلك أنت بالحبشة والسودان، ألا تكفي مهامك هُنا؟

- الحبشة والسودان تخضعان للسيطرة العثمانية، وأنا ضابط بالجيش المصري التابع للولاية العثمانية فهذا من واجبي, ولكن ما بالك بهؤلاء العبيد الذين خطفوا من بلادهم ليجبروا بعدها على الانضمام للجيش، وأصبحوا جنودًا وأنفارًا فيه، ليبعث بهم الخديو سعيد باشا لمساعدة فرنسا، التي بدورها تساعد الإمبراطور مكسيمليان [55] ضد الولايات المتحدة في حربها على المكسيك، حتى في النهاية عند تقسيم الكعكة يصبح لفرنسا النصيب الأكبر منها! تخيلي المكسيك، تلك البلاد التي يجب أن تقطعي بحر الظلمات [56] حتى تصلي لها، يسافرون إليها ليحاربوا هُناك مع عبيد آخرين من الجزائر وجزيرة الأنتيل، حرب لا تمت لهم بصلة، مات منهم من مات إثر الأوبئة واختلاف الجو، وفي النهاية وبعد أن قضوا أكثر من خمس سنوات على وجودهم هُناك وانتهت الحرب، يستقبلهم إمبراطور فرنسا ليسلم لهم النياشين.

ضحك بسخرية:

- خمس سنوات من تجرع الويلات لإرضاء جشع إمبراطور فرنسي، ليبتسم وهو يتناول الشمبانيا في كأسه الكريستالي الأنيق، وباشا تركي لا يرجو سوى الشموخ الكاذب، وفي النهاية ما الحصيلة؟ نيشان (لاكروداي لاليجيون دونور) سلمه لهم الإمبراطور الفرنسي بنفسه، في حفلة أقامها لهم بقصره بباريس، ولكن فوق أي صدر عليهم تعليقه؟ فوق صدر محمل بالألم والوجع؟ أم فوق كتف منحنٍ من عار الخذلان؟ وحفلة أخرى في قصر رأس التين لتكريم خديوي مصر الضباط والجنود على شجاعتهم الفائقة، وأجسادهم وأرواحهم التي لم يبخلوا بها فداءً لأراضٍ لم يسمعوا عنها من قبل، أو يحلموا أن تطأها أقدامهم يومًا.

كان لحديثه جاذبية الحزن، فكانت كلماته لا تدعوك سوى للبكاء، لمست كتفه وسندت رأسي عليه وسألته:

- حمدًا لله أنك لن تسافر إلى تلك البلاد البعيدة، ولكن هل كنت تعلم بأمر السفر؟

- نعم كنت أعلم، ولكن لم أكن على يقين.

- لماذا لم تخبرني مُسبقًا؟ كنا قد عجلنا بالزفاف!

- من الأفضل أن أذهب وأحلم لأعود لأتزوجك.

- وسأنتظرك بكل دقيقة بعد أخرى، وساعة تلو الأخرى ويوم يتبعه آخر، ستمضي الأيام هكذا في انتظار رجل جميل معه الانتظار.

كنت أسند رأسي على كتفه وهو يربت على ظهري بحنان:

- وعْد نتاليا، أنك ستكونين في انتظاري دائمًا؟

-نعم سأنتظرك إلى أن تأتي.

غادرنا وقتها بعد أن قام بوداعي، وفي الواحدة من صباح اليوم كنت راقدة في الفراش أتقلب على وقع الحزن والقلق، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، كنت أعلم أن جوهرة تغط في نوم عميق، ومؤكد لم تسمع الطرق، وضعت الخف في قدمي

سريعًا، ولبست بينوار حريري بلون زرقة السماء، يلفه شريط من الفراء الأبيض حول الرقبة، وحول طرف الأكمام الواسعة، وبعين نصف مفتوحة وأخرى مغلقة فتحت الباب. كان هو بقامته الفارعة يرتدي زيه العسكري، ويمسك في يده حقيبة سوداء صغيرة طوى فيها ملابسه، قطع دهشتي به بذلك الاحتواء العميق عندما ضمني له بقوة، سحبني من يدي لغرفتي وأحكم غلق الباب.

- أريد أن أقضي الوقت الباقي لي هُنا بجانبك.

كانت سترته مبللة من الأمطار الخريفية التي تهطل بالخارج، خلعها لتجف واستلقى على الفراش ومد لي ذراعه وضمني إليه، بدأت وقتها فقط أشعر بطمأنينة وكأن ذراعه قد منحتني شهادة بالشفاء من قلقي وأحزاني، كنت آنذاك سعيدة، لم أكن أعي وقتها أن سعادتي مؤقتة، وأنه فور استعداده للمغادرة سيعيدني قدري إلى حزني السابق، سحب نفسه مني واستعد للرحيل عندما همست في أذنه قائلة:

-أخاف حنين المطر ومواسم رُبما تجيء ولن نكون معًا، فأطِلْ هذا الوقت قليلًا.

فضمني له أكثر ثُم قام سريعًا، وارتدى سترته وأخذ قفازي الأسود الحريري الملقى على الكرسي بإهمال، قبله ووضعه في جيبه, ثم طبع قبلة على يدي ووجنتي، طالبًا مني أن أهتم بنفسي، وأنه سوف يكتب لي كلما أتيحت له الفرصة لذلك, ودَّعته باكية عند عتبة الباب، سحب نفسه مني ببطء حيث كنت متشبثة به بقوة خشية ألا أراه مجددًا.

لطالما كان الزمن هو عزول العشاق ها هو ذا يبعدنا، أراقبه من خلف الزجاج المبلل للنافذة، بخطوات سريعة كان يختفي خيال رجل يرتدي حزنه، بعدما طلب مني أن أبقى في انتظاره. كنت سأحاول أن أمارس لعبتي محدثة نفسي بأنه إذا واصل المطر انهماره طوال اليوم وساد الضباب الجو فلن يعود عمرو، أما إذا أشرقت الشمس فسيعود سالمًا، ثُم هززت رأسي لأخرج الفكرة منها، لا لن أمارسها وأحكمت غلق النوافذ وإسدال الستائر حتى لا أعرف أي طقس كان يومها.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

65

نوفمبر (1870):

مرت الأيام بعد سفر عمرو حزينة، في البدء كنت لا أحيا إلا على قيد الترقب، ترقب أخبار الحرب وترقب أخبار عن عمرو، تحول ذلك الترقب لقلق عصبي جسيم أخذ يفتك بي رويدًا رويدًا، عندما كنت أجلس لأرسم أجد يدي ترتعش بدون قصد مني، أو يسقط مني الكوب فجأة أحيانًا أخرى، كانت تخونني ساقاي عندما لا تستطيع أن تحملني فأتكئ على أي شيء أمامي حتى أحمي نفسي من السقوط، وصف الطبيب دواء أقوم بخلط ثلاث نقاط منه مع نصف كوب من الماء، وأتناوله مرتين في اليوم، ونصحني بالراحة وعدم الإرهاق وألا أشغل بالي بالتفكير، ولكن كيف؟ كيف لا أشغل بالي بالتفكير والأخبار تنهال يومًا بعد آخر أسوأ من ذي قبل؟ المعارك الجسيمة تقع، باريس محاصرة من الألمان، والمجاعة والموت منتشران في كل مكان.

وعمرو قد مر أكثر من شهر ولم أعلم عنه شيئًا، ارتديت ملابسي ذلك الصباح وذهبت لزيارة أهله رُبما كانوا يعلمون شيئًا عنه، خبرًا ما أو رسالة ما تكون قد وصلتهم منه، استقبلوني بحرارة وشوق أخرجاني لبعض الوقت من صمتي ووحدتي، كنت أشعر بطيفه يمر في المكان، رائحة خشب الصندل الممزوجة بالبهارات العربية التي تنبعث من جسده، كنت أشمها تتسلل لي في بطء، وتستولي علي، أخبرتني صفية أنه منذ سفره والبيت لفه السواد، حتى أمه لا تغادر غرفتها ليلًا ولا نهارًا، والده يمر باستمرار على مركز القيادة التابع له ليسأل عن الأورطة، وما إذا كان هُناك أي من أخبار عنهم.

تنهدت بحزن قائلة:

- آه كم أنا قلقة!

ربتت على يدي صفية تخبرني:

- استبشري خيرًا تاليًا، وستحمل الأيام القادمة خبرًا عنه بطريقة أو بأخرى.

توالت الأيام ولم تحمل أيًا من الأخبار سوى ذلك الخبر الفاجع، الذي قرأته صباح ذلك اليوم وأنا في إحدى المكتبات، التي يملكها رجل إنجليزي بجوار البيت، كنت أطالع الجرائد وقرأت خبرًا يقول «لقد ارتكب المارشال الفرنسي باتريس ماكموهان عدة أخطاء عسكرية كبدت جيشه خسائر فادحة، واضطرته للتراجع إلى سيدان، وهناك استطاع القائد الألماني «مولكته» محاصرة القوات الفرنسية، وسلّط عليها مدافعه، ولم يستسلم الفرنسيون بسهولة، بل اشتدت المعارك وتساقط القتلى من الطرفين، وأخيرًا اضطر الإمبراطور نابليون الثالث الموجود بين جنوده المحاصرين أن يأمر ضباطه برفع العلم الأبيض لإنهاء هذه المجازر، و أرسل إلى ملك بروسيا الرسالة التالية «إن لم أكن نلت شرف موتى في المعركة فها أنا أستسلم».

نابليون رجل الذكاء والدهاء رجل المهمات الصعبة استسلم حقنًا لدماء ضباطه وجنوده، سقطت باريس في أيدي القوات الألمانية، وأعلنوا قيام الإمبراطورية الألمانية من داخل غرفة المرايا وسط قصر فرساي، ووصلت الأحداث إلى ذروتها، اقتحم الألمان العاصمة وقتلوا وأسروا ونهبوا الكثير، كما أشعلوا النار في أشهر رموز فرنسا قوس النصر، أيمكن للكلمات أن تسقط صاعقة على شخص بهذا الشكل؟ أيمكن للجسد بعد تصفحه جريدة وعلى أثر خبر بها أن يكون عاجزًا عن ثني الصفحة؟ ها هي يدي ترتجف كما لم ترتجف من قبل، قد سقطت باريس ودمرت، ترى ما مصير أمي وأخواتي؟ وما مصير ليون وكريس؟ ومقهاي ومرسمي؟ ما مصير كل هذا يا الله؟ أكاد أجن، بكيت كما لم أبك من قبل، وواساني صاحب المكتبة بكلمات رقيقة، حتى عمرو الوحيد الذي كان وجوده بجانبي رُبما يمنحني بعضًا من السلام والأمان لم يكن هنا.

كان لخسارة فرنسا في الحرب أمام ألمانيا وسقوط الإمبراطورية واستسلام بونابرت، وقع كبير على الشارع المصري، الذي تربطه صلة ما بهذا الشعب، وكيف لا وهذا الولع المصري بكل ما هو فرنسي، فمحلات الملابس والموبيليا والتحف والخياطين والحلوانية والأدوات المنزلية تشغل الطرقات بكل ما هو فرنسى والكثير من أصحابها من فرنسا, الجالية الفرنسية هي الأكثر هنا، المدارس والثقافة، المهندسون والفنانون الذين جاءوا ليصمموا للمصريين عاصمتهم الجديدة بكل أناقة وترف، ارتباط الخديو إسماعيل بفرنسا، تلك الدولة التي تعلم فيها وكان يتردد عليها باستمرار، وعلاقة الصداقة التي كان يعمق بها صلته بنابليون، والقوة التي كان يستمدها منه، والمشروع الأكثر أهمية في التاريخ العالمي الذي وقع بين البلدين، حفر قناة السويس، لذلك كان سقوط باريس مأساة شعر الجميع بالحزن من أجلها . علمت فاطيما بالأحداث فزارتني مساء ذلك اليوم، ولم أكن قد رأيتها منذ حفل زفافها وسفرها لإسطنبول، حتى أني لم أعلم أنها حامل وعلى وشك الوضع. ضمتني في حضنها بمقدار الفاجعة، كانت تعرف مدى حبي لبلدي وتدرك مكانة باريس عندي، فراحت بكلماتها الحانية تحرك كل ما بداخلي من وفاء وذكريات، فبكيت في حضنها، ارتجفت يدي بقوة فضمتها بحنان بين كفيها، وعلت وجهها نظرة الخوف.

- لقد أدى القلق الذي أعيش فيه لالتهاب حاد في الأعصاب جعل يدي ترتجف بقوة من حين لآخر.

- نتاليا انظري ما الذي تفعلينه بنفسك، أنسيت أنك لا تحيي إلا على قيد الرسم؟

- أتعبتني الصدمات المتتالية.

- وهل هُناك صدمة أخرى بخلاف تلك الحرب؟

- نعم، هُناك الصدمة الأقسى، لقد غادر عمرو في حملة للجيش المصري إلى الحبشة، ومر أكثر من شهر ونصف ولا أعرف عنه شيئًا.

بأي من الكلمات كان عليها أن تواسيني؟ هُناك فواجع ليس علينا سوى أن نصمت أمامها. غادرت فاطيما بعدما وعدتني أنها سوف تزورني مجددًا لتطمئن عليَّ.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

66

ديسمبر (1870):

تمر الأيام وتتقلص مساحة الأمل والترقب، أنظر إلى نفسي الآن وأتساءل ما الذي جاء بي إلى هُنا يومًا؟

ما الذي جعلني أجلس في انتظار رجل غادرني ورحل ولم يقل سوى انتظريني؟ وأي قدر هذا الذي يملك كل هذا الذكاء في حبك الخطط والمؤامرات التي لا تفضي إلا إلى الحزن؟ هل يثأر مني لأنني في زمن ما تخطيت حدودي معه واحتللت دوره، وتفننت في رسم أقدار لوجوهه. لم يكن هو وقتها بذلك الذكاء ليخفي نفسه فقد كان مرسومًا عليها.

ها هي أوجيني، تلك المرأة التي كانت تملك كل ترف الحياة، وعندما رسمتها لم أرسم سوى ما طالعني بها قدرها المرسوم على وجهها الحزين، لتمر الأيام وتتحقق نبوءتي، وتفر من الأبواب الخلفية لقصرها هربًا بعد منتصف الليل في إحدى الليالي الشتوية قارصة البرودة، بعدما ثار الشعب عليها وسرق الخدم مجوهراتها وملابسها، حتى تلك الأحذية التي كانت مولعة بها، وكان معروفًا عنها أنها لا تكرر ارتداء الحذاء مرتين، تلك الأحذية التي كانت تصنع خصيصًا لها من أجود أنواع الجلود، وأثمن أنواع الأقمشة وترصع بالجواهر، لم تنج من السرقة، ترى لماذا عندما رأيتها لم أرها في كامل زينتها بالتاج الإمبراطوري الذي يزين رأسها، وبحذاء من تلك الأحذية؟ كل ما رأيته وقتها هو قدر كتب على وجهها بأيام قادمة حزينة.

في إحدى صباحات ديسمبر الباردة قررت المرور على سوق خان الخليلي للقاء والد عمرو، كان يجلس على دكة خشبية أمام دكانه يدخن النرجيلة ويرشف القهوة، يكسو ملامحه الطيبة حزن ما يشي به، هلل عندما رآني وشد على يدي بحرارة وهو يصافحني، جلست بجواره على الدكة الخشبية، طلب لي فنجانًا من القهوة بينما ظل يسحب أنفاسه من النرجيلة، كنت على وشك أن أسأله عن عمرو عندما أدار هو دفة الحديث.

- مازال أمر تلك السفينة التي أبحرت بعمرو ليس لها أي أثر.

خرست على وقع كلماته، كنت أحسب أن السفينة قد رست به وربما هو مشغول بالعمل الذي ذهب من أجله، أو لعدم وجود تلغرافات هُناك، أو أن ساعي البريد قد ضل طريقه، كنت أحاول أن أحتمي بحجج أخف ألمًا، أما أن السفينة التي أبحرت بالأورطة العسكرية تختفي تمامًا فهذا شيء يصعب تصديقه.

- كيف هذا؟

-أخبروني أنهم لم يتلقوا إشارة ما أو رسالة بأمر وصول السفينة، ولم تصل الفرقة للأراضي، وقد بعثوا أكثر من سفينة للبحث عنها ولم يجدوا لها أثرًا، لقد اختفت

تمامًا نازعة أي أثر خلفها.

- وما تفسير ذلك؟

- وحده الله يعلم هل ابتلعها البحر، أم أنها مؤامرة من الأحباش.

- وكيف لنا أن نعرف؟

- لقد قاموا بمسح المنطقة التي أبحرت منها، والبحث فيها عن أي أثر، ولكن لم يعثروا على حطام أو جثث.

ساد الصمت.. اغرورقت عيناه بالدموع أما أنا فبدأت يدي في الارتجاف حتى أنني خبأتها في جيب معطفي، ودعته وغادرت أتمشى في شوارع تلك المدينة التي تشبهه كثيرًا، كنت كلما تجولت يأتي حبه مع النسائم المختلطة بروائح التوابل والبخور، مع نداءات الباعة بأصواتهم الشجية مع صوت المآذن والتكبيرات، مع النيل مع الشمس والصحراء.

يأتيني حبه مع العطور والأصوات والوجوه، يمر الوقت وحبه كنهر النيل يفيض عن الحد ولا ينضب أبدًا، يمر الوقت وحبه كوقع حوافر جواده لا تطرق إلا القلب، يمر الوقت وأنا في انتظار رجل جميل معه الانتظار، حتى وإن لم يحضر أبدًا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

67

فبراير (1871):

أصبحت أعيش على قيد خبر من أهلي أو من عمرو، زادت الأمور في السوء، يدي أخذت ترتجف بشكل سريع وقوي منعني الجلوس أمام الورق لأرسم، حتى الرسم الذي كنت أهرب من الحياة إليه أغلق أبوابه بوجهي، فقط ترك لي بابًا صغيرًا مواربًا أتسلل خلسة منه كلما غادرتني الحالة وشفيت منها ولو مؤقتًا، أتطلع إلى الجرائد، الأخبار سريعة ومتلاحقة، معاهدات وفرمانات تدعو للاستقرار، لا أعرف كم عدد الرسائل التي بعثت بها لكريس وأمي ولم أتلق عليها ردًّا، هل ضلت طريقها؟ هل حدث لهما مكروه؟ مر أكثر من خمسة أشهر الآن ولم أعلم عنهما شيئًا، ولكن في تصوري عن مدى الخراب الذي حدث، فالأمور هُناك مازالت غير مستقرة، في إحدى الليالي فكرت أن أبعث رسالة لليون أسأله عن أخباره، وإذا كان يعلم شيئًا عن أمي وأخواتي.

سلمتني جوهرة فور وصولي من العمل هذا اليوم حزمة من الرسائل جاء بها ساعي البريد، للوهلة الأولى فكرت أنها مبعوثة من فرنسا انتابني الخوف والتوجس والفرح معًا، ولكن اتضح أنها كانت مجموعة الرسائل التي بعثتها لأسرتي وقد كتب عليها «لم يستدل على العنوان» يا الله ما أصعب تلك الكلمة التي ارتعش لها الجسد! وترى ماذا تعنى «لم يستدل على العنوان»؟ أين ذهب العنوان؟ إلى أي الطرق غير وجهته؟ إلى أي مصير اتجه؟

ألم يكن هذا العنوان مسكننا يومًا؟ وهل العنوان يملك ترفًا أن يبدل من نفسه؟ لم يمر على تساؤلي الكثير حتى وصلت لي رسالة من ليون بعدها بعدة أيام استهلها كاتبًا:

(يؤسفني أن أخبرك بهذا، لقد تعرض منزلكم للقصف، لم ينج من الحادث سوى اثنين من إخوتك، لم يكونا هُناك وقتها، أحدهما كان قد التحق بالجندية ليدافع عن فرنسا، والآخر كان في المسكن الخاص بالجامعة، لقد مررت هُناك وشاهدت بيتك خاليًا من ذاكرته، لقد دمرت باريس نتاليا، سرقوا حتى آثارها ونقوشها، خربوا شوارعها وممراتها، لقد لحق الخراب بباريس كلها).

وكانت أكثر اللحظات ألمًا، أكثر اللحظات وجعًا، أكثر اللحظات دمعًا..

حضرت جوهرة على صياحي ونحيبي ولم تفهم بعد ماذا حدث رُبما فهمت من ترديدي كلمة«mama». إني أشيِّع أمي وأخواتي إلى مثواهم الأخير داخل جدار القلب.

عاودت طبيبًا إنجليزي يشهد له الجميع بالكفاءة، جلست معه لأقصَّ له الأحداث التي توالت عليَّ تباعًا وخلفت وراءها هذه الحالة، كما أخبرته أني أحتاج أن أشفى لأعود للرسم مجددًا، إن يد الرسام هي كل ما يملك تمامًا كما هو نظره، أرجع الطبيب حالتي لالتهاب مزمن في الأعصاب نتيجة للقلق والتوتر وحالة الحزن التي أعيش فيها، ومع انقضاء كل ذلك سترجع الأمور لطبيعتها، كما نصحني أن أقوم

بترويضها والسيطرة عليها، ولكن كيف وهي كأن مسًّا من الجن قد أصابها؟ كيف وهي تهتز وترتجف وترتعش؟ وترى هل سأشفى حقًّا؟ فإن كان شفائي متوقفًا على ذهاب حزني فهذا يجعل الأمل متوقفًا على رجوع عمرو، وحتى برجوعه، هل بإمكان الحزن أن يتلاشى، وذكرى فاجعة قتل أمي وأخواتي في القصف على باريس تتصدر أبواب الذاكرة؟

جوهرة الحبشية السوداء، المثقلة بالحنان والعطف كانت تتمتم على رأسي ويدي بآيات قرآنية وأدعية، وهي تقوم برسم دمية كبيرة على ورقة وتقوم بثقب الدمية بسن حاد وهي تقول «رقيتك من عِين هذا وتلك» وربما لم تدع أحدًا تعرفت عليه منذ وصولي لمصر إلا وذكرته ثُم قامت بحرق الورقة، وذهبت لتنثر الرماد في مفترق للطرق، كنت أتابعها في سكون وصمت رُبما تفلح طريقتها.

عندما تملؤني الرغبة في الرسم أقوم بمحاولة واهية بربط يدي بقطعة قماشٍ، في محاولة للسيطرة على رجفتها، ولم أفلح في الرسم بدقة فرسمت وقتها حقلًا من الأعشاب، للسهولة التي تحتاجها حركة الفرشاة في مثل ذلك المشهد، أخذت مني تلك اللوحة عدة أيام طويلة، كنت سعيدة وأنا أرسم، وكان صوت الطبيب وهو يحمسني قائلًا:

- قومي بترويض يدك وحاولي أن تسيطري عليها.

وها أنا أطيعه وأقوم بترويض يدي وكأني أجلس أمام الورق للمرة الأولى ومازلت بعد أتمرن على الرسم، أنا التي كنت أنتهي من رسم لوحتين في وقت قليل.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

68

مارس (1871):

ظللت أجوب الشوارع بحثًا عن عمرو أسأل عنه من أعرف ومن لا أعرف، جعلت الشخصيات الفرنسية الكبيرة التي تقطن البلاد تساعدني على معرفة سبب اختفائه، ذهبت لمقر عمله في الجيش وقابلت زملاءه وقادته حتى يدلني أحد عليه، ولكن كان الوجوم والتكتم أحيانًا والسخرية والنقد أحيانًا أخرى هو كل ما استطاعوا أن يخبروني به.

مرت الأيام بثقل الوقت الآخذ في الحزن، اتفقت مع فاطيما أن ترتب لي موعدًا مع الوالدة باشا، لأذهب أسلم لها اللوحة وأطلب منها مساعدتي لمقابلة الخديو، وأخبره بأمر عمرو والسفينة الحربية التي اختفت به وبمن معه في عرض البحر، كنت أعلم أن الخديو إسماعيل رجل يملك من اللياقة والذكاء ما يكفي ليهتم بالأمر ويبحث فيه، وسأخبره أنني تلك الفنانة الفرنسية التي تركت ديارها وأهلها وجاءت لتجمل بلاده بناءً على طلب منه، وهي نفسها التي رسمت بورتريه الإمبراطورة أوجيني، تلك المرأة تعسة الحظ التي أعجب بها كثيرًا.

التقيت بوالدة الخديو في قصرها، استقبلتني بحفاوة عن ذي قبل، قدمت لها اللوحة التي وقفت تتأملها في وقت أكثر من المعتاد، وكانت قد أعجبتها كثيرًا وأثنت على رسمي، وربما لاحظت شحوب وجهي ومظهري المختلف عن المرة السابقة فسألتني:

- ماذا حدث لك؟

قصصت لها جميع ما حدث وطلبت منها أن تساعدني في مقابلة الخديو إسماعيل.

- مؤكد هذا الأمر سيثير حنق الخديو المهتم بالجيش كثيرًا، فما معنى أن تختفي سفينة حربية ولا أحد يعلم عنها شيئًا؟!

وفوجئت بها امرأة أخرى أكثر حنانًا وأمومة، وخاصة عندما طوقتني مودعة وهي تعزيني في موت أمي، وبكيس من القطيفة الحمراء ممتلئ بجنيهات ذهبية، وبكثير من الأمل خرجت من قصرها في ذلك اليوم.

بعدها بعدة أيام سلمت لي القنصلية خطابًا من الديوان الخديو يخبرني فيه أنه أحاط سموه علمًا بطلبي للقائه لأمر مهم، وحدد موعدًا لتلك المقابلة، كان اللقاء في قصر الجزيرة الذي أشرفت على بنائه وتصميمه، عبرت النيل على ظهر مركب شراعي إلى تلك الجزيرة البيضاوية الشكل، ثُم مررت في طريق طويل ترصه أشجار نخيل، بينما على الجانب الأيسر حديقة الحيوانات والنباتات، دخلت للقصر يتقدمني كبير التشريفات، اصطحبني حتى أعلى الدرج الرخامي، وأمام باب حجرة فاخرة للاستقبال دعاني للدخول.

كان الخديو يجلس بكل ما يحمله من وقار وهيبة، وتلك النظرة الحنون بعينيه، يرتدي بذلة سوداء وفوقها معطف من الطراز الإسطنبولي بصف أزرار واحد وياقة منتصبة، شد على يدي بقوة وهو يأسف لما حل لفرنسا وللإمبراطور نابليون، من الواضح أن الوالدة كانت قد أخبرته جميع ما دار بيننا لأنه أضاف قائلًا:

- يؤسفني ما حدث لأهلك.

كان يتحدث الفرنسية بطلاقة فأزال ذلك الكثير من العوائق، نعم، كنت أتحدث العربية ولكني لا أستطيع أن أعبر عما يدور بداخلي سوى بالفرنسية.

- لعلك تسأل سموك، لم أنا هُنا الآن؟

تنفست بعمق وأضفت:

- لقد جئت للبلاد مع وفد هندسي وفني لتخطيط وتصميم القاهرة، تحت إشراف البارون هوسمان كما تريد سموك، لقد أشرفت على بناء عدة قصور ومبانٍ ومنها هذا القصر.

رفع حاجبيه الكثيفين وحرَّك شاربه الكث لأعلى دون أن ينطق بينما واصلت قائلة:

-أنا التي قمت برسم لوحة للإمبراطورة أوجيني والإمبراطور جوزيف المعلقتين في باحة القصر.

- لطالما تساءلت من الذي يملك كل هذا الإبداع ليخرج أوجيني كما لو كانت هي؟ وكيف بإمكان أحد أن يظهر تلك النظرة الساحرة التي بعينيها؟ حقًّا أنت فنانة.

- أشكر سموك، لقد أحببت تلك البلاد كثيرًا وزاد حبي لها عندما ارتبطت بشاب مصري ضابط بالجيش، كنا نعد لحفل زفافنا عندما فاجأني بأنه سوف يسافر للغد في مهمة حربية لبلاد الحبشة حيث تُحاك هُناك المؤامرات من بعض الثوار ضد الحكومة المصرية, وطلب مني أن نؤجل زفافنا إلى أن يعود، كما وعدني بأنه سيكتب لي فور وصوله إلى أي ميناء، والآن وقد مضى قرابة العام على سفره وقد اختفت السفينة التي أقلع على متنها ولا يعلم عنها شيء، هل هي غرقت؟ هل هي رست بأحد الموانئ وتعرضت للخطف؟ كل ما أريد معرفته مصير تلك السفينة، لقد قمت بالكثير من المحاولات أنا وأهله ولكن كلها باءت بالفشل، والآن أنت وحدك تملك أن تقطع الشك باليقين.

تكدرت ملامحه، وضيق من عينيه اليسرى التي كان جفنها أكثر ارتخاءً من العين الأخرى.

- اتركي اسمه ورتبته وفي أي جهة يعمل مع السكرتير بالخارج، وسوف أقوم باللازم لا تقلقي.

شد على يدي وودعني بابتسامة، وغادرت بعدما تركت المعلومات اللازمة عند السكرتير الخاص الذي يجلس في غرفة مكتب أنيقة.

غادرت المكان يملؤني شيء من الأمل، ذهبت يومها لحديقة الأزبكية، جلست في نفس مكان لقائنا، في ذلك الركن الذي سماه عمرو «الموعد» كان يقصد ذلك الموعد الذي يجمعنا دومًا دون ترتيب، جِئت أستدرج القدر، رُبما معجزة تقود خطاه إلى هُنا، ولكن كان زمن المعجزات قد ولَّى.

قدمت لي جوهرة الفطور وكوبًا من الفخار مليء باللبن المغلي المذاب به الهيل [57] وقطعًا من الفطير، بالرغم من فقدان شهيتي فإنه كان عليَّ أن أتغذى، فلم تعد قدماي تقويان على حملي وكانت أعصابي تخذلني كثيرًا فأتعرض للسقوط، عاودت الذهاب لعملي مجددًا وكنت ألجأ في أحيان كثيرة لربط معصمي حتى لا يأخذ في الارتجاف، أطالع صحف النهار، الوضع في فرنسا يزداد سوءًا يومًا بعد آخر، بينما الأمل يبزغ من جديد في تكوين حكومة ثورية. تلقيت رسالة من كريس يعزيني فيها، ويخبرني أن المقهى قد تهدم بفعل القصف ولكنه سيعمل على إعادته من جديد عندما تستقر الأوضاع، كما أضاف يسألني في ذيل الرسالة هل تم زفافي أم لا؟ رسالة أيضًا من مدام رينيه دومينيك تعتذر عن تأخرها في شحن فستان زفافي نظرًا للحرب في البلاد، وتخبرني أن الفستان جاهز وأجمل ما يكون، وتسألني إذا لم يتم زفافي حتى الآن فبإمكانها إرساله لي؟

ولم أشأ أن أبعث ردًّا على أيٍّ منهما.

بعد انتهائي من عملي في ظهر ذلك اليوم صادفتني كنيسة البروتستانت الإنجليكان بحي الأزبكية، كانت كقلعة من قلاع القرون الوسطى مبنية على الطراز القوطي، أزحت الباب الحديدي ومررت في فناء فسيح مغلف بالسكون والصمت، حتى وصلت إلى البوابة الخشبية للكنيسة، كان الباب مواربًا فأزحته قليلًا ودخلت أنظر حولي في ذلك المكان الذي زين سقفه بالرسومات، ونوافذه مرتفعة من الزجاج الملون المنقوش عليه، وعبق البخور يعطر المكان، أقمت صلاتي ووقفت أبكي أمام المذبح الذي امتلأ بالشموع الموقدة ،لم يتبق منها إلا وميض يلمع في برك صغيرة من الشمع، والبعض الآخر مازال قائمًا بأطوال مختلفة، أوقدت شمعة وأخذت أردد الأدعية برجوع عمرو سالمًا وبحفظ بلادي آمنة، وعند الدعوة بالرحمة لأمي تلك التي عاشت عمرها مسكينة وماتت في حادث أليم انتابتني نوبة من البكاء والصراخ، ولم أفق إلا ويد حانية تربت على ظهري، كانت للأب جورج راعي الكنيسة بزيه الأبيض وملامحه البشوشة، تعرفت عليه ووجدت نفسي أحكي له جميع ما حدث لي، وواساني وطمأنني بأن الله قادر عليَّ فعل كل شيء، وإن ظهر عمرو أو لم يظهر فتلك مشيئة الله، علىَّ أن أرضخ لها. توطدت علاقتي به وكنت أزوره يوميًّا بعد انتهاء عملي في أحد القصور الخديوية بحي الأزبكية، لطالما ساندني في أوقات ضيقي وكانت دومًا كلماته صدى طيِّبًا لألمي، كما استفدت من المكتبة الكبيرة الملحقة بالكنيسة، والتي تضم كتبًا ومخطوطات نادرة تحملها الأرفف الكبيرة من خشب الزان.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

69

مايو (1871):

بعد عدة أسابيع من لقائي بالخديوي تلقيت رسالة من رئاسة الديوان الخديوي مفادها أن السفينة التي أقلت تلك الأورطة قد اختفت نازعة وراءها أي أثر، رُبما تكون قد تعرضت للغرق ولثقل المعدات الحربية التي كانت تحملها على متنها غطست في أعماق المياه، لذلك كان من الصعوبة العثور عليها، أما بالنسبة للجثث فربما كانت أسماك القرش المفترسة التي تسكن تلك المنطقة قد اتخذت منهم وليمة، هذا أحد الاحتمالات، وهناك احتمال آخر فربما تكون السفينة قد تعرضت للقرصنة من قبل العصابات الإفريقية المتوحشة التي تقوم بخطف تلك السفن بما تحمله على متنها وتختفي بهم في الأدغال، كل ذلك مجرد تخمينات لا نستطيع أن نجزم بشيء وإن علمنا أي أخبار جديدة سنقوم بإطلاعك عليها.

لحسن حظي أني فضضت الرسالة وأنا بصحبة الأب جورج وإلا كنت وقتها في عداد الأموات من هول الخبر، فقد قام بدور جيد في تهدئتي بكلمات حانية وتراتيل من الإنجيل، ولكن وبالرغم من كل شيء، غصة بالحلق وقبضة بالقلب ورجفة باليد التي كانت ما لبثت أن تحسنت، يد كانت تحيا معي على قيد أمل، والآن وبعد أن خاب أملها ها هي رجعت ترتجف من جديد.

زارتني صفية تطمئن على أخباري، ولأول مرة اكتشف أنها تملك شبهًا كبيرًا من عمرو، أم أنها تلك الجينات الوراثية التي جعلت لفتاتها وحركاتها تمامًا كما لو أنها عمرو، استأنست بها، وانهارت عندما رأتني في ذلك الشكل حتى أني لم أعد أقوى أن أقيم هامتي من شدة الحزن والضعف.

- أين هي تاليا تلك الشابة الجميلة التي كنا نضرب بها المثل في الجمال والأناقة؟ ماذا حدث لك؟

بماذا يتوجب علـيَّ أن أجيبها هي الأكثر مرارة مني لتفهم ما حدث لي؟ أخبرتني أنها سوف تصطحبني لنزور أحد الأضرحة لشيخ جليل له كرامات في شفاء تلك الحالات المستعصية، كانت تنظر ليدي وهي تهتز كما لو سكنتها حية وبعينيها نظرات الهلع والشفقة، غادرت بعدما أخبرتني أنهم في انتظاري في الغد لأتناول معهم طعام الإفطار لأول أيام شهر رمضان، هل كان يجدر بي دخول ذلك المنزل لتناول الطعام في عدم وجود عمرو؟

اعتذرت لها ولكنها أصرت قائلة:

- إن ذلك الطلب رغبة من أبي.

جاء رمضان، خرج وفد كبير لاستطلاع هلاله وعندما ظهر الهلال انطلقت المدافع من القلعة تعلن بدء الصيام، تحولت الشوارع إلى كرنفالات للزينات والأنوار، والفوانيس علقت في كلِّ شبرٍ، الشوادر وأسمطة الطعام تمد في كل مكان، في نهار

رمضان الهدوء التام، وبعد صلاة التراويح ينتشر الناس في الأرض، الأسواق تزدحم، المساجد تستقبل المصلين، الدراويش يقدمون عروضهم وتقام حلقات الذكر، بينما يصعب العثور على مقعد خالٍ في أي مقهى، يدور الباعة بالعصائر المرطبة المشهورة لهذا الشهر، وباعة الحلوى يطوفون بصوانٍ نحاسية كبيرة وضعت عليها أصناف الحلوى التي تصنع خصيصًا لهذا الشهر كالقطائف والكنافة وعلي لوز، أخبرتني جوهرة التي تفننت في صنع تلك الأصناف أن الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك [58] كان ينهكه الصيام فجمع الخبازين والطهاة وطلب منهم صنع طعام لذيذ الطعم ويعطي الجسد الطاقة اللازمة لمواصلة الصيام طوال ثلاثين يومًا فكانت الكنافة، كنت أتمنى لو لم تكن يدي ترتجف لأرسم تلك المظاهر التي يحتشد فيها ذلك الجو الروحاني الجميل.

في ذلك اليوم لم أشأ أن أكلف نفسي عناء الاهتمام بمظهري، ارتديت الزي العربي ووضعت شالًا من الشيفون فوق وجهي واصطحبت جوهرة معي لبيت عمرو، كان الباب مواربًا والفناء فارغًا إلا من بعض دجاجات تنقر في الحصى، مررت على الإسطبل فلمحت سلطان خيل عمرو الذي لم يأت إليَّ يومًا إلا وهو يمتطي صهوته كفارس يثق بخطواته، أزحت باب الإسطبل، هلل سلطان عندما رآني وصهل مرحبًا بي. لمست وجهه ورقبته وتحسست موضع جلوس عمرو عليه، فاجأني سلطان بتلك الدمعة الحزينة التي تجمعت في ركن عينيه وأبى أن يذرفها.

- لقد أصابه الحزن وألم به المرض منذ سفر عمرو حتى إنه لم يعد يقوى على الوقوف بعدما التهبت حوافره ولم تعد تقوى على حمله.

كان الكلام لأخيه الذي كان يقف على باب الإسطبل ليخبرني بقدر تشابه كثيرًا مع قدري، فأي رجل ذلك الذي رحل عنا وهو يعلم أننا لم نعد نستطيع العيش بدونه، ولا نقوى حتى على ممارسة ما اعتدنا عليه. تختبرنا الحياة في غيابه لتتأكد، أمازلنا وبعد كل هذا الصمت ينبض شيء بداخلنا؟ ودعته بقبلة بين عينيه وغادرت.

كانت روائح الطعام الشهية تنبعث من القدور النحاسية الكبيرة من أعلى المواقد، دخلت لألقي التحية وأهنئهم بشهر رمضان، كن جميعهن بالمطبخ أخوات عمرو وبنات أخواته ولكن والدته لم تكن بينهن ككل مرة كنت أحضر فيها وألمحها مشغولة بين آنية وأخرى ممتلئة بروائح الطعام والبهار وجسمها ساخن إثر حرارة الموقد. سألتهن:

- ولكن أين الوالدة؟

أجابت صفية:

- إنها لم تعد تبرح غرفتها، حتى الطعام نأتي به إليها، هذا إذا حالفنا الحظ وأقنعناها بتناوله.

ذهبت إلى غرفتها لألقي السلام، كانت تجلس على أريكة عربية بجوار النافذة، ينفذ ضوء بسيط من بين فتحات الخشب يضيء المكان ويعكس ظل المشربيات في أرجائه، تتشح بالسواد وتمسك بمسبحة طويلة من خشب الجوز، ابتسمت بحزن

عندما رأتني وضمتني بحرارة إليها، وربما كانت المرة الأولى التي تضمني بها هكذا وكأنها ترى فيَّ عمرًا.

نظرت إلى مظهري الذي يغلب عليه البؤس ثُم أطالت النظر ليدي وبصوت واهن نصحتني:

- لا تستسلمي لأحزانك فأنت شابة وجميلة، أنصحك أن ترحلي لبلادك لتعيشي هُناك وسط أهلك فهنا ستحاصرك الذكرى.

- أهلي!!!

قلتها بسخرية...

- وأين أهلي؟ دارت حرب في بلدي وقتلوا جميعهم بلا رحمة.

- يا ألله! كان الله في عونك يا ابنتي!

ثم ضمتني مرة أخرى إلى حضنها..

- ألن تنزلي لتتناولي معنا الطعام؟

نابت ابتسامة حزينة عن جوابها ثُم:

- كيف أجلس على مائدة إفطار رمضاني ولا أجد عمرًا بها؟ وهو الذي كان يطلب مني كل ما تشتهيه نفسه من طعام لذلك اليوم! كيف أنظر حولي ولا أجده يتناول التمر والحليب، ثُم يهرع ليُؤدي صلاة المغرب ويحذرنا ألا تمتد أيادينا للمائدة إلا بعد رجوعه من المسجد، ثُم يقوم بتقبيلي وهو يخبرني أن طعامي له مذاق فريد.

بأي لغة كان عليَّ أن أحدثها وكل كلمات العالم لا تستطيع أن تواسيها؟!

انطلق مدفع الإفطار وجلسنا كالعادة، الحريم على طاولة والرجال على طاولة أخرى، كنت أسترق النظر بين الحين والآخر لعلني ألمحه ينزل على الدرج الخشبي مرتديًا عباءته، أو وهو مقبل عليَّ من الناحية الأخرى من الدار وعلى ثغره تلك الابتسامة الجميلة، وأتساءل وقتها هل كان من الممكن أن يترك في القلب مساحة ولو صغيرة لا يشغلها حبه؟

ذبذبات من الحزن تنتشر في أرجاء المكان مقارنة بذلك الصخب والفرح الذي كنت أشعر به في زياراتي السابقة، كنا نتبادل النظرات في صمت وحسرة، حتى الطعام قد التقط نكهة المرارة من الجو المحيط؛ فأصبح في مذاق العلقم.

بعد الإفطار جلست مع والد عمرو الذي كان يحاول أن يظهر بشكل متماسك بالرغم من مظهره الذي غادره عنفوانه، دارت فناجين القهوة والشاي المعطر بالنعناع الأخضر علينا، جلس عبد أسود صغير تحت قدمي الشيخ يقوم بوضع الفحم المشتعل في الأرجيلة الفضية بمبسم عاجي طويل وبرائحة دخان عبقت المكان، حكيت له عن لقائي بسمو الخديو إسماعيل، وأخرجت الرسالة من حقيبتي وأعطيتها

له ليقرأها، لا أدري هل أخذ وقتًا أكثر من المعتاد في قراءتها أم هو الحزن الذي جعله لا يستطيع أن يرفع نظره عنها ليواجهني.

- سأبقى في انتظاره إلى آخر نفس لي من العمر.

نعم علينا أن نبقى في انتظاره، ألم تكن تلك هي الوصية التي أوصاني بها قبل رحيله لغياب طويل؟

غادر الشيخ هو وأولاده الذكور لصلاة التراويح، وانشغلت البنات كل واحدة بشيء، عدا صفية جاءت لتجلس معي وتجاذبني أطراف الحديث الذي بدأته قائلة:

- باغتنا رمضان ليزيد من أحزاننا، عمرو كان يحب هذا الشهر كثيرًا.

ودعتني عند باب البيت وهي تخبرني أنها ستمر عليَّ فور انتهاء العيد لنذهب معًا لنوقد الشموع في هذا الضريح بنية طلب الشفاء، لم أكن أقتنع بمثل تلك الأمور ولكني وافقت فقد كنت كالغريق الذي يتعلق في قشة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

70

يوليو (1871):

مرَّ رمضان سريعًا، وانطلقت المدافع تعلن أن العيد في الغد لينزل المصريون إلى الشوارع والأسواق، يمرحون ويحتفلون ويشترون حوائجهم، انشغلت جوهرة قبل العيد بعدة أيام بخبز كعك العيد الشهي، وفور إعلان أن العيد غدًا قامت بنثر السكر على الكعك، وأخذت تملأ الصحون وتغطيها بقطعة قماش من البفتة البيضاء وتذهب لتهنئ الجيران، بعد الفجر بقليل تعالت تكبيرات العيد، كنت أشاهد عمرًا وهو يرتدي عباءته البيضاء ويمسك بحبات مسبحته الخشبية التي تفوح منها رائحة الصندل بين يديه فتعطرها، يذهب ليحشر نفسه بين المصلين وبقامته المديدة تستوي الصفوف، كنت وراء كل تكبيرة للمؤذن أراه يرفع كفه للسماء ويردد « الله أكبر» ووقتها كنت أريد أن أصرخ حتى أفقد الوعي.

عند الظهر استأذنت مني جوهرة للذهاب لتلتقي بفرط الرمان، تزينت وارتدت ثوبًا جديدًا للعيد صنعته من الحرير الموشى بخيوط القصب، وتعطرت من قارورة مسك وغادرت بصحبة صحن ممتلئ بالكعك. تحاملت على نفسي وقررت الجلوس لرسم ذلك الكرنفال الذي استمر طيلة ثلاثين يومًا في الشوارع المصرية، كنت كلما حاولت يدي أن تخذلني وتأخذ في الارتجاف أضمها، وبيدي الأخرى أربت عليها، تمامًا كما نربت على هرة تنتفض خوفًا، وأنتظر حتى تهدأ وأعاود الرسم، اكتفيت بأني وضعت بعضًا من الرتوش، وقررت الرجوع إليها بين الحين والآخر حتى أتمها.

تسلمت دعوة من السفارة لحضور حفل «المحمل»، وهو احتفال يقام سنويًّا لتوصيل كسوة الكعبة التي تخاط في مسجد الحسين بالقاهرة من الحرير بخيوط من الذهب، وتوديع قافلة الحجاج للأراضي المقدسة. في القلعة نصبت السرادقات والموائد ووزعت الدعوات على القيادات السياسية والدينية، والجاليات الأجنبية والسفارات، ذلك الاحتفال يحرص الخديو إسماعيل على حضوره بنفسه، لأنه هو الذي يسلم مقود الجمل الذي يحمل فوق ظهره محفة هرمية وضعت بها الكسوة، ويسلم هذا المقود لأمير الحج وهو الرجل الذي يقود المسيرة، بينما خلف ذلك الجمل يتأرجح رجل على ظهر ناقته، رجل يملك الكثير من القوة والعنفوان، يطلق لحيته ويجدل شعره في جديلة طويلة ومن الواضح أنه في نشوة روحية، بينما تسير وراءه قافلة الحجاج. أسر بأكملها حملت أثقالها على ظهور الجمال لتذهب في طريقها للحج، كلما مرت في الشوارع المزينة يخرج الأهالي للشرفات، وينزلون للطرقات لتوديعها بإلقاء الزهور عليها، الفرق الموسيقية تعزف ابتهاجًا بهم والدراويش يؤدون شعائرهم وابتهالاتهم، وتخرج القافلة في حراسة قوات الجيش التي تتراص في الطرقات، جو روحاني جميل جعلني أتساءل:

أي بلد تلك التي تتفنن في صنع احتفالاتها بهذا الشكل؟! وتمنيت لو أني أستطيع أن أرسم كل ذلك مرة واحدة وبضربة فرشاة واحدة.

في صباح أحد الأيام الباردة اصطحبتني صفية للأزهر، دخلنا إلى الحارات الضيقة لنصبح أمام بوابة خشبية لضريح سيدي جعفر الصادق، مررنا منها للدخول، المكان ضيق يتوسطه ضريح كُسي بقماش أخضر وكتبت آيات قرآنية ونقوش حوله وأحيط بحاجز من النحاس اللامع، كان المكان يعبق برائحة المسك، وجدت صفية تمسك النحاس بكلتا يديها وتغمض عينيها وتتوحد مع دعائها، فعلت مثلها وأخذت أردد الدعاء، هو دعاء واحد بصيغة واحدة لشخص واحد، أخرجت صفية كيسًا من الخيش مليء بالشموع البيضاء، وقامت برصها على صينية نحاسية وأوقدت خمسين شمعة بالتمام والكمال. تراصت في الصينية الواحدة تلو الأخرى، لتنير الشموع الضريح شبه المظلم، ثُم سندت الصينية على حافة سور الضريح فتراقصت النار بقوة بفعل نسمة هواء خفية قادمة من حيث لا نعلم، بريح من مسك وعنبر نظرت لي صفية ثُم همست:

- لا تنسي أن تدعي لعمرو ليرجع بالسلامة.

- وهل جئت إلا للدعاء له؟

- أعلم طبعًا أنه ببالك دائمًا، ولكن رُبما دعاؤك لنفسك ينسيك الدعاء لعمرو.

أنا التي نسيت حتى أن تدعو لنفسها بالشفاء، ولم يردد قلبي ولساني سوى دعاء واحدٍ لرجوع عمرو بالسلامة، أتراها كانت لتصدقني لو أخبرتها ذلك؟

غادرنا الضريح بعدما أصرت صفية أن ننتظر حتى تخمد شعلات الشموع، لا أعلم كم من الوقت تحديدًا مرَّ علينا ولكن عند خروجنا كان الظلام الدامس يعم أنحاء المكان الذي دخلناه والشمس مازالت في وسط السماء.

عندما وصلت البيت استقبلتني جوهرة بقلق، فلم يكن من عاداتي أن أتأخر هكذا وكان عليَّ أن أخبرها. كانت تعلم بأمر الضريح وذيوع صيتِ هذا الولي وقدرته على الشفاء، وبعد برهة من الوقت لمعت عيناها بوميض غريب ثُم صاحت قائلة:

- يا الله كيف نسيت أن أصطحبك لمعبد موسى بن ميمون المقام بحارة اليهود؟

- ومن هو؟

- هُناك الكثير من الأقاويل بأن موسى بن ميمون عالم وطبيب من القرن الثاني عشر، كان يؤمن بقوة كل من الدواء والسحر معًا وكانت له معجزات في شفاء المرضى داخل جدران الهيكل، كان يهود مصر والعالم من المرضى والمعاقين يأتون للتبرك وطلب الشفاء منه.

ثم بلهجة آمرة:

- في الغد نذهب إلى هناك.

وفي صباح ضبابي حاولت الشمس أن تخترق سحبه الكثيفة بلا طائل ارتديت المعطف فوق ملابسي، وعقدت شعري بوشاح وذهبنا لحارة اليهود بالموسكي، بنهايتها يقع معبد يهودي قديم يسمى «معبد ميمون» ومعروف باسم هيكل

المعجزات الكبرى، وغالبًا أصبح بمثابة «لوردز» تلك البلد الصغير بجنوب غرب فرنسا التي يذهب إليها المسيحيون الكاثوليك للتبرك والشفاء، بعدما أعلنت إحدى الفلاحات أنها قد رأت العذراء مريم تظهر في تلك البقعة عدة مرات، أزحنا الباب الحديدي لنجد أنفسنا في فناء تتوسطه فسيفساء، وفي الواجهة بوابة خشبية للمعبد، تبعت جوهرة في هبوط الدرج المتهالك إلى بناء مظلم كسرداب يقع أسفل البناء الرئيسي، به حجرات للنوم مظلمة إلا من شعاع باهت من الضوء، فجأة ظهر الحبر وهو رجل طاعن في السن أعطاني كوبًا زجاجيًّا مملوءًا بالزيت، وأخبرني أنه زيت موسى بن ميمون الشافي الأعظم، ونصحني أن أمسح جسدي كله بذلك الزيت ثُم سألني بصوت أجش:

- من أي شيء تحديدًا تشتكين؟

تساءلت بماذا عليَّ أن أخبره؟ بشكواي الكبرى التي جعلتني أعيش بقلب متصدع الجدران لا يقبل حتى الترميم؟ وجدتني بدلًا من إخباره بذلك أحدثه قائلة:

- التهاب حاد بأعصاب الدماغ أدى لمرض يسمى الشلل الرعاش أفقدني القدرة على ممارسة حياتي الطبيعية.

نظر لي الرجل باستغراب كما لو لم تمر عليه حالة مشابهة في كل الحالات التي مرت به طوال وجوده هُنا، وطلب مني أن أجزل السكب على يدي بالذات، ثُم أخرج صندوقًا خشبيًّا يجمع فيه التبرعات، وبدون أن يتفوه مده لي وضعت جوهرة سريعًا يدها داخل ثوبها وأخذت تسحب حبلًا تعقده على رقبتها بنهايته كيس مدكك من قماش الخيش، شدت الأستك المطاطي ودست يدها داخل الكيس وأخرجت عملات فضية صغيرة قامت بإلقائها في الصندوق الخشبي، وكما ظهر فجأة تلاشى بخطواته الواسعة وسط الظلام الدامس، في أحد الأماكن الضيقة رقدت وبجانبي جوهرة بعد أن سكبت كمية كبيرة من الزيت على يدي وساقي وعند قلبي مسحت عليه ريثما يخرج منه الحزن بمعجزة من موسى بن ميمون طلبت مني جوهرة أن أخلد للنوم.

- حسنًا جوهرة، احكي لي إحدى القصص حتى أخلد للنوم مثلما كانت أمي تفعل.

- ولكني فاشلة في سرد الحكايات!

- سأحكي أنا إذن.

بدأت كلماتي بتلك العبارة التي كانت أمي تحرص على الهمس بها عند البدء في قصة جديدة وكأنها بتلك العبارة تفتح لي بابًا سحريًّا ينقلني لعالم آخر.

«Il etait une fois»

اتسعت عيناها دهشة..

فابتسمت لها قائلة:

- هذا يعني «يحكى أن» فتاة صغيرة كانت تُسمَّى نتاليا.

لا أعرف ماذا حكيت بعد ذلك ولا إلى أي مرحلة من قصتي وصلت، لقد دخلت في نوم عميق وفي الصباح غادرنا بعد أن حمل لنا الرجل طبقًا كبيرًا من النحاس مملوءًا بالماء المقدس وطلب مني أن اغتسل به حتى يتم شفائي.

كم يدٍ تناوبت على رأسي بالأدعية وتراتيل الآيات من الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه.. وكم ضريح زرناه وأوقدنا به الشموع.. هل كنا وقتها نتضرع إليهم أم نتضرع إلى الله؟ ولماذا جعلنا منهم واسطة لإيصال دعواتنا لله ليقوم بتحقيقها؟ وهل علاقتنا بالله تحتاج إلى وسيط؟ أليس بالكافي أن نرفع أيدينا ونخلص في الدعاء فيتحقق؟ ولماذا وأنا أملك كل ذلك اليقين بالله سبحانه وتعالى أن أتشبث بكل تلك الخزعبلات؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

71

ديسمبر (1871):

أجلس لأكتب وخلف نافذتي تهطل الأمطار دموعًا عليه. بعدما عاد وجهه ليباغتني بشدة في ذلك الصباح الشتوي الحزين، وكأنه يذكرني بأن عامًا وأكثر قد مضى على غيابه، عام طويل أيامه حزينة ولياليه باردة. عام طويل اختصرت مواسمه الأربعة في موسم واحد للفقد. أنا التي كنت أعد نفسي لأستقبل معه الفصول ولكن يبدو أنني سأظل أستقبلها وحدي، حالتي تتأرجح ما بين السيئ والأسوأ، حصلت على إجازة مرضية مدفوعة الأجر لحين شفاء يدي.

في ذلك اليوم تمنيت لو أعيد البهجة للبيت مجددًا خاصة على أعياد الكريسماس، لذلك بعثت لصانع الأثاث يأتي لينصب حجرة النوم، استغربت جوهرة التي كانت قد نصحتني أن نصب الموبيليات وفرش البيت قبل الزفاف

بفترة يجلب الفأل السيئ، وها أنا لم أفرش البيت ولكن كان الفأل السيئ متربصًا بي، فماذا لو فعلت العكس؟ في المساء كان الصالون يتراص بأناقة وترتيب، وحجرة النوم قد زين فراشها بمفرش الدانتيل المطرز باللؤلؤ وفصوص خرج النجف، وضعت المناشف في الخزانة وعلقت ملابسي التي صنعتها لي مدام ألين، وصففت في درج الملابس الداخلية تلك القطع الصغيرة المغرية، علقنا الستائر الأورجانزية وقمنا بإضاءة الثريا، وبسطنا السجاجيد ورصت في دولاب الفضية طقم الطعام لروميو وجيوليت، كما رتبت حجرة المكتب، وضعت السكرتيرة وعليها الأوراق والمحبرة، وأحطتها باثنين من الفوتيه المريح كما كنا مخططين أنا وعمرو، رتبت كل شيء وأصبح البيت لا ينقصه سواه لم أستطع أن أكتم سيل الدموع الذي انهمر من عيني والفرحة المهزومة بداخلي. كل الأشياء كانت تسألني عنه بذلك الحنين المعلق على شماعة الانتظار. اشتريت شجرة عيد الميلاد وزينتها بالشرائط الملونة ونزلت للسوق أتبضع الهدايا، أسورة من الفضة بفصوص من الفيروز الأزرق لأمي، ولأخواتي الأربعة، ابتعت لهم السوفنير [59] من الخان رُبما هي هدية عمرو التي أخذت مني الكثير من الوقت، وأخيرًا كنت عثرت على معطف من الفراء لم يكن ليليق بسواه. لففت الهدايا بورق مزركش ووضعتها على عتبات الشجرة حتى جوهرة لم أنسها، اشتريت لها شالًا من الحرير.

في صباح العيد بعثتها لتشتري الديك الرومي، اعتذرت بأنها تجهل طريقة طهيه طمأنتها أنني التي ستقوم بتتبيله وحشوه وتسويته، سألتني كم مدعوًا للعشاء عندنا الليلة؟! أخبرتها في حدود الأفراد السبعة ابتهجت فمنذ متى لم يطرق بابنا أحد؟! منذ متى لم نستقبل أحدًا ولم نقم بتوديع أحد؟! قامت هي بطبخ باقي الأصناف اللذيذة وأنا كنت جهزت الديك ووضعته على صينية كبيرة وزججنا به تحت لهيب النار حتى يحمر جلده، أخذت حمامي وارتديت فستانًا جديدًا كانت قد خيطته لي مدام ألين كورساج ضيق يبرز الصدر الذي عقد حوله فستونات من وردات بارزة، والجوب كلوش وطويل كان لونه الفيروزي يبرز بياض بشرتي، وضعت قبعة بوردات من

الدانتيل، ارتديت قفازات حريرية، تعطرت وتزينت وذهبت لأحضر حفل القداس في كنيسة الأب جورج، وطلبت من جوهرة أن تجهز كل شيء ففي تمام منتصف الليل سنتجمع حول المائدة.

- ولكن إذا حضر الضيوف وأنت لم تأت بعد.

- جوهرة إنهم ليسوا بضيوف، إنهم أهلي، ولن يأتوا قبل انتهاء القداس لا تقلقي رُبما عمرو يسبقهم بالمجيء والبيت بيته كما يقولون.

اندهشت عين جوهرة وأخذت تردد:

- وهل عاد؟

تركتها بدون أن أجيبها تلك الحمقاء: من أين يمكنه أن يعود؟

حضرت القداس، كانت قاعة الكنيسة ممتلئة بالأجانب والأقباط، سمعنا كلمة الأب جورج ثُم التراتيل، بعدها تبادلنا التهنئة والتناول، كانت جميع الأنظار تتجه نحوي، هل كنت جميلة هذا المساء لحد أن العيون تسمرت عندي، حتى الأب جورج فاجأه مظهري وقال لي وهو مبتسم:

- هل العيد قادر على تبديلك هكذا؟

كانت العربة تنتظرني بالخارج، السكون يخيم على أرجاء المكان؛ فالوقت قبل منتصف الليل بقليل من ليلة شتوية شديدة البرودة، أخذت أفكر في سؤال الأب جورج «هل العيد هو الذي قام بتبديلي هكذا؟» أما تلك البهجة المزيفة التي صنعتها لموعد لم يكن، في انتظار ناس لن يأتوا لنتناول معًا عشاء العيد، ونتبادل الهدايا والأحاديث التي لا تقال، فرائع معهم كل ما كان وكل ما لم يكن.

بذات النظرة الدهشة التي تركت جوهرة عليها وجدتها عليها، كانت قد أعدت المائدة ورصت الأطباق ووضعت الديك في المنتصف، ذهبت على الفور لشجرة العيد لأجد أمي وأخواتي ملتفين حولها تمامًا كعادتنا دائمًا، ويقف في وسطهم عمرو وسيمًا وشهيًّا كما كان دومًا. صافحتهم وطوقتهم جميعًا بشوق الغياب الطويل، ووزعت على كل منهم هديته، عرفت عمرًا على أمي وأخواتي، همست أمي في أذني:

- يا له من وسيم! لم أكن لأتخيله كذلك.

انشغل عمرو في حديث طويل مع أخي جون قطعته عليهما قائلة:

- هيا قبل أن يبرد الطعام.

طلبت من «جوهرة» أن تشاركنا الطعام ولكنها رفضت فأعطيتها هديتها وطلبت منها سكينًا حادًّا لتقطيع الديك، كان الطعام لذيذًا والحديث دافئًا، ولأول مرة منذ عام لم ترتجف يدي طيلة ذلك الوقت حتى إني كنت أستعملها بشكل عادي وطبيعي، بعد العشاء جلسنا حول المدفأة تخبرني أمي بما مر في غيابي، كانت تملك القدرة بأن تلخص كل الأمور وتقصها دفعة واحدة وهي تنتقل من موضوع لآخر ومن قصة

لأخرى، اصطحبت عمرًا لأريه المكان بعد أن قمت بفرشه، أخبرني ونحن نسير في الممر الطويل:

- لك أسرة جميلة تاليا.

صفَّر بإعجاب عندما وجد اللوحات التي قمت برسمها على الحائط، وقف في منتصف غرفة النوم ينظر حوله.

- معقول! إنها جميلة وأنيقة بشكل يفوق الوصف!

بعد أن أخذنا جولة في غرف البيت أمسك يدي وطبع عليها قبلة دافئة وهو يخبرني:

- لك ذوق فنانة حقًّا.

وفي إحدى الزوايا لفَّني بيديه بشوق الأيام والسنين..

كانت فى ضمته عبق الشرق كله.. لقوته، شموخ الأهرامات. ولرائحته، البخور الهندي. ولعرقه، توابل الشام الحارقة، ولريقه؛ مذاق البن اليمني المحروق ...

لا أعلم متى غادروا تحديدًا، فعند استيقاظي في صباح اليوم التالي وجدت نفسي بملابسي على أحد مقاعد الصالون بجوار المدفأة، كل ما أتذكره أن كلًّا منهم طبع قبلة حانية على وجهي قبل خروجه، كانت جوهرة ترقد تحت قدمي مباشرة هززتها بيدي قائلة:

- جوهرة، استيقظي، لماذا ترقدين هنا؟

كانت تنظر لي وكأنها تراني للمرة الأولى ثُم وهي تلجلج في الكلام:

- لقد حدث أمس أمر غريب.

- ما الذي حدث جوهرة؟

- لقد كنت.. كنت...

- كنت أستقبل أمي وأخواتي الأموات وعمرًا المفقود.

- ولكن هل الأموات يعودون؟

- جوهرة هل تعتقدين أني جننت!؟

أعلم تمامًا أنهم لن ولم يعودوا ولكني كنت أريدهم، كنت أحتاجهم ليقضوا معي العيد، لذلك استحضرتهم في وهم خيالي، أتيت بهم من عالمهم البعيد، وضعتهم وجهًا لوجه معي، ابتعت لهم الهدايا وصنعت لهم العشاء، لقد تحدثوا بكل الذي كانوا سيتحدثون به، وفعلوا كل الذي كانوا سيفعلون لو كانوا هنا، لقد صنعتُ لي بعضًا من السعادة المزيفة، رجعت الحياة مرة أخرى جميلة يملؤها الأمل والتفاؤل، ارتديت أجمل ما عندي، تزينت وتعطرت حتى يدي، تصوري يدي لم ترتجف منذ الأمس.

كانت تنظر لي بخوف ودهشة معي وتتمتم بالدعاء:

- لم أجن يا جوهرة أنا فقط أتذكر وكأن الزمن لم يمر.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

72

يناير (1872):

لا أعرف كم بقيت يدي على تلك الحالة المستقرة التي أدهشتني، فمنذ متى لم ترتجف في خوف؟ انتهزت الفرصة وقمت بالانتهاء من لوحة المحمل التي كنت قد بدأتها منذ زمن وأرجع لها من حين لآخر، كما أني منذ فترة لم أفتح دفتري لأكتب فيه وها قد كتبت مرة أخرى، زارتني أمس فاطيما، كان الكثير من الوقت قد مرَّ لم أرها أو أعلم عنها شيئًا، وقد فاجأتني زيارتها، أخبرتني أنها أنجبت صافيناز وها هي حامل للمرة الثانية في شهورها الأولى، واعتذرت أنها لم تعد تزورني لانشغالها ببيتها وزوجها عصبي المزاج، أو لسفرها لإسطنبول، ثُم نظرت إليَّ مطولًا.

- تاليا أرجو منك تقبل كلامي ذلك بصدر رحب، ولكن إلى متى ستمكثين هنا؟

فاجأني سؤالها بالرغم من أني أردده على نفسي كثيرًا، أمَّا إذا سألني شخص آخر فبماذا أجيب؟ تولت هي دفة الحديث:

- تاليا ليس من المعقول أن تقضي عمرك هُنا في انتظار شخص أصبح من المستحيل أن يعود مرة أخرى، انظري كيف أصبحت؟ أين تاليا التي كانت تملأ الحياة ثقةً وفرحًا؟ لقد أصبحت عاجزة حتى عن ممارسة أهم شيء في حياتك، توصدين عليك أبوابك أنت وجوهرة، وتجلسين لاجترار الذكريات والحزن، أين تاليا الفنانة الشهيرة التي تتداول الصحف أخبارها ونشاطاتها؟ انظري كيف وصل بك الحال؟! عليك بحزم أغراضك والسفر لبلادك ومواصلة حياتك الطبيعية، أما وجودك هُنا فلن يفضي بك إلا للحزن والجنون.

عندما نطقت بالجنون تأكدت أن زيارتها لي لم تكن صدفة ذلك المساء، بل شيئًا مرتبًا بينها وبين جوهرة التي شاهدتها تسترق السمع كلما جاءت لتضايف فاطيما بشيء، وتؤجل خروجها من الغرفة، هل ذهبت إليها لتخبرها أني قد جننت وعليها قامت بزيارتي وتقديم النصح لي؟ زاد غيظي من جوهرة على فعلتها تلك، حتى وإن كانت فعلتها بنية حسنة فإنه ليس من حقها التدخل في حياتي بهذا الشكل، كنت أعلم أن فاطيما تملك الحق فيما تقول، ولكنها مسكينة لم تسمع عمرًا عندما طلب مني طلبه الأول والأخير (انتظريني).

- نعم أعلم أنه مر العام والأكثر على غيابه، وأن رجوعه مستحيل ولكن ما الذي ينتظرني في فرنسا في رأيك سوى الخراب والدمار؟ الآن أصبحت بلا مأوى بعدما هدمت القنابل منزلي، حتى المقهى تم هدمه إثر الضرب، كما أن الوضع هُناك سيكون أسوأ من هُنا، وكيف لا وأسرتي قد قتلت وكل شبر هُناك يحمل لي ذكرى معهم!

ربما بتلك الكلمات جعلت الأمر أكثر تعقيدًا ولم يكن بالسهولة التي تعتقدها فاطيما، لذلك غادرت وهي أكثر يأسًا بعدما نصحتني أن أهتم بنفسي ولا داعي للعيش على

قيد الذكريات والآلام، كانت المرة الأولى التي أنهر جوهرة على فعلتها تلك، ولكن دموعها التي فاضت وهي تخبرني:

- أحبك كثيرًا وأخشى عليك، لم تتخيلي ماذا حلَّ بي وأنا أراك تتحدثين للمقاعد وتقدمين الهدايا للهواء؟

ارتجفت يدي بقوة بعد ذلك اللقاء وأنا التي كنت أعتقد أنها لن ترتجف مجددًا!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

73

مارس (1872):

طالعت آخر تاريخ كنت كتبته في تلك الأوراق التي أحزمها داخل مغلف من الكرتون، لقد مر أكثر من شهرين ولم أخط فيها حرفًا، رُبما لأنه ما من حدث جديد يدعني أفتح الأوراق وأقبض على الذكريات وأضعها هُنا بين طيات الورق، كما أن رجفة يدي أصبحت تمنعني حتى من الكتابة، مرة أو اثنتين استحضرت فيهما عمرًا وأمي بمثل تلك الدقة ودخلت معهما في أحاديث طويلة، حكت لي أمي عن الحرب في فرنسا وبأي فزع استقبلت النبأ، وكيف حدثت المجاعة واختفت المواد التموينية من الأسواق، وكانت وقتها تخزن الكثير من أجولة الدقيق للخبيز فأفرغتها في أكياس صغيرة وقامت بتوزيعها على الأهل والأصدقاء والجيران، والباقي خبزته فطائر ونثرت السكر عليه وقامت بتوزيعه على أطفال الحي. حكت لي أيضًا أمر الموت «في منتصف إحدى الليالي أُطلقت القذائف المتتالية على الحي والمنازل، وفجأة تحول الزجاج الذي يعكس ضوء الشمس إلى فتات منثور على الأرض. الشرفات والأسقف وحتى الجدران تهدمت جميعها لتكشف المستور. طوقت فرجينيا ذراعيها حول عنقي وتجمع حولي أخواتك، ومن الذعر تكدس بعضنا فوق بعض حتى فارقنا الحياة معًا، أتعلمين، كنت وقتها أفكر بك، وكيف أني لن أكون هُنا في استقبالك عند حضورك وزوجك، فمنذ أخبرتني أنك بعد حفل الزفاف ستأتين لفرنسا وأنا أجهز لتلك الزيارة، وأنتظرك وسوف أنتظرك دائمًا تاليا.

وأخبرني عمرو كيف غادرني وهو يحمل معه حزنه وإحساسًا دفينًا بأن هُناك مصيرًا سيئًا ينتظره، حكى لي أيضًا كيف كان يقضي تلك الليلة على سطح السفينة يراقب النجوم التي تزين السماء، ويكتب لي عن إحساسه بي وعن حبه العميق الذي ملأ قلبه منذ أول يوم وقع نظره عليَّ في فندق شبرد، وأنه كان يتضرع إلى الله ويبتهل في صلواته أن أكون زوجته، وأنه لا يحيا إلا على قيد انتظار مرور الوقت، ورجوعه سالمًا لإقامة حفل زفافنا، وتحديدًا عند جملة:

- يا ألله كم ستكونين أجمل عروس وأنت تمرين بين النسوة على وقع الدفوف، وهن يلقين عليك الورود والجنيهات الذهبية، تمرين خجلى، تنظرين في الأرض حياء واحترامًا، وتتعالى الزغاريد وتزفك الغوازي وهن يغنين:

«يا الحنة يا الحنة ... يا قطر الندى»

وفجأة وعندما كنت أتخيلك تخطين على وقع الدفوف؛ فإذا بقذيفة من سفينة، وغالبًا كانت تتبع المنشقين الأحباش وقد علموا بأمر حملتنا، وظنوا أننا جئنا لمقاتلتهم فأرادوا أن يباغتونا بالقتال ونحن بعد في عرض البحر، وبعد منتصف الليل بقليل مع أن الحملة كانت تأديبية فقط وكانت هُناك أوامر مشددة بعدم القتال إلا للضرورة القصوى، وللأسف فقد شقت تلك القذيفة طريقها صوب صناديق البارود مباشرة، وكانت بمثابة نار الله الموقدة، اشتعلت السفينة واختل توازنها، وأتت النار على كابينة القيادة. كان الوقت متأخرًا وقد خلد الكثير من زملائي للنوم، لذلك لقوا

مصيرهم حرقًا بينما كنت أنا ومجموعة قليلة من الزملاء نحاول أن نسعف السفينة ونخمد النيران بخراطيم المياه، وفي وقت قليل وجدنا أنفسنا محاصرين بالنيران والدخان وبحر هائج الأمواج، وأمام قدر كان مقدرًا مُسبقًا وجدت نفسي أصارع الأمواج وأشاهد السفينة وهي تبتلعها المياه حتى اختفت تمامًا، هي ومن فيها. جثث تأرجح منها القليل فوق الموج واختفى الكثير في عمق البحر. تناثرت الأوراق التي كنت أكتبها إليك، وكنت أراها وهي تطفو على سطح الماء، وتألمت وقتها، ليس حزنًا على رحيلي من الحياة، ولكن لأني لن أراك مجددًا ولن تصلك تلك الكلمات الصادقة النابعة من القلب التي كنت كلما حاولت التفوه بها يخذلني لساني.

لا أذكر كم من الوقت قاومت ولكن لم يكن بالكثير، كانت الأمواج العالية والمياه الباردة والخوف كلها تتآمر عليَّ وتستعجلني للفناء لأذهب بلا عودة، الآن سأحلك من وعدك نتاليا، فليس عليك أن تنتظريني رُبما أنا الذي عليه أن يكون في انتظارك.

إنهم في انتظاري إذن!!

حكيا لي كثيرًا وأبكياني كثيرًا، كانا يأتيان لآنس بهما ويأنسا بي، كنت أعلم تمامًا أنهما رحلا عن الحياة ولكني كنت أستحضرهما بخيالي، أرى طيفيهما وأشتم روائحهما، كنت أسمع صوت أمي وأنا أطهو الطعام في المطبخ وكعادتها دائمًا تنصحني بوضع هذا قبل ذاك، أو أنتظر أن ينضج ذلك جيدًا ثُم أضيف ذلك، كنت أرى عمرًا بزيه العسكري، وسوطه الذي يحمله معه يضعه جانبًا ويجلس بجواري يفرد ظهره على المقعد ويمد ساقيه للأمام وهو يرفع طربوشه ويربِّت بحنان على ظهري كما كان يفعل كلما التقينا، هل كنت أهرب من الحياة إليهما؟ أم كانا هما يهربان من الموت إليَّ؟

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

74

القاهرة.. مايو (1872):

انتهت الحرب إذن، لقد تبادلنا الأسرى والموتى والتهم، وعقدت الاتفاقيات التي وقعت بين الطرفين على أن تسلم فرنسا معظم الألزاس وجزءًا من اللورين لألمانيا، وتدفع الأخيرة ما يساوي بليون دولار أمريكي كما تتحمل الحكومة الفرنسية نفقة جيش الاحتلال الألماني. المبلغ كان كبيرًا والتضحيات كانت أكبر، ولكن في سبيل الحرية تتضاءل الأموال. أسعدني الخبر، أعلم تمامًا مقدرة بلادي على أن تلملم شتات نفسها مرة أخرى، وأن تعيد الحياة بها كما كانت في سابق عهدها، ولكن الأكثر غرابة أن هذا الأمر لم يدفعني ولو بمقدار صغير للسفر هُناك، وكأني عقدت صفقة مع تلك الأراضي بعدم الرحيل.

تلقيت رسالةً من كريس يخبرني أن كل شيء سيرجع مثل السابق وأحسن، ويخبرني أنه قد بدأ في بناء المقهى مثلما كان تمامًا، الشيء الوحيد الذي سيفشل في أن يرجعه مثل ما سبق الجدران التي كانت تشغلها لوحاتي، وأضاف في نهاية الرسالة «ولكني أثق أنك ستقومين برسم لوحات أجمل منها «. مسكين كريس! لا يعرف ما أصابني، أنا بالكاد أستطيع أن أغمس الريشة في الحبر لأكتب.

سبتمبر (1872):

أليس من الغريب بعد تاريخ رحيله عن البلاد بعامين أن أتسلم برقية من السراي الخديوية تخبرني أن السفينة التي أبحرت بعمرو قد غرقت بالبحر إثر تعرضها للقذف من جهة غير معلومة؟ «نأسف أن نخبركم أنها قد غرقت

هي ومن عليها»، وفي ذيل الرسالة «تعازينا الحارة». ما هذا الهدوء الذي تلقيت به الخبر؟!

أنا التي عشت كل هذا الوقت على قيد انتظاره، لماذا أصابني الهدوء؟ هل لأن عمرًا أخبرني بذلك مُسبقًا؟ إنها نفس التفاصيل التي أخبرني بها!! صحت قائلة:

- يا ألله! هل جننت؟

أثارت فيَّ تلك البرقية الفضول والتساؤل، كيف تنبأت بخبر موت عمرو بهذا الشكل المذهل، وأنا أعلم وأعي تمامًا أن وجودهما معي لنتشارك الحديث أمر وهمي خلقته أنا، وليس له وجود سوى في عقلي؟! ومسرعة بعثت برسالة لكريس أسأله فيها عن تفاصيل موت أمي حتى أتأكد من الأمر.

أخيرًا كانت قد غادرتني «جوهرة». ووقتها فقط شعرت بأني وحيدة، «جوهرة» التي أجلت زواجها من فرط الرمان حتى أشفى من أحزاني، جلست معي لمواساتي وتخفيف ألمي، وانتظرت حتى أسافر لبلادي لأن وقتها فقط يمكنها أن تتركني بدون تأنيب الضمير، ولكنها وجدت أن حالتي تزداد سوءًا يومًا بعد الآخر، وإصراري على عدم سفري وترك البلاد، بالإضافة إلى أنها كانت تراقبني كثيرًا وأنا أتحدث

مع عمرو وأمي، وأكثر من مرة كانت تنبهني أنه لا طائل من ذلك، وقالتها مرة وهي خجلى تطأطئ رأسها أرضًا:

- هذا سوف يقودك للجنون.

أخبرتها أنني أفعل ذلك بكامل وعيي، ولكن منذ تسلمت البرقية التي تخبرني بتفاصيل موت عمرو ووجدتها نفس التفاصيل التي أطلعني عليها اعتراني القلق والخوف.

اشترى لها فرط الرمان مسكنًا مناسبًا وقام بتأثيثه، جمعت أشياءها في سلال من الخوص ونقلتها لمسكنها الجديد، خبزت لنفسها كعكًا، وذهبت للحمام قبلها بيوم هي وثلاث من صديقاتها يقطن حارة الحبش، في عصر يوم الزفاف ارتدت ثوبًا من الحرير السكري، وتزينت وتعطرت وأخذت تمشي بخلاخيلها فوق دروب العشق، وجاء فرط الرمان، كان شابًّا وسيم الطلعة، على خده الأيسر حبة خال كبيرة تُشبه حبة الرمان، كان معه الشيخ الذي سيعقد القران وشابان ليشهدا على العقد، بينما الفتيات الحبشيات تجمعن حول جوهرة يهنئنها، وفور عقد القران انطلقت الزغاريد ووزعت أكواب «الشربات» التي كانت أعدته مُسبقًا، مسكينة جوهرة! كان زفافها بسيطًا مقارنة بحفل خطبتي وزفاف فاطيما، ولكنها كانت سعيدة يشع من عينيها وميض خفي، ويفتح فمها بشفاهه الغليظة عن ابتسامة كبيرة، ودعتني بحضن كبير وهي تخبرني أنها ستأتي للاطمئنان علي، ولترى ما إذا كنت في حاجة لشيء أم لا، أهديت جوهرة الكيس الأحمر القطيفة المملوء بالجنيهات الذهبية الذي أعطته لي «الوالدة باشا» تحية لي على رسمي لوحة لها، أمسكت جوهرة بالكيس ومن ثقله أيقنت أن الهدية أكبر من أن يستوعبها عقلها، فبكت وهي تخبرني:

- ولكن هذا كثير!

- ليس كثيرًا عليك جوهرة، فأنت بمثابة أخت لي.

غادرت جوهرة، وأحكمت غلق الباب وراءها وأطفأت الأنوار وذهبت لأختلي بهمي.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

75

ديسمبر (1872):

مرة أخرى.. ديسمبر والحنين لشجرة عيد الميلاد ووجوه ذهبت وذكريات تهفو، وأغالب كل ذلك بقراري لأجلس وأكتب، أعلم أن الخط سيئ جدًّا من أثر الرجفة بيدي، ولكن من يهتم؟ من سيفتح تلك الأوراق يومًا ويحرص على قراءة قدر حزين وغريب لامرأة كانت تملك كل هذا الأمل يومًا، والآن أصبحت كحطبة متفحمة؟! ساءت حالتي بعد رحيل جوهرة، ولم أعلم أن تلك الحبشية كانت تشغل كل هذا الحيز من حياتي دون أن أدري، زارتني أكثر من مرة، قامت بتنظيف البيت وترتيب أشيائي وساعدتني في الاغتسال وتصفيف شعري وطهت لي أكثر من صنف للطعام، سألتها:

- كيف حال الزواج؟

ابتسمت بخجل.

- فرط يحبني ويعاملني بحنان وود.

تسلمت رسالة من كريس بدأها كاتبًا: (إنه لم يكن يشاء أن يزيد من أوجاعي، فقد كان الحادث أليمًا، فقد اقتحمت المنزل قذيفة من تلك الأسلحة الحديثة التي استخدمتها ألمانيا في الحرب وأتت النيران على كل شيء، وعثر بعد ذلك على جثث أمي وأخواتي متفحمة، أذاع الجيران أنهم تكدسوا جميعًا الواحد جنب الآخر، وتشبثت أختك الصغرى برقبة أمك حتى إنهم عثروا عليهما في هذا الوضع).

هل ما قرأته حقيقة أم خيال؟ وهل من أرى أطيافهم حولي حقيقة أم خيال؟ أيهما حقيقة وأيهما خيال؟

مزيج من أحاسيس غريبة تملكتني، خوف وقلق وريبة وتساؤل، بعدها بيومين رأيت عمرًا فسألته:

- هل أنت حقيقة أم خيال؟

نابت ابتسامة حزينة عن جوابه، يا الله! أكاد أجن! ارتديت ملابسي ونزلت لأتريض قليلًا، ذهبت حتى فندق شبرد وجلست في التراس، تناولت مشروبًا باردًا بالرغم من برودة الجو، كانت إدارة الفندق تقوم بتزيينه احتفالًا بالكريسماس فشاركت العمال في الإعداد للحفل، بعدها ذهبت لزيارة الأب جورج في كنيسة الإنجليكان لأقص عليه ما يدور، جلسنا على المائدة المستديرة للمكتبة ونظر لي مطولًا ثُم أخبرني:

- هُناك وصلة خفية ما بين الأموات والأحياء خاصة أنه كان هُناك ارتباط قوى ما بين الشخص الذي فارق الحياة والذي لا يزال على قيدها، تلك الوصلة تكون في شكل أحلام ورؤى أو هاتف ووسوسة، وأقواها الذى في مثل حالتك، لأنك تعيشين على قيد التفكير فيهما، وهذا أمر رُبما يعذب روحيهما اللتين تريدان أن ترقدا في سلام، تفكيرك المستمر فيهما وتخيلهما لدرجة استحضارهما وشعورهما بأنك في

حاجة ملحة لهما يجعلهما لا يستطيعان الرقود بسلام وطمأنينة، لذلك من رأيي أن تكفي عن التفكير فيهما وتشغلي نفسك ووقتك بأشياء أخرى.

بصوت واهن أخبرته:

- في نهاية حديثي معهما، كل منهما - عندما قص عليَّ نبأ موته - أخبرني أنه في انتظاري، هل هما في انتظاري حقًّا؟ هل هما يستعجلانني للفناء؟ وهل إذا ذهبت إليهما بإمكاني العيش معهما في عالم واحد؟

- عالم الأرواح عالم مجهول لا أحد باستطاعته أن يجزم فيه بشيء، ولكن نعم باستطاعة الأرواح أن تتلاقى.

دخلت في تفكير عميق وأخذت يدي في الرجفة بسرعة كبيرة وكأنها تتراقص على وقع ضربات قلبي العالية، قام وأخرج لي كتابًا قديمًا من بين أرفف المكتبة يتحدث عن الصلة التي تجمع بين عالمي الأحياء والأموات، كنت مشوشة وحزينة لذلك أخبرته أنني سوف أقوم بقراءته في المرة القادمة، خاصة أنني لم أكن أريد أن أعلم المزيد فقد أخبرني بما فيه الكفاية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

76

منتصف يناير (1873):

لم أخرج من المنزل منذ حضرت حفل قداس عيد الميلاد المجيد في الرابع والعشرين من ديسمبر؛ أي قاربت الشهر لم أبرح مكاني، مرت عليَّ جوهرة، ساعدتني في الاستحمام وتصفيف شعري وطهت لي الطعام، جلست بجواري على الفراش وأخذت تطعمني بيدها، كنت كالطفلة الصغيرة بين يديها أستمع لتوجيهاتها ونصائحها، لم أعد أقوى على حمل أي شيء في يدي حتى الملعقة، وأصبح ذلك الإحساس يولد بي شعورًا بالألم والخزي، أصبحت لا أقوى على عقد أزرار ملابسي أو تشبيك المشابك بشعري، كانت يداي الاثنتان ترتجفان بشدة، إلا أن اليمنى كانت أشد ارتجافًا، خذلتني يدي في الوقت الذي كنت أحتاجها فيه وبشدة، هي التي كثيرًا ما كانت لي نعم الونس، تجوب الورق بخفة ورشاقة، كنت حقًّا أحتاجها في هذا الوقت بالذات الذي لم أستطع فيه أن أشفى من ذاكرتي، ولهذا كنت أحتاج للرسم لأفرغ كل الماضي على الورق، كل الأحزان، كل الشجن، وأصبح بعدها قادرة على النظر خلفي دون حنين، دون حزن، ودون جنون.

زارتني صفية بالأمس، تألمت عندما وجدتني هكذا، أخبرتني أن تلك الحالة ستقودني للجنون لا محالة، أخذت تجوب المنزل، تفتح النوافذ، وتزيح الستائر، جلسنا معًا في الصالون نرتشف القهوة التي قامت لتصنعها بنفسها، كانت ترى يدي وهي ترتجف بقوة، وتتراقص القهوة في الفنجان، وأعجز عن السيطرة عليها، وعيناها تمتلئان بنظرات الحسرة والحزن، عندما خلعت حبرتها [60] لاحظت أنها ترتدي السواد، لذلك سألتها:

- من غير عادتك أن ترتدي ملابس سوداء، كنت دائمًا تفضلين الألوان الزاهية!

- ألبسها حدادًا على أمي.

- يا ألله! ومتى حدث ذلك؟

- لقد أخذت حالتها في السوء منذ رحيل عمرو، وكان يداهمها إحساس بأن مكروهًا ما أصابه حتى جاءنا الخبر، فقدت القدرة على النطق ثم على الحركة، وبعدها بعدة أيام كنا نحاول أن نوقظها من نومها فوجدناها رحلت.

ها قد أصبح الحزن وليمة في تلك المدينة، ارتشفت صفية قهوتها المرة ثُم طلبت مني «القلادة العنبرية» التي أهداها لي عمرو، طلبتها بمزيد من حياء بعدما قالت:

- كنت أتمنى ألا تزين عنقًا آخر سوى عنقك، وتهديها لابنتك وحفيداتك، ولكن كما ترين إنها تدابير الله.

ذهبت وأحضرت لها علبة المجوهرات بجميع حُليها، تمامًا كما هي منذ انغلق عليها حزنها، عدا الدبلة الذهبية التي وضعها عمرو بإصبعي، رفضت في البدء أن تأخذها

ولكني أصررت، كنت أعلم تمامًا أنني لن أرتديها، وحدها الدبلة التي نقش عليها اسم عمرو وتاريخ الحفل كانت كل ما أملك وأريد.

مارس (1873):

مضت الكثير من الأيام وتعاقبت الليالي، وكنت كلما فتحت أوراقي لأدون بها شيئًا، كانت رعشة الحزن تشل يدي وتمنعها من الكتابة كما منعتها مُسبقًا من الرسم، كنت دومًا أدوِّن يومياتي وما أنا مقبلة عليه، والآن وقد أصبحت الأيام متشابهة ولم يعد في استطاعتي تحديد ما أنا مقبلة عليه، أصبح الماضي هو الذي يقبل عليَّ، وتتزاحم الذكريات طلبًا مني أن أكتبها على الورق، أقلب صحيفة حياتي لأجد أن كل شيء كان مدبرًا ومحكمًا كخطة متقنة, حدث يفضي للحدث الذي بدوره يفضي لحدث، لأجد نفسي هُنا الآن وحيدة، لا صحبة لي سوى الألم والحزن، لم يعد بإمكاني استحضار عمرو وأمي كما كنت أفعل مُسبقًا، ترى هل كنت أنا التي أقوم باستحضارهما أم هي أطيافهما حقًّا؟ ولماذا تحديدًا بعدما أخبراني بنبأ الموت اختفيا تمامًا؟ هل لأني لم أكن بجوار أي منهما لحظة مفارقته الحياة؟ أليس من الغريب حقًّا أن كلًّا منهما يلفظ أنفاسه الأخيرة بعيدًا عني؟

ولماذا أنهيا حديثهما معي بذات الكلمة «سأنتظرك؟» ولماذا لم تدعني منذ سمعتها أحيا سالمة وأخذت تتربص بي بين الحين والآخر؟ أسمعها ترن في أذني بذلك الصدى وكأنها تخرج من تحت عمق البحر، أصبحت أخطط للرحيل وأتأهب له كمن يعيش على قيد سفر طويل، أغلقت نوافذ حياتي، أحكمت غلق أبوابها، تأكدت من غلق جميع المصابيح وطويت أمتعتي الشخصية في صندوق أسود كبير جمعت فيه تلك الأشياء الصغيرة التي صنعت يومًا فرحتي، ولا أعلم لمن بعدي سوف تذهب، ولكني أتمنى أن يكون حريصًا عليها؛ لأنها حققت سعادة ما ورسمت ابتسامة ما على وجه امرأة كانت يومًا هُنا جاءت يسبقها فرحها فإذا بها يتربص بها الحزن.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

77

إبريل (1873):

كان نهارًا ربيعيًّا جميلًا عندما فكرت في أن أتحامل على نفسي وأرتدي ملابسي، رغم صعوبة ذلك مع يد ترتجف بسرعة مدهشة. لأنزل أتريض قليلًا، ذهبت للمكتبة لأتصفح الجرائد وأعرف ما الذي حل في العالم خلال بياتي الشتوي، لوفيجارو تؤكد أن فرنسا تعيد هيكلة نفسها مرة أخرى، وتصدرت صور الخديو إسماعيل وهو يفتتح (كوبري الإسماعيلية) [61] بعد أن أخذ العمل فيه خمس سنوات متواصلة، فقد شرع في بنائه عام 1868، أنشئ على نهر النيل بطول 406 أمتار، وكان من أجمل جسور العالم في تصميم محامله من الحديد المشغول وأربعة من الأسود البرونزية التي تقبع بشهية الافتراس في مقدمة ونهاية الجسر، وقد نحتت تلك الأسود أنامل النحات جاكمار [62] وقامت بتصميم وبناء الكوبري شركة «ليل» الفرنسية. ذلك الكوبري الذي أنشأه الخديو ليسهل مرور الإمبراطورة عليه عندما تقطع الضفة الأخرى من النهر وصولًا لقصر الجزيرة، ولكن تأخر العمل به لوقتنا هذا.

فكرت في أن أذهب لأشاهد تلك التحفة المعمارية، للوهلة الأولى، وأنا أخطو عليه خفق قلبي بقوة؛ إنه تمامًا كجسر ميرابو [63] في باريس، طريقة ربطه ما بين ضفتين والحديد المشغول، وذلك الشموخ الذي يستقبل به العابرين. أعادني ذلك الجسر لأيام بعيدة، للوراء عندما كنت أخرج بفرشاتي وأوراقي لأجلس لأرسم حيث يبدو نهر السين وكأنه نهر خرافي في إحدى أساطير الحكايات، وقتها أجهشت عيني بالدموع واختلط عليَّ الزمن والوجوه.

أصبحت حقًّا لا أدري هل أنا هُنا بالقاهرة أم هُناك بباريس؟ وأيهما هو الذي يجري من تحتي؟ أيهما أخرجني من عتمتي ليضعني فوق جسر آخر، ليس للمرور ولا للمكوث, بل للذكريات التي احتشدت.

ها أنا أصبحت أستبدل حبًّا بآخر وجسرًا بآخر ومدينة بأخرى، كنت أقف فوق جسر الإسماعيلية وتحتي نهر النيل، ولم أكن أرى سوى جسر ميرابو ونهر السين، أشم رائحة هواء باريس ونسيمها لأدرك في النهاية أننا لا نرى ما تشاهده أعيننا، ولكن ما تشاهده ذاكرتنا.

أخذت أردد قصيدة (أبولينير) [64] تلك التي كنت حفظتها في زمن سابق. أخذت أرددها وأنا أبكي فإلى أي مدى جاءت الكلمات مطابقة لحزني وعلى قياس همي؟!

(تحت جسر ميرابو

يجري السين

وحبنا.... هل من اللزوم تذكيرك به؟

الفرحة عندما تأتي دومًا بعد الأسى

ليأت الليل وتدق الساعة
فالأيام تذهب وأنا في مكاني
يدي بين يديك فلنمكث وجهًا لوجه
بينما تحت جسر ميرابو ذراعانا تمر
عبر نظراتنا أزلية الموجة المنهكة
ليأت الليل وتدق الساعة
فالأيام تذهب وأنا في مكاني
الحب يذهب كهذا الماء الجاري
الحب يذهب
كم بطيئة هي الحياة وكم عنيف هو الأمل!
تمر الأيام وتمر الأسابيع
لا الزمن الذي مر ولا حبنا يعودان
تحت جسر ميرابو يجري نهر السين
ليأت الليل وتدق الساعة
فالأيام تذهب وأنا في مكاني..
نعم فالأيام تذهب وأنا في مكاني...

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

78

وقفت عند حافة السور الذهبي لأشاهد نهر النيل من تحتي يتهادى بدلال كمن يعرف حق نفسه، وأخذت يومًا بعد آخر عند زيارتي لهذا المكان أتساءل: لماذا أشعر أنني أصبحت في عالم آخر منفصل عن ذلك الذي على الحافة الأخرى من الحياة، حيث تسير بروتينها الاعتيادي؟ هل لأنني أقف وتحتي مباشرة أعماق من المياه الثقيلة لنهر يتدفق منذ آلاف السنين؟ نهر لا قرار له؟ تربصت بي ذلك اليوم اللوحة التي لم تكتمل، المنتصبة على خشبات الرسم، كنت قد بدأتها منذ عدة أشهر وأرجع لها بين الحين والآخر، تارة عندما تكف يدي عن الرجفة، وتارة كلما تملكني الغيظ والتحدي. لم أعد أبالي ألا تهتز الفرشاة تحت يدي، كل ما كنت أهتم به أن أنجز تلك اللوحة، إنها لوحة النهاية التي لم تكن لترسمها سوى يد القدر. كنت قد وضعت بها الرتوش الأولية سيدة لا يظهر منها سوى جانب من وجهها، تطلق شعرها من جدائله حرًّا طليقًا كما تعودت دائمًا. ترتدي فستانًا من الحرير الأسود، وحذاءً من نفس لون الفستان. الآن ها هي تقف فوق جسر من الحديد المشغول، أتراه أي جسر فيهما؟ لا يهم ما دام تحته المياه سارية بلا توقف.

الغريب أنني رغم رجفة يدي فإن الفرشاة كانت تركض على الورق، وكأنها ترسم ما يمليه عليها القدر وليس أنا. حتى أنني فوجئت بعدما انتهيت من اللوحة أن المرأة ترفع إحدى ساقيها، وتنحني للأمام، وتتأهب لتلقي بنفسها في النهر، أجلس لأتأملها وأتساءل ما الذي ألمَّ بها لتفعل ذلك هل خذلتها الحياة أم خذلها القدر؟

يونيو (1873):

إنه الحر القائظ في القاهرة واللا عمل واللا عودة، وليس هُناك سواه جسر مخرج لألمي وشجني، لحزني وهمي، لم أكن أبرح بيتي قبل بزوغ الفجر بقليل سوى للمرور في هذا الطريق، حتى أن الكونستابل [65] الذين يقومون بحراسة الجسر اعتادوا وقوفي هُناك يشاهدونِ في دهشة واستغراب سيدة غريبة الأطوار تقف لتتابع بزوغ شمس يوم جديد ثُم ترجع أدراجها، وأعتقد لولا أني فرنسية وأنيقة المظهر لما كانوا تركوني هكذا، رُبما كانوا قد اقتادوني إلى مركز البوليس بتهمة التسكع ليلًا. أصبح هُناك شيء ما يقود خطاي لذلك الجسر، شيء يركض بي يجعلني يومًا بعد آخر أقف فوقه لأتساءل ماذا لو ألقيت بنفسي في تلك المياه الثقيلة؟ وإلى أي تيار سوف تجرفني؟ ولماذا كلما وقفت هُنا تتردد على مسامعي باستمرار بصوت أمي وبصوت عمرو «سأنتظرك»؟

أغسطس (1873):

منعت نفسي طيلة الأيام الفائتة من الذهاب للجسر، كنت في كل مرة أشعر أن شيئًا يجذبني لأسفل، يجذبني لألقي بنفسي في المياه العميقة، تتربص بي اللوحة ويتربص بي القدر. أصبحت على حبي للجسور أخشاها، رُبما لشعوري وأنا فوقها أن قدري منحصر بين طرفين وطريقين واتجاهين.

تسلمت الكثير من الرسائل من ليون وكريس وفاطيما، ولم أشغل نفسي حتى بقراءتها، ترى أي أخبار هزيلة يريدون إخباري بها؟ لم تعد جوهرة تمر عليَّ، أو رُبما هي تفعل ولكني اعتدت عدم فتح الباب، لم أعد أريد رؤية أحد.

سبتمبر (1873):

مر عامان على فراق عمرو، أتذكر جيدًا في مثل هذا اليوم عندما ودعني وغادر بعدما طلب مني بتوسل «لأنتظره»، ثم عندما علم أن انتظاري له سيصبح بلا طائل جاءني ليخبرني أنه سوف «ينتظرني»، أحبه ولن أطيل عليه مرارة الانتظار، ما قيمة الحياة بدونه وبدون أهلي وبدون الرسم؟ أصبحت ثقيلة عليَّ الحياة، وعلى قدر وسعها لم يعد باستطاعتها احتمالي، ولأني أشعر بالخجل ولا أريد أن أثقل عليها، سوف أوصد الباب خلفي وأرحل، فما الحكمة في أن أعيش عمري معذبة؟ عمرًا أحسبه عمرًا على العمر؟ لماذا ليس بإمكاننا أن نرتشف العمر الباقي في رشفة واحدة، حتى وإن كانت مضاعفة الثمن المدفوع من العمر مقدمًا؟ ما أتعس أن نستيقظ لنواصل الحياة بجسد واهن وذاكرة محتشدة بالأحزان تطل منها عيون ووجوه من تركونا ورحلوا تستعجلنا الفناء.

أكتب كلماتي تلك وأنا أنظر إلى تلك السيدة في اللوحة التي قررت أن تضع حدًّا لأحزانها، هل تملك الجرأة أكثر مني باتخاذ قرار الرحيل، ذلك الذي سيأتي لا محالة؟ وماذا لو عجلنا به نحن؟ ماذا لو استجاب القدر وأدار سريعًا دفة الزمن للأمام ليطردني مثلما أعيش أرفضه؟

هل تراني رفضت أن أزيح تلك اللوحة من على حوامل الرسم وفضلت أن أبقيها هكذا لتستدرجني إلى حتفي، فلم أعد أملك المقاومة لذلك النداء الموجع للرحيل؟

فقط, لا أريد وقعًا صاخبًا لموتي، لا أريد أن يعثروا على جسدي المنفوخ، أو المشوه من قضمات السمك له، وقد ذوبت المياه بعضًا منه، لا أريد أن تنتشر صوري في الصفحات الأولى من الجرائد ليكتبوا تحتها: «لقد عثر على جثة لسيدة في منتصف العمر في عمق النيل، ويؤكد الحراس أنها تلك المرأة غريبة الأطوار التي كانت تتردد في عتمة الليل لتقف على سور الجسر» أريد موتًا خافت الوقع.

لا أريد أن يتعرف إليَّ أحد ويكتب: فنانة تشكيلية مشهورة ألقت بنفسها في جوف الماء، ولا أريد أن تحاك الإشاعات والأكاذيب حول طريقة موتي، وما إذا كنت ألقيت بنفسي حقًّا أم أن أحدهم قد دفع بي. فقط، كل ما أريده هو أن أرحل في هدوء، لذلك قررت الليلة أن أربط على خصري حجرًا ثقيلًا حتى يغوص بي وأرقد بسلام في عمق المياه، ولا يقوى حتى التيار أن يجرفني معه أينما شاء. حان الوقت ألا أذرع ذلك الجسر في الاتجاهين، عليَّ أخيرًا أن أختار عمقه ليكون نهاية لحزني، نعم «الحياة ليست دائمًا وردية».

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

79

القاهرة.. (1901):

جاء خبر الموت يحمله خط مرتجف وحروف مرتبكة، نزل على نوال كالصاعقة ليجعلها كالمذهولة وهي تصيح:

- يا ألله! أي نهاية مؤسفة تلك! وكيف جاء موتها مفاجئًا كقدرها ومبكيًا كأحلامها! وهل تلك الأحداث قد مرت حقًّا؟ أم أنه مجرد حلم طويل؟ وما الذي جاء بها إلى هُنا لتغرق في أحزانها وتلقى حتفها غرقًا؟ ولم يكتشفه أحد ليومنا هذا! هي التي ذهبت هكذا في مهمة عمل فإذا بها تضع نهاية لحياتها بين بلد وبلد وحب وآخر، مات الحلم وخلعت الحياة قناعها المزيف لتظهر على وجهها الحقيقي، ذلك الوجه الذي تملؤه الكثير من التجاعيد والثنايا المخيفة، وتمامًا كما كتبت في مذكراتها، القدر أدى دوره الأكبر في تلك التفاصيل الصغرى، ليوصلها للنهاية في قرار نهر عميق وجبة شهية لأسماكه، وهل كانت صائبة في قرارها أم أنها لم تعد حكيمة بالقدر الكافي وقتها؟

فغادرها صبرها مثلما كان من قبل قد غادرها حلمها؟ أم تراها أرادت نهاية درامية تشبه قدر الفنانين في جنونه وفي غرابته؟ هي التي أحكمت ربط حجر كبير على خصرها حتى لا يعثر أحد على جثمانها وتختفي مثلما جاءت. بدون وداع، بدون دموع، وحتى بدون أمتعة شخصية، وماذا عليَّ أن أفعل الآن بعدما وهبت لي في تلك الأوراق كل هذا الحزن وكل تلك الأحداث والحكايات؟ تلك الأوراق التي كنت أركض معها بحماس وأمل، فإذا بي يملؤني الحزن واليأس.

- آه سيدتي لو تدرين ماذا فعلت بي؟ أنا التي أخذت في البحث عنك وعندما فقدت الأمل ها أنا أجدك في رزمة أوراق قديمة مهترئة، وبحروف مرتعشة تخبرينني أنك على بعد خطوات مني، حيث فضلت يومًا أن ترقدي في أعماق نهر. أنا التي كنت أنزل لأتريض فوق ذلك الجسر يومًا بعد آخر.

لم يكن في حسباني أنك راقدة تحته، وكم من أقدام داسته ولم تع حتى إن امرأة كانت تملك كل هذا القدر من الجمال والبراعة أصبح هُنا عنوانها الأخير! ما أفظع تلك النهاية، وما أحزن جثتك! وقد نهشتها الأسماك وفتتها المياه!

أخيرًا صمتت نوال وأخذت في جمع مسودات وهوامش، وترتيب تلك الأوراق، كانت قد قررت أن تنسخ تلك الأوراق على الآلة الكاتبة التي تجيد استعمالها لتعيد الحياة لتلك المرأة مرة أخرى في كتاب. ستجعل لها نهاية تليق بها، باسمها كفنانة، وأحزانها ومشاعرها المرهفة كإنسانة. بدأت في البحث عن عنوان كريس من بين الرسائل التي كان قد بعثها لنتاليا في وقت سابق. كتبت له رسالة مطولة أخبرته فيها عن كل شيء، وعن تلك الكنوز الفنية التي تشغل الصندوق، وأخبرته بأمر الكتاب الذي شرعت في تنفيذه، وطلبت منه أن يحضر ليتسلم تلك الأشياء والأوراق فور انتهائها منه على وعد أن يقوم بنشر الكتاب، وانتظرت على أمل ألا يكون كريس انتقل للعالم الآخر أو بدل عنوانه، ولكن لماذا كريس بالذات هو الذي اختارته لذلك؟

لِم لم يقع اختيارها على مسيو ليون مثلًا وهو الرجل الذي أحبته نتاليا يومًا، والفنان الذي سيقدر قيمة تلك الأعمال الفنية؟

هل لأنه تخلى عنها يومًا فلم يقنعها منطقه في بعده عنها؟ فأي شعلة حب تلك التي خشي أن يطفئها الارتباط؟ كريس هو الذي أحبها من صميم قلبه وعاش العمر بطوله على قيد الوفاء لها.

لم يطل انتظار نوال أو يخمد الأمل، فها هو كريس يبعث بالرد في رسالة طويلة ومفصلة عن حبه وحزنه وألمه ...

(لقد اعترتني المخاوف عندما أخذت في مراسلتها، ولم تجبني على أي من رسائلي، وبعدها بعدة أشهر بعث مكتب البريد رزمة من الرسائل قدمها لي ساعي البريد وهو يخبرني بأن أحدًا لم يتسلمها، بعدها أخذت في مراسلة القنصلية مرات ومرات، ولكنها كانت كل مرة تخيب أملي قائلة: «لم نستطع الوصول إليها»، سألت أخاها جون إن كان قد تسلم منها أي رسائل فأجاب بالنفي، حتى إن رسائله إليها لم ترد عليها، وأخيرًا سلمت بأنها رُبما قد تزوجت من ذلك المصري الذي يتمتع بغيرته الشرقية فلم يشأ أن يراسلها أحد، بالرغم من عدم تصديقي ذلك المبرر الذي كنت أردده على نفسي حتى لا أقع في فخ الأسئلة والحيرة. كنت أعرف شخصية نتاليا جيدًا والحنين الذي يصيبها لوطنها. ويومًا بعد آخر مر على عدم مجيئها تيقنت أن مكروهًا قد أصابها. حزمت أمتعتي لأسافر لمصر أبحث عنها، ثُم سريعًا أفرغتها ثانية فكان من الجيد لي أن أحيا واهماً بأنها لا تزال على قيد الحياة، على أنني أصطدم بقسوة الحقيقة. سأنتظرك حتى تنتهي من نسخ الأوراق وسآتي لمصر، لن أذيع خبر وفاتها إلا بعدما أطلع على مذكراتها التي كتبتها بخط يدها، هذا الخط الذي أحفظه جيدًا، حظًّا سعيدًا).

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

80

كانت نوال تعمل على نسخ المذكرات ليلًا ونهارًا، حتى زوجها حسن لم يعد يلومها على شيء بعدما تأثر بذلك القدر الحزين لتلك المرأة التي شغلت تفكير زوجته للكثير من الوقت.

ذهبت نوال لتتفقد محتويات الصندوق مرة أخرى، خصوصًا تلك اللوحات الفنية التي قامت برسمها، وجدت نفسها تبحث عن لوحة واحدة، لوحة النهاية، أخرجتها من بين اللوحات، دققت النظر فيها، كانت هي نتاليا تمامًا كمثل الصورة التي تحتفظ بها في إحدى الجرائد الفرنسية الصادرة من القاهرة، والتي كانت تتوسط فيها البعثة الفنية الفرنسية، التقطت الصورة في أثناء حفل افتتاح حديقة الأزبكية، وكانت هُناك صورة أخرى لها وضعت في حلية ذهبية على شكل قلب، بها مشبك عند الضغط عليه تفتح الحلية عن صورتها، ها هي رسمت نفسها. صحيح أن السيدة في اللوحة لا يظهر منها سوى جانب من الوجه، إلا أنها هي نتاليا، غريب! لم تكشف في مذكراتها أن المرأة في اللوحة كانت هي!!! كل ما ذكرته أن الفرشاة كانت تركض بها على الورق، وكأن يدًا أخرى هي التي ترسم، وكانت هي يد القدر الذي رسم نهاية لحياتها، إنها خطة محبكة منه رسم لها الطريق، وجعلها تخطو إليه ليتملص من سوء سمعته معها، وكأنها هي التي ذهبت لنهايتها بمحض إرادتها حتى إنها لم تشأ أن تخلع اللوحة من الحامل، وجعلتها أمامها دائمًا حتى تتحرش بها وتقودها لنهاية المطاف.

انتهت نوال من نسخ الأوراق تمامًا كما خطتها نتاليا، لم تمسح حرفًا أو تضيف آخر. تمامًا كما هي بدون رتوش وبدون تزييف وبدون أن تضع بعضًا من الألوان على الجراح. بعثت رسالة لكريس لتخبره أن الأوراق قد انتهت ووصلتها منه رسالة يخبرها فيها بأنه سيصل لمصر خلال هذا الشهر. كان عليها إذن أن تعد الصندوق لغيابه الطويل، ذلك الصندوق الشاهد الوحيد على الحقيقة جلست لترتبه.

ها هي أشياؤها تمامًا كما وضعتها بيدها، هاتان اللوحتان اللتان رسمتهما لمشهد أول لقاء لها هي وعمرو عندما كانت تتجول في ممرات الحديقة وشوارعها، وفجأة خرج من بين الأشجار يمتطي صهوة جواده ويخبئ في جيبه فردة حذائها، في اللوحة الأولى رسمته وهو ينحني بعلياء يرفع إحدى ساقيها ويضع فيها حذاءها وتجلس هي أمامه كسندريلا مرتبكة متلعثمة وفرحة، بينما في اللوحة الأخرى هي تلك الفتاة الجميلة تجلس على ظهر جواد أسود رشيق في ممر طويل تظلله الأشجار وينير القمر سماء ليله، في حين يسير أمامها رجل وسيم بزيه العسكري يقود لجام قصة حبهما، كانت هاتان اللوحتان من أجمل ما رسمت نتاليا. وقفت نوال أمامهما مذهولة، فعلى بساطتهما إلا أنهما تدعوان للتأمل خلف اللوحة وبحروف فرنسية كتبت: «منذ تعلمت الرسم وفي كل ما رسمت من وجوه لم أرسم سواه».

قررت في نفسها الاحتفاظ بهما، ستخبر كريس أنها ستعلقهما على جدار قلبها، ومؤكد أنه لن يمانع. ابتسمت عندما فكرت في أن تلك اللوحات سيشاهدها الكثيرون

بعدما يقيم لها كريس معرضًا هناك، وستباع بأغلى الأسعار وستنسخ مئات المرات ليتكرر الاسم مرة بعد مرة وبعد أخرى.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

81

جاء كريس إذن، جاء متأخرًا ثمانية وعشرين عامًا تقريبًا، كان اللقاء في باحة فندق مينا هاوس حيث يقيم، ذهبت نوال وحسن للقائه، لم يشغل بهو الفندق سوى رجل وحيد وكانت مجموعات من الأصدقاء تشغل باقي مقاعده، لذلك كان سهلًا التخمين أنه هو، في العقد السادس من العمر، ويحتفظ بتلك الوسامة الفرنسية التي تشي بجاذبية رجولية كانت في زمن سابق، يمتلئ شعره بالمشيب، أنيق ورشيق، بعد أن تصافحوا جلسوا حول مائدة مستديرة، التقطوا بعض خيوط الحديث حول الطقس ورحلة السفر وإقامته في مصر، كانت تتأمله، وهي مبهورة وأخذت تحدث نفسها:

- إنها تلك الأوراق والأحداث التي كنت أقرؤها وأتصفحها كما يتصفح أحدهم رواية وإذا به يلتقي بأحد أبطالها. الذى يخرج من نافذة الصفحة ليطل على القارئ. أصبح الأمر مشوشًا لها، لبعض الوقت تتساءل:

- هل هذا حقًّا كريس الذي أحب نتاليا في زمن سابق؟ وهل هو الذي كان مفتاح القدر منذ البداية؟ فلولا أنه عرفها بالفنان الشهير الذي كان أحد زبائن المخبز الذي يعمل به لما جاءت هُنا يومًا.

وكأن الرجل قرأ أفكارها:

- إنه لأمر سيئ تلك النهاية التي كنت أتوقع أي شيء عداها، لم أعرف أن نتاليا قد تعرضت لمثل تلك الأحداث الصعبة، وإلا كنت جئت على الفور ولم أدعها وحيدة أبدًا. كنت وقتها سأحاول مساعدتها بمختلف الطرق، ولكنها لم تخبرني شيئًا.

كان لحديثه طعم مذاق مالح كالبكاء:

أصبح الحديث بينهما فقط، فحسن كان يجهل الفرنسية ولا يعلم منها سوى بضع كلمات.

- هي كانت قد كتبت لك إحدى الرسائل تخبرك أنها ستزف، بعدها قامت الحرب في فرنسا، وسافر عمرو وحصلت الصدمة الكبرى لها، أصابها مرض نفسي شديد أثَّر على أعصابها وأعصاب يدها بشكل خاص، وتعاظمت أحزانها في الوقت الذي كان يتطلب شفاؤها الهدوء والراحة وعدم الامتثال للحزن.

- آخر رسالة وصلتني منها كانت تريدني أن أصف لها الطريقة التي قتلت بها أمها وأخواتها، وعلى غرابة السؤال إلا أنني تحققت من الأمر وبعثت لها برسالة أخبرها بالأمر، كما سألتها إذا كان قد تم زفافها أم لا؟ ولكني لم أتلق ردًّا على تلك الرسالة، ولا على عدد لا حصر له من الرسائل التي أرسلتها لها بعدها.

- غالبًا آخر رسالة قد أرسلتها لها قد قرأتها، كنت تخبرها فيها أنك قد بدأت في إعادة بناء المقهى.

ضيق حدقة عينيه:

- يااااااه! كان هذا منذ زمن طويل!

- نعم رُبما كانت قد تسلمت منك رسائل بعدها كثيرة، ولكنها لم تحاول حتى فضها، وسوف تجدها في محتويات الصندوق مغلقة كما هي. هُناك عدد آخر من الرسائل من إحدى صديقاتها وفنان يدعى ليون.. ولكن أخبرني كيف حاله؟

- لقد رحل عن الحياة منذ ما يقارب الخمس عشرة سنة، وكان دائمًا يزورني في المقهى ليسألني عنها، أخبرته أنها تزوجت من مصري فلم يعد يسأل مجددًا، ولكن في آخر زيارة له أتذكر أن حالته الصحية كانت قد ساءت كثيرًا، وقد جاء وبصحبته لوحة سلمها لي، وطلب مني أن أسلمها بدوري لنتاليا في حال إن التقيت بها. كانت اللوحة لها وهي ترتدي البياض وسط حقل من الزهور. وأطلق على اللوحة اسم «فراشة الحقول»، ثُم أخبرني أن أسألها أن تختبر حدسها في هذه اللوحة لترى بأي شيء سينبئها، لم أفهم وقتها ماذا يعني، ولكني وعدته بذلك.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

82

راجعت تلك الكلمات من مذكرات نتاليا وتوقفت أمامها، عند تلك الصفحة من عمرها في آخر لقاء لها مع ليون عندما زارها صباحًا وشبهها بالفتاة ذات القرط من اللؤلؤ، لوحة فرمير الشهيرة، وقتها أخبرته أن جمال هذه اللوحة ليس فقط في إبداعه وإتقانه، ولكنها تلك المشاعر من الحب التي تتسرب إلى الفرشاة لتجعل اللوحة أجمل وأجمل، وبسهولة يمكنها اكتشاف تلك المشاعر الخاصة التي تربط ما بين الفنان والموديل بحدس خاص بها.

ماذا كان في نية ليون وقتها ليطلب منها اختبار حدسها؟ هل كان يريد أن يخبرها بأنه يحبها ولم يحب يومًا سواها، وأن وميض حبه لها ظل مشتعلًا حتى آخر يوم بعمره كما وعدها بذلك؟

أخرجها كريس من أفكارها قائلًا:

- الذي يعجز العقل عن استيعابه كيف استسلمت تالي لذلك الأمر وهي المرأة الجميلة التي تملأ الحياة بهجة وأملًا؟

- لقد أصابتها حالة من الحزن أفضت بها للاكتئاب، وبدوره أوصلها للانتحار.

- كان بإمكانها أن تشفى لو أرادت ذلك.

- هي رفضت الحياة وبالتالي الحياة رفضتها، وبإمكانك عند قراءة الأوراق أن تتأكد من ذلك.

أخرجت الملف وفتحت محبسه وأطلعته على الأوراق التي كتبتها بخط يدها، أطال النظر في ورقة ما فدمعت عيناه، لم تعرف تمامًا أي شيء من الذي خطته يداها صادفه ليفضي به للبكاء.

- هو تمامًا خطها، إنه يشبهها حتى في رقتها!

ثم سلمته المظروف الأبيض الكبير الذي جمعت فيه الأوراق بعد ترتيبها ومدته له.

- عدني أنك سوف تنشر سيرتها الذاتية. إنها حقًّا قصة حياة مختلفة لا تشبه مئات القصص، وما من كاتب مهما وصلت به درجة تخيله يستطيع أن يؤلفها بمثل هذه الحنكة والبراعة.

- لقد لعب القدر في حياتها دورًا كبيرًا، وانظري حتى بعد موتها فهو يواصل لعب ذلك الدور.

سألته بدهشة:

- كيف؟

- وهل كان بإمكاننا أن نلتقي أنا وأنت يومًا إذا لم يواصل القدر ممارسة دوره؟ هو الذي رتب لنا ذلك الموعد. أنت مثلاً ما الذي جاء بك إلى هُنا لتسكني بيتها وتكتشفي

الصندوق وتطلعي على سرها الذي يدهشك وتقرري أن تعيدي الحياة والضوء لأعمالها مرة أخرى؟

- معك حق، وهي التي طلبت أن تغادر في هدوء، لقد ربطت على خصرها حجرًا كبيرًا حتى لا تطفو جثتها على السطح، وحتى لا يبحث في موتها أحد.

- انظري، بعد كل تلك السنوات تكتشفين بالصدفة البحتة سر اختفائها.

- أتعلم أنا لا أعرف السر وراء ركضي خلف تلك المرأة، فمنذ سكنت بيتها وقد سكنني طيفها، أخذت أفكر فيها، في شكلها في طبعها، في تلك الأنامل الذهبية التي رسمت تلك اللوحات، لا تعلم ما عانيته حقًّا حتى توصلت لتلك الأوراق التي قادتني لسرها.

- كما قلت لك في حياتها ووفاتها كان هُناك قدر غريب.

لاحظت أن حسن وضحت عليه علامات الملل، خاصة أنه لم يستطع مشاركتهما الحديث لجهله باللغة الفرنسية، إلا أنها في الكثير من الأوقات، وحتى تزيل حرجه، كانت تترجم له بعض العبارات للعربية.

تناولوا القهوة وغادروا بعدما كتبت العنوان لكريس، وأخبرها أنه سيمر ليأخذ الصندوق وهو في طريقه للسفر إلى بلاده، كانت صامتة طوال الطريق واقعة تحت دهشة تلك الأحداث وذلك الرجل الذي أحبته نتاليا يومًا، والذي شغل جزءًا كبيرًا من مذكراتها، وعلى وسامته وجاذبيته، إلا أنها لم تستطع أن تبادله إحساسه أو تقع في غرامه.

زارها كريس بعد نحو خمسة أيام من لقائهم، اصطحبته للغرفة لتسلمه الصندوق وتفرجه على مجموعة اللوحات، اندهش كريس عندما شاهد أعمالها وصاح قائلًا:

- يا ألله! نتاليا، كم أنت بارعة حقًّا!!

- نعم، هي كانت بارعة، انظر كريس لهاتين اللوحتين، رسمتهما لتخليد لقاء أسطوري جمعها بحبيبها يومًا، سوف أحتفظ بهما لنفسي إن كان لا يضايقك هذا.

تأمل اللوحتين بنظرة بها شيء من الغيرة، واكتفى بهز رأسه وأكتافه قائلًا:

- هما لك.

الصندوق كما ترى يحمل أشياءها الخاصة جدًّا، هي جمعت كل شيء قبل رحيلها وأعدته للغياب الطويل، أما عن ملابسها فلا أعرف تحديدًا أين ذهبت، من الواضح أن مالك العقار عند تسلمه الشقة جمعها وتبرع بها.

_والغريب أن الصندوق بقي كما هو في مكانه، ولم يحاول أحد حتى فتحه والعبث بمحتوياته!

- الصندوق كان في تلك الغرفة مع اللوحات محكمة الغلق بالمفتاح.

سلمها المخطوطة الأصلية وطلب منها أن تحتفظ بها، بعدما عكف على قراءتها خلال الأيام الماضية، فقد أخبرها أن الأمر سيكون أكثر متعة عندما يقرؤها بخطها الأصلي.

وبحسرة قال:

- بإمكاننا ببساطة ملاحظة مدى تدهور حالة نتاليا من وقت لآخر من خلال خط يدها الذي أصبح صعب القراءة في فصوله الأخيرة من حياتها.

هزت رأسها بالإيجاب وبشيء من الحزن قائلة:

- نعم، هذا واضح جدًّا.

نقل العمال الصندوق القديم من الجلد المتشقق مربوطًا بحزامين علا الصدأ قفلهما بفعل الزمن. وضِعوا اللوحات في صندوق كرتوني كبير ونقلوها بحرص للعربة ومنها للقطار، ثُم على متن السفينة التي ستشق البحار في طريقها لفرنسا موطن تلك المرأة. ودعهما كريس بحرارة ووعدها أنه سيعمل جاهدًا حتى تخرج تلك الأحداث للنور.

بعد رحيل كريس شعرت ببعض الحزن والحنين، فقد كان من طرف تلك المرأة التي كانت مأخوذة بها تمامًا، كما يزورك أحد على صلة متينة بشخص عزيز عليك غادر الحياة. كانت تقف بالنافذة تراقب العربة التي تحمل الصندوق واختفت في الطرقات. بكت وقتها كما لم تبك من قبل. كان مشهد الصندوق وكأنه نعش لتلك المرأة ليس نعشًا يحمل جثمانها.

أغلقت النافذة وفكرت في نتاليا عندما وقفت هُنا في ذات المكان منذ ما يقارب الأعوام الثلاثين وقفت لتراقب خيال رجل يختفي في الظلام، ترى هل مستها وقتها تلك المشاعر بالانتزاع؟

جلست تحتسي فنجان قهوتها وتتنفس الصعداء بأنها أخيرًا قد تحررت من طيف تلك المرأة الذي لازمها منذ أن خطت أقدامها عتبات ذلك البيت، وراحت تركض يمنة ويسرة لتعرف ما سرها وتمكنت من أن تخلد اسمها كما خلدت هي من قبل تلك المشاهد لبلادها في لوحات كالوثائق.

مرت الأيام متشابهة، ومن السهل أن تتحرر، ولكن الأصعب منه أن تكون حرًّا، فمنذ مغادرة الصندوق وهي تعيش على قيد الذكرى، ذكرى لم تعشها يومًا كانت كلما مرت في الردهة يصطدم نظرها بهاتين اللوحتين المعلقتين، إحداهما مقابل الأخرى وتبتسم في حزن.

يومًا بعد آخر أصبحت تخشى أن ينكث كريس وعده معها ولا يهتم بنشر الكتاب أو تقديم اللوحات للمختصين.

في أحد الأيام الشتوية الدافئة، وبعد مرور ما يقارب تسعة أشهر على مغادرة كريس البلاد، طرق ساعي البريد الباب، وكان يحمل لها طردًا من البلاد البعيدة الباردة، بسرعة وقعت في الدفتر بالتسلم، وبلهفة أخذت منه الطرد، وبرعشة كانت تفك

أربطته. وأخيرًا كان الكتاب في يدها، ودون أن تدري طوقته بذراعيها كمولود كانت تنتظر قدومه على شوق، مولود لم يخرج سوى من رحم الماضي.

تأملت الغلاف، كان للوحة النهاية لامرأة تقف على سور جسر وتستعد لتلقي بنفسها منه لتستكين بعدها في عمق نهر، وبخط أنيق كتب «سيرة ذاتية للفنانة نتاليا جونسن (1840-1873)» بينما بخط عريض في ذيل الغلاف كان العنوان «الحياة ليست دائمًا وردية»، المقولة الفرنسية الشهيرة التي اختتمت بها مخطوطتها وتطابقت مع قدرها، ها هي في مقدمة صفحة حياتها، وما بين المقدمة والنهاية كان الكثير من الأحداث والأفراح والأحزان أيضًا.

(تمت بحمد الله)

القاهرة في2012/9/28

رشـــا عــدلي

نبذة عن الكاتبة

رشــا عدلــي مـحـمـد

- دبلومة عُليا في تاريخ الفن التشكيلي للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر - أكاديمية لايم للفنون الجميلة.

- دراسات حرة في تاريخ الفن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر - معهد ليوناردو دافنشي للفنون.

- إعداد دراسة عن تداخل فن النيو باروك في القاهرة الخديوية.

- لها الكثير من المقالات والأبحاث حول اللوحات ذات الإشكاليات التاريخية.

- عضو في رابطة مؤرخي الفن بإنجلترا.

- عضو في الشبكة الدولية للنساء الفلاسفة بمنظمة اليونسكو.

- صدر لها رواية «صخب الصمت» 2010 - كتاب القاهرة المدينة.. الذكريات 2012 عن دار نهضة مصر.

- تحت الطبع: رواية «الوشم»، ورواية «خدعة الزمن»

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

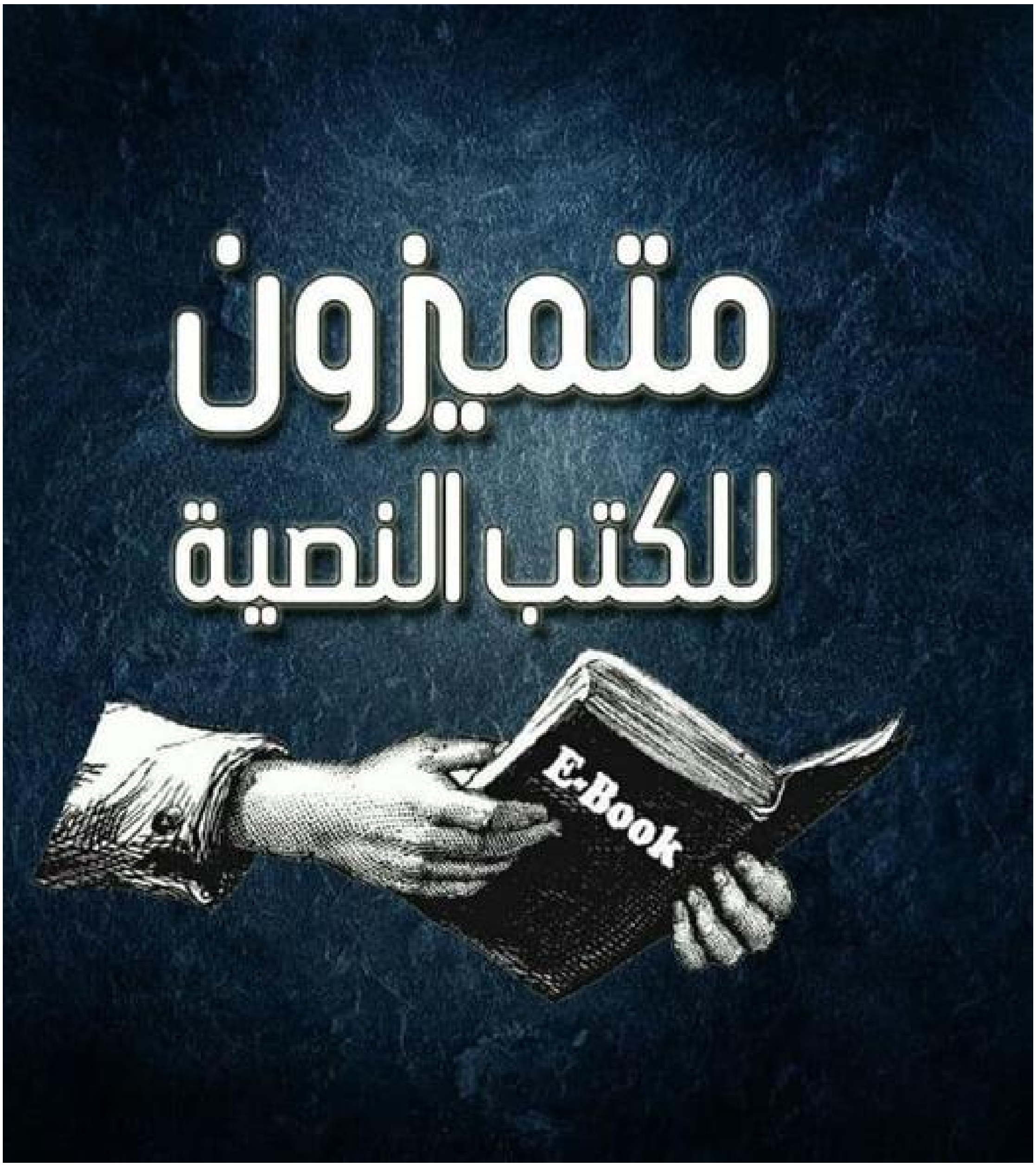
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس:

إهداء..

مقدمة..

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50

51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77

78
79
80
81
82
نبذة عن الكاتبة

الملاحظات

[←1]

(1) هو حيٌّ قديمٌ تسكنه الطبقة المتوسطة. ويمتاز بشوارعه الضيقة، المُنحدرة، المبلطة بالبازلت. وترجع شهرة هذا الحيِّ إلى أن كثيرًا من الفنانين والأدباء والشعراء قد قطنوا به؛ مثل (رنيوار)، (ديغا)، (فكتور هوجو)، (فان جوغ) وغيرهم.

[←2]

(2) تعني بالعربية (الطاحونة الحمراء) ، وهو ملهى ليلي يعود تاريخه لعام 1889. ويُعَد من أشهر الملاهي الليلية في العالم؛ بسبب رقصة (الكان كان)، التي برعت فيها راقصاته. وله الكثير من اللوحات الفنية.

[←3]

(3) هي أوجيني دي مونتيو كوتيسه (1826-1920). وهي إسبانيَّة الأصل. تلقت تعليمها في فرنسا، وكانت شديدة الذكاء، وبارعة الجمال، وزوجة للإمبراطور نابليون.

[←4]

(4) هي حديقة تقع غرب السين. وتمتاز بتنوع الأشجار والنباتات فيها، ومساحتها الواسعة.

[←5]

(5) بُني في القرن السادس عشر على أنقاض قلعة قديمة بُنيت فى القرن الثاني عشر. وكان مقر الكثير من ملوك فرنسا حتى القرن السابع عشر؛ عندما نَقل لويس السابع عشر مقر الحكم إلى الفرساي، وتحول لمتحف يضُم أشهر وأكثر القطع الفنية في العالم. وكلمة لوفر في اللغة الفرنكوفية القديمة تعني (المكان الحصين).

[←6]

(6) هي مدرسة تقوم بتدريس الفنون الجميلة بمُختلف أنواعها. يعود تاريخها إلى عام 1648. وانضم لها على مدى سنوات طويلة الكثير من فناني فرنسا والعالم؛ فكانت بمثابة قِبلة الفن التشكيليِّ، ومدارسه المُختلفة. وأصبحت الآن الأكاديمية الفرنسية للفنون بالحي اللاتينيّ.

[←7]

(7) حانة قديمة، تَقعُ في مدينةِ باريس، تُقام فيها العُرُوض الراقصة، واستمدت تلك الحانة شهرتها في وقتٍ لاحقٍ من لوحة (إدوارد مانيه) [حانة الفولي بيرجير].

[8←]

(8) رواية شهيرة ل- (جوستاف فلوبير)، وتُعد مِن أروع الأعمال الأدبيَّة في التاريخ.

[←9]

(9) أو الحرب الألمانيَّة الفرنسيَّة؛ فهي نشبت بين فرنسا وبورسيا المدعومة من الاتحاد الألماني الشماليّ، بقيادة وليم الأول. كذلك أُطلق عليها الحرب السبعينيَّة لأنها بدأت عام 1870.

[←10]

(10) حديقة تقعُ في قلب باريس.

[←11]

(11) حديقة تقعُ في قلب باريس.

[←12]

(12) شركة هندسيَّة فرنسيَّة قامت بتصميمات وإنشاء كُوبري قصر النيل.

[←13]

(13) دبلوماسي فرنسيّ، وصاحب فِكرة مشروع حفر قناة السويس.

[←14]

(14) منضدة توضع بجوار الفراش.

[←15]

(15) فنان فرنسي، من أشهر فناني الانطباعيَّة في العالم، واستمد شهرته من لوحاته الجميلة.

[←16]

(16) قصر فرنسي، ومحل إقامة الإمبراطور نابليون الثالث، والإمبراطورة أوجيني.

[←17]

(17) لقب نبيل.

[←18]

(18) طراز أوروبي يمتاز بالفخامة في العمارة والرسم والزخرفة. وقد ظهر من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر حتى ظهور الروكوكو.

[←19]

(19) معنى كلمة روكوكو فى الفرنسيَّة (الصدف)، وهو فن يمتاز – كالصدفة - بخطوط غير مُستقيمة. ويمتاز بكثرة الزخرفة والحُلي، ويبعث على الإحساس بالثراء. وكانت من أشد المعجبات به الملكة ماري أنطوانيت. ومن أهم فنانيه (بواشيه)، و(أنطوان واتو). وازدهر في فرنسا وألمانيا، ثم اختفى من فرنسا بعد الثورة.

[←20]

(20) هو مُهندس مدنـيّ فرنسـيّ، من القرن التاسع عشر، يرجع له الفضل في تطوير باريس بعد الثورة الفرنسيَّة، فيما أُعد من أضخم وأجمل تجميل وضِع للمدينة فى تاريخها كله. وقد انبهر الخديو إسماعيل بجمال تخطيط المدينة، وطلب منه أن يُخطط مدينة القاهرة مثلها تمامًا، وبالفعل أرسل بعثة كان هو على رأسها ليُخطط القاهرة الخديوية [نسبة إلى الخديو إسماعيل].

[←21]

(21) بُنيت في القرن التاسع عشر، من تصميم المُهندس المعماري (شارل جيرو).

[←22]

(22) من أشهر فناني فرنسا، ومن رُوَّاد الحركة الانطباعية، أبدع في رسم راقصات الباليه.

[←23]

(23) لقب نبيل.

[←24]

(24) تعني بالعربية: حديثو الثراء.

[←25]

(25) من أشهر مطاعم العالم، وأغلاها.

[←26]

(26) مقهى قديم، وشهير يقع بالحي اللاتيني.

[←27]

(27) أديب وشاعر فرنسي، من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية. وأثر في العصر الفرنسي الذي عاش فيه. ومن أهم أعماله: (البؤساء). وله مقولة شهيرة: (أنا الذي ألبست الأدب الفرنسي القُبعة الحمراء)؛ [يقصد بها قُبعة الجمال].

[←28]

(28) جوزيف تيسو: فنان فرنسـيّ معروف بـ(فنان الأناقة والجمال).

[←29]

(29) جون فرانسوا شامبليون: العالم الفرنسي الذي فك رموز اللغة المصريَّة القديمة بعد العثور على حجر رشيد الذي اكتُشف أثناء الحملة الفرنسيَّة. عمل مديرًا للآثار المصريَّة، ثم أمينًا للمجموعة المصرية للآثار في متحف اللوفر.

[←30]

(30) جامعة باريسيَّة رفيعة المستوى، ومن أقدم وأرقى جامعات العالم. تأسست في القرون الوسطى بواسطة (روبير دي سوربون)، المُرشد الروحي للملك لويس التاسع، ملك فرنسا.

[←31]

(31) هو مؤسس مصر الحديثة، وحاكمها من بين عام (1805 - 1848).

[←32]

(32) هو نبات (أبو فرو)، أو الكستناء بعد صنعه كحلوى.

[←33]

(33) فنانان فرنسيان، ورائدا فن الركوكو.

[←34]

(34) ملكة فرنسا، وزوجة الملك لويس السادس عشر.

[←35]

(35) هي البعثة التي طلبها الخديو إسماعيل من البارون هوسمان لتجمل وتُخطط القاهرة، كما هي مدينة باريس.

[←36]

(36) هو أهم القصور الملكيَّة في فرنسا، وكان محل إقامة لويس السادس عشر، وماري أنطوانيت. وتم إجبارهما على مُغادرة القصر بعد قيام الثورة الفرنسيَّة.

[←37]

(37) فندق أُقيم في ميدان القناصل بالإسكندرية، وكان له شهرة خاصة ما بين الجاليات الأجنبية، وقد تم حرقه في حريق الإسكندرية.

[←38]

(38) تقع في جزيرة فاروس بغرب الإسكندريَّة وقد بناها السلطان (الأشرف أبو النصر قايتباي) سنة 882، وانتهى منها 884 هجريَّة.

[←39]

(39) هي السرايا التي أقامها الخديو إسماعيل لاستقبال ضيوف حفل قناة السويس. وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجيني. والمكان الآن (فندق ماريوت القاهرة مبنى عُمر الخيام) الذي لا تزال فيه لوحة الإمبراطورة أوجيني مُعلقة في بهوه بكبرياء.

[←40]

(40) أحد الفنانين المستشرقين، له الكثير من اللوحات عن الشرق.

[←41]

(41) كاتب فرنسي، اشتهر برواياته التاريخية عالية المغامرة، تُرجمت أعماله إلى مائة لغة تقريبًا، من أشهرها رواية الكونت دي مونت كريستو التي تحولت للفيلم المصري الشهير (أمير الانتقام)، لأنور وجدي.

[←42]

(42) مُصور فوتوغرافي، ونحات وفنان فرنسي شهير، ورائد مدرسة الاستشراق في مدرسة الفنون الجميلة، له الكثير من اللوحات عن الشرق.

[←43]

(43) تعني بالفرنسية (الفارس) من القرون الوسطى، والذي يمتاز بأخلاق الشهامة والرجولة.

[←44]

(44) أُسِّس في بولاق برعاية مارييت بيه (عالم الآثار وقتها).

[←45]

(45) هو مستشفى قصر العيني، الذي أسسه (كلوت بك) في عهد (محمد علي) باشا.

[←46]

(46) يُعتبر الخديو إسماعيل هو المُؤسس الحديث للحديقة التي أُنشئت قبله بكثير من السنوات، ولكنه أوكل للمهندس الفرنسيّ (باريل ديشان) تجديدها كغابة بولينا في فرنسا تمامًا. وقد أُقيمت على 18 فدانًا، وسورت بأسوار من حديد، وكانت تُقام فيها الاحتفالات الرسميَّة والشعبيَّة الكُبرى للأجانب والمصريين.

[←47]

(47) لوحة شهيرة للفنان الهولنديّ فريمير.

[←48]

(48) يوهانس فريمير: فنان هولندي، ولِد في القرن السابع عشر، في مدينة «دلفت» بهولندا. يُعتبر من أكبر فناني القرن السابع عشر في أوروبا.

[←49]

(49) فنان إيطالي من أشهر فناني عصر النهضة، وهو عالم وفنان ومعماري ونحات. له الكثير من الاكتشافات نتيجة بحثه العلمي، وخاصة في مجال علم التشريح، وعلم الحركة، وعلم البصريات المستمر. وقد ترك أثره على الحركة الفنية لسنوات طويلة بعد وفاته. من أهم لوحاته (العشاء الأخير، والموناليزا).

الموناليزا: أو الجيوكندا هي اللوحة الأشهر في العالم، رسمها ليوناردو دافنشي؛ وهي لزوجة صديق الفنان، تاجر من فلورنسا، تُسمى عائلته (بالجيوكندا)، وتُقدر قيمتها اليوم بأكثر من 780 مليون دولار، وتُعرض بمتحف اللوفر.

[←50]

(50) هي القصور التي أقامها الخديو إسماعيل، وكما هو معروف عنه، كان مُولعًا ببناء القصور. حتى تم في عهده بناء ما يزيد على 400 قصر. من أشهرها: قصر عابدين، وقصر الجزيرة، والقصر العالي.

[←51]

(51) نوع مخصوص من الخبز لهذه المناسبة.

[←52]

(52) المقصود به جهاز العروس.

[←53]

(53) السيدة التي تتولى الاهتمام بالأمور النسائيَّة في الحمام الشعبي.

[←54]

(54) فرقة عسكرية.

[←55]

(55) إمبراطور المكسيم، وأخو إمبراطور النمسا 1832-1867.

[←56]

(56) أو (البحر المُظلم)، كُلها أسماء المحيط الأطلسي في اللغة العربية، وجاء عنه في مُقدمة ابن خلدون: لما أنه تقل الأضواء من الأشعة المنعكسة على سطح الأرض من الشمس لبعده عن الأرض؛ فيكون مُظلمًا، ولفقدان الأضواء تقل الحرارة المحللة للأبخرة، فلا تزال السحب والغيوم مُتكاثفة على سطحه، مُنعقدة هناك، مُتراكمة. ويسميه الأعاجم (بحر أوقيانوس)، وآخرون يسمونه (بحر البلايا بتفخيم) اللام الثانية.

[←57]

(57) الحبهان.

[←58]

(58) الخليفة الأموي السابع.

[←59]

(59) تعني بالعربية: الهدية التذكارية.

[←60]

(60) الحبرة: هي غطاء من عادة النساء وقتها ارتداءه فوق ملابسهن ليغطيهن تمامًا، وكانت السيدات يرتدين حبرة سوداء، والفتيات يرتدين حبرة بيضاء.

[←61]

(61) هو كوبري قصر النيل قبل أن يُطلق عليه قصر النيل، وسُمي بذلك نسبة إلى بنائه في عهد الخديو إسماعيل.

[←62]

(62) ألفريد جاكمار: نحات فرنسي، أوكل له الخديو إسماعيل نحت السباع الأربعة لجسر قصر النيل، بالإضافة لنحته تمثال محمد بك لاظوغلي القائم للآن فى ميدان لاظوغلي، وطلب منه الخديو إسماعيل أن ينحت تمثالًا لجده محمد علي باشا بتكلفة 200 ألف فرنك. وبالفعل نحته هُناك في بلده فرنسا، وعرضه لمدة شهر في الشانزليزيه، وقد نحت تمثال محمد علي وهو يجلس بشموخ وكبرياء على ظهر جواده.

[←63]

(63) من أشهر الجسور الفرنسية التي تربط الضفة اليُمنى بالضفة اليُسرى من نهر السين. والجسر يُعتبر تحفة معمارية نظرًا للتماثيل التي تحمله، وتظهر بطول النهر. وقد أجزل الفنانون رسم اللوحات الفنية لهذا الجسر الرائع.

[←64]

(64) شاعر إيطالي عاش حياته في فرنسا، وتمتاز أعماله بالحزن.

[←65]

(65) هي فئة من رجال البوليس، تقع بين الضُّباط والمُجندين.